فتح البيان

في مقاصد القرآن

تفسير سلفي أثري خال من الإسرائيليات والجدليات المذهبية والكلامية
يغني عن جميع التفاسير ولا تغني جميعها عنه

تأليف

السيد الإمام العلامة الملك المؤيد من الله الباري

أبي الطيب "صديق بن حسن بن علي الحسيني القنوجي البخاري"

"١٢٤٨ - ١٣٠٧هـ"

عني بطبعه وقدم له وراجعه

خادم العلم

عبد الله بن ابراهيم الأنصاري

الجزء التاسع



المكتبة العصرية

صيدا - بيروت

١٤١٢هـ - ١٩٩٢م



شركة أبناء شريف الأنصاري للطباعة والنشر والتوزيع

المكتبة العصرية للطباعة والنشر

الدار النموذجية — المطبعة العصرية

بيروت - ص.ب ٨٣٥٥ - تلكس SCS ٢٠٤٣٧ LE

صيدا - ص.ب ٢٢١ - تلكس ٢٩١٩٨ LE



الجزء التاسع
بسم الله الرحمن الرحيم
ويشتمل على :
سورة الحج .
سورة المؤمنون .
سورة النور .
سورة الفرقان .
سورة الشعراء .



سورة الحج

(هي سبع أو ثمان وسبعون آية)

اختلف العلماء هل هي مكية أو مدنية ؟ قال ابن عباس : نزلت بالمدينة . وعن ابن الزبير ومجاهد مثله . وقال قتادة : الا أربع آيات .«وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي» ـ الى قوله ـ «عذاب يوم مقيم» فهن مكيات . وقال ابن عباس: سوى ثلاث ايات. وقيل: أربع ايات الى قوله «عذاب الحريق» وعن النقاش أنه عد ما نزل منها بالمدينة عشر ايات.

وقال الجمهور: ان السورة مختلطة منها مكي ومنها مدني. قال القرطبي: وهذا هو الصحيح لأن الايات تقتضي ذلك، لأن «يا أيها الناس» مكي، و «يا أيها الذين آمنوا» مدني.

قال الغزنوي : وهي من أعاجيب السور، نزلت ليلاً ونهاراً، سفراً وحضراً، مكياً ومدنياً، سلمياً وحربياً، ناسخاً ومنسوخاً، محكماً ومتشابهاً .

وقد ورد في فضلها ما أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي وغيرهم عن عقبة بن عامر قال . قلت يا رسول الله : أفضلت سورة الحج على سائر القرآن بسجدتين ؟ قال : نعم . فمن لم يسجدهما فلا يقرؤها »[1] .

قال الترمذي : هذا حديث حسن ليس اسناده بالقوي . وقد روي عن كثير من الصحابة أن فيها سجدتين . وبه يقول ابن المبارك والشافعي وأحمد واسحاق . وقال بعضهم : أن فيها سجدة واحدة . وهو قول سفيان الثوري . وروي هذا عن ابن عباس وابراهيم النخعي .

---

(١) الإمام أحمد ١٥١/٤ ـ الترمذي كتاب الجمعة باب ٥٤ .



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ﴿١﴾ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ﴿٢﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾

لما انجر الكلام في خاتمة السورة المتقدمة الى ذكر الإعادة وما قبلها وما بعدها بدأ سبحانه في هذه السورة بذكر القيامة وأهوالها حثاً على التقوى التي هي أنفع زاد فقال : ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم ﴾ أي احذروا عقابه بفعل ما أمركم به من الواجبات وترك ما نهاكم عنه من المحرمات ؛ ولفظ الناس يشمل جميع المكلفين من الموجودين ومن سيوجد على ما تقرر في موضعه ، وقد قدمنا طرفاً من ذلك في سورة البقرة .

﴿ إن زلزلة الساعة شيء عظيم ﴾ تعليل لما قبله من الأمر بالتقوى ، والزلزلة شدة الحركة والازعاج ، وأصلها من زل عن الموضع ، أي زال عنه وتحرك ، وزلزل الله قدمه أي حركها ، وتكرير الحرف يدل على تأكيد المعنى ، وهو من إضافة المصدر إلى فاعله ، ومفعوله محذوف تقديره الأرض، ويكون إسناد الزلزلة إلى الساعة على سبيل المجاز العقلي ، وهي على هذا الزلزلة التي هي إحدى أشراط الساعة التي تكون في الدنيا قبل يوم القيامة ، هذا قول الجمهور ، أو إلى الظرف لأنها تكون فيها ، كقوله : ﴿ بل مكر الليل والنهار ﴾ ، ووقتها يكون يوم القيامة .

وقيل إنها تكون في النصف من شهر رمضان ، ومن بعدها طلوع الشمس من مغربها . ولا حجة فيها للمعتزلة في تسمية المعدوم شيئاً ، فإن هذا

اسم لها حال وجودها . وقيل في التعبير عنها بالشيء : إيذان بأن العقول قاصرة عن إدراك كنهها .

وقد أخرج أحمد والترمذي وصححه والنسائي والحاكم وصححه وغيرهم ، عن عمران بن حصين قال : لما نزلت ﴿ يا أيها الناس ﴾ - إلى قوله - ﴿ عذاب شديد ﴾ ، أنزلت عليه هذه وهو في سفر فقال : أتدرون أي يوم ذلك ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم قال : ذلك يوم يقول الله لآدم : ابعث بعث النار ، قال : يا رب وما بعث النار ؟ قال : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين الى النار وواحداً الى الجنة ، فأنشأ المسلمون يبكون ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قاربوا وسددوا وأبشروا فإنها لم تكن نبوة قط الا كان بين يديها جاهلية ، فتؤخذ العدة من الجاهلية ، فإن تمت وإلا كملت من المنافقين . وما مثلكم والأمم الا كمثل الرقمة في ذراع الدابة أو كالشامة في جنب البعير » .

ثم قال : إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة ،فكبّروا . ثم قال: إني لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة فكبروا ، ثم قال إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة،فكبروا ، قال: ولا أدري ، قال الثلثين أم لا ؟[1] .

وأخرج الترمذي وصححه وابن جرير وابن المنذر عنه مرفوعاً نحوه ، وقال في آخره « اعملوا وأبشروا ، فوالذي نفس محمد بيده إنكم لمع خليقتين ما كانتا مع شيء الا كثرتاه، يأجوج ومأجوج ومن مات من بني آدم ومن بني إبليس، فسري عن القوم بعض الذي يجدون ، قال:اعملوا وأبشروا فوالذي نفس محمد بيده ما أنتم في الناس الا كالشامة في جنب البعير أو كالرقمة في ذراع الدابة »[2] .

---

(١) المستدرك كتاب الإيمان ١/ ٢٩ .

(٢) الترمذي تفسير سورة ٢٢/١ - ٢٢ - ٢ .

وفي الصحيحين وغيرهما عن أبي سعيد الخدري قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم : « فذكر نحوه وفي آخره فقال : من يأجوج ومأجوج ألف ومنكم واحد وهل أنتم في الأمم الا كالشعرة السوداء في الثور الأبيض أو كالشعرة البيضاء في الثور الأسود ؟»[١] .

﴿ يوم ترونها ﴾ أي وقت رؤيتكم للزلزلة ﴿ تذهل كل مرضعة عما أرضعت ﴾ أي تغفل كل ذات رضاع عن رضيعها ، قال قطرب: تذهل تشتغل ؛ وقيل تنسى ، وقيل :تلهو؛ وقيل:تسلو ،وهذه معانيها متقاربة .

قال المبرد ﴿ ما ﴾ هنا بمعنى المصدر ، أي تذهل عن الإرضاع، قال: وهذا يدل على أن هذه الزلزلة في الدنيا ، إذ ليس بعد القيامة حمل وارضاع ، الا أن يقال : إن من ماتت حاملاً فتضع حملها للهول ، ومن ماتت مرضعة بعثت كذلك ، ويقال هذا مثل ، كما يقال : ﴿ يوماً يجعل الولدان شيباً ﴾ ، وقيل يكون مع النفخة الأولى ، قال ويحتمل أن تكون الزلزلة عبارة عن أهوال يوم القيامة ؛ كما في قوله ﴿مسّتهم البأساء والضراء وزلزلوا ﴾ .

﴿ وتضع كل ذات حمل حملها ﴾ أي تلقي جنينها بغير تمام من شدة الهول ، كما أن المرضعة تترك ولدها بغير رضاع لذلك ﴿ وترى الناس سكارى ﴾ قرأ الجمهور بفتح التاء والراء خطاباً لكل واحد ؛ أي يراهم الرائي كأنهم سكارى ، وقرىء ترى بضم التاء مسنداً الى المخاطب من أرأيتك ، أي تظنهم سكارى ، قال الفراء : ولهذه وجه جيد في العربية .

﴿ وما هم بسكارى ﴾ حقيقة ، وقرىء سكرى بغير ألف ، وهما لغتان يجمع بهما سكران ، مثل كسلى وكسالى ، ولما نفى سبحانه عنهم السكر أوضح السبب الذي لأجله شابهوا السكارى فقال :

---

(١) مسلم ٢٢٢ ـ البخاري ١٥٨٤ .

﴿ ولكنّ عذاب الله شديد ﴾ فبسبب هذه الشدة والهول العظيم طاشت عقولهم واضطربت أفهامهم فصاروا كالسكارى ، بجامع سلب كمال التمييز وصحة الإدراك وروي أن هاتين الآيتين نزلتا في غزوة بني المصطلق ليلاً فقرأهما النبي (ﷺ) فلم ير أكثر باكياً من تلك الليلة . قاله أبو حيان في البحر ، ثم لما أراد سبحانه أن يحتج على منكري البعث قدم قبل ذلك مقدمة تشمل أهل الجدال كلهم فقال : ﴿ ومن الناس من يجادل في الله ﴾ أي في شأن الله وقدرته وصفاته ، والمعنى أنه يخاصم في ذلك فيزعم أنه غير قادر على البعث ﴿ بغير علم ﴾ يعلمه ولا حجة يدلي بها أو يؤول أو يمثل أو يعطل أو يشبه صفاته بصفات الخلق من دون حجة نيّرة أو يكابر في دين الله ويقول فيه ما لا خير فيه من الأباطيل وتقليد آراء الرجال ﴿ ويتبع ﴾ فيما يقوله ويتعاطاه ويحتج به ويجادل عنه .

﴿ كل شيطان مريد ﴾ أي متمرد على الله متجرد للفساد ، وهو العاتي ، سمي بذلك لخلوه عن كل خير .

وقال الزجّاج: المريد والمارد المرتفع الأملس ، والمراد إما إبليس وجنوده أو رؤساء الكفار الذين يدعون أشياعهم الى الكفر . قال المفسرون : نزلت في النضر بن الحارث؟ وكان كثير الجدال ، وكان ينكر أن الله يقدر على احياء الأموات ، وقيل نزلت في الوليد بن المغيرة وعتبة بن ربيعة .

﴿ كتب عليه ﴾ أي قضى على الشيطان ، قاله قتادة وعن مجاهد مثله ﴿ أنّه من تولاه ﴾ أي من اتخذه ولياً واتّبعه ﴿أنّه﴾ أي فشأن الشيطان أنه ﴿ يضله ﴾ عن طريق الحق والجنة ، وقد وصف الشيطان بوصفين ، الأول أنه مريد ، والثاني ما أفاده جملة : كتب عليه الخ .

﴿ ويهديه إلى عذاب السعير ﴾ أي يحمله على مباشرة ما يصير به في العذاب ، وفي الآية زجر عن اتباعه ، ثم ذكر سبحانه ما هو المقصود من الاحتجاج على الكفار بعد فراغه من تلك المقدمة فقال :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ﴿٥﴾

﴿ يا أيها الناس ان كنتم في ريب من البعث ﴾ قرأ الجمهور بسكون العين وقرىء بفتحها وهي لغة ، وشكّهم يحتمل أن يكون في وقوعه أو في مكانه . والمعنى إن كنتم في شك من الإعادة بعد الموت فانظروا في مبدأ خلقكم أي خلق أبيكم آدم ليزول عنكم الريب ويرتفع الشك وتدحض الشبهة الباطلة .

﴿ فإنا خلقناكم من تراب ﴾ في ضمن خلق أبيكم آدم وهذا أول تطور الإنسان في أطوار سبعة وهي التراب والنطفة والعلقة والمضغة والإخراج طفلاً وبلوغ الأشد والتوفي أو الرد الى أرذل العمر كما سيأتي تفصيل ذلك ﴿ ثم ﴾ خلقناكم ﴿ من نطفة ﴾ أي من مني سمي نطفة لقلته والنطفة القليل من الماء ، وقد يقع على الكثير منه والنطفة القطرة ، يقال نطف ينطف أي قطر، وليلة نطوف أي دائمة القطر ﴿ ثم من علقة ﴾ وهي الدم الجامد والعلق الدم العبيط أي الطري أو المتجمد وقيل الشديد الحمرة ، والمراد الدم الجامد المتكون من مني ﴿ ثم من مضغة ﴾ وهي القطعة من اللحم قدر ما يمضغ الماضغ يتكون من العلقة ﴿مخلّقة﴾ أي مستبينة الخلق ظاهرة التصوير ﴿ وغير مخلّقة﴾ أي لم يستبن خلقها ولا ظهر تصويرها .

قال ابن عباس : المخلّقة ما كان حيّاً تام الخلق وغير المخلقة ما كان

سقطاً ، وروي نحو هذا عن جماعة من التابعين ، وقال ابن الاعرابي : مخلّقة يريد قد بدا خلقه وغير مخلّقة لم تصوّر، قال : الأكثر ما أكمل خلقه بنفخ الروح فيه فهو المخلقة وهو الذي ولد لتمام ، وما سقط كان غير مخلقة أي غير حي بإكمال خلقته بالروح ، قال الفرّاء: مخلّقة تام الخلق وغير مخلقة السقط .

وأخرج البخاري ومسلم وأهل السنن وغيرهم ، عن ابن مسعود قال : حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق : إن احدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يرسل الله اليه الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات يكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد فوالذي لا إلّه غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها »[1] ، والأحاديث في هذا الباب كثيرة جداً .

﴿ لنبين لكم ﴾ أي خلقناكم على هذا النمط البديع ، لنبين لكم ، كمال قدرتنا بتصريفنا أطوار خلقكم لتستدلوا بها في ابتداء الخلق على إعادته ﴿ ونقر ﴾ مستأنف أي نثبت ﴿ في الأرحام ما نشاء ﴾ فلا يكون سقطاً ، ولم يقل من نشاء لأنه يرجع الى الحمل وهو جماد قبل أن ينفخ فيه الروح ، وقرىء ما نشاء بكسر النون ﴿ إلى أجل مسمى ﴾ وهو وقت الولادة ﴿ثمّ نخرجكم ﴾ من بطون أمهاتكم ﴿ طفلاً ﴾ أي أطفالاً وانما أفرده إرادة للجنس الشامل للواحد والمتعدد .

قال الزجاج : طفلاً في معنى أطفالاً ، ودل عليه ذكر الجماعة ، يعني في

---

(١) مسلم ٢٦٤٣ ـ البخاري ١٥١٤ .

﴿ نخرجكم ﴾ والعرب كثيراً ما تطلق اسم الواحد على الجماعة ، والمعنى نخرج كل واحد منكم نحو القوم يشبعهم رغيف أي كل واحد منهم .

وقال المبرّد: هو اسم يستعمل مصدراً كالرضا والعدل ، فيقع على الواحد ، والجمع قال الله تعالى : ﴿ أو الطفل الذين لم يظهروا ﴾ ؛ ثم قيل نصبه على التمييز ، قاله ابن جرير وفيه بعد ، والظاهر أنه على الحال والطفل يطلق على الولد الصغير من وقت انفصاله الى البلوغ ، وأما الطفل بالفتح فهو الناعم والمرأة طفلة .

﴿ ثم لتبلغوا أشدّكم﴾ كأنه قيل نخرجكم لتكبروا شيئاً فشيئاً ، ثم لتبلغوا إلى الأشد ، وقيل ان ثم زائدة ، والأشد هو كمال العقل ، وكمال القوة والتمييز ؛ قيل وهو ما بين الثلاثين الى الأربعين ، وهو في الأصل جمع شدة كأنعم جمع نعمة ، وقد تقدم الكلام على هذا مستوفى في الأنعام ﴿ ومنكم من يتوفى ﴾ أي يموت قبل بلوغ الأشد الكبر ، وقرىء مبنياً للفاعل أيضاً .

﴿ ومنكم من يرد إلى أرذل العمر ﴾ أي أخسّه وأدونه وهو الهرم والخرف وهو خمس وسبعون سنة قاله علي ، وقيل ثمانون سنة ، وقال قتادة : تسعون سنة حتى لا يعقل ، ولهذا قال سبحانه ﴿ لكيلا يعلم ﴾ أي يعقل ﴿ من بعد علم ﴾ أي بعد عقله الأول ﴿ شيئاً ﴾ من الأشياء أو شيئاً من العلم ، والمعنى أنه يصير من بعد أن كان ذا علم بالأشياء وفهم لها لا علم له ولا فهم كهيئته الأولى في أوان الطفولية من سخافة الرأي وقلة الفقه والعقل والفهم فينسى ما يعلمه ، وينكر ما يعرفه ، ومثله قوله تعالى : ﴿ لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين ﴾ وقوله : ﴿ ومن نعمّره ننكّسه في الخلق ﴾ قال عكرمة : من قرأ القرآن لم يصر بهذه الحالة أي فهذا الرد والنكس خاص بغير قارىء القرآن والعلماء ، وأما هؤلاء فلا يردّون في آخر عمرهم إلى الأرذل بل يزداد عقلهم كلما طال عمرهم .

﴿ وترى الأرض هامدة ﴾ هذه حجة أخرى على البعث فإنّه سبحانه احتج بإحياء الأرض بإنزال الماء على إحياء الأموات ، والهامدة اليابسة التي لا تنبت شيئاً ، قال ابن قتيبة : أي ميتة يابسة كالنار إذا طفئت ، وقيل دارسة ، والهمود السكون والخشوع والدروس ، وقيل هي التي ذهب عنها الندى ؛ وقيل هالكة ، ومعاني هذه الأقوال متقاربة .

﴿ فإذا أنزلنا عليها الماء ﴾ أي ماء المطر والأنهار والبحار والعيون والسواقي ﴿ اهتزت ﴾ أي تحركت في رأي العين ، والاهتزاز شدة الحركة ، يقال هززت الشيء فاهتز أي حركته فتحرك ، والمعنى تحركت بالنبات ؛ لأن النبات لا يخرج منها حتى يزيل بعضها من بعض إزالة حقيقية ، فسمّاه اهتزازاً مجازاً ، وقال المبرّد المعنى اهتز نباتها ، واهتزازه شدة حركته ، والاهتزاز في النبات أظهر منه في الأرض ﴿ وربت ﴾ أي ارتفعت ، وقيل انتفخت وزادت ، والمعنى واحد وأصله الزيادة ؛ يقال : ربا الشيء يربو ربواً إذا زاد ، ومنه الربا والربوة وربأت أي ارتفعت حتى صارت بمنزلة الرابية ، وهو الذي يحفظ القوم على مكان مشرف ، ويقال له راب ورابية وربيئة .

﴿ وأنبتت ﴾ أي أخرجت ﴿من كل زوج بهيج ﴾ أي من كل صنف حسن ولون مستحسن سارّ للناظرين اليه والبهجة الحسن ، قاله ابن عباس ، يعني الشيء المشرق الجميل و﴿من ﴾ زائدة ، والاسناد مجازي ، لان المنبت في الحقيقة هو الله تعالى .

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي ٱلْقُبُورِ ۝٧ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ۝٨ ثَانِيَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۝٩ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ۝١٠ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ۝١١﴾

﴿ ذلك ﴾ الصنع البديع حاصل ﴿ بـأن ﴾ أي بسبب أن ﴿ الله هو الحق ﴾ وحده في ذاته وصفاته وأفعاله المحقق والموجد لما سواه من الأشياء فهذه الآثار الخاصة من فروع القدرة العامة التامة ، والحق هو الموجود الذي لا يتغير ولا يزول ، وقيل ذو الحق على عباده ، وقيل الحق في أفعاله .

قال الزجاج : ذلك في موضع رفع ، أي الأمر ما وصفه لكم وبين بأن الله هو الحق ؛ والجملة مستأنفة ولما ذكر افتقار الموجودات اليه سبحانـه ، وتسخيرها على وفق إرادته واقتداره ، قال بعد ذلك هذه المقالات .

﴿ وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شيء ﴾ من الأشياء ﴿ قدير ﴾ والمعنى أنه المتفرد بهذه الأمور ، وأنها من شأنه لا يدعي غيره أنه يقدر على شيء منها فدل سبحانه بهذا على أنه الحق الحقيقي الغني المطلق ، وأن وجود كل موجود مستفاد منه ﴿ وأن الساعة آتية ﴾ أي في مستقبل الزمان ، قيل لا بد من إضمار فعل أي ولتعلموا أن الساعة آتية .

﴿ لا ريب فيها ﴾ ولا تردد ، ثم أخبر سبحانـه عن البعث فقال : ﴿ وأن الله يبعث من في القبور ﴾ فيجازيهم بأعمالهم ان خيراً فخير ، وان شراً

فشر ، وأن ذلك كائن لا محالة ، والحاصل أنّه تعالى ذكر اسباباً خمسة؛الثلاثة الأول مؤثرة ، والأخيران غير مؤثرين .

﴿ ومن الناس من يجادل في ﴾ شأن ﴿ الله ﴾ كقول من قال : إن الملائكة بنات الله والمسيح ابن الله وعزيراً ابن الله ، قيل نزلت في النضر بن الحرث وقيل في أبي جهل ، وقيل في رجل من بني عبد الدار ، قاله ابن عباس ، وقيل هي عامة لكل من يتصدى لإضلال الناس وإغوائهم وعلى كل حال فالاعتبار بما يدل عليه اللفظ وإن كان السبب خاصاً .

والمعنى ومن الناس فريق يجادل في الله فيدخل في ذلك كل مجادل في ذات الله أو صفاته أو شرائعه الواضحة ﴿ بغير علم ﴾ أي كائناً بغير علم ، قيل والمراد بالعلم هو العلم الضروري ﴿ولا هدى ﴾ وهو العلم النظري الاستدلالي ؛ لأن الدليل يهدي الى المعرفة، والأولى حمل العلم على العموم وحمل الهدى على معناه اللغوي وهو الارشاد .

﴿ ولا كتاب ﴾ أي وحي ﴿ منير ﴾ وهو القرآن ، والمعنى أنه يجادل من غير مقدمة ضرورية ولا نظرية ولا سمعية والعلم للإنسان من أحد هذه الوجوه الثلاثة والمنير : النير البيّن الحجة الواضح البرهان ، وهو إن دخل تحت قوله بغير علم فإفراده بالذكر كإفراد جبريل بالذكر بعد ذكر الملائكة وذلك لكونه الفرد الكامل الفائق على غيره من أفراد العلم ، وأما من حمل العلم على الضروري والهدى على الاستدلالي ، فقد حمل الكتاب هنا على الدليل السمعي فتكون الآية متضمنة لنفي الدليل العقلي ضرورياً كان أو استدلالياً، ومتضمنة لنفي الدليل النقلي بأقسامه وما ذكرناه أولى . قيل والمراد بهذا المجادل في هذه الآية هو المجادل في الآية الأولى أعني قوله : ﴿ ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد ﴾ وبذلك قال كثير من المفسرين والتكرير للمبالغة في الذم ، كما تقول لرجل تذمّه وتوبّخه: أنت فعلت هذا ! أنت

فعلت هذا ! ويجوز أن يكون التكرير لكونه وصفه في كل آية بزيادة ما وصفه به في الآية الأخرى ، وقيل الآية الأولى واردة في المقلَّدين اسم فاعل ، والثانية في المقلِّدين اسم مفعول ، ذكره الزمخشري وقال وهو أوفق وأظهر بالمقام انتهى .

ولا وجه لهذا كما أنه لا وجه لقول من قال إن الآية الأولى خاصة بإضلال المتبوعين لتابعيهم ، والثانية عامة في كل إضلال وجدال .

﴿ ثاني عطفه ﴾ حال أي لاوي عنقه ، قاله قتادة ، وعن ابن عباس والسدي وابن زيد وابن جريج أنه المعرض والعطف الجانب وعطفا الرجل جانباه من يمين وشمال ، وفي تفسيره وجهان :

الأول: أن المراد به من يلوي عنقه مرحاً وكبراً ذكر معناه الزجاج قال : وهذا يوصف به المتكبر ، قال ابن عباس : أي مستكبراً في نفسه ، وقال المبرّد: العطف من انثنى من العنق .

الوجه الثاني: أنّ المراد بقوله : ﴿ ثاني عطفه ﴾ الاعراض أي معرضاً عن الذكر كذا قال الفرّاء والمفضّل وغيرهما كقوله تعالى : ﴿ولىّ مستكبراً كأن لم يسمعها﴾ وقوله : ﴿ لووا رؤوسهم ﴾ وقوله: ﴿ أعرض ونأى بجانبه ﴾ وقيل المعنى مانع تعطفه إلى غيره .

﴿ ليضلّ عن سبيل الله ﴾ أي ليستمر أو ليزيد ضلاله ، وإن ضلاله كالغرض له لكونه مآله ، قرىء ليضل بفتح الياء وضمها والسبيل هنا الدين ، يعني أن غرضه هو الاضلال عن السبيل وإن لم يعترف بذلك ، وقيل هي لام العاقبة كأنه جعل ضلاله عائداً لجداله ﴿ له في الدنيا خزي ﴾ مستأنفة مبينة لما يحصل له بسبب جداله من العقوبة والخزي والذل ، وذلك بما يناله من العقوبة

في الدنيا ومن العذاب المعجل ، وسوء الذكر على ألسن الناس ، وقيل الخزي الدنيوي هو القتل كما وقع في يوم بدر .

﴿ ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق ﴾ أي عذاب النار المحرقة ، ثم يقال له ﴿ ذلك ﴾ أي ما تقدم من العذاب الدنيوي والأخروي ﴿ بما قدمت يداك ﴾ من الكفر والمعاصي والباء للسببية ، وعبر باليد عن جملة البدن لكون مباشرة المعاصي تكون بها في الغالب ، وفي غير هذه السورة ﴿ أيديكم ﴾ لأن هذه الآية نزلت في أبي جهل وحده وفي غيرها نزلت في جماعة تقدم ذكرهم .

﴿ وأن الله ليس بظلام ﴾ أي بذي ظلم ﴿ للعبيد ﴾ أي والأمر أنه سبحانه لا يعذب عباده بغير ذنب . وقد مر الكلام على هذه الآية في آخر آل عمران فلا نعيده ﴿ ومن الناس من يعبد الله على حرف ﴾ هذا بيان لشقاق أهل الشقاق . قال أكثر المفسرين الحرف الشك . وأصله من حرف الشيء أي طرفه . مثل حرف الجبل والحائط فإن القائم عليه غير مستقر . والذي يعبد الله على حرف قلق في دينه على غير ثبات وطمأنينة كالذي هو على حرف الجبل ونحوه يضطرب اضطراباً ويضعف قيامه . فقيل للشاك في دينه إنه يعبد الله على حرف . أي متزلزلاً لأنه على غير يقين من وعده ووعيده بخلاف المؤمن لانه يعبده على يقين وبصيرة فلم يكن على حرف . ففي الآية استعارة تمثيلية .

وقيل الحرف الشرط . والشرط هو قوله : ﴿ فإن أصابه خير ﴾ دنيوي من رخاء وصحة وعافية وسلامة وخصب وكثرة مال ﴿اطمأنّ به ﴾ أي ثبت على دينه واستمر على عبادته أو اطمأن قلبه بذلك الخير الذي أصابه وسكن اليه ﴿وإن أصابته فتنة ﴾ أي شيء يفتتن به من مكروه يصيبه في أهله وماله أو نفسه ومعيشته كالجدب والمرض وسائر المحن .

﴿ انقلب على وجهه ﴾ أي ارتد ورجع الى الوجه الذي كان عليه من

الكفر، ثم بين حاله بعد انقلابه على وجهه فقال : ﴿ خسر الدنيا والآخرة ﴾ أي ذهبا منه وفقدهما فلا حظّ له في الدنيا من الغنيمة والثناء الحسن وصون المال والدم ولا في الآخرة من الأجر وما أعده الله للصالحين من عباده وقرىء خاسر الدنيا على اسم الفاعل .

﴿ ذلك هو الخسران المبين ﴾ أي الواضح الظاهر الذي لا خسران مثله . فإنه اذا لم ينضم اليه الأخروي أو بالعكس لم يتمحض خسراناً فلم يظهر كونه كذلك ظهوراً تاماً ، فانحصر الخسران البين فيه على ما دل عليه الإتيان بضمير الفصل . قاله الكرخي .

أخرج البخاري وغيره عن ابن عباس في الآية قال : كان الرجل يقدم المدينة فإن ولدت امرأته غلاماً وأنتجت خيله قال هذا دين صالح . وإن لم تلد امرأته ولم تنتج خيله قال هذا دين سوء .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عنه بسند صحيح قال : كان ناس من الأعراب يأتون النبي صلى الله عليه وسلم يسلمون ، فإذا رجعوا إلى بلادهم فإن وجدوا عام غيث وعام خصب وعام ولاد حسن ، قالوا إن ديننا هذا لصالح فتمسكوا به ؛ وإن وجدوا عام جدب وعام ولاد سوء وعام قحط ، قالوا ما في ديننا هذا خير فأنزل الله هذه الآية .

وعن أبي سعيد قال : أسلم رجل من اليهود فذهب بصره وماله وولده . فتشاءم بالاسلام ، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : أقلني أقلني ، قال : « إن الاسلام لا يقال » ، فقال : لم أصب من ديني هذا خيراً ، ذهب بصري ومالي ومات ولدي ، فقال : « يا يهودي الاسلام يسبك الرجال كما تسبك النار خبث الحديد والذهب والفضة » ، فنزلت هذه الآية . أخرجه ابن مردويه .

يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦۚ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾

﴿ يدعو ﴾ أي يعبد هذا الذي انقلب على وجهه ورجع إلى الكفر ﴿ من دون الله ﴾ أي متجاوزاً عبادة الله إلى عبادة الأصنام ﴿ ما لا يضره ﴾ إن ترك عبادته وعصاه ﴿ وما لا ينفعه ﴾ إن عبده وأطاعه ؛ لكون ذلك المعبود جماداً لا يقدر على ضر ولا نفع ، والجمع بين نفي النفع والضر هنا ؛ وإثباتهما في قوله : ﴿ لمن ضره أقرب من نفعه ﴾ ، الآية ، كما سيأتي بأن معبوداتهم لا تضر ولا تنفع بأنفسها ولكن بسبب عبادتها ، فنسب الضرر اليها كما في قوله تعالى : ﴿ رب إنهنّ أضللن كثيراً من الناس ﴾ ؛ حيث أضاف الإضلال اليها من حيث إنها كانت سبب الضلال .

وقال الشهاب : دفع التنافي بأن النفي باعتبار ما في نفس الأمر والاثبات باعتبار زعمهم الباطل . انتهى .

﴿ ذلك ﴾ أي الدعاء المفهوم من يدعو ﴿ هو الضلال البعيد ﴾ عن الحق والرشد مستعار من ضلال من سلك غير الطريق فصار بضلاله بعيداً عنها . قال الفراء : البعيد الطويل .

﴿ يدعو ﴾ أي يقول هذا الكافر يوم القيامة. ﴿لمن ضرّه أكثر من نفعه ﴾ هذه الجملة مقررة لما قبلها من كون ذلك الدعاء ضلالاً بعيداً والاصنام لا نفع فيها بحال من الأحوال ، بل هي ضرر بحت لمن عبدها ، لأنه دخل النار

بسبب عبادتها ، وإيراد صيغة التفضيل مع عدم النفع بالمرة للمبالغة في تقبيح حال ذلك الداعي . أو ذلك من باب وأنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين ، واللام هي الموطئة للقسم و﴿ من ﴾ موصولة أو موصوفة ، وضره مبتدأ خبره أقرب ، والجملة صلة الموصول وجملة ﴿ لبئس المولى ولبئس العشير ﴾ جواب القسم .

والمعنى أنه يقول ذلك الكافر يوم القيامة ﴿ لبئس المولى ﴾ أنت ﴿ ولبئس العشير أنت ﴾ ، و﴿المولى ﴾ الناصر ، و﴿العشير﴾ الصاحب .

وقال الزجاج : أي ذلك هو الضلال البعيد يدعوه ، وعلى هذا قوله ؛ من ضره كلام مستأنف مبتدأ ، وخبره لبئس المولى ، قال : وهذا لأن اللام لليمين والتوكيد فجعلها أول الكلام .

وقال الزجاج والفراء : يجوز أن يكون ﴿ يدعو ﴾ مكررة على ما قبلها على جهة تكثير هذا الفعل الذي هو الدعاء ، أي يدعو ما لا يضره ولا ينفعه يدعو . وقال الفراء والكسائي والزجاج : معنى الكلام القسم ، والتقدير يدعو من لَضره أقرب من نفعه . وقال محمد بن يزيد : المعنى يدعو لمن ضره أقرب من نفعه إلَهاً ، قال النحاس : وأحسب هذا القول غلطاً منه .

وقال الفراء والقفال : اللام صلة ، والمعنى يدعو من ضرُّه أقرب من نفعه ، واللام في ﴿ لبئس المولى ولبئس العشير ﴾ على هذا موطئة للقسم .

﴿إنّ الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ لما فرغ سبحانه في ذكر حال المشركين ومن يعبد الله على حرف ذكر حال المؤمنين في الآخرة ، وأخبر أنه يدخلهم هذه الجنات المتصفة بهذه الصفة ، وهذا وعد لمن عبد الله بكل حال لا لمن عبده على حرف ، وقد تقدم الكلام في جري الأنهار من تحت الجنات ، وبينا أنه إن أريد بها الاشجار

المتكاثفة الساترة لما تحتها فجريان الأنهار من تحتها ظاهر ، وإن أريد بها الأرض فلا بد من تقدير مضاف أي من تحت أشجارها .

﴿ إن الله يفعل ما يريد ﴾ تعليل لما قبلها ، أي يفعل ما يريده من الأفعال لا يسئل عما يفعل ، فيثيب من يشاء ويعذب من يشاء ، ويكرم من يطيعه ، ويهين من يعصيه .

﴿ من كان يظن أن لن ينصره الله في الدنيا والآخرة ﴾ قال النحاس ، ومن أحسن ما قيل في هذه الآية إن المعنى من كان يظن أن لن ينصر الله محمداً « ﷺ » وأنه يتهيأ له أن يقطع النصر الذي أوتيه صلى الله عليه وسلم ﴿ فليمدد بسبب ﴾ أي فليطلب حيلة يصل بها ﴿ الى السماء ثم ليقطع ﴾ النصر ان تهيأ له ﴿ فلينظر هل يذهبن كيده ﴾ وحيلته ﴿ ما يغيظ ﴾ إياه من نصر النبي « ﷺ » وحمل ﴿ من ﴾ على الكفار يوافق كلام الجلال ، ومثله في العمادي .

وقال أبو السعود : المعنى أنه تعالى ناصر لرسوله في الدنيا والآخرة لا محالة من غير صارف يلويه ولا عاطف يثنيه ، فمن كان يغيظه ذلك من أعاديه وحساده ويظن أن لن يفعله تعالى بسبب مدافعته ببعض الأمور ومباشرة ما يرده من المكايد فليبالغ في استفراغ المجهود وليجاوز في الجدّ كل حد معهود ، فقصارى أثره وعاقبة أمره أن يختنق خنقاً مما يرى من ضلال مساعيه ، وعدم إنتاج مقدمات مبادية .

وقيل المعنى فليشدد حبلاً في سقف بيته ثم ليقطع ، أي ليمد الحبل حتى ينقطع فيموت مختنقاً ، والمعنى فليختنق غيظاً حتى يموت ، فإن الله ناصره صلى الله عليه وسلم ومظهره ولا ينفعه غيظه . وبه قال ابن عباس . وقيل المعنى من كان يظن أن الله لا يرزقه فليقتل نفسه ، فلينظر هل ينفعه ذلك أو يأتيه برزق ؟ .

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾ ﴾

﴿ وكذلك ﴾ أي مثل ذلك الانزال البديع من الآيات السابقة ﴿ أنزلناه ﴾ أي القرآن ﴿ آيات بينات ﴾ واضحات ظاهرة الدلالة على مدلولاتها ﴿ وأن الله يهدي من يريد ﴾ هدايته ابتداء أو زيادة فيها لمن كان مهدياً من قبل ، ويضل من يريد ضلالته معطوف على هاء (أنزلناه ﴾ فـ «إن » وصلتها في محل نصب ، ويصح أن تكون في موضع رفع خبر المبتدأ مضمر ؛ أي والأمر أن الله الخ .

﴿إنّ الذين آمنوا ﴾ بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم أو بما ذكر من الآيات البينات ﴿ والذين هادوا ﴾ هم اليهود المنتسبون الى ملة موسى ﴿والصابئين ﴾ هم قوم يعبدون النجوم ؛ وقيل هم من جنس النصارى وليس ذلك بصحيح بل هم فرقة معروفة لا ترجع إلى ملة من الملل المنتسبة إلى الأنبياء ﴿ والنصارى ﴾ هم المنتسبون إلى ملة عيسى ﴿ والمجوس ﴾ هم الذين يعبدون النار ويقولون إن للعالم أصلين النور والظلمة .

وقيل هم قوم يعبدون الشمس والقمر ، وقيل هم يستعملون النجاسات . وقيل هم قوم من النصارى اعتزلوهم ولبسوا المسوح ، وقيل إنهم أخذوا بعض دين اليهود وبعض دين النصارى .

﴿ والذين أشركوا ﴾ هم الذين يعبدون الأصنام ؛ وقد مضى تحقيق هذا في البقرة ، ولكنه سبحانه قدم هنالك النصارى على الصابئين وأخّرهم عنهم هنا ، فقيل وجه التقديم هنالك أنهم أهل كتاب دون الصابئين ، ووجه تقديمهم هنا أن زمنهم متقدم على زمن النصارى .

قال قتادة : الصابئون هم قوم يعبدون الملائكة ويصلّون للقبلة ويقرأون الزبور ، والمجوس عبدة الشمس والقمر والنيران ؛ والذين أشركوا عبدة الأوثان ﴿ إن الله يفصل ﴾ أي يقضي ﴿ بينهم يوم القيامة ﴾ فيُدخل المؤمنين منهم الجنة ، والكافرين منهم النار ، وقيل الفصل هو أن يُميِّز المُحق من المبطل بعلامة يعرف بها كل واحد منهما.

وقيل يفصل بينهم في الأحوال والأماكن جميعاً فلا يجازيهم جزاء واحداً بغير تفاوت ، ولا يجمعهم في موطن واحد قال قتادة : الأديان ستة ؛ فخمسة للشيطان وواحد للرحمن . وعن عكرمة قال : فصل قضاء بينهم فجعل الخمسة مشتركة وجعل هذه الأمة واحدة .

وعن ابن عباس قال : ﴿ والذين هادوا ﴾ اليهود والصابئون ليس لهم كتاب ، والمجوس أصحاب الأصنام ، والمشركون نصارى العرب ﴿إن الله ﴾ تعليل لما قبلها وكأن قائلاً قال : أهذا الفصل عن علم أو لا ؟ فقيل إن الله ﴿ على كل شيء ﴾ من أفعال خلقه وأقوالهم « شهيد » عالم علم مشاهدة لا يعزب عنه شيء منها ، ومن قضيته الاحاطة بتفاصيل ما صدر عن كل فرد من أفراد الفرق المذكورة ، والظاهر تعميم الكلام لعبدة الأوثان ولعباد الشمس والقمر والنجوم . قاله الكرخي .

﴿ ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض ﴾ الرؤية هنا هي القلبية لا البصرية ، وذلك لأن رؤية سجود هذه الأشياء لله إنما جاءنا من طريق العقل لأنا لا نراه بأبصارنا ، والخطاب لكل من يصلح له ، وهو من تتأتى منه الرؤية ، والمراد بالسجود هنا هو الانقياد الكامل لا سجود الطاعة

الخاصة بالعقلاء ، سواء جعلت كلمة ﴿ مَنْ ﴾ خاصة بالعقلاء أو عامة لهم ولغيرهم ، ولهذا عطف .

﴿ والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب ﴾ على ﴿ من ﴾ فإن ذلك يفيد أن السجود هو الانقياد لا الطاعة الخاصة بالعقلاء ، وإنّما أفرد هذه الأمور بالذكر مع كونها داخلة تحت ﴿ من ﴾ على تقدير جعلها عامة لكون قيام السجود بها مستبعداً في العادة . وقوله :

﴿ وكثير من الناس ﴾ مرتفع على الابتداء وخبره محذوف ، تقديره وكثير من الناس يستحق الثواب ، وإنما لم يرتفع بالعطف على ﴿ من ﴾ لأن سجود هؤلاء الكثير هو سجود الطاعة الخاصة بالعقلاء ، والمراد بالسجود المتقدم هو الانقياد فلو ارتفع بالعطف لكان في ذلك جمع بين معنيين مختلفين في لفظ واحد ، وأنت خبير بأنه لا ملجىء إلى هذا بعد حمل السجود على الانقياد ، ولا شك أنه يصح أن يراد من سجود كثير من الناس هو انقيادهم ، لا نفس السجود الخاص ، فارتفاعه بالعطف لا بأس به ، وإن أبى ذلك صاحب الكشاف ومتابعوه .

﴿ وكثير ﴾ مرتفع بالابتداء وخبره ﴿ حق عليه العذاب ﴾ قاله الكسائي والفراء وقيل معطوف على كثير ، الأول أي وكثير من الناس يسجد ؛ وكثير منهم يأبى ذلك . وقيل المعنى وكثير من الناس في الجنة ، وكثير حق عليه العذاب . هكذا حكاه ابن الانباري .

﴿ ومن يهن الله ﴾ أي من أهانه الله بأن جعله كافراً شقياً ﴿ فما له من مكرم ﴾ يكرمه فيصير سعيداً عزيزاً . وحكى الأخفش والكسائي والفراء أي من إكرام ؛ فهو على هذا مكرم بفتح الراء اسم مصدر .

﴿ إن الله يفعل ما يشاء ﴾ من الأشياء التي من جملتها ما تقدم ذكره من الشقاوة والسعادة والاكرام والاهانة ، وظاهر هذه الآية والتي قبلها ينقض على المعتزلة قولهم لأنهم يقولون : شاء أشياء ولم يفعل وهو يقول يفعل ما يشاء

۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾

وهذه السجدة من عزائم السجود ، فيسنّ للقارىء والمستمع أن يسجدا عند تلاوتها أو سماعها ﴿هذان خصمان﴾ أحدهما أنجس الفرق اليهود والنصارى والصابئون والمجوس والذين أشركوا ، والخصم الآخر المسلمون فهما فريقان يختصمان قاله الفراء وغيره ، وقيل المراد بالخصمين الجنة والنار ، قالت الجنة خلقني لرحمته ، وقالت النار: خلقني لعقوبته وهو ضعيف ، وقيل المراد بالخصمين هم الذين برزوا يوم بدر فمن المؤمنين حمزة وعلي وعبيدة ، ومن الكافرين عتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة ، وقد كان أبو ذر يقسم أن هذه الآية نزلت في هؤلاء المتبارزين كما ثبت عنه في الصحيحين وغيرهما ، وقال بمثل هذا جماعة من الصحابة والتابعين وهم أعرف من غيرهم بأسباب النزول .

وقد ثبت في صحيح البخاري وغيره أيضاً عن علي أنه قال : فينا نزلت هذه الآية ، وأنا أول من يجثو في الخصومة على ركبتيه بين يدي الله يوم القيامة : وقال سبحانه .

﴿ اختصموا ﴾ ولم يقل اختصما لأنهم جمع ، ولو قال اختصما لجاز ، قاله

الفراء ﴿ في ﴾ شأن ﴿ ربهم ﴾ أي في دينه أو في ذاته أو في صفاته أو في شريعته لعباده أو في جميع ذلك .

قال أبو حيان : الظاهر أن الاختصام هو في الآخرة ، بدليل التقسيم بالفاء الدالة على التعقيب في قوله : فالذين كفروا ، وإن قلنا هذا في الدنيا فالجواب أنه لما كان تحقيق مضمونه في ذلك اليوم صح جعل يوم القيامة ظرفاً له بهذا الاعتبار ثم فصّل سبحانه ما أجمله في قوله يفصل بينهم فقال :

﴿ فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار ﴾ أي قدرت لهم على قدر جثثهم لأن الثياب الجدد تقطع على مقدار بدن من يلبسها ، فالتقطيع مجاز عن التقدير بذكر المسبب وهو التقطيع وارادة السبب وهو التقدير والتخمين ، والظاهر أنه بعد ذلك جعل تقطيعها استعارة تمثيلية تهكمية شبه اعداد النار وإحاطتها بهم بتفصيل ثياب لهم وجمع الثياب لأن النار لتراكمها عليهم كالثياب الملبوس بعضها فوق بعض وهذا أبلغ من جعلها من مقابلة الجمع بالجمع .

قال الأزهري : المعنى سوّيت وجعلت لبوساً لهم ، وإنما شبهت النار بالثياب لأنها مشتملة عليهم كاشتمال الثياب وعبر بالماضي عن المستقبل تنبيهاً على تحقق وقوعه .

وقيل إن هذه الثياب من نحاس قد أذيب فصار كالنار وهي السرابيل المذكورة في آية أخرى ، قاله سعيد بن جبير ، وزاد ليس من الآنية شيء اذا حمي أشد حراً منه ، وقيل المعنى في الآية أحاطت النار بهم ، والحق اجراء النظم القرآني على ظاهره ولا نرتضي تأويله بما يخالف لفظه ومعناه ، وقرىء قُطِعَت بالتخفيف .

﴿يصبّ من فوق رؤوسهم الحميم ﴾ هو الماء الحار المغلي بنار جهنم انتهت حرارته ، والجملة مستأنفة ، قال النحاس : يذاب على رؤوسهم ﴿ يصهر به ﴾ أي يذاب بالحميم ﴿ ما في بطونهم ﴾ .

قال ابن عباس : تسيل أمعاؤهم ﴿ والجلود ﴾ قال ابن عباس : يتناثر

جلودهم ، وعن أبي هريرة أنه تلا هذه الآية فقال : سمعت رسول صلى الله عليه وسلم يقول : «إن الحميم ليصب على رؤوسهم فينفذ الجمجمة حتى يخلص الى جوفة فيسلت ما في جوفه حتى يمرق من قدميه وهو الصهر ، ثم يعاد كما كان » أخرجه الترمذي[1] والحاكم وصححاه وابن جرير وابن أبي حاتم وغيرهم .

وعن ابن عباس قال : يمشون وأمعاؤهم تتساقط وجلودهم ، وعنه قال : يسقون ماء اذا دخل في بطونهم أذابها والجلود مع البطون ، والصهر الإذابة والصهارة ما ذاب منه ، يقال صهرت الشيء فانصهر أي أذبته فذاب فهو صهير ، والمعنى أنه يذاب بذلك الحميم ما في بطونهم من الامعاء والاحشاء ويصهر به الجلود .

وقيل إنّ الجلود لا تذاب بل تحرق فيقدر فعل يناسب ذلك . ويقال وتحرق به الجلود ولا يخفى أنه لا ملجىء لهذا ، فإن الحميم اذا كان يذيب ما في البطون فإذابته للجلد الظاهر بالأولى .

﴿ ولهم ﴾ يجوز في الضمير وجهان أظهرهما أنه يعود على الذين كفروا وفي اللام حينئذ قولان :

أحدهما: أنها للاستحقاق .

والثاني: أنها بمعنى على ، كقوله . ولهم اللعنة وليس بشيء . الوجه الثاني : أن الضمير يعود على الزبانية أعوان جهنم ويدل عليه سياق الكلام وفيه بعد .

وقوله ﴿ مقامع ﴾ جمع مقمعة ومقمع ، يقال قمعته ضربته بالمقمعة وهي قطعة من حديد ، يقال : قمعه يقمعه من باب قطع اذا ضربه بشيء يزجره به ويذله والمقمعة المطرقة ، وقيل السوط وسميت المقامع مقامع لأنها تقمع

---

(١) المستدرك كتاب التفسير ٢/٣٨٧ .

المضروب أي تذلله ، قال ابن السكيت : يقال : أقمعت الرجل عني اقماعاً اذا طلع عليك فرددته عنك ، والمعنى لهم مقامع كائنة .

﴿ من حديد ﴾ يضربون بها ، أخرج أحمد وأبو يعلى والحاكم وصححه والبيهقي عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لو أن مقمعاً من حديد وضع في الأرض فاجتمع الثقلان ما أقلوه من الأرض ، ولو ضرب الجبل بمقمع من حديد لتفتت ثم عاد كما كان »[1] .

﴿ كلما أرادوا ﴾ الارادة هنا مجاز عن القرب ﴿ إن يخرجوا منها ﴾ أي من النار ﴿ من ﴾ أجل ﴿ غم ﴾ شديد من غموم النار يأخذ بأنفاسهم وهو بدل اشتمال من منها بإعادة الجار أو الأولى لابتداء الغاية ، والثانية بمعنى من أجل أي من أجل غم يلحقهم فخرجوا .

﴿ أعيدوا فيها ﴾ أي ردوا اليها بالضرب بالمقامع ، وهي الجرز من الحديد ؛ والمراد إعادتهم الى معظم النار لا أنهم ينفصلون عنها بالكلية ثم يعودون اليها ، عن سلمان قال : النار سوداء مظلمة لا يضيء لهبها ولا جمرها ، ثم قرأ . كلما أرادوا الآية ﴿ و ﴾ قيل لهم ﴿ ذوقوا عذاب الحريق ﴾ أي المحرق الغليظ المنتشر العظيم الاهلاك البالغ نهاية الإحراق وأصل الحريق الاسم من الاحتراق تحرق الشيء بالنار واحترق حرقة واحتراقاً ، والذوق مماسة يحصل معها ادراك الطعم ، وهو هنا توسع ، والمراد به ادراك الألم ، قال الزجاج : وهذا لأحد الخصمين ، وقال في الخصم الآخر وهم المؤمنون .

﴿إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ ثم بين بعض ما أعده لهم من النعيم بعد دخولهم الجنة فقال : ﴿يُحَلَّوْنَ فيها﴾ بالتشديد والبناء للمفعول ، وقرىء مخففاً أي يحليهم الله أو الملائكة بأمره ﴿من﴾ للتبعيض أي يحلون بعض ﴿ أساور ﴾ للبيان أو زائدة ، وهي جمع أسورة ، والأسورة جمع سوار ، وفيه لغتان كسر السين وضمها ، وفيه لغة ثالثة وهي أسوار .

---

(١) المستدرك ، كتاب الأهوال ٤/٦٠٨ .

﴿ من ذهب ﴾ من للبيان ﴿ ولؤلؤاً ﴾ بالنصب أي ويحلون لؤلؤاً وهو ما يستخرج من البحر من جوف الصدف ، قال القشيري : والمراد ترصيع السوار باللؤلؤ ، ولا يبعد أن يكون في الجنة سوار من لؤلؤ مصمت كما أن فيها أساور من ذهب ، قال القرطبي : يسور المؤمن في الجنة بثلاثة أسورة سوار من ذهب وسوار من فضة وسوار من لؤلؤ .

﴿ ولباسهم ﴾ أي جميع ما يلبسونه ﴿ فيها حرير ﴾ كما تفيده هذه الاضافة ، ويجوز أن يراد أن هذا النوع من الملبوس الذي كان محرماً عليهم في الدنيا حلال لهم في الآخرة ، وأنه من جملة ما يلبسونه فيها ، ففيها ما تشتهيه الأنفس ؛ وكل واحد منهم يعطى ما تشتهيه نفسه ، وينال ما يريده .

وفي الصحيحين وغيرهما عن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة »[1] وفي الباب أحاديث. وغيّر الأسلوب حيث لم يقل : ويلبسون فيها حريراً ، للمحافظة على الفواصل ، وللدلالة على أن الحرير ثيابهم المعتادة في الجنة ، فإن العدول إلى الجملة الاسمية يدل على الدوام .

﴿ وهُدوا ﴾ أي : أرشدوا ﴿ إلى الطيب من القول ﴾ قيل هو لا إله إلا الله ، وقيل الحمد لله ، وقيل القرآن ؛ وقيل هو ما يأتيهم من الله سبحانه من البشارات وقد ورد في القرآن ما يدل على هذا القول المجمل هنا ، وهو قوله سبحانه : ﴿ الحمد لله الذي صدقنا وعده ﴾ الحمد لله الذي هدانا لهذا ، الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن ، وقل ابن عباس : هدوا أُلهموا ، وعن أبي العالية قال : في الخصومة اذا قالوا : الله مولانا ولا مولى لكم ، وعن ابن زيد قال : لا إله إلا الله والله أكبر والحمد لله الذي صدقنا وعده .

﴿ و ﴾ معنى ﴿ هدوا الى صراط الحميد ﴾ أنهم أرشدوا الى الصراط المحمود ، وهو الطريق الموصلة الى الجنة أو صراط الله الذي هو دينه القويم وهو الاسلام قاله الضحاك .

---

(١) مسلم ٢٠٧٣ ـ البخاري ٢٢٧٩ .

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾

﴿ إن الذين كفروا ويصدون ﴾ أي يمنعون ﴿ عن سبيل الله ﴾ ودينه من أراد الدخول فيه ، وعطف المضارع على الماضي لأن المراد بالمضارع ما مضى من الصد ومثل هذا قوله : ﴿إنّ الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ، والمسجد الحرام ﴾ ؛ أو المراد بالصد هنا الاستمرار لا مجرد الاستقبال ؛ فصح عطفه بذلك على الماضي أي كفروا ، والحال أنهم يَصدون، وقيل الواو زائدة ، والمضارع خبر انَّ ، والأولى أن يقدر خبر إن بعد قوله الآتي ﴿ والباد ﴾ وذلك نحو خسروا أو هلكوا والمراد بالصد المنع .

﴿والمسجد الحرام ﴾ قيل:المراد به المسجد نفسه كما هو الظاهر من هذا النظم القرآني ؛ وقيل:الحرم كله ، لأن المشركين صدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه عنه يوم الحديبية ، وقيل المراد به مكة بدليل قوله :

﴿ الذي جعلناه للناس ﴾ على العموم يصلّون فيه ، ويطوفون به ﴿ سواء ﴾ مستويان ﴿ العاكف ﴾ المقيم ﴿ فيه ﴾ الملازم له ، ويدخل فيه الغريب إذا جاور وأقام به ولزم التعبد فيه ﴿ والباد ﴾ أي الواصل من البادية ، والمراد به الطارىء عليه المنتاب إليه من غير فرق بين كونه من أهل البادية أو من غيرهم ، وصف المسجد الحرام بذلك لزيادة التقريع والتوبيخ للصادين عنه ، وقيل جعلناه للناس قِبلة لصلاتهم ومنسكاً ومتعبداً للعاكف والبادي ، سواء في تعظيم حرمته وقضاء النسك به . واليه ذهب مجاهد والحسن وجماعة

من أهل العلم . ومعنى التسوية هو التسوية في تعظيم الكعبة وقضاء النسك فيه وفي فضل الصلاة فيه والطواف به. عن جبير بن مطعم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يا بني عبد مناف لا تمنعوا أحداً طاف بهذا البيت وصلى أية ساعة شاء من ليل أو نهار » أخرجه الترمذي وأبو داود والنسائي[1] .

قال القرطبي : وأجمع الناس على الاستواء في المسجد الحرام نفسه ، واختلفوا في مكة فذهب مجاهد ومالك إلى أن دور مكة ومنازلها يستوي فيها المقيم والطارىء وذهب عمر بن الخطاب وابن عباس وجماعة إلى أن للقادم أن ينزل حيث وجد ، وعلى رب المنزل أن يؤويه شاء أم أبى .

وذهب الجمهور إلى أن دور مكة ومنازلها ليست كالمسجد الحرام ولأهلها منع الطارىء من النزول فيها .

والحاصل أن الكلام في هذا راجع إلى أصلين : الأول ما في هذه الآية ، هل المراد بالمسجد الحرام نفسه أو جميع الحرم أو مكة على الخصوص . والثاني هل كان فتح مكة صلحاً أو عنوة ؟ وعلى فرض أن فتحها كان عنوة . وهل أقرها النبي صلى الله عليه وسلم في أيدي أهلها على الخصوص أو جعلها لمن نزل بها على العموم، وقد أوضح الشوكاني هذا في شرحه على المنتقي بما لا يحتاج الناظر فيه إلى زيادة . ثم قال فيه بعد ذكر حجج الفريقين .

ومن أوضح الأدلة على أنها فتحت عنوة قوله صلى الله عليه وسلم ، « وإنما أُحلَّت لي ساعة من نهار »[2] ، فإن هذا تصريح بأنها أحلت له في ذلك بسفك الدماء بها وأن حرمتها ذهبت فيه وعادت بعده ، ولو كانت مفتوحة صلحاً لما كان لذلك معنى ، وقد ذكر المقبلي في الاتحاف أدلة قوية على أن المراد به نفس المسجد . وعن ابن عباس : المسجد الحرام الحرم كله خلق الله فيه سواء . وعن سعيد بن جبير مثله . وأيضاً قال : هم في منازل مكة سواء

---

(١) النسائي كتاب الحج باب ٤٢ .

(٢) البخاري كتاب العلم باب ٣٧ . ٣٩ ـ ابو داوود كتاب المناسك باب ٨٩ .

فينبغي لأهل مكة أن يتوسعوا لهم حتى يقضوا مناسكهم . والبادي وأهل مكة سواء ـ يعني في المنزل والحرم . وعن ابن عمرو قال : من أخذ من أجور بيوت مكة إنما يأكل في بطنه ناراً .

وعن عمر بن الخطاب ان رجلاً قال له عند المروة : أقطعني مكاناً لي ولعقبي فأعرض عنه وقال : هو حرم الله ، سواء العاكف فيه والباد . وكان عمر يمنع أهل مكة أن يجعلوا لها أبواباً حتى ينزل الحاج في عرصات الدور .

وعن ابن عباس قال : قال رسول الله « ﷺ » في الآية :«سواء المقيم والذي يدخل » أخرجه الطبراني وغيره ، قال السيوطي : بإسناد صحيح .

وعن ابن عمر مرفوعاً قال : « مكة مباحة لا تؤجر بيوتها ولا تباع رباعها » أخرجه ابن مردويه .

وعن علقمة بن نضلة قال : « توفي رسول الله « ﷺ » وأبو بكر وعمر وما يدعى رباع مكة إلا السوائب ، من احتاج سكن ومن استغنى سكن . رواه ابن ماجة . وأخرج الدارقطني عن ابن عمر مرفوعاً « من أكل كراء بيوت مكة أكل ناراً ، وعلى هذا القول لا يجوز بيع دور مكة وإجارتها لأنها لو ملكت لم يستو العاكف فيها والبادي ، واليه ذهب أبو حنيفة وعلى القول الأول يجوز ذلك ، واليه ذهب الشافعي مستدلاً بقوله تعالى : ﴿ الذين أخرجوا من ديارهم ﴾ فنسب الديار اليهم نسبة ملك واشتراء .

وقال رسول الله « ﷺ » يوم الفتح : « من أغلق بابه فهو آمن ، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن »[1] والأول أقوى والله أعلم .

﴿ ومن يرد فيه بإلحاد بظلم ﴾ مفعول ﴿ يرد ﴾ محذوف لقصد التعميم ، أي من يرد فيه مراداً ، أي مراداً بعدول عن القصد والاعتدال . والالحاد في اللغة الميل ، إلا أنه سبحانه بين هنا أنه الميل بظلم . وقد اختلف في هذا

(١) مسلم ١٧٨٠ .

الظلم ماذا هو ، فقيل هو الشرك ، وقيل الشرك والقتل ، وقيل صيد حيواناته وقطع أشجاره . وقيل هو الحلف فيه بالأيمان الفاجرة .

وقيل المراد المعاصي فيه على العموم حتى شتم الخادم ، وقيل هو دخول الحرم بغير احرام أو ارتكاب شيء من محظورات الحرم ؛ وقيل احتكار الطعام ، لما روى يعلى بن أمية أن رسول الله « ﷺ » قال : «إن احتكار الطعام في الحرم إلحاد فيه » أخرجه أبو داود[1] .

وعن ابن عمر «بيع الطعام بمكة الحاد » وعنه سمعت رسول الله «ﷺ » يقول : « احتكار الطعام بمكة إلحاد »[2] أخرجه البيهقي في الشعب ، والباء في بإلحاد قيل ليست بزائدة إنْ كان مفعول ﴿ يرد ﴾ محذوفاً كما ذكرنا . وقيل زائدة ، وبه قال الأخفش ، والمعنى عنده ومن يرد فيه إلحاداً بظلم ، وقال أهل الكوفة : المعنى بأن يلحد ، وقيل من يرد الناس بإلحاد ، وقيل إن يرد مضمناً معنى يهم ، والمعنى من يهم فيه بإلحاد ، والباء في بظلم للسببية وقيل غير ذلك .

﴿ نذقه من عذاب أليم ﴾ في الآخرة الا أن يتوب . قاله السدي ، قيل المراد بهذه الآية أنه يعاقب بمجرد الإرادة للمعصية في ذلك المكان ، وقد ذهب الى هذا ابن مسعود وابن عمر والضحاك وابن زيد وغيرهم حتى قالوا : لو همّ الرجل في الحرم بقتل رجل بعدن لعذبه الله .

وعن ابن مسعود رفعه قال : لو أن رجلاً همّ بإلحاد بظلم وهو بعدن أبين لأذاقه الله عذاباً أليماً . قال ابن كثير: هذا الاسناد صحيح على شرط البخاري وقفه أشبه من رفعه . وعنه قال : من همّ بخطيئة فلم يعملها في

---

(١) ابو داوود كتاب المناسك ٨٩ .

(٢) مشكاة المصابيح ٢٧٢٣ .

سوى البيت لم يكتب عليه حتى يعملها ، ومن هم بخطيئة في البيت لم يمته الله من الدنيا حتى يذيقه من عذاب أليم .

وعن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية في عبدالله بن أُنَيْس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثه مع رجلين أحدهما مهاجر والآخر من الأنصار ، فافتخروا في الأنساب ، فغضب ابن أنيس فقتل الأنصاري ثم ارتد عن الاسلام وهرب إلى مكة ، فنزلت فيه ﴿ ومن يرد فيه بإلحاد بظلم ﴾ ؛ يعني من لجأ الى الحرام بإلحاد بميل عن الاسلام .

والحاصل أن هذه الآية دلت على أن من كان في البيت الحرام مأخوذ بمجرد الارادة للظلم فهي مخصصة لما ورد من أن الله غفر لهذه الأمة ما حدثت به أنفسها الا أن يقال إن الارادة فيها زيادة على مجرد حديث النفس ، وبالجملة فالبحث عن هذا تقرير الحق فيه على وجه يجمع بين الأدلة ويرفع الاشكال يطول جداً ، ومثل هذه الآية حديث « اذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار » ، قيل: يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول ؟ قال : انه كان حريصاً على قتل صاحبه »[1] ، فدخل النار هنا بمجرد حرصه على قتل صاحبه ، وقد أفرد الشوكاني هذا البحث برسالة مستقلة .

﴿و﴾ اذكر ﴿ إذ بوأنا لإبراهيم ﴾ يقال بوأته منزلاً وبوأت له ، كما يقال مكنتك ومكنت لك ، قال الزجاج: معناه جعلنا ﴿ مكان البيت ﴾ مبوأ لإبراهيم ، وقيل معنى بوأنا بينا له ، وقيل وطأنا ، وقد رفع البيت الى السماء أيام الطوفان ، فأعلم الله ابراهيم مكانه بريح أرسلها فكنست مكان البيت فبناه على أسه القديم وجعل طوله في السماء سبعة أذرع بذراعهم ، وذرعه في الأرض ثلاثين ذراعاً بذراعهم ؛ وأدخل الحجر في البيت ولم يجعل له سقفاً ، وجعل له باباً وحفر له بئراً يلقى فيها ما يهدى للبيت وبناه قبله شيث وقبل شيث آدم وقبل آدم الملائكة وقد تقدم الكلام عليه في سورة البقرة .

---

(١) مسلم ٢٨٨٨ ـ البخاري ٢٩ .

﴿ أن لا تشرك بي شيئا ﴾ أي أوحينا إليه أن لا تعبد غيري ، قال المبرد : كأنه قيل له وحّدني في هذا البيت ، لأن معنى لا تشرك بي وحّدني . وقالت فرقة : الخطاب بقوله : ﴿ أن لا تشرك ﴾ لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وهذا ضعيف جداً .

﴿ وطهر بيتي ﴾ من الشرك والأقذار وعبادة الأوثان ، وفي الآية طعن على أن من أشرك من قطان البيت ، أي هذا كان الشرط على أبيكم فمن بعده ، وأنتم فلم تفوا بل أشركتم . والمعنى تطهيره من الكفر والأوثان والدماء والبدع وسائر النجاسات .

وقيل عنى به التطهير عن الأوثان فقط ، وذلك أن جرهماً والعمالقة كانت لهم أصنام في محل البيت وحوله قبل أن يبنيه إبراهيم ، وقيل المعنى نزهه أن يعبد فيه صنم ، وهذا أمر بإظهار التوحيد فيه . وقد مر في سورة براءة ما فيه كفاية في هذا المعنى .

﴿ للطائفين ﴾ الذين يطوفون بالبيت ﴿ والقائمين ﴾ هم المصلون ﴿ و ﴾ ذكر قوله : ﴿ الركع السجود ﴾ بعده لبيان أركان الصلاة دلالة على عظم شأن هذه العبادة ، وقرن الطواف بالصلاة لأنهما لا يشرعان إلا في البيت ، كالطواف عنده والصلاة اليه .

﴿وأذّن﴾ أي ناد ﴿ في الناس بالحج ﴾ أي بدعوته والأمر به ، وقرىء آذن بالمد والأذان الاعلام . وعن ابن عباس قال : لما فرغ إبراهيم من بناء البيت قال : قد فرغت ، قال : أذن في الناس بالحج ، قال : يا رب وما يبلغ صوتي ؟ قال : أذن وعليّ البلاغ ، قال : رب كيف أقول ؟ قال : « قل يا أيها الناس كتب عليكم الحج إلى البيت العتيق » فسمعه من في السماء والأرض ، ألا ترى أنهم يجيئون من أقصى الأرض يلبون ، وفي الباب آثار عن جماعة من

الصحابة ؛ وبه قال جماعة من المفسرين ، وزادوا : فعلا على المقام ، فأشرف به حتى صار كأعلى الجبال .

وقيل:علا على جبل أبي قبيس فلما صعده للنداء خفضت الجبال رؤوسها ورفعت له القرى فأدخل أصبعيه في أذنيه وأقبل بوجهه يميناً وشمالاً وشرقاً وغرباً ، ونادى في الناس بالحج قال : يا أيها الناس ان ربكم بنى بيتاً وكتب عليكم الحج اليه فأجيبوا ربكم ، فأجابه كل من كتب له أن يحج ممن كان في أصلاب الرجال وأرحام الأمهات ، لبيك اللهم لبيك . قال القسطلاني : فمن لبى مرة حج مرة ، ومن لبى مرتين حج مرتين ، ومن لبى أكثر حج بقدر تلبيته . انتهى ، قيل:أول من أجابه أهل اليمن فهم أكثر الناس حجاً .

وقيل إن الخطاب لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، والمعنى أعلمهم يا محمد بوجوب الحج عليهم ، وعلى هذا فالخطاب لابراهيم انتهى عند قوله : ﴿ والركع السجود ﴾ وقيل إن خطابه انتهى عند قوله ﴿ مكان البيت ﴾ ، وما بعده خطاب لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم أمره أن يقول ذلك في حجة الوداع .

عن أبي هريرة قال : خطبنا رسول الله « ﷺ » فقال : « يا أيها الناس قد فرض الله عليكم الحج فحجوا » أخرجه مسلم[1] ، قال في المدارك : والأول أظهر وقرأ الجمهور بالحج بفتح الحاء ، وابن إسحاق في كل القرآن بكسرها .

﴿ يأتوك رجالاً ﴾ هذا جواب الأمر وعده الله إجابة الناس له الى حج البيت ما بين راجل وراكب ، فمعنى رجالاً مشاة جمع راجل وقيل:جمع رجل ، وقرىء بضم الراء رُجالاً ، وقرىء على وزن كسالى ، وقدم الرجال على الركبان في الذكر لزيادة تعبهم في المشي ، قال الكرخي : إذ للراكب بكل خطوة سبعون حسنة وللراجل سبعمائة من حسنات الحرم ، كل حسنة مائة

---

(١) مسلم ١٣٣٧ ـ النسائي كتاب المناسك باب ١ .

ألف حسنة ، وابراهيم واسماعيل عليهما السلام حجا ماشيين ، انتهى .

أقول: المعتمد في الباب أن الركوب أفضل من المشي لأن رسول الله « ﷺ » حج راكباً كما في الروايات الصحيحة المشهورة ، وفضيلة الاتباع تربو على غيره ، وإن كان المشي فضيلة في نفسه سواء قدر على المشي أم لا قبل الاحرام وبعده ، والحديث الذي ذكره الكرخي تبعاً للغزالي ، والرافعي ضعيف على ما فيه ، قاله ابن علان في مثير شوق الانام الى بيت الله الحرام ، وممن ضعّفه ابن حجر المكي في شرح العباب وشرح المنهاج . والجواب عن التقديم أنه قد لا يفيد التفضيل قطعاً أو على الأصح ، وقد يتقدم المفضول ويتأخر الأفضل ، قال تعالى : ﴿ فمنكم كافر ومنكم مؤمن ﴾ وقال : ﴿ لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة ﴾ وقال : ﴿إن مع العسر يسراً ﴾ إلى غير ذلك من الآيات فليعلم ، وقال : ﴿ يأتوك ﴾ وان كانوا يأتون البيت لأن من أتى الكعبة حاجاً فقد أتى ابراهيم لأنّه أجاب نداءه .

﴿ وعلى كل ضامر ﴾ أي وركباناً على كل بعير ، والضامر : البعير المهزول ، الذي أتعبه السفر ، يقال ضمر يضمر ضموراً ؛ وضَمَر الفرس من باب دخل وضمُر أيضاً بالضم فهو ضامر فيهما ، وناقة ضامر وضامرة وتضمير الفرس أيضاً أن تعلفه حتى يسمن ، ثم ترده الى القوت وذلك في أربعين يوماً ، ووصف الضامر بقوله : ﴿ يأتين ﴾ باعتبار المعنى لأن ضامر في معنى ضوامر .

﴿ من كل فج عميق ﴾ الفج الطريق الواسع ، الجمع فجاج والعميق البعيد ، قال النسفي : قدم الرجال على الركبان إظهاراً لفضيلة المشاة انتهى ، وليس بشيء لأن الاستطاعة المفسرة بالزاد والراحلة في الحديث الصحيح شرط في فريضة الحج واستدل بذلك بعضهم على أنه لا يجب الحج على راكب البحر ، وهو استدلال ضعيف ، لأن مكة ليست على بحر ، وانما يتوصل اليها على احدى هاتين الحالتين بمشي أو ركوب ، فذكر تعالى ما يتوصل به اليها .

لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾

﴿ ليشهدوا ﴾ أي ليحضروا ﴿ منافع لهم ﴾ وهي تعمّ منافع الدنيا والآخرة وقيل المراد بها المناسك ، وقيل المغفرة ، وقيل التجارة كما في قوله : ﴿ ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم ﴾ .

قال ابن عباس : اسواقاً كانت لهم ما ذكر الله منافع الا الدنيا ، وعنه قال : منافع في الدنيا ومنافع في الآخرة ، فأما منافع الآخرة فرضوان الله ؛ وأما منافع الدنيا فما يصيبون من لحوم البدن في ذلك اليوم ، والذبائح والتجارات ، ونكر منافع لأنه أراد منافع مختصة بهذه العبادة دينية ودنيوية لا توجد في غيرها من العبادات ، وللنسفي في هذا المقام كلام حسن من باب الاعتبار تركنا ذكره روما للاختصار فمن شاء ادراكه فليرجع الى المدارك .

﴿ ويذكروا اسم الله ﴾ عند ذبح الهدايا والضحايا ، وقيل ان هذا الذكر كناية عن الذبح لأنه لا ينفك عنه تنبيهاً على أن المقصود مما يتقرب به إلى الله تعالى أن يذكر اسمه ﴿ في أيام معلومات ﴾ هي أيام النحر كما يفيد ذلك قوله الآتي ﴿ على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ﴾ وبه قال ابن عمر والصاحبان ، وقيل عشر ذي الحجة وهو قول أكثر المفسرين والشافعي وأبي حنيفة .

قال ابن عباس : الأيام المعلومات أيام العشر ، وعنه قال : يوم النحر وثلاثة أيام بعده ، وعنه قال : أيام التشريق ؛ وعنه قال : قيل يوم التروية

بيوم ، ويوم التروية، ويوم عرفة ، وقد تقدم الكلام في الأيـام المعلومات والمعدودات في البقرة فلا نعيده ؛ والكلام في وقت ذبح الأضحية معروف في كتب الفقه وشروح الحديث .

﴿ على ﴾ ذبح ﴿ ما رزقهم من بهيمة الأنعام ﴾ هي الأنعام فالإضافة في هذا كالاضافة في قولهم مسجد الجامع وصلاة الأولى والبهيمة مبهمة في كل ذات أربع في البر والبحر ، فبينت بالأنعام ، وهي الابل والبقر والضأن والمعز التي تنحر في يوم العيد وما بعده من الهدايا والضحايا ﴿فكلوا منها ﴾ أي من لحومها والأمـر هنا للنـدب عند الجمهـور ، وذهبت طائفـة الى أن الأمـر للوجوب ، وهذا التفات من الغيبة الى الخطاب .

﴿ وأطعموا البائس الفقير ﴾ البائس ذو البؤس ، وهو شدة الفقر فذكر الفقير بعده لمزيد من الايضاح ، وقال ابن عباس : البائس ، الزّمِن[1] الذي لا شيء له والأمر هنا للوجوب ؛ وقيل للندب .

﴿ ثم ﴾ أي بعد حلهم خروجهم من الاحرام وبعد الاتيان بما عليهم من النسك ﴿ ليقضوا تفثهم ﴾ المراد بالقضاء هنا هو التأدية أي ليؤدوا إزالة وسخهم لأن التفث هو الوسخ والدرن ، والشعث والقذارة من طول الشعر والأظفار ، وقد أجمع المفسرون كما حكاه النيسابوري على هذا .

قال الزجاج : إن أهل اللغة لا يعرفون التفث ، وقال أبو عبيدة : لم يأت في الشعر ما يحتج به في معنى التفث ، وقال المبرد : أصل التفث في اللغة كل قاذورة تلحق الانسان ، وقيل قضاؤه ادهانه لأن الحاج مغبر شعث لم يدهن ، ولم يستحد فإذا قضى نسكه وخرج من إحرامه حلق شعره ولبس ثيابه فهذا هو قضاء التفث قال الزجاج : كأنه خروج من الاحرام الى الاحلال .

وعن ابن عمر قال : التَفثُ المناسك كلها ، وعن ابن عباس نحوه ،

---

(١) الزّمن بزاي مشددة مفتوحة بعدها ميم مكسورة وهو ذو العاهة .

وعنه قال : التفث حلق الرأس والأخذ من العارضين ونتف الابط وحلق العانة والوقوف بعرفة ، والسعي بين الصفا والمروة ، ورمي الجمار ، وقص الأظفار ، وقص الشوارب والذبح .

﴿ وليوفوا ﴾ بالتخفيف والتشديد ﴿ نذورهم ﴾ أي ما ينذرون به من البر في حجهم ، والأمر للوجوب ، وقيل المراد بالنذر هنا أعمال الحج ، أو الهدايا والضحايا ﴿ وليطوفوا بالبيت العتيق ﴾ هذا الطواف هو طواف الافاضة الواجب ووقته يوم النحر بعد الرمي والحلق .

قال ابن جرير : لا خلاف في ذلك بين المتأولين والعتيق القديم كما يفيده قوله سبحانه : ﴿ إنّ أول بيت وضع للناس ﴾ الآية ، وقد سمي العتيق لأن الله أعتقه من أن يتسلط عليه جبار ، فكم من جبار سار اليه ليهدمه فمنعه الله منه ، وقيل لأن الله يعتق فيه رقاب المذنبين من العذاب .

وقيل لأنه أعتق من غرق الطوفان فإنه رفع في أيامه ، وقيل لأنه لم يملك قط وقيل العتيق الكريم ، وقد ورد في وجه تسمية البيت بالعتيق آثار عن جماعة من الصحابة ، وهو مطاف أهل الغبراء ، كما أن العرش مطاف أهل السماء ، فإن الطالب إذا هاجته معية الطرب ، وجذبته جواذب الطلب ، جعل يقطع مناكب الأرض مراحل ، ويتخذ مسالك المهالك منازل فإذا عاين البيت لم يزده التسلي به إلا اشتياقاً ، ولم يفده باستلام الحجر الا احتراقاً فيرده الأسف لهفان ويردده اللهف حوله في الدوران .

وورد في فضل الطواف أحاديث ليس هذا موضع ذكرها .

﴿ ذلك ﴾ أي الأمر ذلك ، وهذا وأمثاله يطلق ويذكر للفصل بين الكلامين أو بين طرفي كلام واحد كما يقدم الكاتب جملة من كلامه في بعض المعاني ، ثم إذا أراد الخوض في معنى آخر قال هذا ، وقد كان كذا ، قاله أبو حيان في البحر ، أو المعنى . افعلوا ذلك ، والمشار اليه هو ما سبق من اعمال الحج ﴿ ومن يعظم حرمات الله ﴾ جمع حرمة ، وهي ما لا يحل انتهاكه .

قال الزجاج : الحرمة ما وجب القيام به ، وحرم التفريط فيه وهي في هذه الآية ما نهى عنها ، ومنع من الوقوع فيها كالجدال والجماع والصيد ، والظاهر من الآية عموم كل حرمة في الحج وغيره ، كما يفيده اللفظ ، وان كان السبب خاصاً وتعظيمها ترك ملابستها .

قال مجاهد : الحرمة مكة والحج والعمرة وما نهى الله عنه من معاصيه كلها ، وقيل هي البيت الحرام ، والمشعر الحرام والمسجد الحرام والبلد الحرام ، والشهر الحرام ، وتعظيمها القيام بمراعاتها وحفظ حرمتها ، وقيل هي مناسك الحج ،وتعظيمها إقامتها وإتمامها .

﴿ فهو ﴾ أي فالتعظيم ﴿ خير له ﴾ من التهاون بشيء منها ﴿ عند ربه ﴾ يعني في الآخرة ، وقيل ان صيغة التفضيل هنا لا يراد بها معناها الحقيقي ، بل المراد أن ذلك التعظيم خير ينتفع به أي قربة وطاعة يثاب عليها عند الله فهو عدة بخير .

﴿وأحلت لكم الأنعام ﴾ أن تأكلوها بعد الذبح وهي الابل والبقر والغنم كما تقدم ﴿إلّا ما يتلى عليكم ﴾ تحريمه في الكتاب العزيز من المحرمات وهي الميتة وما ذكر معها في آية المائدة فالاستثناء منقطع لما ذكر في آية المائدة بما ليس من جنس الأنعام كالدم ولحم الخنزير ، ويجوز أن يكون متصلاً بأن يصرف إلى ما يحرم من بهيمة الأنعام بسبب عارض كالموت ونحوه ، وقيل وجه الانقطاع أنه ليس في الأنعام محرم ، قاله الشهاب والسمين ، وقيل في قوله : ﴿ إلا ما يتلى عليكم غير محلي الصيد وأنتم حرم ﴾ .

﴿ فاجتنبوا الرجس من الأوثان ﴾ الرجس : القذر والوسخ وعبادة الأوثان قذر معنوي والوثن التمثال وأصله من وثن الشيء أي أقام في مقامه وسمى الصليب وثناً لأنه ينصب ويركز في مقامه فلا يبرح عنه ، والمراد اجتناب عبادة الأوثان وسماها رجساً لأنها سبب الرجس ، وهو العذاب ، وقيل جعلها سبحانه رجساً حكماً والرجس النجس وليست النجاسة وصفاً ذاتياً لها ، ولكنها

وصف شرعي فلا تزول إلا بالإيمان كما أنها لا تزول النجاسة الحسية الا بالماء ، قال الزجاج : ﴿مِن﴾ هنا لتخليص جنس من أجناس أي فاجتنبوا الرجس الذي هو وثن .

وقال ابن عباس : يقول اجتنبوا طاعة الشيطان في عبادة الأوثان ﴿ واجتنبوا قول الزور ﴾ الذي هو الباطل وسمي زوراً لأنه مائل عن الحق ، ومنه قوله تعالى : ﴿ تزاور عن كهفهم ﴾ وقوله : ﴿ مدينة زوراء ﴾ أي مائلة ، والمراد هنا قول الزور على العموم فهو تعميم بعد تخصيص ، فإن عبادة الأوثان رأس الزور ، والمشرك زاعم أن الوثن تحق له العبادة فأعظمه الشرك بالله بأي لفظ كان .

وقال الزجاج : المراد هنا تحليلهم بعض الأنعام وتحريمهم بعضها ، وقولهم : هذا حلال وهذا حرام ، وقيل المراد به شهادة الزور ، وقال ابن عباس : يعني الافتراء على الله والتكذيب به وقيل هو قول المشركين في تلبيتهم لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك

أخرج أحمد والترمذي وابن المنذر وغيرهم عن أيمن بن حريم قال : قام رسول الله صلى الله عليه وسلم خطيباً فقال : « يا أيها الناس عدلت شهادة الزور شركاً بالله ثلاثاً ، ثم قرأ هذه الآية[1] ، قال أحمد : غريب ولا نعرف لأيمن بن حريم سماعاً من النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد ثبت في الصحيحن وغيرهما من حديث أبي بكرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ ثلاثاً ، قلنا بلى يا رسول الله ، قال الاشراك بالله ، وعقوق الوالدين وكان متكئاً فجلس فقال وقول الزور ألا وشهادة الزور ، فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت »[2] .

---

(١) الترمذي كتاب الشهادات باب ٣ .
(٢) مسلم ٨٧ ـ البخاري ١٢٩١ .

حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾

﴿ حنفاء لله ﴾ أي مستقيمين على الحق أو مائلين الى الحق مسلمين عادلين عن كل دين سوى دينه، ولفظ حنفاء من الاضداد يقع على الاستقامة ، ويقع على الميل ، وقيل معناه حجاجاً قاله ابن عباس .

وعن أبي بكر الصديق نحوه ولا وجه لهذا ﴿ غير مشركين به ﴾ شيئاً من الأشياء كما يفيده الحذف من العموم تأكيد لما قبله ، وهما حالان من الواو في اجتنبوا ، والأولى مؤسسة ، والثانية مؤكدة ، قيل ان أهل الجاهلية كانوا يحجون مشركين ، فلما أظهر الله الاسلام قال الله للمسلمين : حجوا الآن غير مشركين به .

﴿ ومن يشرك بالله ﴾ مبتدأة مؤكدة لما قبلها من الأمر بالاجتناب ، والغرض بهذا ضرب المثل لمن يشرك بالله ، والمعنى أن بعد من أشرك به عن الحق والايمان ﴿ فكأنما خر ﴾ أي كبعد من سقط ﴿ من السماء ﴾ إلى الأرض ، أي انحط من أوج الايمان إلى حضيض الكفر .

﴿ فتخطفه الطير ﴾ يقال خطفه يخطفه إذا سلبه ، ومنه قوله : ﴿ يخطف أبصارهم ﴾ أي تخطف لحمه وتسلبه وتقطعه بمخالبها وتذهب به ، وقرىء بتشديد الطاء وفتحها وبكسر الخاء والطاء وبكسر التاء مع كسرهما .

﴿ أو تهوي به الريح ﴾ أي تقذفه وترمي به ﴿ في مكان سحيق ﴾ يقال

سحق يسحق سحقاً فهو سحيق إذا بعد ، أي بعيد فلا يصل اليه أحد بحال ، قاله الزجاج وقيل شبه حال المشرك بحال الهاوي من السماء لأنه لا يملك لنفسه حيلة حتى يقع حيث تسقطه الريح ، فهو هالك لا محالة ، إما باستلاب الطير لحمه أو بسقوطه في المكان السحيق .

قال الزمخشري : يجوز في هذا التشبيه أن يكون من المركب والمفرق ، فإن كان تشبيهاً مركباً فكأنه قال : من أشرك بالله فقد أهلك نفسه إهلاكاً ليس بعده هلاك ، بأن صور حاله بصورة حال من خر من السماء فاختطفته الطير متفرقاً موزعاً في حواصلها ، وعصفت به الريح حتى هوت به في بعض الأماكن البعيدة وان كان مفرقاً ، فقد شبه الإيمان في علوه بالسماء ، والذي ترك الإيمان وأشرك بالله بالساقط من السماء والأهواء المردية بالطير المختطفة ، والشيطان الموقع في الضلال بالريح التي تهوي بما عصفت به في بعض المهاوي المتلفة .

﴿ ذلك ومن يعظم شعائر الله ﴾ جمع شعيرة أو شِعارة بالكسر بوزن قلادة وهي كل شيء فيه لله شعار ، ومنه شعار القوم في الحرب وهو علامتهم التي يتعارفون بها ، ومنه اشعار البُدُن وهو الطعن في جانبها الأيمن ، فشعائر الله أعلام دينه ، وتدخل فيها الهدايا في الحج دخولاً أولياً .

وعن ابن عباس في الآية قال : الشعار البدن والإستسمان والاستحسان والاستعظام وينبغي للانسان أن يترك المشاحة في ثمنها .

روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أهدى مائة بدنة فيها جمل لأبي جهل في أنفه برة من ذهب ، وأن عمر أهدى نجيبة طلبت منه بثلاثمائة دينار .

﴿ فإنها ﴾ الضمير يرجع إلى الشعائر بتقدير مضاف محذوف ، أي فإن تعظيم الشعائر ﴿ من تقوى القلوب ﴾ أي مبتدأ وناشيء من أفعال القلوب التي هي من التقوى ، وإنما ذكر القلوب لأنها مراكز التقوى ﴿ لكم فيها ﴾ أي في

الشعائر على العموم أو على الخصوص وهي البدن كما يدل عليه السياق واجبة أو مندوبة .

﴿ منافع ﴾ ومنها الركوب والدر والنسل والصوف والوبر وغير ذلك مما لا يضرها ﴿ الى أجل مسمى ﴾ وهو وقت نحرها ، وقيل إلى أن تسمى بدناً ، قاله ابن عباس، وعن مجاهد نحوه ، وقال : في ظهورها وألبانها وأوبارها وأشعارها وأصوافها منافع الى أن تسمى هدياً ، فإذا سميت هدياً ذهبت المنافع .

﴿ ثم محِلها ﴾ أي حيث يحل نحرها حين تسمى ﴿ الى البيت العتيق ﴾ المعنى أنها تنتهي الى البيت وما يليه من الحرم ، فمنافعهم الدنيوية المستفادة منها مستمرة الى وقت نحرها ، ثم تكون منافعها بعد ذلك دينية .

وقيل إن محلها ههنا مأخوذ من احلال الحرام ، والمعنى أن شعائر الحج كلها من الوقوف بعرفة ورمي الجمار والسعي ينتهي الى طواف الافاضة بالبيت ، فالبيت على هذا مراد بنفسه . قال عكرمة : اذا دخلت الحرم فقد بلغت محلها .

﴿ ولكل أمة ﴾ هي الجماعة المجتمعة على مذهب واحد ﴿ جعلنا منسكاً ﴾ مصدر من نسك ينسك اذا ذبح القربان ، والذبيحة نسيكة ، قال الأزهري : إن المراد بالمنسك في الآية موضع النحر ، ويقال منسِك بكسر السين وفتحها لغتان . قال الفراء المنسك في كلام العرب الموضع المعتاد في خير أو شر ، وقال ابن عرفة : منسكاً أي مذهباً من طاعة الله .

وروي عن الفراء أن المنسك العيد ، وبه قال ابن عباس وقيل هو الحج . وقال مجاهد في الآية: اهراق الدماء ، وعن عكرمة قال : ذبحاً ، وعن

زيد بن أسلم قال : مكة ، لم يجعل الله لأمة قط منسكاً غيرها ، والأول أولى لقوله :

﴿ ليذكروا اسم الله ﴾ والمعنى جعلنا لكل أهل دين من الأديان أو لجماعة مسلمة سلفت قبلكم ذبحاً يذبحونه ودماً يريقونه أو متعبداً أو طاعة أو عيداً أو حجاً يحجونه ليذكروا اسم الله وحده ويجعلوا نسكهم خاصاً به ﴿على﴾ ذبح ﴿ما رزقهم من بهيمة الانعام﴾ سماها بهيمة لأنها لا تتكلم، وقيد بالأنعام لأن القربان لا يكون الا من الانعام دون غيرها وان أجاز أكله ، وفي القاموس البهيمة كل ذات أربع قوائم ولو في الماء ، أو كل حي لا يميز ، والجمع بهائم ، والأبهم الاعجم ، واستبهم استعجم فلم يقدر على الكلام .

وفي الآية دليل على أن المقصود من الذبح المذكور هو ذكر اسمَ الله عليه ، وقد وردت أحاديث في الأضحية ليس هذا موضع ذكرها . ثم أخبرهم سبحانه بتفرده بالآلهية وأنه لا شريك له فقال :

﴿ فإلهكم إله واحد ﴾ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها ، ثم أمرهم بالاسلام والانقياد لطاعته وعبادته فقال : ﴿ فله أسلموا ﴾ أي انقادوا وأخلصوا وأطيعوا وتقديم الظرف على الفعل للقصر ، والفاء كالفاء التي قبلها .

﴿ وبشر المخبتين ﴾ من عباده ، أي المتواضعين الخاشعين المخلصين . وقال مجاهد : أي المطمئنين، وقال عمرو بن أوس: هم الذين لا يظلمون الناس ، واذا ظلموا لم ينتصروا ، وهو مأخوذ من الخبت وهو المنخفض من الأرض ، والمعنى بشّرهم يا محمد بما أعد الله لهم من جزيل ثوابه وجليل عطائه ، ولا يخفى حسن التعبير بالمخبتين هنا من حيث ان نزول الخبت مناسب للحجاج لما فيهم من صفات المتواضعين ، كالتجرد عن اللباس وكشف الرأس والغربة عن الأوطان ، ولذا وصف سبحانه هؤلاء المخبتين بقوله :

﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾﴾

﴿ الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم ﴾ أي خافت وحذرت مخالفته وحصول الوجل منهم عند الذكر له سبحانه دليل على كمال يقينهم وقوة ايمانهم ﴿ والصابرين على ما أصابهم ﴾ من البلايا والمصائب والمحن في طاعة الله ﴿ والمقيمي الصلاة ﴾ وصفهم بإقامة الصلاة ، أي الاتيان بها في أوقاتها على وجه الكمال لأن السفر مظنة التقصير فيها ، ثم وصفهم سبحانه بقوله :

﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾ أي يتصدقون به وينفقونه في وجوه البر ويضعونه في مواضع الخير ، والمراد صدقة التطوع ، ويعلم منه أنهم كانوا يتصدقون الصدقة الواجبة بالأولى .

﴿والبُدن﴾ قرىء بضم الباء وسكون الدال وبضمها وهما لغتان ، وهذا الاسم خاص عند الشافعي بالابل ، وسميت بدنة لأنها تبدن ، والبدانة السمن . وقال أبو حنيفة ومالك : إنه يطلق على الإبل والبقر ، والأول أولى لما سيأتي من الأوصاف التي هي ظاهرة في الابل ، ولما تفيده كتب اللغة من اختصاص هذا الاسم بالابل .

قال ابن لقيمة : فكلام الشافعية موافق لكلام الأزهري ، وكلام الحنفية موافق لكلام الصحاح . وقال ابن كثير في تفسيره : واختلفوا في صحة اطلاق

البَدَنَةْ على البقرة على قولين: أصحهما أنه يطلق عليها ذلك شرعاً[1] ، كما صح في الحديث قال ابن عمر : لا نعلم البدن إلا من الابل والبقر . وقال أيضاً : البدن ذات الجوف وعن مجاهد قال : ليس البدن الا من الابل وعن عطاء نحو ما قال ابن عمر ، وبه قال سعيد بن المسيب والحسن . وقيل لا تسمى الغنم بدنة لصغرها .

﴿ جعلناها لكم من شعائر الله ﴾ أي من أعلام الشريعة التي شرعها الله تعالى وإضافتها إلى اسمه تعظيم لها ، وقيل لأنها تشعر ، وهو أن تطعن بحديدة في سنامها فيعلم بذلك أنها هديٌ، وقد تقدم بيانه قريباً .

﴿ لكم فيها خير﴾ أي منافع دينية ودنيوية كما تقدم ، وهي جملة مستأنفة ، مقررة لما قبلها أو حالية . قاله السمين .

﴿ فاذكروا اسم الله عليها ﴾ أي على نحرها بأن تقولوا عند ذبحها: الله أكبر لا إله إلا الله ، والله أكبر ، اللهم منك وإليك ﴿ صواف ﴾ أي أنها قائمات قد صفت قوائمها لأنها تنحر قائمة معقولة وقرىء صوافي أي خوالص لله لا يشركون به في التسمية على نحرها أحداً وواحد صواف صافة وهي قراءة الجمهور ، وواحد صوافي صافية . وفي قراءة ابن مسعود صوافن بالنون جمع صافنة ، وهي التي قد رفعت إحدى يديها بالعقل لئلا تضطرب ، ومنه قوله تعالى : ﴿الصافنات الجياد﴾، وأصل هذا الوصف في الخيل ، يقال صفن الفرس فهو صافن إذا قام على ثلاث قوائم وثنى الرابعة .

قال ابن عباس في الآية : إذا أردت أن تنحر البدنة فأقمها على ثلاث قوائم معقولة ثم قل بسم والله أكبر .

وفي الصحيحين وغيرهما عنه أنه رأى رجلاً قد أناخ بدنته وهو ينحرها فقال ابعثها قياماً مقيدة سنة محمد صلى الله عليه وسلم ، وكون قيامها سنّة انما

---

(١) ابن كثير ٢٢١/٣ .

هو على سبيل الندب ، ويجوز نحرها وذبحها مضجعة على جنبها كالبقر .

﴿ فإذا وجبت جنوبها ﴾ الوجوب السقوط ، يقال وجبت الشمس أي سقطت ووجب الجدار سقط ، ومنه الواجب الشرعي كأنه سقط علينا ولزمنا ، أي فإذا سقط جنبها بعد نحرها على الأرض ، وذلك عند خروج روحها فهو كناية عن الموت ، وجمع الجنوب مع أن البعير اذا خر يسقط على أحد جنبيه ، لأن ذلك الجمع في مقابلة جمع البدن .

﴿ فكلوا منها ﴾ إن شئتم ، ذهب الجمهور الى أن هذا الأمر للندب ﴿ وأطعموا القانع والمعتر ﴾ هذا الأمر قيل هو للندب كالأول ، وبه قال مجاهد والنخعي وابن جرير وابن سريج .

وقال الشافعي وجماعة : هو للوجوب ، واختلف في القانع من هو؟ فقيل هو السائل ؛ يقال قنع الرجل بفتح النون يقنع بكسرها اذا سأل ، وقيل هو المتعفف عن السؤال المستغنى ببلغة ، ذكر معناه الخليل وبه قال ابن عباس ، قال ابن السكيت : من العرب من ذكر القنوع بمعنى القناعة ، وهي الرضا والتعفف وترك المسألة، وبالأول قال زيد بن أسلم وابنه وسعيد بن جبير والحسن ، وبالثاني قال عكرمة وقتادة .

وقال ابن عمر وابن عباس : القانع الذي يقنع بما آتيته . وأما المعتر فقال محمد بن كعب القرظي ومجاهد وابراهيم والكلبي والحسن: أنه الذي يتعرض من غير سؤال وقيل هو الذي يعتريك ويسألك ، وقال مالك : أحسن ما سمعت أن القانع : الفقير والمعتر الزائر . وروي عن ابن عباس أن كليهما الذي لا يسأل ولكن القانع الذي يرضى بما عنده ولا يسأل ، والمعتر الذي يتعرض لك ولا يسألك وقرأ الحسن والمعتري ومعناه كمعنى المعتر ، يقال اعتره واعتراه وعره وعراه اذا تعرض لما عنده أو طلبه . ذكره النحاس .

قال ابن عباس : المعتر السائل ، وعنه الذي يعترض ، وعنه القانع الذي يجلس في بيته ، وعنه أنه سئل عن هذه الآية فقال : أما القانع فالقانع

بما أرسلت اليه في بيته ، والمعتر الذي يعتريك . وعنه قال : القانع الذي يسأل والمعتر الذي يتعرض ولا يسأل .

وقيل القانع المسكين ، والمعتر الذي ليس بمسكين ، وقيل القانع جارك الذي ينظر ما دخل عليك ، والمعتر الذي يعتر ببابك ويريك نفسه ، وقد روي عن التابعين في تفسير هذه الآية أقوال مختلفة ، والمرجع المعنى اللغوي لا سيما مع الاختلاف بين الصحابة ومن بعدهم في تفسير ذلك .

﴿ كذلك ﴾ أي مثل ذلك التسخير البديع المفهوم من قوله صواف ﴿ سخرناها ﴾ أي ذللنا البدن ﴿ لكم ﴾ فصارت تنقاد لكم إلى مواضع نحرها فتنحرونها وتنتفعون بها بعد أن كانت مسبخرة للحمل عليها والركوب على ظهورها والحلب لها ونحو ذلك ﴿ لعلكم تشكرون ﴾ هذه النعمة التي أنعم الله بها عليكم .

﴿ لن ينال الله ﴾ أي لن يصعد ولا يرفع اليه ولا يبلغ رضاه لا يقع موقع القبول منه ﴿ لحومها ﴾ التي تتصدقون بها ﴿ ولا دماؤها ﴾ التي تنصب عند نحرها من حيث انها لحوم ودماء .

﴿ ولكن يناله ﴾ أي يبلغ اليه ﴿ التقوى منكم ﴾ أي تقوى قلوبكم ويصل اليه اخلاصكم له في العمل الصالح وارادتكم بذلك وجهه مع الإيمان ، فإن ذلك هو الذي يقبله الله ويجازي عليه .

وقيل المراد أصحاب اللحوم والدماء ، أي لن يرضى المضحون والمتقربون الى ربهم باللحوم والدماء ولكن بالتقوى .

قال الزجاج : أعلم الله أن الذي يصل اليه تقواه وطاعته فيما يأمر به . وحقيقة معنى هذا الكلام تعود الى القبول ، وذلك أن ما يقبله الانسان يقال قد ناله ووصل اليه ، فخاطب الله الخلق كعادتهم في مخاطباتهم .

قال ابن عباس : « كان المشركون اذا ذبحوا استقبلوا الكعبة بالدماء ، فينضحون بها نحو الكعبة ، فأراد المسلمون أن يفعلوا ذلك ، فأنزل الله ﴿ لن

ينال الله لحومها ولا دماؤها ﴾ ، وعن ابن جريج نحوه .

﴿ كذلك سخرها لكم ﴾ كرر هذا للتذكير ﴿ لتكبروا الله ﴾ هو قول الناحر الله أكبر عند النحر فذكر في الآية الأولى الأمر بذكر اسم الله عليها ، وذكر هنا للتكبير للدلالة على مشروعية الجمع بين التسمية والتكبير وقيل المراد بالتكبير وصفه سبحانه بما يدل على الكبرياء .

ومعنى ﴿ على ما هداكم ﴾ على ما أرشدكم اليه من علمكم بكيفية التقرب بها و﴿ما﴾ مصدرية أو موصولة ﴿ وبشر المحسنين ﴾ قيل المراد بهم المخلصون ، وقيل الموحدون ، والظاهر أن المراد بهم كل من يصدر منه من الخير ما يصح به إطلاق اسم المحسن عليه .

﴿ ان الله يدافع ﴾ وقرىء يدفع وصيغة المفاعلة هنا مجردة عن معناها الأصلي وهو وقوع الفعل من الجانبين كما تدل عليه القراءة الأخرى وقد ترد هذه الصيغة ولا يراد بها معناها الأصلي كثيراً مثل عاقبت اللص ونحو ذلك ، وقد قدمنا تحقيقه وقيل إن إيراد هذه الصيغة هنا للمبالغة ، وقيل للدلالة على تكرر الواقع .

﴿ عن الذين آمنوا ﴾ أي يدافع عن المؤمنين غوائل المشركين ، وقيل يعلي حجتهم وقيل يوفقهم ، وقال أبو حيان : لم يذكر الله ما يدفعه عنهم ليكون أفخم وأعظم وأعم، والجملة مستأنفة لِيُبيِّنَ هذه المزية الحاصلة للمؤمنين من رب العالمين وأنه المتولي للمدافعة عنهم.

﴿ ان الله لا يحب كل خوان كفور ﴾ مقررة لمضمون الجملة الأولى ، فإن المدافعة من الله لهم عن عباده المؤمنين مشعرة أتم إشعار بأنهم مبغضون الى الله غير محبوبين له .

قال الزجاج : من ذكر غير اسم الله وتقرب الى الأصنام بذبيحته فهو خوّان كفور وإيراد صيغتي المبالغة للدلالة على أنهم كذلك في الواقع لا لاخراج من خان دون خيانتهم أو كفر دون كفرهم .

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾

﴿ أذن للذين يقاتلون ﴾ قرىء أُذن مبنياً للمفعول وللفاعل وكذلك يقاتلون وعلى كلا القراءتين فالاذن من الله سبحانه لعباده المؤمنين بأنهم إذا صلحوا للقتال أو قاتلهم المشركون قاتلوهم ، قال المفسرون : كان مشركو مكة يؤذون أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بألسنتهم وأيديهم فيشكون ذلك الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول لهم : « اصبروا فإني لم أؤمر بالقتال » حتى هاجر فأنزل الله هذه الآية بالمدينة ، وهي أول آية نزلت في القتال بعدما نهى عنه في نيف وسبعين آية ، وقيل نزلت في قوم بأعيانهم خرجوا مهاجرين من مكة الى المدينة فاعترضهم مشركو مكة ، فأذن الله في قتال الذين يمنعونهم من الهجرة .

وهذه الآية مقررة أيضاً لمضمون قوله : ﴿ ان الله يدافع ﴾ فإن اباحة القتال لهم هي من جملة دفع الله عنهم ، والباء في ﴿ بأنهم ظلموا ﴾ للسببية أي بسبب ما كان يقع عليهم من المشركين من سب وضرب وطرد ثم وعدهم الله سبحانه النصر على المشركين على طريق الرمز والكناية كما وعد بدفع أذى الكفار عنهم فقال :

﴿وإن الله على نصرهم لقدير﴾ وفيه تأكيد لما مر من المدافعة أيضاً ، أخرج أحمد والترمذي وحسّنه والنسائي وابن ماجة ، عن ابن عباس قال : لما أُخرج النبي صلى الله عليه وسلم من مكة .

قال أبو بكر : أخرجوا نبيهم إنا لله وإنا اليه راجعون ؛ ليهلكن القوم فنزلت : ﴿ أذن للذين يقاتلون ﴾ الخ ، وقد روي نحو هذا عن جماعة من التابعين ، ثم وصف هؤلاء المؤمنين بقوله : ﴿ الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق ﴾ المراد بالديار مكة ﴿ الا أن يقولوا ﴾ .

قال سيبويه : هو استثناء منقطع أي لكن لقولهم : ﴿ ربنا الله ﴾ أي أخرجوا بغير حق يوجب إخراجهم لكن لقولهم : ربنا الله وحده ، وقال الفراء والزجاج : هو استثناء متصل والتقدير : الذين أخرجوا من ديارهم بلا حق إلا بأن يقولوا ربنا الله فيكون مثل قوله سبحانه : ﴿ وما تنقمون منا إلا أن آمنا بآيات ربنا ﴾ .

﴿ ولولا دفع الله الناس ﴾ وقرىء دفاع ﴿ بعضهم ﴾ بدل بعض من الناس ﴿ ببعض لهدمت ﴾ بالتشديد للتكثير وبالتخفيف أي لخربت باستيلاء أهل الشرك على أهل الملل ؛ وتكرر الهدم لكثرة المواضع ﴿ صوامع ﴾ للرهبان ومعابدهم المتخذة في الصحراء ، وقيل صوامع الصابئين وهي جمع صومعة وهي بناء مرتفع محدب يقال : صمع الثريدة إذا رفع رأسها ورجل أصمع القلب أي حاد الفطنة والاصمع من الرجال الحديد القول ، وقيل الصغير الأذن ثم استعمل في المواضع التي يؤذن عليها في الاسلام .

﴿ وبيع ﴾ جمع بيعة وهي كنيسة النصارى في البلد ، وقيل مساجد اليهود ﴿وصلوات﴾ هي كنائس اليهود وقيل النصارى، وقد ذكر ابن عطية في صلوات تسع قراآت وهي جمع صلاة وسميت الكنيسة صلاة لأنها يصلى فيها ، وقيل هي كلمة معربة أصلها بالعبرانية صلوتاً قاله السمين ، ومعناه في لغتهم المصلى فلا يكون مجازاً ، قاله الشهاب .

﴿ ومساجد ﴾ للمسلمين ، وقدمت الصوامع والبيع والصلوات على المساجد لكونها أقدم بناء وأسبق وجوداً أو ليكون فيه الانتقال من شريف الى أشرف،والظاهر من الهدم معناه الحقيقي كما ذكره الزجاج وغيره .

وقيل المعنى المجازي هو تعطيلها من العبادة ، والمعنى لولا ما شرعه الله للأنبياء والمؤمنين من قتال الأعداء بعضهم ببعض ، وإقامة الحدود لاستولى أهل الشرك وذهبت مواضع العبادة من الأرض ، وقيل المعنى لولا هذا الدفع لهدمت في زمن موسى الكنائس ، وفي زمن عيسى الصوامع والبيع ، وفي زمن محمد صلى الله عليه وسلم المساجد .

قال ابن عطية : هذا أصوب ما قيل في تأويل هذه الآية فعلى هذا إنما دفع عنهم حين كانوا على الحق قبل التحريف وقبل النسخ ، وقيل المعنى ولولا دفع الله ظلم الظلمة بعدل الولاة ، وقيل لولا دفع الله العذاب بدعاء الأخيار .

وعن علي قال : انما انزلت هذه الآية في أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، والمعنى : لولا دفع الله بأصحاب محمد عن التابعين لهدمت. الآية؟ قال أبو حيان : أجرى الله العادة في الأمم بذلك بأن ينتظم به الأمر وتقوم الشرائع وتصان المتعبدات من الهدم وأهلها من القتل والشتات ويؤيد ذلك قوله تعالى : ﴿ وقتل داود جالوت ﴾ ، ثم قال : ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض .

﴿ يذكر فيها اسم الله ﴾ ذكراً أو وقتاً ﴿ كثيراً ﴾ والجملة صفة للمساجد ، وقيل لجميع المذكورات الأربع لأن كل واحد منها جمع ﴿ ولينصرن الله ﴾ اللام هي جواب لقسم محذوف أي والله لينصرن الله ﴿ من ينصره ﴾ أي دينه وأولياءه ومعنى نصره تعالى هو أن يظفر أولياءه بأعدائهم ويكون النصر بالتجليد في القتال وبإيضاح الأدلة والبينات وبالإعانة على المعارف والطاعات .

﴿ ان الله لقوي ﴾ على نصر أوليائه ﴿عزيز ﴾ على انتقام أعدائه والقوي القادر على الشيء والعزيزالجليل الشريف قاله الزجاج ، وقيل الممتنع الذي لا يرام ولا يدافع ولا يمانع ﴿ الذين ان مكناهم في الأرض ﴾ بنصرهم على عدوهم ، قيل المراد بهم المهاجرون والأنصار والتابعون لهم بإحسان، وقيل أهل الصلوات الخمس وقيل ولاة العدل وقيل غير ذلك وهو إخبار من الله بالغيب عما ستكون عليه سيرتهم ان مكن لهم في الأرض.

وعن عثمان : هذا والله ثناء قبل بلاء يريد أن الله أثنى عليهم قبل أن يحدثوا من الخير ما أحدثوا ، فتباً لمن يطعن بهم من أهل البدع والرفض بعد ذلك وتعساً لهم .

﴿أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر﴾ هذا جواب الشرط وفيه إيجاب الأمر بالمعروف، على من مكنه الله في الأرض وأقدره على القيام بذلك ، وقد تقدم تفسير الآية ﴿ ولله عاقبة الأمور ﴾ أي مرجعها إلى حكمه وتدبيره دون غيره .

وعن زيد بن أسلم في قوله : ﴿ الذين ان مكناهم في الأرض ﴾ قال : أرض المدينة ﴿ أقاموا الصلاة ﴾ قال : المكتوبة ﴿ وآتوا الزكاة) قال : المفروضة ﴿ وأمروا بالمعروف ﴾ قال : بلا إله إلا الله ، ﴿ ونهوا عن المنكر ﴾ قال : عن الشرك بالله ﴿ ولله عاقبة الأمور ﴾ قال : وعند الله ثواب ما صنعوا ، وقد أنجز الله تعالى وعده بأن سلط المهاجرين والانصار على صناديد العرب وأكاسرة العجم وقياصرتهم وأورثهم أرضهم وديارهم .

وعن عثمان بن عفان قال : فينا نزلت هذه الآية أُخرجنا من ديارنا بغير حق ثم مُكِّنَّا في الأرض فأقمنا الصلاة وآتينا الزكاة ، وأمرنا بالمعروف ونهينا عن المنكر فهي لي ولأصحابي .

وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾

﴿ وان يكذبوك فقد كَذبت قبلهم قوم نوح وعاد ﴾ قوم هود ﴿ وثمود ﴾ قوم صالح ﴿ وقوم إبراهيم وقوم لوط وأصحاب مدين ﴾ هم قوم شعيب هذه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتعزية له متضمنة للوعد له بإهلاك المكذبين له ، كما أهلك سبحانه المكذبين لمن كان قبله وفيه إرشاد له صلى الله عليه وسلم الى الصبر على قومه والاقتداء بمن قبله من الأنبياء في ذلك ، وقد تقدم ذكر هذه الأمم وما كان منهم ومن أنبيائهم وكيف كانت عاقبتهم .

والمعنى فأنت يا أشرف الخلق لست بأوحدي في التكذيب ، فإن هؤلاء قد كذبوا رسلهم قبل قومك فتسل بهم ، قاله الخطيب ، وتأنيث قوم باعتبار المعنى وهو الأمة أو قبيلة واستغنى في عاد وثمود عن ذكر قوم لاشتهارهم بهذا الاسم الأخصر ، والأصل في التعبير العلم ولا علم لغيرهما فلهذا لم يقل : قوم هود وقوم صالح ولم يقل قوم شعيب لأن قومه يشملون أصحاب مدين وأصحاب الأيكة ، وأصحاب مدين سابقون على أصحاب الأيكة في التكذيب له ، فخصوا في الذكر بسبقهم في التكذيب وإنما غير النظم في قوله :

﴿وكُـذِّب موسى﴾ فجاء بالفعل مبنياً للمفعول ، ولم يقل وقوم موسى لأن قوم موسى لم يكذبوه ، وانما كذبه غيرهم من القبط ﴿ فأمليت للكافرين ﴾ أي أخرت عنهم العقوبة وأمهلتهم ، والفاء لترتيب الإمهال على التكذيب وفيه وضع الظاهر موضع المضمر زيادة في التشنيع عليهم ، والنداء عليهم بصفة الكفر .

﴿ ثم أخذتهم ﴾ أي أخذت كل فريق من المكذبين السبعة بالعذاب بعد انقضاء مدة الامهال ﴿ فكيف كان نكير ﴾ هذا الاستفهام للتقرير أي فانظر كيف كان إنكاري وتغييري ما كانوا فيه من النعم، وحمل الاستفهام على التعجب أوضح قال أبو حيان : ويصحب هذا الاستفهام معنى التعجب ، فكأنه قيل ما أشد ما كان إنكاري عليهم والنكير اسم من المنكر ومصدر بمعنى الانكار .

قال الزجاج : أي ثم أخذتهم فأنكرت أبلغ إنكار ، قال الجوهري : النكير والانكار تغيير المنكر ، فالمراد بالانكار التغيير للضد بالضد ، كالحياة بالموت ، والعمارة بالخراب وليس بمعنى الانكار اللساني والقلبي وأثبت ياء نكير حيث وقع في القرآن ورش في الوصل ، وحذفها في الوقف ، والباقون بحذفونها وصلاً ووقفاً ، ثم ذكر سبحانه كيف عذب أهل القرى المكذبة فقال :

﴿ فكأين من قرية أهلكناها ﴾ أي أهلها وقد تقدم الكلام على هذا التركيب في آل عمران ﴿ وهي ظالمة ﴾ المراد بنسبة الظلم اليها نسبته الى أهلها ، أي وأهلها ظالمون ﴿ فهي خاوية ﴾ الخوي بمعنى السقوط ، أي فهي ساقطة ﴿ على عروشها ﴾ أي سقوفها ، وذلك بسبب تعطل سكانها حتى تهدمت فسقطت حيطانها فوق سقوفها ، واسناد السقوط على العروش اليها

لتنزيل الحيطان منزلة كل البنيان لكونهاعمدة فيه ، وقد تقدم تفسير هذه الآية في البقـرة . قال قتادة : «خربة ليس فيها أحـــد » .

﴿ وبئر ﴾ أي ومن أهل بئر ﴿ معطلة ﴾ هكذا قال الزجاج ، يقال بأرت الأرض أي حفرتها ، ومنه التأبير وهو شق كيزان طلع الإناث وذر طلع الذكور فيه ، والبئر فعل بمعنى مفعول ، وهي مؤنثة وقد تذكر عـلى معنى القليب ، والمراد بالمعطلة المتروكة . وقيل الخالية عن أهلها لهلاكهم ؛ وقيل الغائرة ، وقيل معطلة من الـدلاء والأرشية . قـال قتادة : عـطلها أهلهـا وتركوها . وقال ابن عباس : التي تركت لا أهل لها .

﴿ وقصر مشيد ﴾ هو المرفوع البنيان كذا قال قتـادة والضحاك . وعن قتادة أيضاً : شيّدوه وحصّنوه فهلكوا وتركوه ، وقال سعيد بن جبيـر وعطاء وعكـرمـة ومجاهد وابن عباس : المراد بالمشيد المجصص مأخوذ من الشيد وهو الجص ، وقيل المشيد الحصين ، قاله الكلبي .

وقال الجوهري : المشيد المعمول بالشِيد، والشيد بـالكسر كل شيء طليت به الحائط من جص أو بلاط وبالفتح المصدر ، تقول شاده يشيـده جصصه والمشيد بالتشديد المطول. قال الكسائي للواحد من قوله تعالى : ﴿ في بروج مشيدة ﴾ وانما بني هنا من شاده ، وفي النساء من شيَّده لأنه هنا وقع بعد جمع فناسب التكثير ، وهنا وقع بعد مفرد فناسب التخفيف ، ولأنه رأس آية وفـاصلة . والمعنى وكم من قصر مشيد معـطل مثل البئـر المعطلة ، ومعنى التعطيل في القصر هو أنهمعطل من أهل أو من آلاته أو نحو ذلك .

قال القرطبي في تفسيره : ويقال إن هـذه البئر والقصر بحضـرموت معروفان ، فالقصر مشرف على قلة جبل[1] لا يرتقي اليه بحال ، والبئر في سفحه لا تقر الريح شيئاً سقط فيها إلا أخرجته . وحكى الثعلبي وغيره أن

---

(١) قُلة جبل بضم القاف أعلى الجبل .

البئر كان بعدن من اليمن في بلد الحضر ، وأصحاب القصر الحضر وأصحاب البئر ملوك البدو .

وحكى الثعلبي وغيره أيضاً أن البئر كان بعدن من اليمن في بلد يقال له حضور أنزل بها أربعة آلاف ممن آمن بصالح ونجوا من العذاب ومعهم صالح ، فمات صالح فسمّي المكان حضرموت ، لأن صالحاً لما حضره مات فبنوا حضوراً ؛ وقعدوا على هذه البئر وامّروا عليهم رجلاً منهم ، فأقاموا دهراً وتناسلوا حتى كثروا وعبدوا الأصنام وكفروا ، فأرسل الله اليهم نبياً يقال له حنظلة بن صفوان وكان حمالاً فيهم فقتلوه في السوق ، فأهلكهم الله وعطلت بئرهم وخربت قصورهم ثم ذكر قصة طويلة .

وقال بعد ذلك : وأما القصر المشيد فقصر بناه شداد بن عاد بن إرم لم يبن في الأرض مثله فيما ذكروا وزعموا ، وحاله أيضاً كحال هذه البئر المذكورة في إيحاشه بعد الإنس وإقفاره بعد العمران وأن أحداً لا يستطيع أن يدنو منه على أميال لما يسمع فيه من عزيف الجن والأصوات المنكرة بعد النعيم والعيش الرغد وبهاء الملك وانتظام الأهل كالسلك ، فبادوا وما عادوا ، فذكرهم الله سبحانه في هذه الآية موعظة وعبرة .

قال: وقيل إنهم الذين أهلكهم بختنصر على ما تقدم في سورة الأنبياء في قوله : ﴿ وكم قصمنا من قرية ﴾ ، فتعطلت بئرهم وخرت قصورهم . إ هـ .

وقال النسفي :والأظهر أن البئر والقصر على العموم . ثم أنكر الله سبحانه على أهل مكة عدم اعتبارهم بهذه الآثار قائلاً :

﴿ أفلم يسيروا في الأرض ﴾ حثاً لهم على السفر ليروا مصارع تلك الأمم فيعتبروا ، ويحتمل أن يكونوا قد سافروا ولم يعتبروا ، فلهذا أنكر عليهم كما في قوله :﴿وإنكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون﴾؛ وعلى هذا

فالاستفهام ليس على حقيقته ﴿ فتكون لهم قلوب ﴾ تفريع على المنفي فهو منفي أيضاً .

﴿ يعقلون بها ﴾ ما يجب أن يعقل من التوحيد ونحوه ، والعقل هنا بمعنى العلم ، والمعنى أنهم بسبب ما شاهدوا من العبر تكون لهم قلوب يعقلون بها ما يجب أن يتعقلوه ؛ وأسند التعقل الى القلوب لأنها محل العقل كما أن الأذان محل السمع وقيل إن العقل محله الدماغ ، ولا مانع من ذلك فإن القلب هو الذي يبعث على إدراك العقل وإن كان محله خارجاً عنه . وقد اختلف علماء العقول في محل العقل وماهيته اختلافاً كثيراً لا حاجة الى التطويل بذكره .

﴿ أو آذان يسمعون بها ﴾ ما يجب أن يسمعوه مما تلاه عليهم أنبياؤهم من كلام الله ، وما نقله أهل الأخبار اليهم من أخبار الأمم المهلكة وما نزل بالمكذبين ﴿ فإنها لا تعمى الأبصار ﴾ قال الفراء : الهاء عماد ، يجوز أن يقال فإنه وهي قراءة ابن مسعود والمعنى واحد ، التذكير على الخبر والتأنيث على الأبصار ، أو القصة أي فإن الأبصار لا تعمى ، أو فإن القصة لا تعمى الابصار ، أي أبصار العيون ﴿ ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ﴾ أي ليس الخلل في مشاعرهم ، وإنما أصابت الآفة عقولهم باتباع الهوى والانهماك في التقليد ، أي لا تدرك عقولهم مواطن الحق ومواضع الاعتبار .

قال الفراء والزجاج : إن قوله التي في الصدور من التوكيد الذي تزيده العرب في الكلام ، كقوله عشرة كاملة ، ويقولون بأفواههم ويطير بجناحيه ، ثم حكى سبحانه عن هؤلاء ما كانوا عليه من التكذيب والاستهزاء فقال :

﴿ ويستعجلونك ﴾ أي يطلبون عجلتك ﴿ بالعذاب ﴾ لأنهم كانوا منكرين لمجيئه أشد انكار ، فاستعجالهم له هو على طريقة الاستهزاء والسخرية ، وكأنهم كانوا يقولون ذلك عند سماعهم لما يقوله الأنبياء عن الله

سبحانه من الوعد منه عز وجل بوقوعه عليهم وحلوله بهم ، ولهذا قال :

﴿ ولن يخلف الله وعده ﴾ قال الفراء : في هذه الآية وعيد لهم بالعذاب في الدنيا والآخرة . وذكر الزجاج وجهاً آخر فقال : اعلم أن الله لا يفوته شيء ، وان يوماً عنده وألف سنة في قدرته واحد ، ولا فرق بين وقوع ما يستعجلون به من العذاب وتأخره في القدرة ، الا أن الله تفضل بالامهال انتهى .

والمعنى والحال أنه لا يخلف وعداً أبداً ، وقد سبق الوعد فلا بد من مجيئه حتماً أو الجملة اعتراضية مبينة لما قبلها . قال المحلي: أنجزه يوم بدر ، أي أنزل العذاب بهم في الدنيا فقتل منهم سبعون وأسر منهم سبعون .

﴿ وإن يوماً ﴾ من أيام عذابهم ﴿ عند ربك ﴾ في الآخرة ﴿ كألف سنة مما تعدون ﴾ أي من سني الدنيا ، والجملة مستأنفة مسوقة لبيان حالهم في الاستعجال وخطابهم في ذلك لبيان كمال حكمه لكون المدة القصيرة عنده كالمدة الطويلة عندهم كما في قوله : ﴿انهم يرونه بعيداً ونراه قريباً﴾ . قال الفراء : هذا وعيد لهم بامتداد عذابهم في الآخرة أي يوم من أيام عذابهم في الآخرة في الثقل والاستطالة كألف سنة . وقيل المعنى وإن يوماً من الخوف والشدة في الآخرة كألف سنة من سني الدنيا فيها خوف وشدة ، وكذلك يوم النعيم قياساً ، واقتصر في التشبيه على الألف لأن الألف منتهى العدد بلا تكرار .

وقرىء يعدون بالتحتية لقوله ويستعجلونك ، وبالفوقية على الخطاب ، واختار الأولى أبو عبيدة والثانية أبو حاتم .

وعن ابن عباس قال : إن يوماً من الايام الستة التي خلق الله فيها السموات والأرض كألف سنة ، وعن عكرمة قال : هو يوم القيامة ، وعنه قال : الدنيا جمعة من جمع الآخرة سبعة آلاف سنة ، وقد مضى منها ستة آلاف .

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٥١﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾﴾

وأخرج ابن عدي والديلمي عن أنس مرفوعاً نحوه ، وتمام البحث في مدة الدنيا ماضيها وباقيها في كتابنا لقطة العجلان مما تمس الى معرفته حاجة الانسان : ﴿ وكأين من قرية أمليت لها وهي ظالمة ثم أخذتها ﴾ أي أهلها ، هذا إعلام منه سبحانه أنه أخذ قوماً بعد الاملاء والتأخير، قيل وتكرير هذا مع ذكره قبله للتأكيد وليس بتكرار في الحقيقة ، لأن الأول سيق لبيان الاهلاك مناسباً لقوله : ﴿ فكيف كان نكير ﴾ . والثاني سيق لبيان الامـلاء مناسبـاً لقوله : ﴿ ولن يخلف الله وعده وان يوماً عند ربك كألف سنة ﴾ فكأنه قيل: وكـم من أهل قرية كانوا مثلكم ظالميـن قد أمهلتهم حيناً ثم أخذتهم بالعذاب ، والمرجع للكل إلى حكمي . ﴿ و ﴾ جملة ﴿إليّ المصير ﴾ تذييل لتقرير ما قبلها ﴿ قل يا أيها الناس انما أنا لكم نذير مبين ، فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة ورزق كريم ﴾ أمره سبحانه أن يخبر الناس بأنه نذير لهم بين يدي الساعة مبين لهم ما نزل اليهم ، فمن آمن وعمل صالحاً فاز بالمغفرة وستر الذنوب ، ومن كان على خلاف ذلك فهو في النار . والرزق الكريم الجنة ، والكريم من كل نوع ما يجمع فضائله ويحوز كمالاته .

﴿ والذين سعوا في آياتنا ﴾ أي اجتهدوا في إبطالها حيث قالوا القرآن شعر أو سحر أو أساطير الأولين .

﴿ معاجزين ﴾ يقال عاجزه سابقه ، لأن كل واحد منهما في طلب إعجاز

الآخر فإذا سبقه قيل أعجزه وعجزه ، قاله الأخفش. وقيل معناه ظانين ومقدرين أن يعجز الله سبحانه ويفوتوه فلا يعذبهم ، قاله الزجاج . وقيل معاندين قاله الفراء وقال ابن عباس : مراغمين ومشاقين .

﴿ أولئك أصحاب الجحيم ﴾ أي النار الموقدة.﴿ وما أرسلنا من قبلك ﴾ من لابتداء الغاية ، وهذا شروع في تسلية ثانية لرسول الله صلى الله عليه وسلم بعد التسلية الأولى .

﴿ من رسول ولا نبي ﴾ من زائدة لتأكيد النفي ، وفيه دليل بين على ثبوت التغاير بين الرسول والنبي .

وسئل النبي صلى الله عليه وسلم عن الأنبياء فقال : « مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً ، فقيل فكم الرسل منهم ؟ فقال : ثلثمائة وثلاثة عشر »[1] ، والفرق بينهما أن الرسول الذي أرسل إلى الخلق بإرسال جبريل اليه عيانا ومحاورته شفاهاً ، والنبي الذي يكون وحيه إلهاماً أو مناماً .

وقيل الرسول من بعث بشرع وأمر بتبليغه ، والنبي من أمر أن يدعو الى شريعة من قبله ولم ينزل عليه كتاب ولا بد لهما جميعاً من المعجزة الظاهرة ، وقرأ ابن مسعود ولا نبي ولا محدث ، وعن سعد بن ابراهيم بن عبد الرحمن بن عوف مثله ، وزاد فنسخت محدث ، قال : والمحدثون صاحب يس ولقمان ومؤمن آل فرعون وصاحب موسى .

﴿إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته ﴾ معنى تمنى تشهى وهيأ في نفسه ما يهواه ، قال الواحدي ، قال المفسرون : معنى تمنى تلا ، قال جماعة المفسرين ، في سبب نزول هذه الآية : انه صلى الله عليه وسلم لما شق عليه اعراض قومه عنه تمنى في نفسه أن لا ينزل عليه شيء ينفرهم عنه لحرصه على إيمانهم ، فكان ذات يوم جالساً في ناد من أنديتهم ، وقد نزل عليه سورة

---

(١) الإمام احمد ٥/٢٦٦ .

﴿ والنجم إذا هوى ﴾ فأخذها يقرأها عليهم حتى بلغ قوله : أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى . وكان ذلك التمني في نفسه ، فجرى على لسانه مما ألقاه الشيطان عليه : تلك الغرانيق[1] العلى ، وإن شفاعتهن لترتجى ، فلما سمعت قريش ذلك فرحوا ، ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم في قراءته حتى ختم السورة ، فلما سجد في آخرها سجد معه جميع من في النادي من المسلمين والمشركين فتفرقت قريش مسرورين بذلك وقالوا قد ذكر محمد آلهتنا بأحسن الذكر ، فأتاه جبريل فقال ما صنعت ؟ تلوت على الناس ما لم آتك به عن الله ، فحزن رسول الله صلى الله عليه وسلم وخاف خوفاً شديداً فأنزل الله هذه الآية ، هكذا قالوا .

ولم يصح شيء من هذا ولا ثبت بوجه من الوجوه ؛ ومع عدم صحته بل بطلانه فقد دفعه المحققون بكتاب الله سبحانه ، حيث قال الله تعالى : ﴿ ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ، ثم لقطعنا منه الوتين ﴾ ، وقوله : ﴿ وما ينطق عن الهوى ﴾ .

وقوله : ﴿ ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم ﴾ فنفى المقاربة للركون فضلاً عن الركون .

قال البزار : هذا حديث لا نعلمه يروى عن النبي (ﷺ) بإسناد متصل .

---

(١) هذه الرواية أدخلها على الإسلام يهوديّ تجلى الغموض عنه وإن وثقه بعض الناس ؛ فإن هذه الرواية تشجب هذا التوثيق وتحجبه ؛ ذلك أن ابن سعد في الطبقات يرويها عن رجل يدعى عبد الله بن حنطب ليس له صحبة ، والطبري يرويها عن محمد بن كعب القرظي ، كان أبوه من سبي بني قريظة ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم أطلقه لأنه رآه دون البلوغ ، فتزوج وخلّف محمداً هذا وقد ولد بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم .
ومن هنا ندرك أن هذه الرواية لم يجرؤ واحد على إسنادها لأحد الصحابة رضوان الله عليهم ، وربما تكون قد دست من طريق بني قريظة وكان إرسالهم إياها عن طريق ابن حنطب وابن كعب . ويأتي بعد هذا ابن السائب الكلبي والواقدي فيرويانها عن ابن عباس ؛ وحسبك فيهما كذابان بالإجماع .

وقال البيهقي : هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل ، ثم أخذ يتكلم أن رواة هذه القصة مطعون فيهم .

وقال إمام الأئمة ابن خزيْمة : إن هذه القصة من وضع الزنادقة ، قال القاضي عياض في الشفاء : إن الأمة أجمعت ـ فيما طريقه البلاغ ـ أنه معصوم فيه من الاخبار عن شيء بخلاف ما هو عليه قصداً ولا عمداً ولا سهواً ولا غلطاً .

قال الرازي : هذه القصة باطلة موضوعة ، لا يجوز القول بها ، قال تعالى : ﴿ وما ينطق عن الهوى ان هو إلا وحي يوحى ﴾ وقال تعالى : ﴿ سنقرئك فلا تنسى ﴾ ولا شك أن من جوز على الرسول تعظيم الأوثان فقد كفر ، لأن من المعلوم بالضرورة أن أعظم سعيه كان في نفي الأوثان ، ولو جوزنا ذلك لارتفع الأمان عن شرعه وجوزنا في كل واحد من الأحكام والشرائع ان يكون كذلك أي مما ألقاه الشيطان على لسانه ، ويبطل قوله تعالى : ﴿ بلغ ما أنزل اليك من ربك ، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ﴾ فإنه لا فرق عند العقل بين النقصان من الوحي وبين الزيادة فيه .

فبهذه الوجوه النقلية والعقلية عرفنا على سبيل الاجمال أن هذه القصة موضوعة انتهى ملخصاً ، قال ابن كثير : قد ذكر كثير من المفسرين ههنا قصة الغرانيق ، وما كان من رجوع كثير من المهاجرين الى أرض الحبشة ظناً منهم أن مشركي قريش قد أسلموا ، ولكنها من طرق كلها مرسلة ولم أرها مسندة من وجه صحيح ، والحاصل ان جميع الروايات في هذا الباب اما مرسلة أو منقطعة لا تقوم الحجة بشيء منها ، وقد أسلفنا عن الحفاظ في هذا البحث ما فيه كفاية .

وفي الباب روايات من أحب الوقوف على جميعها فلينظرها في الدر المنثور للسيوطي ، ولا يأتي التطويل بذكرها هنا بفائدة فقد عرّفناك أنها جميعها لا تقوم بها الحجة ، لأنه لم يروها أحد من أهل الصحة ، ولا أسندها ثقة بسند صحيح ، أو سليم متصل ، وإنما رواها المفسرون ، والمؤرخون المولعون بكل

غريب ؛ الملفقون من الصحف كل صحيح وسقيم ، وقد دل على ضعف هذه القصة اضطراب رواتها وانقطاع سندها واختلاف ألفاظها .

والذي جاء في الصحيح من حديث ابن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ والنجم فسجد فيها وسجد من كان معه غير أن شيخاً من قريش اخذ كفاً من حصى أو تراب فرفعه إلى جبهته ، قال عبدالله : فلقد رأيته بعد قتل كافراً ، أخرجه البخاري ومسلم[1] .

وصح من حديث ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سجد بالنجم وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والانس رواه البخاري ، فهذا الذي جاء في الصحيح لم يذكر فيه أن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر تلك الألفاظ ولا قرأها والذي ذكره المفسرون عن ابن عباس في هذه القصة فقد رواه عنه الكلبي وهو ضعيف جداً ، بل متروك لا يعتمد عليه ، وكذا أخرجه النحاس بسند آخر فيه الواقدي فهذا توهين هذه القصة .

وقد أجابوا عنه من حيث المعنى بوجوه أخرى يطول ذكرها بلا فائدة زائدة وقد استوفاها الخازن في تفسيره ، والنسفي في المدارك ونبه الحافظ ابن حجر على ثبوت أصلها في الجملة ، وقال إن ثلاثة أسانيد منها على شرط الصحيح لكنها مراسيل ، وإذا تقرر لك بطلان ذلك عرفت أن معنى . تمنى قرأ وتلا كما قدمنا من حكاية الواحدي لذلك عن المفسرين .

قال البغوي : إن أكثر المفسرين قالوا معنى تمنى تلا ، وقرأ كتاب الله ومعنى ألقى الشيطان في أمنيته أي في تلاوته وقراءته ، قال ابن جرير : هذا القول أشبه بتأويل الكلام ، ويؤيد هذا ما تقدم في تفسير قوله : ﴿ لا يعلمون الكتاب إلا أماني ﴾ وقيل معنى تمنى حدّث، ومعنى في أمنيته في حديثه ، روي هذا عن ابن عباس ، وقيل معنى تمنى قال ، فحاصل معنى الآية أن الشيطان أوقع في مسامع المشركين ذلك من دون أن يتكلم به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا جرى على لسانه فتكون هذه الآية تسلية لرسول الله (ﷺ) .

(١) مسلم ٥٧٦ ـ البخاري ٥٨٨ .

أي لا يهولك ذلك ولا يحزنك فقد أصاب مثل هذا من قبلك من المرسلين والأنبياء وعلى تقدير أن معنى تمنى حدّث نفسه كما حكاه الفراء والكسائي فإنهما قالا: يقال تمنى إذا حدث نفسه ، فالمعنى أنه إذا حدث نفسه بشيء تكلم به الشيطان وألقاه في مسامع الناس من دون أن يتكلم به رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا جرى على لسانه .

قال ابن عطية : لا خلاف أن القاء الشيطان إنما هو لألفاظ مسموعة وقعت بها الفتنة ، قال القاضي عياض : وهذا أحسن الوجوه وهو الذي يظهر ترجيحه ، وكذا استحسن ابن العربي هذا التأويل ، وقال في أمنيته في تلاوته ، وقد قيل في تأويل الآية: إن المراد بالغرانيق الملائكة ويرد بقوله الآتي : ﴿ فينسخ الله ما يلقي الشيطان ﴾ أي يبطله ، وشفاعة الملائكة غير باطلة .

وقيل إن ذلك جرى على لسانه سهواً ونسياناً وهما مجوزان علىالأنبياء، ويرد بأن السهو والنسيان فيما طريقه البلاغ غير جائز ، كما هو مقرر في مواطنه ، قال الضحاك : يعني بالتمني التلاوة ، والقراءة فينسخ الله أي جبريل بأمر الله ما ألقى الشيطان على لسان النبي صلى الله عليه وسلم .

وقال مجاهد : إذا تمنى أي تكلم وأمنيته كلامه ، فأخبر تعالى في هذه الآية أن سنة الله في رسله إذا قالوا قولاً زاد الشيطان فيه من قبل نفسه فهذا نص في أن الشيطان زاد في قول النبي صلى الله عليه وسلم لا أن النبي صلى الله عليه وسلم قاله لأنه معصوم ، وقد سبق الى ذلك الطبري مع جلالة قدره وسعة علمه وشدة ساعده في النظر فصوب هذا المعنى قاله الحافظ في الفتح ؛ ثم لما سلاه سبحانه بهذه التسلية وأنها قد وقعت لمن قبله من الرسل والأنبياء بين سبحانه أنه يبطل ذلك ولا يثبته ولا يستمر تغرير الشيطان فقال :

﴿ فينسخ الله ما يلقي الشيطان ﴾ أي يبطله ويجعله ذاهباً غير ثابت ﴿ ثم يحكم الله آياته ﴾ أي يثبتها ﴿ والله عليم حكيم ﴾ أي كثير العلم والحكمة في كل أقواله وأفعاله .

لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾

﴿ ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة ﴾ تعليل أي ذلك الالقاء الذي يلقيه الشيطان ضلالة ومحنة وبلية ﴿ للذين في قلوبهم مرض ﴾ أي شكل ونفاق ﴿ والقاسية قلوبهم ﴾ هم المشركون فإن قلوبهم لا تلين للحق أبداً ولا ترجع الى الصواب بحال ثم سجل سبحانه على هاتين الطائفتين بأنهم ظالمون فقال :

﴿ وإن الظالمين لفي شقاق بعيد ﴾ أي عداوة شديدة ووصف الشقاق بالبعد مبالغة والموصوف به حقيقة من قام به ولما بين سبحانه أن ذلك الالقاء كان فتنة في حق أهل النفاق والشك والشرك بين أنه في حق المؤمنين العالمين بالله العارفين به سبب لحصول العلم لهم بأن القرآن حق وصدق ، فقال :

﴿ وليعلم الذين أوتوا العلم ﴾ أي التوحيد والقرآن والتصديق بنسخ الله ما يشاء ﴿أنه الحق من ربك ﴾ أي : الحق النازل من عنده ، وقيل الضمير في ﴿ أنه ﴾ راجع الى تمكين الشيطان من الالقاء لأنه مما جرت به عادته مع أنبيائه ؛ ولكنه يرد هذا قوله : ﴿ فيؤمنوا به ﴾ فإن المراد الايمان بالقرآن أي يثبتوا على الايمان به .

﴿ فتخبت له قلوبهم ﴾ أي تخشع وتسكن وتنقاد ، فإن الايمان به وإخبات القلوب له لا يمكن أن يكونا لتمكين من الشيطان بل للقرآن ﴿وإن

الله لهادي الذين آمنوا ﴾ في أمور دينهم ﴿ إلى صراط مستقيم ﴾ أي طريق صحيح قويم ، لا عوج به وقرىء لهادٍ بالتنوين .

﴿ولا يزال الذين كفروا في مرية منه﴾ أي في شك من القرآن؛ وقيل من الدين الذي يدل عليه ذكر الصراط المستقيم ، وقيل من الرسول وقيل من القاء الشيطان فيقولون ما باله ذكر الأصنام بخير ، ثم رجع عن ذلك ؛ وقرىء مُرية بضم الميم ، وهما لغتان مشهورتان ؛ وظاهر كلام أبي البقاء أنهما قراءتان ، قال السمين : ولا أحفظ الضم هنا .

﴿ حتى تأتيهم الساعة ﴾ أي القيامة أو الموت ﴿ بغتة ﴾ أي فجأة ﴿ أو يأتيهم عذاب يوم عقيم ﴾ وهو يوم القيامة لأنه لا يوم بعده فكان بهذا الاعتبار عقيماً وهو في اللغة من لا يكون له ولد ، ولما كانت الأيام تتوالى جعل ذلك كهيئة الولادة ، ولما لم يكن بعد ذلك اليوم يوم وصف بالعقم ، وقيل يوم حرب يقتلون فيه كيوم بدر ، قاله ابن عباس ، وعن أبيّ بن كعب نحوه ، وعن سعيد بن جبير وعكرمة مثله .

وعن مجاهد قال : يوم القيامة لا ليلة له ، وعن الضحاك وسعيد مثله أيضاً ؛ وقيل إن اليوم وصف بالعقم لأنه لا رأفة فيه ولا رحمة فكأنه عقيم من الخير ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فأرسلنا عليهم الريح العقيم ﴾ أي التي لا خير فيها ولا تأتي بمطر وفيه استعارة بالكناية بأنه شبه اليوم المنفرد عن سائر الأيام ، والزمان الذي لا خير فيه بالنساء العقم تشبيهاً مضمراً في النفس ، وإثبات العقم تخييل ؛ فإن الأيام بعضها نتائج لبعض ، فكل يوم يلد مثله .

﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓا۟ أَوْ مَاتُوا۟ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾

﴿ الملك يومئذ ﴾ أي السلطان الظاهر والاستيلاء التام يوم القيامة والتنوين عوض عن الجملة أي يوم يؤمنون أو يوم تزول مريتهم ﴿ لله ﴾ سبحانه وحده لا منازع له فيه ولا مدافع له عنه ﴿ يحكم ﴾ أي يفصل ﴿ بينهم ﴾ مستأنفة أو هي حالية ، ثم فسر هذا الحكم بقوله :

﴿ فالذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ كائنون ﴿ في جنات النعيم ﴾ مستقرون في أرضها منغمسون في نعيمها فضلاً من الله ﴿ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا ﴾ أي جمعوا بين الكفر بالله والتكذيب بآياته ﴿ فأولئك لهم عذاب ﴾ متصف بأنه ﴿مُهين﴾ للمعذَبين بالغ منهم المبلغ العظيم بسبب كفرهم .

﴿ والذين هاجروا في سبيل الله ﴾ أفرد سبحانه المهاجرين بالذكر تخصيصاً لهم بمزيد الشرف وتفخيماً لشأنهم ، قال بعض المفسرين : هم الذين هاجروا من مكة إلى المدينة ، وقال بعضهم : الذين هاجروا من الأوطان في سرية أو عسكر ولا يبعد حمل ذلك على الأمرين ، والكل في سبيل الله وطاعته .

﴿ ثم قتلوا ﴾ وقرىء مشدداً على التكثير ﴿ أو ماتوا ﴾ في حال المهاجرة ﴿ ليرزقنهم الله ﴾ جواب قسم محذوف ﴿ رزقاً ﴾ أي مرزوقاً ﴿ حسناً ﴾ أو مصدر مؤكد وفيه دليل على وقوع الجملة القسمية خبراً للمبتدأ ومن يمنعه ، فقوله مرجوح والرزق الحسن هو نعيم الجنة الذي لا ينقطع ، وقيل هو الغنيمة

لأنه حلال ، وقيل هو العلم والفهم كقول شعيب : ورزقني منه رزقاً حسناً ، والتسوية في الوعد بالرزق لا يدل على تفضيل في قدر المعطي ولا تسوية ، فإن يكن تفضيل فمن دليل آخر ، والمقرر في كتب الفروع أن المقتول أفضل لأنه شهيد .

وقد أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه ، عن سلمان الفارسي أنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من مات مرابطاً أجرى الله عليه مثل ذلك الأجر وأجرى عليه الرزق وأمن من الفتانين ، اقرأوا إن شئتم والذين هاجروا ـ إلى قوله ـ حليم » .

قلت: ويؤيد هذا قوله سبحانه : ﴿ ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله ﴾ .

﴿ وإن الله لهو خير الرازقين ﴾ أي أفضلهم فإنه سبحانه يرزق بغير حساب بمحض الإحسان ، وكل رزق يجري على يد العباد بعضهم لبعض فهو منه سبحانه لا رازق سواه ولا معطي غيره ، والجملة تذييل مقررة لما قبلها .

ولما ذكر الرزق أعقبه بذكر المسكن بقوله : ﴿ ليدخلنهم مَدخلاً يرضونه ﴾ مستأنفة أو بدل من جملة ليرزقنهم الله ، قرىء مُدخلاً بفتح الميم وبضمها وهو اسم مكان أريد به الجنة أو مصدر ميمي مؤكد للفعل المذكور ، وقد مضى الكلام على مثل هذا في سورة سبحان ، وفي هذا من الامتنان عليهم والتبشير لهم ما لا يقادر قدره ، فإن المدخل الذي يرضونه هو الأوفق لنفوسهم والأقرب إلى مطلبهم على أنهم يرون في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وذلك هو الذي يرضونه وفوق الرضا .

﴿ وإن الله لعليم ﴾ بدرجات العاملين ومراتب استحقاقهم . وقيل بأحوال من قضى نحبه مجاهداً ، وآمال من مات وهو ينتظر معاهداً ﴿ حليم ﴾ عن تفريط المفرطين منهم بإمهال من قاتلهم معانداً لا يعاجلهم بالعقوبة .

﴿ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾ ﴾

﴿ ذلك ﴾ أي ما تقدم أو الأمر ذلك وما بعده مستأنف . وقال الزجاج : أي الأمر ما قصصنا عليكم من إنجاز الوعد للمهاجرين خاصة إذا قُتلوا أو ماتوا ، فهو على هذا خبر مبتدأ محذوف .

﴿ ومن عاقب بمثل ما عوقب به ﴾ أي من جازى الظالم بمثل ماظلمه، والعقاب مأخوذ من التعاقب وهو مجيء الشيء بعد غيره ، وحينئذ يسمى الابتداء عقاباً باسم الجزاء مشاكلة كقوله : ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها ﴾ وقوله : ﴿ فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ﴾ ، أو من قبيل تسمية السبب باسم المسبب ، والعقوبة في الأصل إنما تكون بعد فعل تكون جزاء عنه ؛ والمراد بالمثلية أنه اقتصر على المقدار الذي ظلم به ولم يزد عليه .

عن ابن جريج قال : تعاون المشركون على النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه فأخرجوه فوعده الله أن ينصره ، وهو في القصاص أيضاً ﴿ ثم بغى عليه ﴾ أي أن الظالم له في الابتداء عاوده بالمظلمة بعد تلك المظلمة الأولى .

وقيل المراد بهذا البغي هو ما وقع من المشركين من إزعاج المسلمين من أوطانهم بعد أن كذبوا نبيهم وآذوا من آمن به . وقيل المعنى ثم كان المجازي

مبغياً عليه ، أي مظلوماً ، ومعنى ﴿ ثم ﴾ تفاوت الرتبة ، لأن الابتداء بالقتال معه نوع ظلم ، كما قيل في أمثال العرب : البادىء أظلم . وقيل إن هذه الآية مدنية ، وهي في القصاص والجراحات .

﴿لينصرنّه الله ﴾ اللام جواب قسم محذوف ، أي والله لينصرن الله المبغي عليه على الباغي ﴿إنّ الله لعفوّ غفور﴾ أي لكثير العفو والغفران للمؤمنين فيما وقع منهم من الذنوب أو القتال في الشهر الحرام وقيل العفو والغفران لما وقع من المؤمنين من ترجيح الانتقام على العفو .

﴿ ذلك بأن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل ﴾ اشارة الى ما تقدم من نصر الله سبحانه للمبغيِّ عليه والباء للسببية ، أي ذلك النصر بسبب أنه سبحانه قادر ، ومن كمال قدرته إيلاج الليل في النهار والنهار في الليل . قاله الرازي . وقال البيضاوي : قادر على تقليب الأمور بعضها على بعض ، جارية عادته على المداولة بين الأشياء المتعاندة ، وعبر عن الزيادة بالإيلاج لأن زيادة أحدهما تستلزم نقصان الآخر .

وقيل يجعل ظلمة الليل مكان ضياء النهار ، وذلك بغيبوبة الشمس ، ويجعل ضياء النهار مكان ظلمة الليل بطلوع الشمس ، فالمراد تحصيل أحد العرضين في محل الآخر ، وقد مضى في آل عمران معنى هذا الإيلاج .

﴿وإن الله سميع ﴾ يسمع كل مسموع لا يشغله سمع عن سمع ﴿ بصير﴾ يبصر كل مبصر ، أو سميع للأقوال وإن اختلفت في النهار الأصوات بفنون اللغات ، بصير بما يفعلون لا يستتر عنه شيء بشيء في الليالي وإن توالت الظلمات فلا يعزب عنه مثقال ذرة ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى ما تقدم من اتصافه سبحانه بكمال القدرة الباهرة والعلم التام ﴿ بأن الله هو الحق ﴾ أي هو سبحانه ذو الحق فدينه حق وعبادته حق ونصره لأوليائه على أعدائه حق ووعده حق ،فهو عز وجل في نفسه وأفعاله وصفاته كلها حق .

﴿ وأن ما يدعون من دونه الباطل ﴾ قرىء بالفوقية على الخطاب

للمشركين وبالتحتية على الخبر وهما سبعيتان ، والمعنى أن الذي يدعونه إلٰهاً وهي الأصنام هو الباطل الذي لا ثبوت له ولا لكونه إلٰهاً ، أي المعدوم في حد ذاته والباطل ألوهيته ، والباطل الزائل .

وقال مجاهد : الباطل هنا الشيطان ﴿ وأن الله هو العلي ﴾ أي العالي على كل شيء بقدرته وذاته ، المتقدس عن الأشباه والانداد المتصف بصفات الكمال المتنزه عما يقوله الظالمون والمعطلون ﴿ الكبير ﴾ أي ذو الكبرياء الذي يصغر كل شيء سواه ، هو عبارة عن كمال ذاته وعظيم قدرته وسلطانه وتفرده بالإلٰهية ، ثم ذكر سبحانه دليلاً بيناً على كمال قدرته فقال :

﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء ﴾ الاستفهام للتقرير كما قاله الخليل وسيبويه،قال الخليل : المعنى ألم تعلم أنه أنزل من السماء مطراً فكان كذا وكذا ، ذكر هنا ستة أشياء أولها إنزال الماء الناشيء منه اخضرار الأرض كما قال : ﴿ فتصبح الأرض مخضرة ﴾ قال الفراء : أي ذات خضرة كما تقول مبقلة ومسبعة ، أي ذات بقل وسباع وهو عبارة عن استعجالها إثر نزول الماء بالنبات واستمرارها كذلك عادة . وصيغة الاستقبال لاستحضار صورة الاخضرار مع الاشعار بتجدد الانزال واستمراره . وهذا المعنى لا يحصل إلا بالمستقبل ، والرفع هنا متعين لأنه لو نصب لانعكس المعنى المقصود من الآية فينقلب إلى نفي الاخضرار ، والمقصود إثباته .

قال ابن عطية : هذا لا يكون بعد الاخضرار في صباح ليلة المطر الا بمكة وتهامة ، والظاهر أن المراد بالاخضرار اخضرار الأرض في نفسها ، لا باعتبار النبات فيها ، كما في قوله : ﴿ فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ﴾ ، والمراد بقوله : ﴿ ان الله لطيف ﴾ أي يصل علمه الى كل دقيق وجليل ، وقيل لطيف بأرزاق عباده ، وقيل باستخراج النبات .

﴿ خبير ﴾ أي أنه ذو خبرة بتدبير عباده وما يصلح لهم ، وقيل خبير بما ينطوون عليه من القنوط عند تأخير المطر . وقيل خبير بحاجتهم وفاقتهم .

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ۖ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ ۚ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾

والثاني قوله : ﴿ له ما في السموات وما في الأرض ﴾ خلقاً وملكاً وتصرفاً وعبيداً ، وكلهم محتاجون إلى رزقه ﴿ وان الله لهو الغني ﴾ فلا يحتاج إلى شيء ﴿ الحميد ﴾ أي المستوجب للحمد في كل حال .

﴿ألم تـر أن الله سخر لكم مـا في الأرض﴾ هـذه نعمـة أخـرى ثـالثـة ذكـرهـا الله سبحانه فأخبر عباده بأنه سخر لهم وذلل ما يحتاجون اليه من الدواب والشجـر والأنهار والحجر . والحـديد والنـار لما يـراد منها ، والحيوان للأكل والـركوب والحمـل عليه والنـظر اليـه وجعله لمنـافعهم ﴿ و ﴾ سخـر لكم ﴿ الفلك ﴾ أي السفن في حال جريها .

﴿ تجري في البحر بأمره ﴾ أي بتقديره وإذنه ، فلولا أن الله سخرها لكـانت تغوص أو تقف ، وهـذه نعمة رابعـة . والنعمة الخـامسة قـوله : ﴿ ويمسك السماء ﴾ كراهة ﴿ أن تقع على الأرض ﴾ وذلك بأنه خلقها على صفة مستلزمة للإمساك لأن النعم المتقدمة لا تكمل إلا به ، والسماء جرم ثقيل ، وما كان كذلك لا بد له من السقوط لولا مانـع يمنع منـه ، وهو القدرة ؛ فأمسكها الله بقدرته لئلا تسقط فتبطل النعم التي امتن بها علينا .

﴿ إلا بإذنه ﴾ أي بإرادته ومشيئته ، وذلك يوم القيامة ، والظاهر أنه استثناء مفرّغ من أعم الأحوال وهو لا يقع في الكلام الموجب إلا أن قوله :

﴿ ويمسك السماء أن تقع على الأرض ﴾ في قوة النفي ، أي لا يتركها تقع في حالة من الأحوال إلا في حالة كونها ملتبسة بمشيئته تعالى فالباء للملابسة .

﴿ إن الله بالناس لرءوف رحيم ﴾ أي كثير الرأفة والرحمة حيث سخر هذه الأمور لعباده ، وهيأ لهم أسباب المعاش ، وأمسك السماء أن تقع على الأرض فتهلكهم ، تفضلاً منه على عباده وإنعاماً عليهم ، ثم ذكر سبحانه نعمة أخرى سادسة فقال : ﴿ وهو الذي أحياكم ﴾ بعد أن كنتم جماداً ، بل لم تكونوا شيئاً ﴿ ثم يميتكم ﴾ عند انقضاء أعماركم ﴿ ثم يحييكم ﴾ عند البعث للحساب والعقاب ﴿ إن الانسان لكفور ﴾ أي لكثير الجحود لنعم الله عليه مع كونها ظاهرة غير مستترة ولا ينافي هذا خروج بعض الأفراد عن هذا الجحد ، لأن المراد وصف جميع الجنس بوصف من يوجد فيه ذلك من أفراده مبالغة وعن الحسن في قوله ﴿ كفور ﴾ ، قال : يعد المصيبات وينسى النعم . ثم عاد سبحانه الى بيان أمر التكاليف مع الزجر لمعاصري رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من أهل الأديان عن منازعته فقال :

﴿ لكل أمة جعلنا منسكاً ﴾ أي لكل قرن من القرون الماضية والباقية وضعنا شريعة خاصة بحيث لا تتخطى أمة منهم شريعتها المعينة لها الى شريعة أخرى ؛ لا استقلالاً ولا اشتراكاً . وقيل عيداً . وقيل موضع قربان يذبحون فيه . وقيل موضع عبادة .

﴿ هم ناسكوه ﴾ الضمير لكل أمة ، أي تلك الأمة هي العاملة به لا غيرها ، فكانت التوراة منسك الأمة التي كانت من مبعث موسى إلى مبعث عيسى ، والانجيل منسك الأمة التي كانت من مبعث عيسى الى مبعث محمد صلى الله عليه وسلم ؛ والقرآن منسك المسلمين الى يوم القيامة ، والمنسك مصدر لا اسم مكان كما يدل عليه هم ناسكوه ، ولم يقل ناسكون فيه . وقيل هو الذبائح ولا وجه للتخصيص ولا اعتبار بخصوص السبب .

﴿ فلا ينازعنك في الأمر ﴾ الفاء لترتيب النهي على ما قبله والضمير

راجع الى الأمم الباقية آثارهم . يعني قد عينا لكل أمة شريعة ، ومن جملة الأمم هذه الأمة المحمدية وذلك موجب لعدم منازعة من بقي منهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ومستلزم لطاعتهم إياه في أمر الدين، والنهي إما على حقيقته أو كناية عن نهيه عن الالتفات إلى نزاعهم له.

قال الزجاج : إنه نهي له صلى الله عليه وسلم عن منازعتهم ، أي لا تنازعهم أنت كما تقول لا يخاصمك فلان ، أي لا تخاصمه ، وكما تقول لا يضاربنك فلان ، أي لا تضاربه ، وذلك أن المفاعلة تقتضي العكس ضمناً ، ولا يجوز لا يضربنك فلان وأنت تريد لا تضربه .

وحكي عن الزجاج أنه قال في معنى الآية : فلا ينازعنك ، أي فلا يجادلنك ؛ قال ودل على هذا وإن جادلوك . وقرىء فلا ينزعنك في الأمر أي لا يستخفنك ولا يغلبنك عن دينك . وقرأ الجمهور فلا ينازعنك من المنازعة كما تقدم .

وقال ابن عباس : هم ناسكوه أي ذابحوه فلا ينازعنك في الأمر أي في الذبح ،وعن عكرمة ومجاهد نحوه ، وعن مجاهد قال : قول أهل الشرك ، أما ما ذبح الله بيمينه فلا تأكلوه ، وأما ما ذبحتم بأيديكم فهو حلال .

﴿ وادع ﴾ هؤلاء المنازعين أو ادع الناس على العموم ﴿ إلى ﴾ دين ﴿ ربك ﴾ وتوحيده والايمان به ﴿ إنك لعلى هدى ﴾ أي طريق ﴿ مستقيم ﴾ لا اعوجاج فيه ﴿ وإن جادلوك ﴾ أي وان أبوا إلا الجدال بعد البيان لهم وظهور الحجة عليهم .

﴿ فقل الله أعلم بما تعملون ﴾ فكل امرهم الى الله ، وقل لهم هذا القول المشتمل على الوعيد ﴿ الله يحكم بينكم ﴾ أي بين المسلمين والكافرين ﴿ يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون ﴾ من أمر الدين فيتبين حينئذ الحق من الباطل ، وفي هذه الآية تعليم لهذه الأمة بما ينبغي لهم أن يجيبوا به من أراد الجدال بالباطل .

أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾

وقيل إنها منسوخة بآية السيف وهذا إنما يصح اذا كان المراد من قوله : ﴿وإن جادلوك﴾ الكف عن قتالهم وهو غير متعين ؛ بل يصح أن يكون المعنى : فاترك جدالهم وفوض الأمر الى الله فيكون هذا وعيداً لهم على أعمالهم ، وهذا المعنى لا تنسخه آية السيف ، بل هو باق بعد مشروعية القتال لعدم المنافاة .

﴿ ألم تعلم ؟ ﴾ مستأنفة مقررة لمضمون ما قبلها ، والاستفهام للتقرير أي قد علمت يا محمد وتيقنت ﴿ أن الله يعلم ما في السماء والأرض ﴾ ومن جملة ذلك ما أنتم عليه من الاختلاف ﴿إن ذلك﴾ الذي في السماء والأرض من معلوماته ﴿ في كتاب ﴾ أي مكتوب عنده في أم الكتاب .

أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال : خلق الله اللوح المحفوظ مسيرة مائة عام ، وقال للقلم قبل أن يخلق الخلق وهو على عرشه : اكتب ، قال : ما أكتب ؟ قال : علمي في خلقي الى يوم تقوم الساعة ، فجرى القلم بما هو كائن في علم الله الى يوم القيامة ، فذلك قوله سبحانه

للنبي صلى الله عليه وسلم : ﴿ألم تعلم إن الله يعلم ما في السماء والأرض﴾ يعني ما في السموات السبع والأرضين السبع ، إن ذلك العلم في كتاب ، يعني في اللوح المحفوظ ، مكتوب قبل أن يخلق السموات والأرضين .

﴿إن ذلك﴾ يعني إن الحكم منه سبحانه بين عباده فيما يختلفون فيه ﴿على الله يسير﴾ أي هين أو أن إحاطة علمه بما في السماء والأرض جملة وتفصيلاً يسير عليه ، وان تعذر على الخلق .

﴿ويعبدون من دون الله ما لم ينزل به سلطاناً﴾ هذا حكاية لبعض فضائحهم أي أنهم يعبدون أصناماً : لم يتمسكوا في عبادتها بحجة نيرة من الله سبحانه فهو نفي للدليل السمعي ﴿وما ليس لهم به علم﴾ من دليل عقلي يدل على جواز ذلك بوجه من الوجوه ﴿وما للظالمين﴾ بالاشراك ﴿من نصير﴾ ينصرهم ويدفع عنهم عذاب الله ، وقد تقدم الكلام على هذه الآية في آل عمران .

﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا﴾ من القرآن ﴿بينات﴾ أي حال كونها واضحات ظاهرات الدلالة ﴿تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر﴾ أي الأمر الذي ينكر وهو غضبهم وعبوسهم عند سماعها أو المراد بالمنكر الانكار أي تعرف في وجوههم إنكارها والمنكر مصدر ، وقيل هو التجبر والترفع وهذا من إيقاع الظاهر موقع المضمر للشهادة عليهم بوصف الكفر .

﴿يكادون يسطون﴾ السطو : الوثب والبطش ، والسطوة شدة البطش ، يقال سطا به يسطو إذا بطش به بضرب أو شتم أو أخذ باليد ، وأصل السطو : القهر ، وقال ابن عباس : أي يبطشون ﴿بالذين يتلون عليهم آياتنا﴾ هم النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله تعالى عنهم ، والجملة مستأنفة ؛ كأنه قيل ما ذلك المنكر الذي يعرف في وجوههم ؟

فقيل : يكادون يسطون ، وهكذا ترى أهل البدع المضلة إذا سمع الواحد منهم ما يتلوه العالم عليهم من آيات الكتاب العزيز أو من السنة الصحيحة ، مخالفاً لما اعتقده من الباطل والضلالة رأيت في وجهه من المنكر ما لو تمكن من أن يسطو بذلك العالم لفعل به ما لا يفعله بالمشركين .

وقد رأينا وسمعنا من ذلك من أهل البدع ما لا يحيط به الوصف والله ناصر الحق ومظهر الدين ، ومدحض الباطل ، ودامغ البدع وحافظ المتكلمين بما أخذه عليهم المبينين للناس ما نزل اليهم وهو حسبنا ونعم الوكيل ؛ ثم أمر رسوله أن يرد عليهم فقال :

﴿ قل أفأنبئكم ﴾ أي أخبركم ﴿ بشرٍّ من ذلكم ﴾ الذي فيكم من الغيظ على من يتلو عليكم آيات الله ومقاربتكم للوثوب وهو ﴿ النار ﴾ التي ﴿ وعدها الله الذين كفروا ﴾ وقيل المعنى أفأخبركم بشر مما يلحق تالي القرآن منكم من الأذى والتوعد لهم والتوثب عليهم ، وقرىء النار بالحركات الثلاث ﴿ وبئس المصير ﴾ أي الموضع الذي يصيرون اليه وهو النار .

﴿ يا أيها الناس ضرب مثل ﴾ هذا متصل بقوله : ﴿ ويعبدون من دون الله ﴾ ، وإنما قال ضرب مثل لأن حجج الله عليهم بضرب الأمثال لهم أقرب الى أفهامهم، قال ابن عباس : نزلت في صنم ، قال الأخفش : ليس ثَمَّ مثل وإنما المعنى ضربوا لي مثلاً ؛ قال النحاس : المعنى ضرب الله عز وجل لما يعبدونه من دونه مثلاً ، قال : وهذا من أحسن ما قيل فيه أي بين الله لكم شبهاً ولمعبودكم ، وقال القتيبي : معنى ضرب مثل أي عبدت آلهة لم تستطع أن تخلق ذباباً ، وأصل المثل جملة من الكلام متلقاة بالرضاء والقبول مسيرة في الناس مستغربة عندهم وجعلوا مضربها مثلاً لموردها ، ثم قد يستعيرونها للقصة أو الحالة أو الصفة المستغربة لكونها مماثلة لها في الغرابة كهذه القصة المذكورة في هذه الآية .

﴿ فاستمعوا له ﴾ أي لضرب هذا المثل وتدبروه حق تدبره ، فإن الاستماع بلا تدبر وتعقل لا ينفع ، والمعنى أن الكفار جعلوا لله مثلاً لعبادتهم غيره فكأنه قال : جعلوا لي شبيهاً في عبادتي فاستمعوا خبر هذا الشبه ، ثم بين حالها وصفتها فقال :

﴿ إن الذين تدعون من دون الله ﴾ المراد بهم الأصنام التي كانت حول الكعبة وغيرها ، وقيل المراد بهم السادة الذين صرفوهم عن طاعة الله ، لكونهم أهل الحل والعقد فيهم؛ وقيل الشياطين الذين حملوهم على معصية الله ، والأول أوفق بالمقام وأظهر في التمثيل .

﴿ لن يخلقوا ذباباً ﴾ واحداً مع ضعفه وصغره وقلته وهو اسم للواحد يطلق على الذكر والانثى وجمع القلة إذبة والكثرة ذِبان بالكسر مثل غراب وأغربة وغربان وبالضم كقضبان .

وقال الجوهري : الذباب معروف، الواحد ذبابة ، وسمي ذباباً لأنه كلما ذب لاستقذاره آب لاستكباره و﴿ لن ﴾ لتأكيد النفي المستقبل وتأكيده هنا للدلالة على أن خلق الذباب منهم مستحيل ، كأنه قال : محال أن يخلقوا .

وتخصيص الذباب لمهانته واستقذاره ، والمعنى لن يقدروا على خلقه مع كونه صغير الجسم حقير الذات وهو أجهل الحيوانات ، لأنه يرمي نفسه في المهلكات ، ومدة عيشه أربعون يوماً ، وأصل خلقته من العفونات ثم يتوالد بعضه من بعض يقع روثه على الشيء الأبيض فيرى أسود ، وعلى الأسود فيرى أبيض .

﴿ ولو اجتمعوا له ﴾ أي لخلق الذباب ، والتقدير لن يخلقوه على كل حال ، ولو في هذه الحالة المقتضية لجمعهم ، فكأنه تعالى قال : إن هذه الأصنام إنِ اجتمعت لا تقدر على خلق ذبابة على ضعفها فكيف يليق بالعاقل

جعلها معبوداً كما أشار اليه في التقرير ، ثم بين سبحانه كمال عجزهم وضعف قدرتهم فقال :

﴿ وإنْ يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ﴾ أي إذا أخذ واختطف منهم هذا الخلق الأقل الأرذل شيئاً من الأشياء بسرعة لا يقدرون على تخليصه منه ؛ لكمال عزهم وفرط ضعفهم ، والاستنقاذ والانقاذ التخليص ، وإذا عجزوا عن خلق هذا الحيوان الضعيف ، وعن استنقاذ ما أخذه منهم فهم عن غيره مما هو أكبر منه جرماً وأشد منه قوة وأعجز وأضعف، قال عكرمة : أي لا تستنقذ الاصنام ذلك الشيء ، ثم عجب سبحانه من ضعف الاصنام والذباب فقال :

﴿ ضعف الطالب والمطلوب ﴾ فالصنم كالطالب من حيث إنه يطلب خلق الذباب أو يطلب استنقاذ ما سلبه منه ، والمطلوب الذباب وهذا كالتسوية بينهم وبين الذباب في الضعف ولو حققت وجدت الطالب أضعف فإن الذباب حيوان وهو جماد وهو غالب وذاك مغلوب ، وقيل الطالب عابد الصنم والمطلوب الصنم قال ابن عباس : الطالب آلهتهم والمطلوب الذباب ، ثم بين سبحانه أن المشركين الذين عبدوا من دون الله آلهة عاجزة إلى هذه الغاية في العجز ما عرفوا الله حق معرفته فقال :

﴿ما قدروا الله حق قدره﴾ أي ما عظموه حق تعظيمه، ولا عرفوه حق معرفته حيث جعلوا هذه الأصنام شركاء له مع كون حالها هذا الحال ، وقد

﴿مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾

تقدم في الأنعام ﴿إن الله لقوي﴾ على خلق كل شيء ﴿عزيز﴾ غالب لا يغالبه أحد بخلاف آلهة المشركين ، فإنها جماد لا يعقل ولا ينفع ولا يضر ولا يقدر على شيء ،ثم أراد سبحانه أن يرد عليهم ما يعتقدونه في النبوات والآلهيات فقال :

﴿الله يصطفي من الملائكة رسلاً﴾ كجبريل وإسرافيل وميكائيل وعزرائيل[1] والحفظة ﴿و﴾ يصطفي أيضاً رسلاً ﴿من الناس﴾ وهم الأنبياء فيرسل الملك إلى النبي والنبي الى الناس أو يرسل الملك بقبض أرواح مخلوقاته أو لتحصيل ما ينفعه أو لانزال العذاب عليهم .

أخرج الحاكم وصححه عن عكرمة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله اصطفى موسى بالكلام وإبراهيم بالخلة »[2]؛ وأخرج عن

(١) لعل المصنف يريد بعزرائيل ملك الموت،ولم يثبت من طريق صحيح تسمية ملك الموت عزرائيل ـ المطيعي .

(٢) المستدرك كتاب التاريخ ٢/٥٧٥ .

أنس ، وصححه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « موسى بن عمران صفي الله »[1] قال المحلي : نزل لما قال المشركون : ﴿أأنزل عليه الذكر من بيننا﴾ أي وليس بأكبرنا ولا أشرفنا ، والقائل هو الوليد بن المغيرة ، ووجه مناسبة هذه الآية لما قبلها أنه لما ذكر ما يتعلق بالآلهيات ذكر ههنا ما يتعلق بالنبوءات ، وقال الرازي : وجه المناسبة أنه لما أبطل فيما قبلها عبادة الأوثان أبطل ههنا عبادة الملائكة .

﴿ إن الله سميع ﴾ لأقوال عباده ﴿ بصير ﴾ بمن يختاره من خلقه ﴿ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ﴾ أي ما قدموا من الأعمال ، وما يتركونه من الخير والشر ، كقوله تعالى : ﴿ ونكتب ما قدموا وآثارَهم﴾ وقيل ما مضى ولم يأت وقيل ما عملوا وما سيعملونه أو أمر الدنيا وأمر الآخرة .

﴿وإلى الله ﴾ لا إلى غيره ﴿ ترجع الأمور ﴾ لما تضمن ما ذكره من أن الأمور ترجع إليه،الزجر لعباده عن معاصيه ، والحض لهم على طاعاته ، صرح بالمقصود فقال :

﴿ يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا ﴾ أي صلوا الصلاة التي شرعها الله لكم ، لأن الصلاة لا تكون إلا بالركوع والسجود ، وخص الصلاة لكونها أشرف العبادات ، ثم عمم فقال : ﴿ واعبدوا ربكم ﴾ أي افعلوا جميع أنواع العبادة التي أمركم الله بها ، وقيل وحّدوه ﴿ وافعلوا الخير ﴾ أي ما هو خير وهو أعم من الطاعة الواجبة والمندوبة وقيل المراد بالخير هنا المندوبات ثم علل ذلك بقوله :

﴿ لعلكم تفلحون ﴾ أي إذا فعلتم هذه كلها رجوتم الفلاح ، وفي هذا إشارة إلى أن دخول الجنة ليس مرتباً على هذه الأعمال مثلاً ، بل هذه الأمور كلفنا الله بها شرعاً ، وأما قبولها فشيء آخر يتفضل الله به علينا ، وهذه الآية

(١) المستدرك كتاب التاريخ ٢/٥٧٦ .

من مواطن سجود التلاوة عند الشافعي ومن وافقه ، لا عند أبي حنيفة ومن قال بقوله ، وقد تقدم أن هذه السورة فضلت بسجدتين وهذا دليل على ثبوت السجود عند تلاوة هذه الآية .

وقد اختلف في عدة سجود التلاوة فذهب أكثر أهل العلم إلى أنها أربع عشرة سجدة ، لكن الشافعي رحمه الله تعالى قال : في الحج سجدتان ، وأسقط سجدة ص ، وقال أبو حنفية : في الحج سجدة ، وأثبت سجدة ص، وقيل خمس عشرة سجدة ، وقال قوم : ليس في المفصل سجدة ، فعلى هذا تكون إحدى عشرة سجدة ، وسجود التلاوة سنة عند الشافعي ؛ وواجب عند أبي حنيفة ، ودلائل الأقوال مبسوطة في مواطنها ، ثم أمرهم بما هو سنة الدين وأعظم أعماله فقال :

﴿ وجاهدوا في الله ﴾ أي في ذاته من أجله ، والمراد به الجهاد الأكبر وهو الغزو للكفار ومدافعتهم إذا غزوا بلاد المسلمين ، وقيل المراد بالجهاد هنا امتثال ما أمرهم الله به في الآية المتقدمة ، وامتثال جميع ما أمر به ونهى عنه على العموم .

ومعنى ﴿حقَّ جهاده﴾ المبالغة في الأمر بهذا الجهاد باستفراغ الطاقة لأنه أضاف الحق الى الجهاد ، والأصل اضافة الجهاد الى الحق أي جهاداً خالصاً لله فعكس ذلك لقصد المبالغة وأضاف الجهاد الى الضمير اتساعاً أو لاختصاصه به سبحانه من حيث كونه مفعولاً له ، ومن أجله ، وقيل المراد بحق جهاده هو أن لا يخافوا في الله لومة لائم ، وقيل المراد به استفراغ ما في وسعهم في احياء دين الله وقال مقاتل والكلبي : ان الآية منسوخة بقوله تعالى : ﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾ كما أن قوله : ﴿ اتقوا الله حق تقاته ﴾ منسوخ بذلك ، ورد ذلك بأن التكليف مشروط بالقدرة فلا حاجة إلى المصير الى النسخ .

عن عبد الرحمن بن عوف قال : قال لي عمر : ألسنا كنا نقرأ فيما نقرأ ﴿وجاهدوا في الله حق جهاده﴾ في آخر الزمان ، كما جاهدتم في أوله ؟ قلت بلى

ومتى هذا يا أمير المؤمنين؟ قال : إذا كانت بنو أمية الأمراء وبنو المغيرة الوزراء .

وأخرج الترمذي وصححه وابن حبان عن فضالة بن عبيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «المجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله»[1] ، ثم عظم سبحانه شأن المكلفين بقوله : ﴿ هو اجتباكم ﴾ أي اختاركم لدينه وفيه تشريف لهم عظيم ، ثم لما كان في التكليف مشقة على النفس في بعض الحالات قال :

﴿ وما جعل عليكم في الدين من حرج ﴾ أي من ضيق وشدة ، وقد اختلف العلماء في هذا الحرج الذي رفعه الله فقيل هو ما أحله الله من النساء مثنى وثلاث ورباع وملك اليمين ، وقيل المراد قصر الصلاة والإفطار للمسافر والصلاة بالايماء على من لا يقدر على غيره وإسقاط الجهاد عن الأعرج والأعمى والمريض وأكل الميتة عند الضرورة واغتفار الخطأ في تقديم الصيام وتأخيره لاختلاف الأهلة وكذا في الفطر والأضحى ، وقيل المعنى أنه سبحانه ما جعل عليهم حرجاً بتكليف ما يشق عليهم ، ولكن كلفهم بما يقدرون عليه ، ورفع عنهم التكاليف التي فيها حرج فلم يتعبدهم بها كما تعبد بها بني إسرائيل .

وقيل المراد بذلك أنه جعل لهم من الذنب مخرجاً بفتح باب التوبة ، وقبول الاستغفار والتكفير فيما شرع فيه الكفارة ، والأرش أو القصاص في الجنايات ورد المال أو مثله ، أو قيمته في الغصب ونحوه ؛ فليس في دين الاسلام ما لا يجد العمد فيه سبيلاً الى الخلاص من الذنوب ومن العقاب ، وقيل المراد بالدين التوحيد ولا حرج فيه ، بل فيه تخفيف فإنه يكفّر ما قبله من الشرك وان امتد ولا يتوقف الاتيان به على زمان أو مكان معين .

---

(١) الترمذي كتاب فضائل الجهاد الباب ٢ أحمد بن حنبل ٦/٢٠ ـ ٢٢ .

وفي القرطبي . قال العلماء : رفع الحرج انما هو لمن استقام على منهاج الشرع ؛ وأما السُّرّاق وأصحاب الحدود فعليهم الحرج وهم جاعلوه على أنفسهم بمفارقتهم الدين ، وليس في الشرع أعظم حرجاً من إلزام ثبات رجل لاثنين في سبيل الله ، لكنه مع صحة اليقين وجودة العزم ليس بحرج،انتهى .

والمعنى الأول أولى ، والظاهر أن الآية أعم من هذا كله فقط حط سبحانه ما فيه مشقة من التكاليف على عباده إما بإسقاطها من الأصل وعدم التكليف بها كما كلف بها غيرهم أو بالتخفيف ، وتجويز العدول إلى بدل لا مشقة فيه أو بمشروعية التخلص عن الذنب بالوجه الذي شرعه الله،وما أنفع هذه الآية وأجل موقعها وأعظم فائدتها ، ومثلها قوله سبحانه : ﴿ فاتقوا الله ما استطعتم ﴾ وقوله : ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾ وقوله : ﴿ ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولا تحمِّلنا ما لا طاقة لنا به﴾ وفي الحديث الصحيح أنه سبحانه قال : « قد فعلت » كما سبق بيانه في تفسير هذه الآية والأحاديث في هذا كثيرة .

وعن عائشة أنها سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية فقال : «الضيق». وقال أبو هريرة لابن عباس : أما علينا في الدين من حرج في أن نسرق أو نزني ؟ قال: بلى ؛ قال : فما هذه الآية ؟ قال : الإصر الذي كان على بني إسرائيل وضع عنكم،وعن ابن عباس كان يقول : وما جعل عليكم في الدين من حرج، توسعة الاسلام وما جعل الله من التوبة والكفارات ، وعنه قال : هذا في هلال رمضان إذا شك فيه الناس ، وفي الحج اذا شكوا في الأضحى ، وفي الفطر وأشباهه ، وعنه سئل عن الحرج فقال : ادع لي رجلاً من هذيل فجاءه فقال : ما الحرج فيكم ؟ قال : الحرجة من الشجر التي ليس فيها مخرج ، فقال ابن عباس : الذي ليس له مخرج ، وفي لفظ قال الهذيلي : الشيء الضيق قال : هو ذاك ، وعن عمر بن الخطاب قرأ هذه الآية ثم قال : ادع لي رجلاً من بني مدلج وقال : ما الحرج فيكم ؟ قال : الضيق .

﴿ ملة أبيكم ابراهيم ﴾ أي وسع عليكم دينكم توسعة ملة أبيكم قاله الزمخشري وقال الزجاج : المعنى اتبعوا ملة أبيكم ، وبه قال الحوفي ، واتّبعه أبو البقاء ، وقال الفراء : كملة أبيكم ، وقيل التقدير وافعلوا الخير كفعل أبيكم ابراهيم فأقام الملة مقام الفعل وقيل النصب على الاغراء وقيل على الاختصاص أي اعني بالدين ملة أبيكم، وإنما جعله سبحانه أباهم لأنه أبو العرب قاطبة ، ولأن له عند غير العرب الذين لم يكونوا من ذريته حرمة عظيمة كحرمة الأب على الابن لكونه أباً لنبيهم صلى الله عليه وسلم ، قال السديّ : ملة أبيكم أي دين أبيكم .

﴿ هو سماكم المسلمين من قبل ﴾ أي قبل نزول القرآن في الكتب المتقدمة ، قال ابن عباس : الله عز وجل سماكم ، وروي نحوه عن جماعة من التابعين ، وأخرج أحمد والبخاري في تاريخه ، والترمذي وصححه والنسائي والبيهقي وغيرهم ، عن الحرث الأشعري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من دعا بدعوى الجاهلية فإنّه من جثيّ جهنم » قال رجل : يا رسول الله وإن صام وصلى ؟ قال : نعم فادعوا بدعوة الله التي سماكم بها المسلمين والمؤمنين عباد الله[1] ، وقيل إن الكناية راجعة الى إبراهيم يعني ابراهيم سماكم المسلمين في أيامه من قبل هذا الوقت وهو قوله : ﴿ ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ﴾ فاستجاب الله دعاءه فينا .

﴿ وفي هذا ﴾ أي في حكمه أن من اتبع محمداً (ﷺ) فهو مسلم ، قال النحاس : وهذا القول مخالف لقول علماء الأمة ، وقيل أي في القرآن يعني فضلكم على سائر الأمم وسماكم بهذا الاسم الأكرم ، ثم علل سبحانه ذلك بقوله :

﴿ ليكون الرسول شهيداً عليكم ﴾ يوم القيامة بتبليغه إليكم

---

(١) الترمذي كتاب الأدب الباب ٧٨ .

﴿ وتكونوا ﴾ أنتم ﴿ شهداء على الناس ﴾ أن رسلهم قد بلغتهم ، فإن تسمية الله أو ابراهيم لهم حكم بإسلامهم وعدالتهم وهو سبب لقبول شهادة الرسول الداخل فيهم دخولاً أولياً وقبول شهادتهم على الأمم ، قاله الشهاب ، وقد تقدم بيان معنى هذه الآية في البقرة ، ثم أمرهم بما هو أعظم الأركان الاسلامية فقال :

﴿ فأقيموا الصلاة ﴾ بواجباتها وداوموا عليها ﴿ وآتوا الزكاة ﴾ بشرائطها وتخصيص الخصلتين بالذكر لمزيد شرفهما ﴿ واعتصموا بالله ﴾ أي اجعلوه عصمة لكم مما تحذرون والتجئوا اليه في جميع احوالكم ولا تطلبوا ذلك إلا منه ، وقيل الاعتصام هو التمسك بالكتاب والسنة ، وقيل تمسكوا بدين الله ، وقيل ثقوا به تعالى في مجامع أموركم ﴿ هو مولاكم ﴾ أي ناصركم ومتولي أموركم دقيقها وجليلها ﴿ فنعم المولى ﴾ هو ﴿ ونعم النصير ﴾ أي الناصر لكم هو يعني لا مماثل له في الولاية لأموركم ، والنصرة على أعدائكم .



سورة المؤمنون

﴿ وهي مكية وآياتها مائة وثماني عشرة ﴾

قال القرطبي : كلها مكيّة في قول الجميع ، أي بلا خلاف وآياتها مائة وتسع عشرة آية عند البصريين ، ومائة وثماني عشرة آية عند الكوفيين وسبب هذا اختلافهم في قوله : ﴿ ثم أرسلنا موسى وأخاه هرون بآياتنا وسلطان مبين ﴾ ، هل هو آية أو بعض آية . وقد أخرج أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجة وغيرهم عن عبد الله بن السائب قال: صلى النبي صلى الله عليه وسلم بمكة الصبح، فاستفتح سورة المؤمنين حتى اذا جاء ذكر موسى وهرون، أو ذكر عيسى أخذته سعلة فركع[1] . وأخرج البيهقي من حديث أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لما خلق الجنة قال لها تكلمي ، فقالت : قد أفلح المؤمنون » وقد ورد في فضائل العشر الآيات من أول هذه السورة ما سيأتي قريبا .

---

(١) مسلم ٤٥٥ .



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ۝٤ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۝٧ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ۝٨ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ۝١٠ ﴾

﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾ قال الفراء : قد لتأكيد فلاحهم ، وإفادة ثبوت ما كان يتوقع الثبوت من قبل ، أو لتقريب الماضي من الحال ، ألا تراهم يقولون : قد قامت الصلاة قبل حال قيامها . والمعنى أن الفلاح قد حصل لهم وأنهم عليه في الحال ، والفلاح الظفر بالمراد ، والفوز بالمرام والنجاة عن المكروه . وقيل البقاء في الخير ، ويقال أفلح إذا دخل في الفلاح ؛ ويقال أفلحه إذا أصاره إلى الفلاح وقد تقدم معنى الفلاح في البقرة .

وقرىء أُفلح بناء للمفعول ، وقرىء أفلحوا على الابهام والتفسير، أو على لغة أكلوني البراغيث.

وقد أخرج أحمد والترمذي والنسائي وغيرهم عن عمر بن الخطاب قال : كان اذا أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم الوحي يسمع عند وجهه كدوي النحل فأنزل الله عليه يوماً ، فمكثنا ساعة فسرّى عنه فاستقبل القبلة فقال : « اللهم زدنا ولا تنقصنا وأكرمنا ولا تهنا وأعطنا ولا تحرمنا وآثرنا ولا تؤثر علينا وأرضنا وارض عنا ، ثم قال : لقد انزل عليّ عشر آيات من أقامهن دخل الجنة » ثم قرأ قد أفلح المؤمنون ، حتى ختم العشر ، وفي اسناده يونس ابن سليم[1] .

---

(١) الترمذي كتاب التفسير سورة ٢٣ /١ .

قال النسائي : لا نعرفه،وعن يزيد بن بابنوسَ قال: قلنا لعائشة : كيف كان خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قالت كان خلقه القرآن ، ثم قالت تقرأ سورة المؤمنين ، اقرأ قد أفلح المؤمنون ـ حتى بلغ العشر ـ فقالت هكذا كان خلق رسول الله « ﷺ » ثم وصف هؤلاء المؤمنين بقوله:

﴿ الـذين هم في صلاتهم خاشعون ﴾ وما عطف عليه ، والخشوع منهم من جعله من أفعال القلوب ، كالخوف والرهبـة ، ومنهم من جعله من أفعال الجوارح كالسكون وترك الالتفات والعبث ، وهو في اللغة السكون والتواضع والخوف والتذلل . وقد اختلف الناس في الخشوع هل هو من فرائض الصلاة أو من فضائلها؟ على قولين . قيل الصحيح الأول وقيل الثاني ، وادعى عبد الواحد بن يزيد اجماع العلماء على أنه ليس للعبد الا ما عقل من صلاته .

حكاه النيسابوري في تفسيره قال : ومما يدل على صحة القول قـوله تعالى : ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ﴾ والتدبر لا يتصور بدون الوقوف على المعنى ، وكذا قال : ﴿ أقم الصلاة لذكري ﴾ والغفلة تضاد الذكر ، ولهذا قال : ﴿ ولا تكن من الغافلين ﴾ وقوله : ﴿ حتى تعلموا ما تقولون ﴾ نهى للسكران والمستغرق في هموم الدنيا بمنزلته .

أخرج البيهقي عن محمد بن سيرين قال : « نبئت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اذا صلى رفع بصره الى السماء فنزلت ﴿ الذين هم في صلاتهم خاشعون ﴾ وزاد عبد الرزاق عنه فأمره بالخشوع فرمى ببصره نحو مسجده .

وأخرج الحاكم وصححه والبيهقي في سننه عن أبي هريرة كان اذا صلى رفع بصره الى السماء فنزلت هذه الآية فطأطأ رأسه .

وعن علي قال : الخشوع في القلب وأن تلين كنفك للمرء المسلم وأن لا تلتفت في صلاتك . وقال ابن عباس : خاشعون ، خائفون ساكنون ، وقيل

خاضعون بالقلب ساكنون بالجوارح فلا يلتفون يميناً ولا شمالاً ، وهذا من فروض الصلاة عند الغزالي . وذهب بعضهم الى أنه ليس بواجب لأن اشتراط الخضوع والخشوع مخالف لاجماع الفقهاء فلا يلتفت اليه ، وقد ورد في مشروعية الخشوع في الصلاة والنهي عن الالتفات وعن رفع البصر الى السماء أحاديث معروفة في كتب الحديث .

﴿ والذين‌هم عن اللغو معرضون ﴾ قال الزجاج : اللغو هو كل باطل ولهو وهزل ومعصية وما لا يجمل من القول والفعل ، وقد تقدم تفسيره في البقرة . وقال الضحاك : إن اللغو هنا الشرك . وقال الحسن : إنه المعاصي كلها ، وقيل هو معارضة الكفار بالسب والشتم . وقال ابن عباس : اللغو الباطل . وقيل المراد باللغو كل ما كان حراماً أو مكروهاً أو مباحاً لم تدع اليه ضرورة ولا حاجة .

والمعنى أن لهم من الجد ما شغلهم عن الهزل ، وفي وصفهم بالخشوع أولاً وبالاعراض ثانياً جمع لهم الفعل والترك الشاقين على الأنفس اللذين هما قاعدتا بناء التكليف ، ومعنى اعراضهم عنه تجنبهم له وعدم التفاتهم اليه ، وظاهره اتصافهم بصفة الاعراض عن اللغو في كل الأوقات ، فيدخل وقت الصلاة في ذلك دخولاً أولياً ، كما تفيده الجملة الاسمية .

﴿ والذين هم للزكاة فاعلون ﴾ أي يؤدونها ، فعبر عن التأدية بالفعل لأنها مما يصدق عليه الفعل ، أو المراد بالزكاة هنا المصدر لأنه الصادر عن الفاعل . وقيل يجوز أن يراد بها العين على تقدير مضاف ، أي والذين هم لتأدية الزكاة فاعلون ، أي دائمون .

﴿ والذين هم لفروجهم حافظون ﴾ الفرج يطلق على فرج الرجل والمرأة ، فهو اسم سوأتها ، والمراد بحفظها لها أنهم ممسكون لها بالعفاف عما

لا يحل لهم، قيل والمراد هنا الرجال خاصة دون النساء بدليل قوله : ﴿ الا على أزواجهم ﴾ الخ للإجماع على أنه لا يحل للمرأة أن يطأها من تملكه .

قال الفراء : (على) بمعنى من، وقيل إن الاستثناء من نفي الارسال المفهوم من الحفظ ، أي لا يرسلونها على أحد الا على أزواجهم ، وقيل يلامون على كل مباشرة الا على ما أحل لهم فإنهم غير ملومين عليه ، ودل على المحذوف ذكر اللوم في آخر الآية .

وقيل المعنى الا والين على أزواجهم وقوامين عليهن ، من قولهم : كان فلان على فلانة فمات عنها فخُلِّف عليها فلان[1] قاله الزمخشري ، والمعنى أنهم لفروجهم حافظون في جميع الأحوال إلا في حال تزوّجهم أو تسريهم ، وجملة ﴿ أو ما ملكت أيمانهم ﴾ في محل جر ، والمراد بذلك الإماء ، وعبر عنهن بـ ﴿ ما ﴾ التي لغير العقلاء لأنه اجتمع فيهن الأنوثة المنبئة عن قصور العقل وجواز البيع والشراء فيهن كسائر السلع ؛ فأجراهن بهذين الأمرين مجرى غير العقلاء ، ولهذا تباع كما تباع البهائم ، والمراد الاماء والجواري .

﴿ فإنهم غير ملومين ﴾ في إتيانهن بجماع أو غيره تعليل للاستثناء مما لا يجب عليهم حفظ فروجهم منه .

﴿ فمن ابتغى وراء ﴾ أي سوى ﴿ ذلك ﴾ من الزوجات وملك اليمين وقال الزجاج : ما بعد ذلك ﴿ فأولئك هم العادون ﴾ أي المجاوزون إلى ما لا يحل لهم فسمى سبحانه من نكح ما لا يحل عادياً . وقد دلت هذه الآية على تحريم نكاح المتعة . وعن القاسم بن محمد أنه سئل عن المتعة فقال : إني لأرى تحريمها في القرآن ثم تلا هذه الآية واستدل بها بعض أهل العلم على تحريم الاستمناء لأنه من الوراء لما ذكر ، فهو حرام عند الجمهور ؛ وقد جمع شيخنا الشوكاني في ذلك رسالة سماها بلوغ المنى في حكم الاستمنا ، وذكر فيها أدلة

(١) فلان نائب فاعل لبناء خلف للمجهول .

المنع والجواز وترجيح الراجح منهما ﴿ والذين هم لأماناتهم ﴾ قرىء بالجمع ، وقرأ ابن كثير بالافراد ، والأمانة ما يؤتمنون عليه .

﴿ وعهدهم ﴾ هو ما يعاهدون عليه من جهة الله سبحانه ، أو من جهة عباده وقد جمع العهد والأمانة كل ما يتحمله الانسان من أمر الدين والدنيا ، فلا يرد ما يقال : كيف حكم على الموصوفين بالصفات السبعة بالفلاح مع أنه تعالى لم يتمم ذكر العبادات الواجبة كالصوم والحج ؛ والأمانة أعم من العهد ، فكل عهد أمانة ﴿ راعون ﴾ أي حافظون ، والراعي القائم على الشيء بحفظ وإصلاح كراعي الغنم ﴿ والذين هم على صلواتهم ﴾ قرأ الجمهور بالجمع ، ومن قرأ بالافراد فقد أراد اسم الجنس . وهو في معنى الجمع .

﴿ يحافظون ﴾ المحافظة على الصلاة إقامتها والمحافظة عليها في أوقاتها وإتمام ركوعها وسجودها وقراءتها والمشروع من أذكارها .

عن ابن مسعود أنه قيل له : إن الله يكثر ذكر الصلاة في القرآن الذين هم على صلاتهم دائمون ؛ والذين هم على صلاتهم يحافظون . قال ذلك على مواقيتها ، قالوا : ما كنا نرى ذلك الا على تركها ؛ قال : تركها كفر ، وقد وصفهم أولاً بالخشوع في الصلاة وآخراً بالمحافظة عليها فليس في الآية تكرار ، والطهارات دخلت في جملة المحافظة على الصلوات لكونها من شرائطها ، ثم مدح سبحانه هؤلاء فقال :

﴿ أولئك هم الوارثون ﴾ أي الأحقّاء بأن يسمّوا بهذا الاسم دون غيرهم ، لأن ضمير الفصل يدل على التخصيص ، والحصر اضافي لا حقيقي ، لأنه ثبت أن الجنة يدخلها الأطفال والمجانين والولدان والحور ، ويدخلها الفساق من أهل القبلة بعد العفو ، ولقوله تعالى : ﴿ ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ قاله الكرخي ، ثم بين الموروث بقوله :

﴿ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾﴾

﴿ الذين يرثون الفردوس ﴾ لغة رومية معربة ، وقيل فارسية ، وقيل حبشية ، وقيل عربية ، وهو أوسط الجنة وأعلى الجنان ، كما صح تفسيره بذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والمعنى أن من عمل بما ذكر في هذه الآيات فهو الوارث الذي يرث من الجنة ذلك المكان ، وهذا بيان لما يرثونه وتقييد للوراثة بعد اطلاقها وتفسير لها بعد ابهامها ، وتفخيم لها ورفع لمحلها : وهي استعارة لاستحقاقهم الفردوس بأعمالهم حسبما يقتضيه الوعد الكريم للمبالغة فيه .

وقيل المعنى أنهم يرثون من الكفار منازلهم فيها حيث فرقوها على أنفسهم ، لأنه سبحانه خلق لكل انسان منزلاً في الجنة ومنزلاً في النار .

وعن أبي هريرة قال : يرثون مساكنهم ومساكن اخوانهم التي أعدت لهم لو أطاعوا الله . وعنه قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «ما منكم من أحد الا وله منزلان ، منزل في الجنة ومنزل في النار ، فإذا مات ودخل النار ورث أهل الجنة منزله ، فذلك قوله : ﴿ أولئك هم الوارثون ﴾»[1] أخرجه ابن ماجة وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر والبيهقي وغيرهم ،

---

(١) ابن ماجة كتاب الزهد الباب ٣٩ .

وأخرجه الترمذي وقال حسن صحيح ، وعبد بن حميد عن انس فذكر قصة ، وفيها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « الفردوس ربوة الجنة وأوسطها وأفضلها »[١] .

ويدل على هذه الوراثة المذكورة هنا قوله تعالى : ﴿ تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقياً ﴾ ، وقوله : ﴿ تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون ﴾ وشهد لحديث أبي هريرة هذا ما في صحيح مسلم عن أبي موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يجيء يوم القيامة ناس من المسلمين بذنوب أمثال الجبال فيغفرها الله لهم : ويضعها على اليهود والنصارى »[٢] ، وفي لفظ له قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا كان يوم القيامة دفع الله إلى كل مسلم يهودياً أو نصرانياً فيقول : هذا فكاكك من النار »[٣] .

﴿ هم فيها خالدون ﴾ حالية أو مستأنفة لا محل لها ، ومعنى الخلود أنهم يدومون فيها لا يخرجون منها ولا يموتون فيها وتأنيث الضمير مع أنه راجع الى الفردوس لأنه بمعنى الجنة ، ولما حث الله سبحانه عباده على العبادة ، ووعدهم الفردوس على فعلها وتضمن ذلك المعاد الأخروي عاد إلى تقرير المبدإ ليتمكن ذلك في نفوس المكلفين ، فإن الابتداء في العادة أصعب من الإعادة لقوله : وهو أهون عليه ، وجملة ما ذكره من الدلائل أنواع أربعة .

الأول: الاستدلال بتقلب الانسان في أطوار الخلقة وهي تسعة آخرها تبعثون .

الثاني: خلق السموات بقوله : ﴿ ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق ﴾ .

الثالث: إنزال الماء بقوله : ﴿ وأنزلنا من السماء ماء ﴾ .

---

(١) الترمذي كتاب التفسير سورة ٢٣/٢ ـ احمد بن حنبل ٣/٢٦٠ .
(٢) مسلم ٢٧٦٧ .
(٣) مسلم ٢٧٦٧ .

الرابع: الاستدلال بأحوال الحيوانات بقوله : ﴿وإن لكم في الأنعام لعبرة ﴾ ، وأحوال الحيوان أربعة مذكورة في الآية فقال .

﴿ ولقد ﴾ أي والله لقد ﴿ خلقنا الانسان ﴾ أي الجنس لأنهم مخلوقون في ضمن خلق أبيهم آدم ، وقيل المراد به آدم ﴿ من سلالة ﴾ فعالة من السل وهو استخراج الشيء من الشيء ، والسلالة الخلاصة لأنها تسل من بين الكدر ، وقيل إنما سمي التراب الذي خلق آدم منه سلالة لأنه سلّ من كل تربة ، يقال : سللت الشعرة من العجين ، والسيف من الغمد ، فانسل فالنطفة سلالة ، والولد سليل وسلالة أيضاً .

وقيل السلالة الطين إذا عصرته انسل من بين أصابعك فالذي يخرج هو السلالة قاله الكلبي ، وعن ابن عباس قال : السلالة صفو الماء الرقيق الذي يكون منه الولد وعن ابن مسعود قال : إنَّ النطفة إذا وقعت في الرحم طارت في شعر وظفر ، فيمكث أربعين يوماً ثم ينحدر في الرحم فيكون علقة وللتابعين في تفسير السلالة أقوال قد قدمنا الاشارة اليها أي سلالة كائنة .

﴿ من طين ﴾ من للبيان ، والمعنى أنه سبحانه خلق جوهر الانسان اولاً من طين لأن الأصل آدم وهو من طين خالص وأولاده من طين ومني ﴿ ثم جعلناه ﴾ أي الجنس باعتبار أفراده الذين هم بنو آدم ، أو جعلنا نسله على حذف مضاف إن أريد بالانسان آدم ﴿ نطفة ﴾ قد تقدم تفسير النطفة في سورة الحج ، وكذلك تفسير العلقة والمضغة .

﴿ في قرار مكين ﴾ المراد به الرحم وعبر عنها بالقرار الذي هو مصدر مبالغة واختلاف العواطف بـ﴿ ثم ﴾ والفاء لتفاوت الاستحالات يعني أن بعضها مستبعد حصوله مما قبله وهو المعطوف بـ﴿ ثم ﴾ فجعل الاستبعاد عقلاً أو رتبة بمنزلة التراخي ، والبعد الحسي لأن حصول النطفة من أجزاء ترابية غريب جداً وكذا جعل النطفة البيضاء دماً أحمر بخلاف جعل الدم لحماً مشابهاً

له في اللون والصورة وكذا تصليبها حتى تصير عظماً ، لأنه قد يحصل ذلك بالمكث فيما يشاهد ، وكذا مدَّ لحم المضغة عليه ليستره ، فسقط ما قيل : ان الوارد في الحديث أن مدة كل استحالة أربعون يوماً ، وذلك يقتضي عطف الجميع بـ ﴿ ثم ﴾ ان نظر لآخر المدة وأولها أو يقتضي العطف بالفاء إن نظر لآخرها فقط .

﴿ ثم خلقنا النطفة علقة ﴾ أي أنه سبحانه أحال النطفة البيضاء علقة حمراء ﴿ فخلقنا العلقة مضغة ﴾ أي قطعة لحم غير مخلقة ﴿ فخلقنا المضغة ﴾ أي غالبها أو كلها ، قولان حكاهما أبو السعود ﴿ عظاماً ﴾ أي متصلبة لتكون عموداً للبدن على أشكال مخصوصة .

﴿ فكسونا العظام لحماً ﴾ من بقية المضغة أو مما أنبت الله سبحانه على كل عظم لحماً على المقدار الذي يليق به ويناسبه ﴿ثم أنشأناه خلقاً آخر﴾ مبايناً للخلق الأول أي نفخنا فيه الروح بعد أن كان جماداً، قاله ابن عباس، وبه قال مجاهد وعكرمة والشعبي والحسن وأبو العالية والربيع بن أنس والسدي والضحاك وابن زيد واختاره ابن جرير.

وقيل أخرجناه الى الدنيا ، وقيل هو نبات الشعر وقيل خروج الأسنان قاله ابن عباس ، وقيل تكميل القوى المخلوقة فيه ، وقيل كمال بابه ، وقيل إن ذلك تصريف أحواله بعد الولادة من الاستهلال إلى الرضاع إلى القعود والقيام إلى المشي الى الفطام الى أن يأكل ويشرب الى أن يبلغ الحلم ، ويتقلب في البلاد الى ما بعدها ، والصحيح أنه عام في هذا ؛ وفي غيره من النطق والادراك وحسن المحاولة وتحصيل المعقولات الى أن يموت ، قال الكرخي : المعنى حولنا النطفة عن صفاتها الى صفة لا يحيط بها وصف الواصفين .

﴿ فتبارك الله ﴾ أي استحق التعظيم والثناء ، وقيل مأخوذ من البركة

أي كثر خيره وبركته ﴿ أحسن الخالقين ﴾ أي المصورين والخلق في اللغة التقدير ، يقال خلقت الأديم اذا قسته لتقطع منه شيئاً؛ فمعناه أتقن الصانعين المقدرين خلقاً في الظاهر ، والا فالله خالق الكل .

عن صالح أبي الخليل : قال لما نزلت هذه الآية على النبي صلى الله عليه وسلم الى قوله : ﴿ ثم أنشأناه خلقاً آخر ﴾ ، قال عمر رضي الله عنه : فتبارك الله أحسن الخالقين قال : « والذي نفسي بيده ختمت بالذي تكلمت به يا عمر » .

وعن أنس قال : قال عمر : وافقت ربي في أربع قلت : يا رسول الله لو صلينا خلف المقام ؟ فأنزل الله : ﴿ واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى ﴾ ، وقلت : يا رسول الله لو اتخذت على نسائك حجاباً ؟ فإنه يدخل عليك البر والفاجر فأنزل الله : ﴿ واذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب ﴾ ، وقلت لأزواج النبي صلى الله عليه وسلم : لتنتهن أو ليبدلنه الله أزواجاً خيراً منكن فنزلت ﴿ عسى ربه إن طلقكن ﴾ الآية ، ونزلت ﴿ ولقد خلقنا الانسان من سلالة ﴾ الى قوله : ﴿ ثم أنشأناه خلقاً آخر ﴾ فقلت : فتبارك الله أحسن الخالقين ، أخرجه الطيالسي وابن أبي حاتم وابن مردويه وابن عساكر .

وعن زيد بن ثابت قال : أملى رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية ﴿ ولقد خلقنا الإنسان ﴾ الآية ، فقال معاذ بن جبل : فتبارك الله أحسن الخالقين ، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له معاذ : مم ضحكت يا رسول الله ؟ قال : « بها ختمت » ، وفي إسناده جعفر الجعفي وهو ضعيف جداً ، قال ابن كثير : وفي خبره هذا نكارة شديدة ، وذلك أن هذه السورة مكية وزيد بن ثابت إنما كتب الوحي بالمدينة ، وكذلك إسلام معاذ إنما

كان بالمدينة والله تعالى أعلم[1] .

﴿ ثم إنكم بعد ذلك ﴾ أي الأمور المتقدمة ﴿ لميتون ﴾ أي لصائرون إلى الموت لا محالة ﴿ ثم إنكم يوم القيامة تبعثون ﴾ من قبوركم الى المحشر للحساب والجزاء والعقاب .

﴿ ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق ﴾ اللام جواب قسم محذوف ، والجملة مبتدأة مشتملة على بيان خلق ما يحتاجون اليه ، بعد بيان خلق أنفسهم ، والمراد بالفوق جهة العلو من غير اعتبار فوقية لهم ، لأن تلك النسبة إنما تعرض لهم بعد خلقهم ، ووقت خلق السموات لم نكن مخلوقين ، ولم تكن هي فوقنا ، بل خلقنا بعد ، قاله الحفناوي .

والطرائق هي السموات ، قال الخليل والفراء والزجاج : سميت طرائق لأنها طورق بعضها فوق بعض ، كمطارقة النعل ، وكل ما فوقه مثله ، فهو طريقه ، قاله البيضاوي ، قال أبو عبيدة : طارقت الشيء جعلت بعضه فوق بعض ، والعرب تسمي كل شيء فوق شيء طريقة ، وقيل لأنها طرائق الملائكة في العروج والهبوط والطيران ، قاله الرازي ، وقيل لأنها طرائق الكواكب ومتقلباتها .

﴿ وما كنا عن الخلق غافلين ﴾ المراد بالخلق هنا المخلوق أي : وما كنا عن هذه السبع الطرائق وحفظها عن أن تقع على الأرض بغافلين ، وقال أكثر المفسرين : المراد الخلق كلهم بل حفظنا السموات عن أن تسقط وحفظنا من في الأرض أن تسقط السماء عليهم فتهلكهم أو تميد بهم الأرض أو يهلكون بسبب من الأسباب المستأصلة لهم ، ويجوز أن يراد نفي الغفلة عن القيام بمصالحهم وما يعيشهم ونفي الغفلة عن حفظهم وعن أعمالهم وأقوالهم .

---

(١) ابن كثير ٢٤٢/٣ .

وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾

﴿ وأنزلنا من السماء ماء ﴾ هذا من جملة ما امتنّ الله سبحانه به على خلقه ، والمراد بالماء ماء المطر ، فإن به حياة الأرض وما فيها من الحيوان ، ومن جملة ذلك ماء الأنهار النازل من السماء ، والعيون والآبار المستخرجة من الأرض ، فإنّ أصلها من ماء السماء ، وقيل ماء أي عذباً ، والا فالأجاج ثابت في الأرض مع القحط ، والعذب يقل مع القحط ، وفي الأحاديث أن الماء كان موجوداً قبل خلق السموات والأرض ، ثم جعل الله منه في السماء ماء وفي الأرض ماء كذا في البحر .

و ﴿ من ﴾ ابتدائية وتقديمها على المفعول الصريح للاعتناء بالمقدم والتشويق الى المؤخر والعدول عن الاضمار لأن الإنزال لا يعتبر فيه عنوان كونها طرائق بل مجرد كونها بصفة العلو .

﴿ بقدر ﴾ أي : بتقدير منّا لاستجلاب منافعهم ، ودفع مضارهم أو بمقدار ما يكون به صلاح الزرائع والثمار والشرب ، فإنه لو كثر لكان به هلاك ذلك ، ومثله قوله تعالى ﴿وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم ﴾ .

﴿ فأسكناه في الأرض ﴾ أي جعلناه ساكناً مستقراً ثابتاً فيها ، بعضه على ظهرها ، وبعضه في بطنها ، ينتفعون به وقت حاجتهم إليه كالماء الذي يبقى في

المستنقعات والغدران ونحوها عند انقطاع المطر ، وأخرج ابن مردويه والخطيب قال السيوطي بسند ضعيف : عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أنزل الله من الجنة الى الأرض خمسة أنهار سيحون وهو نهر الهند. وجيحون وهو نهر بلخ ودجلة والفرات وهما نهرا العراق، والنيل وهو نهر مصر ، أنزلها الله من عين واحدة من عيون الجنة من أسفل درجة من درجاتها على جناحي جبريل ، فاستودعها الجبال وأجراها في الأرض وجعلها منافع للناس في أصناف معايشهم فذلك قوله : ﴿ وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه في الأرض ﴾ فإذا كان عند خروج يأجوج ومأجوج أرسل الله جبريل فرفع من الأرض القرآن والعلم والحجر الأسود من ركن البيت ومقام ابراهيم وتابوت موسى بما فيه وهذه الانهار الخمسة فيرفع كل ذلك الى السماء فذلك قوله :

﴿ وإنّا على ذهاب به لقادرون ﴾ فإذا رفعت هذه الأشياء من الأرض فقد أهلها خير الدنيا والآخرة » .

قال البغوي ؛ رواه الحسن بن سفيان بالاجازة عن سعيد بن سابق السكندري عن مسلمة بن علي[1] عن مقاتل بن حيان عن عكرمة عن ابن عباس ، والمعنى كما قدرنا على إنزاله فنحن قادرون على أن نذهب به بوجه من الوجوه ، إما بالإفساد وإما بالتصعيد وإما بالتعميق والتغوير في الأرض ، ولهذا التنكير حسن موقع لا يخفى ، وفي هذا تهديد شديد لما يدل عليه من قدرته سبحانه على إذهابه وتغويره حتى يهلك الناس بالعطش وتهلك مواشيهم .

ومثله قوله : ﴿ قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماء معين ﴾ ، ثم بين سبحانه ما يتسبب عن إنزال الماء فقال :

---

(١) مسلمة بن عُلَيّ بضم العين وفتح اللام وتشديد الياء شامي واهي الحديث. قال البخاري منكر الحديث ، وقال النسائي متروك ، والحديث ساقه ابن عدي بإسناده في الضعفاء ونبه دحيم بأنه ليس بشيء ، وقال أبو حاتم لا يشتغل به . وقال ابن عدي : عامة أحاديثه غير محفوظة ، أما مقاتل بن حيان وهو من رجال مسلم وان لم يرو له البخاري فقد قال وكيع : ينسب إلى الكذب ، وكان أحمد بن حنبل لا يعبأ بمقاتل بن حيان ولا بمقاتل بن سليمان ، وقال ابن خزيمة : لا أحتج بمقاتل بن حيان. قلت : ومن ثم لا يعتد بهذا الحديث . « المطيعي » .

﴿ فأنشأنا ﴾ أي أوجدنا ﴿ لكم به ﴾ أي بذلك الماء ﴿ جنات من نخيل وأعناب ﴾ إنما أفردهما بالذكر لكثرة منافعهما فإنهما يقومان مقام الطعام والادام والفواكه رطباً ويابساً . وقيل اقتصر سبحانه عليهما لأنهما الموجودان في الطائف والمدينة وما يتصل بذلك ، كذا قال ابن جرير . وقيل لأنهما أشرف الاشجار ثمرة وأطيبها منفعة وطعماً ولذة .

﴿ لكم فيها ﴾ أي في هذه الجنات ﴿ فواكه كثيرة ﴾ تتفكهون بها ﴿ ومنها تأكلون ﴾ وتطعمون منها شتاء وصيفاً . وقيل : المعنى ومن هذه الجنات وجوه أرزاقكم ومعاشكم ، كقولهم فلان يأكل من حرفة كذا ، وهو بعيد . وقيل المعنى إن لكم فيها فواكه من غير العنب والنخيل . وقيل المعنى لكم في هذين النوعين خاصة فواكه ، لأن فيهما أنواعاً مختلفة متفاوتة في الطعم واللون .

وقد اختلف أهل الفقه في لفظ الفاكهة على ماذا يطلق اختلافاً كثيراً ، وأحسن ما قيل أنها تطلق على الثمرات التي يأكلها الناس ، وليس بقوت لهم ولا طعام ولا إدام واختلف في البقول هل تدخل الفاكهة أم لا ؟ .

﴿ وشجرة ﴾ قال الواحدي : والمفسرون كلهم يقولون : إن المراد بهذه الشجرة شجرة الزيتون ، وخصت بالذكر لأنها لا يتعاهدها أحد بالسقي ، وهي التي يخرج الدهن منها ، وهي أول شجرة نبتت بعد الطوفان ، تعمر في الأرض كثيراً حتى قال بعضهم انها تعمر ثلاثة آلاف سنة على ما ذكره الخازن ، فذكرها الله سبحانه امتناناً منه على عباده بها ، ولأنها أكرم الشجر واعمها نفعاً وأكثرها بركة ﴿تخرج من طور سيناء ﴾ خصت به مع أنها تخرج من غيره أيضاً لأن أصلها منه ثم نقلت الى غيره ، ذكره زكريا ، وهو جبل ببيت المقدس ، والطور الجبل في كلام العرب ، وقيل هو مما عرب من كلام العجم .

واختلف في معنى سيناء ، فقيل هو الحسن باللغة النبطية ، وقيل

بالحبشيَّة ، وقيل بالسريانية ، ومعناه الجبل الملتف بالاشجار ، وقيل كل جبل فيه أشجار مثمرة يسمى سيناء وسينين .

وقيل هو من السنا وهو الارتفاع ، وقيل هو المبارك . وذهب الجمهور الى أنه اسم للجبل ، كما تقول جبل أحد ، وقيل هو جبل فلسطين ، وقيل هو اسم المكان الذي فيه هذا الجبل . وقيل سيناء اسم حجر بعينه ، أضيف الجبل اليه لوجوده عنده . وقيل هو كل جبل يحمل الثمار . وقرىء سيناء بفتح السين وبكسرها ولم يصرف لأنه جعل اسماً للبقعة ، وزعم الأخفش انه أعجمي .

قال ابن عباس : هو الجبل الذي نودي منه موسى .

﴿ تنبت بالدهن ﴾ قال ابن عباس : هو الزيت يؤكل منه ويدهن به ، وقرىء بفتح التاء وضم الباء ، وبضم التاء وكسر الباء من الثلاثي والرباعي ، والمعنى على الأولى أنها تنبت في نفسها متلبسة بالدهن ؛ وعلى الثانية الباء بمعنى مع فهي للمصاحبة قال أبو علي الفارسي : التقدير تنبت جناها ، ومعه الدهن . وقيل الباء زائدة قاله أبو عبيدة .

وقال الفراء والزجاج : إنّ نبت وأنبت بمعنى ؛ والأصمعي ينكر أنبت ، وقرىء تُنبَت بضم التاء وفتح الباء . قال الزجاج؛ وابن جنيّ : أي تنبت ومعها الدهن . وقرأ ابن مسعود : تخرج بالدهن ، وقرىء تنبت الدهن بحذف حرف الجر وقرىء بالدهان ، والدهن عصارة كل شيء ذي دسم ، قاله السمين .

﴿ وصبغ للآكلين ﴾ أي تنبت بالشيء الجامع بين كونه دهناً يدهن به وكونه صبغاً يؤتدم به ، وقرىء صباغ مثل لبس ولباس ، وكل إدام يؤتدم به فهو صبغ وصباغ ، وأصل الصبغ ما يلون به الثوب ، وشبّه الإدام به لأن الخبز يكون بالادام كالمصبوغ به ، جعل الله سبحانه في هذه الشجرة المباركة أدماً وهو الزيتون ودهناً وهو الزيت .

﴿ وإنّ لكم في الأنعام لعبرة ﴾ هذه من جملة النعم التي امتن الله بها عليهم ، وقد تقدم تفسير الأنعام في سورة النحل ، وهي الإبل والبقر والغنم .

قال النيسابوري : ولعل القصد بالأنعام هنا إلى الابل خاصة لأنها هي المحمول عليها في العادة ، ولأنه قرنها بالفلك ، وهي سفائن البر ، كما أن الفلك سفائن البحر . قال ذو الرمة :

سفائن برّ تحت خدّي زمامها

وبين سبحانه أنها عبرة وعظة لأنها مما يستدل بخلقها وأفعالها على عظم القدرة الإلّهية، وخصها بالعبرة دون النبات لأن العبرة فيها أظهر ، ثم فصل سبحانه ما في هذه الأنعام من النعم بعدما ذكره من العبرة فيها للعباد فقال : ﴿ نسقيكم ﴾ بضم النون وفتحها .

﴿ مما في بطونها ﴾ يعني اللبن المتكوّن في بطونها المنصب إلى ضروعها من بين فرث ودم ، فإن في انعقاد ما تأكله من العلف واستحالته إلى هذا الغذاء اللذيذ والمشروب النفيس أعظم عبرة للمعتبرين وأكبر موعظة للمتعظين ، وقرىء بالفوقية على أن الفاعل هو الأنعـام، وذكره هنا بلفظ الجمع لأنه راجع للأنعام مراداً بها الجمع ، وفي النحل قال : مما في بطونه بالإفراد نظراً إلى أن الأنعام اسم مفرد ، ذكره زكريا في متشابه القرآن .

وقال الكرماني : إن ما في النحل مراد به بعض الأنعام وهو الاناث ، فأتى بالضمير مفرداً مذكراً ، والمراد منه هنا الكل الشامل للاناث والذكور ، بدليل العطف في قولـه الآتي : ﴿ولكم فيها منـافع ﴾ ، فـإن هذا لا يخص الإناث، وهذا العطف لم يذكر في النحل ، ثم ذكر ما فيها من المنافع اجمالاً فقال : ﴿ ولكم فيها ﴾ أي في ظهورها وألبانها وأولادها وأصوافها وأشعارها وهي حية ﴿ منافع كثيرة ﴾ ثم ذكر منفعة خاصة فقال : ﴿ ومنها تأكلون ﴾ بعد الذبح ، لما في الأكل من عظيم الانتفاع لهم ، وكذلك ذكر الركوب عليها لما فيه من المنفعة العظيمة فقال : ﴿ وعليها ﴾ أي وعلى الأنعام فإن أريد بها

الابل والبقر والغنم فالمراد وعلى بعض الانعام وهو الابل خاصة ، وان أريد بها الابل خاصة فالمعنى واضح ، ثم لما كانت الأنعام غالب ما يكون الركوب عليها في البر ضم اليها ما يكون الركوب عليه في البحر فقال :

﴿ وعلى الفلك تحملون ﴾ تتميماً للنعمة وتكميلاً للمنّة. ولما ذكر سبحانه الفلك أتبعه بذكر نوح لأنه أول من صنعه ، وذكر ما صنعه قوم نوح معه بسبب اهمالهم للتفكر في مخلوقات الله سبحانه والتذكر لنعمه عليهم فقال :

﴿ ولقد أرسلنا نوحاً الى قومه ﴾ وفي ذلك تعزية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتسلية له ببيان أن قوم غيره من الأنبياء كانوا يصنعون مع أنبيائهم ما يصنعه قومه معه ، واللام جواب قسم محذوف والواو للاستئناف ، وهذا شروع في خمس قصص هذا أولها ؛ والثانية قصة هود أولها ﴿ ثم أنشأنا من بعدهم قرناً آخرين ﴾ والثالثة قوله ﴿ ثم أنشأنا من بعدهم قروناً آخرين ﴾ والرابعة قصة موسى وهرون المذكورة بقوله ﴿ ثم أرسلنا موسى وأخاه ﴾ والخامسة قصة عيسى وأمه المذكورة بقوله : ﴿ وجعلنا ابن مريم وأمّه آية ﴾ .

ثم ان اسم نوح يشكر ، ونوح لقبه على ما قاله الرازي ، أو عبد الله على ما قاله السيوطي ، وعاش نوح من العمر ألف سنة وخمسين كما مرّ مراراً ، وقدمت قصته لتتصل بقصة آدم المذكورة للمناسبة بين نوح وآدم من حيث انه آدم الثاني ، لانحصار النوع الانساني بعده في نسله .

﴿ فقال يا قوم اعبدوا الله ﴾ وحده وأطيعوه ولا تشركوا به شيئاً كما يستفاد من الآيات الآخرة ؛ وجملة ﴿ ما لكم من إلّه غيره ﴾ واقعة موقع التعليل لما قبلها ؛ أي ما لكم في الوجود إلّه غيره سبحانه ، ومن زائدة .

﴿ أفلا تتقون ﴾ تخافون أن تتركوا عبادة ربكم الذي لا يستحقها غيره وليس لكم إلّه سواه . وقيل المعنى أفلا تخافون أن يرفع عنكم ما خوّلكم من النعم ويسلبها عنكم ؟ وقيل المعنى أفلا تقون أنفسكم عذابه الذي تقتضيه ذنوبكم بعبادتكم غيره ؟ .

فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ۙ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾

﴿فقال الملأ﴾ أي الأشراف ﴿ الذين كفروا ﴾ به ﴿ من قومه ﴾ لأتباعهم وحاصل ما ذكروه من الشبه خمسة : أولاها قولهم ﴿ ما هذا إلا بشر مثلكم ﴾ أي من جنسكم في البشرية لا فرق بينه وبينكم ﴿ يريد ﴾ أي يطلب ﴿ أن يتفضل عليكم ﴾ بأن يسودكم ويتشرف حتى تكونوا تابعين له منقادين لأمره ، ثم صرحوا بأن البشر لا يكون رسولاً فقالوا :

﴿ ولو شاء الله ﴾ إرسال رسول ﴿لأنزل﴾ أي لأرسل ملائكة رسلاً ، وهي الشبهة الثانية ، وإنما عبر بالإنزال عن الإرسال لأن إرسالهم الى العباد يستلزم نزولهم اليهم . وقيل معناه لو شاء أن لا يعبد غيره لأنزل ﴿ ملائكة ﴾ لا بشراً ﴿ ما سمعنا بهذا ﴾ أي بمثل دعوى هذا المدعي للنبوة من البشر ، أو بمثل كلامه ، وهو الأمر بعبادة الله وحده ، أو ما سمعنا ببشر يدعي هذه الدعوة ، وقيل الباء زائدة ، وهذه هي الشبهة الثالثة ، والعجب منهم أنهم رضوا بالألوهية للحجر ولم يرضوا بالنبوة للبشر ﴿ في آبائنا الأولين ﴾ أي في الأمم الماضية قبل هذا ، قالوا هذا اعتماداً منهم على التقليد واعتصاماً بحبله ، ولم يقنعوا بذلك حتى ضموا اليه الكذب البحت والبهت الصراح فقالوا :

﴿ إن هو إلا رجل به جنة ﴾ أي حالة جنون لا يدري ما يقول ، وهي

الشبهة الرابعة ﴿ فتربصوا به حتى حين ﴾ أي انتظروا به حتى يستبين امره بأن يفيق من جنونه فيترك هذه الدعوى أو حتى يموت فتستريحوا منه ، وهي الشبهة الخامسة ولم يتعرض لردها لظهور فسادها .

قال الفراء : ليس يريد بالحين هنا وقتاً بعينه ، إنما هو كقولهم : دعه إلى يوم ما ، فلما سمع عليه السلام كلامهم وعرف تماديهم على الكفر واصرارهم عليه .

﴿ قال رب انصرني ﴾ عليهم فانتقم منهم بما تشاء وكيف تريد ﴿ بما كذبون ﴾ أي بسبب تكذيبهم اياي ﴿ فأوحينا إليه﴾ أي أرسلنا اليه رسولاً من السماء ﴿ أن اصنع الفلك ﴾ أن مفسرة لما في الوحي من معنى القول ، فلا حاجة الى جعلها مصدرية ، والفلك السفينة ﴿ بأعيننا ﴾ أي بمرأى منا أو متلبساً بحفظنا وكلاءتنا ، وقيل بعلمنا لئلا يتعرض له أحد ولا يفسد عليه عمله ، والأولى أولى ، وجمع الأعين للمبالغة ، وإن كانت العادة أن الرائي له عينان فقط ، وقد تقدم معنى هذا في هود .

﴿ ووحينا ﴾ أي بأمرنا لك وتعليمنا اياك لكيفية صنعها ، قيل وقد صنعها في عامين وجعل طولها ثلثمائة ذراع ، وعرضها خمسين ، وارتفاعها ثلاثين ، وجعلها ثلاث طبقات السفلى للسباع والهوام ، والوسطى للدواب والانعام ، والعليا للإنس كما مر ﴿ فإذا جاء أمرنا ﴾ الفاء لترتيب مضمون ما بعدها على ما قبلها من صنع الفلك ، والمراد بالأمر الأمر بالعذاب ﴿وفار التنور ﴾ أي أن مجيء الأمر هو فور التنور ، أي تنور آدم الذي تخبز فيه حواء الصائر الى نوح وكان من حجارة وقيل التنور وجه الأرض ، واختلف في مكانه ، فقيل في مسجد الكوفة ، وقيل بالشام وقيل بالهند ، والمعنى اذا وقع ذلك .

﴿ فاسلك ﴾ أي فادخل ﴿ فيها ﴾ يقال سلك في كذا أي دخله ؛ وأسلكته أدخلته . وقال ابن عباس اجعل معك في السفينة ﴿ من كل زوجين اثنين ﴾ قرىء كلٍّ بالتنوين وبالاضافة ، ومعنى الأولى من كل أمة زوجين ، ومعنى الثانية من كل زوجين وهما أمة الذكر والأنثى اثنين ، أي من غير البشر ، والا فإنه أدخل فيها من البشر سبعين أو ثمانين فأدخل من هذا النوع زيادة على اثنين .

﴿ وأهلك ﴾ أي واسلك فيها أهلك ، أي زوجتك وأولادك ﴿إلا من سبق عليه القول ﴾ أي الوعد الأزليّ بإهلاكه منهم كإبنه كنعان وأمه ﴿ ولا تخاطبني في الذين ظلموا ﴾ بالدعاء لهم بإنجائهم ﴿إنهم مغرقون ﴾ تعليل للنهي عن المخاطبة أي إنهم مقضيٌّ عليهم بالاغراق لظلمهم ، ومن كان هكذا فهو لا يستحق الدعاء له ﴿ فإذا استويت ﴾ أي علوت ﴿ أنت ﴾ واعتدلت ﴿ ومن معك ﴾ من أهلك وأتباعك ﴿ على الفلك ﴾ راكبين عليه ﴿ فقل ﴾ وكان الظاهر أن يقال ، فقولوا أي أنت ومن معك ، وانما أفرد نوحاً بالأمر بالدعاء المذكور اظهاراً لفضله واشعاراً في دعائه مندوحة عن دعائهم :

﴿ الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين ﴾ أي حال بيننا وبينهم وخلصنا منهم كقوله : ﴿ فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين ﴾ وقد تقدم تفسير هذه القصة في سورة هود على التمام والكمال ، وإنما جعل سبحانه استواءهم على السفينة نجاة من الغرق جزماً لأنه قد سبق في علمه أن ذلك سبب نجاتهم من الظلمة وسلامتهم من أن يصابوا بما أصيبوا به من العذاب ، ثم أمره أن يسأل ربه ما هو أنفع له وأتم فائدة فقال:

﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾﴾

﴿وقل رب أنزلني منزلاً مباركاً﴾ أي أنزلني في السفينة قرىء منزلاً بضم الميم وفتح الزاي على أنه مصدر وبفتح الميم وكسر الزاي على انه اسم مكان فعلى الأولى التقدير أنزلني انزالاً مباركاً وعلى الثانية انزلني مكاناً مباركاً ، قال الجوهري : المنزل بفتح الميم والزاي النزول وهو الحلول تقول : نزلت نزولاً ومنزلاً .

عن مجاهد قال : قال الله تعالى لنوح حين أنزل من السفينة ، وقيل أمره الله سبحانه بأن يقول هذا القول عند دخول السفينة ، وقيل عند خروجه منها وأراد بالبركة النجاة من الغرق وكثرة النسل بعد الإنجاء ، والآية تعليم من الله لعباده إذا ركبوا ثم نزلوا أن يقولوا هذا القول .

قال الواحدي : قال المفسرون: إنه أمر أن يقول عند استوائه على الفلك الحمد لله وعند نزوله منها : ﴿رب أنزلني منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين﴾ هذا ثناء منه على الله عز وجل اثر دعائه له .

﴿إن في ذلك﴾ أي ما تقدم مما قصه الله علينا من أمر نوح عليه السلام والسفينة وهلاك الكفار ﴿لآيات﴾ أي دلالات على كمال قدرته

سبحانه وعلامات يستدل بها على عظيم شأنه ﴿ وإن كنا لمبتلين ﴾ أي لمختبرين قوم نوح بإرساله اليهم ووعظه أو لمختبرين لهم بإرسال الرسل اليهم ليظهر المطيع والعاصي من الناس أو الملائكة، وقيل المعنى أنه يعاملهم سبحانه معاملة المختبر لأحوالهم تارة بالإرسال وتارة بالعذاب لينظر من يعتبر ويذكر كقوله: ﴿ ولقد تركناها آية فهل من مذكر﴾.

﴿ ثم أنشأنا من بعدهم ﴾ أي من بعد إهلاكهم ﴿ قرناً ﴾ أي قوماً ﴿ آخرين ﴾ قال اكثر المفسرين : إن هؤلاء هم عاد قوم هود لمجيء قصتهم على أثر قصة نوح في غير هذا الموضع ؛ ولقوله في الأعراف ﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح ﴾ وقيل هم ثمود لأنهم الذين أهلكوا بالصيحة ، وقد قال سبحانه في هذه القصة ﴿ فأخذتهم الصيحة ﴾ ، وقيل هم أصحاب مدين قوم شعيب ، لأنهم ممن أهلك بالصيحة .

﴿ فأرسلنا فيهم رسولاً منهم ﴾ عدّي فعل الإرسال بـ﴿ في ﴾ مع أنه يتعدى بإلى للدلالة على أن الرسول المرسل اليهم نشأ فيهم وبين أظهرهم يعرفون مكانه ومولده ليكون سكونهم إلى قوله أكثر من سكونهم الى من يأتيهم من غير مكانهم،وقيل وجه التعدية بفي أنه ضمن معنى القول ، والأول أولى ، لأن تضمين أرسلنا معنى قلنا : لا يستلزم تعديته بفي .

﴿أن اعبدوا الله ﴾ أن مفسرة لأرسلنا أي قلنا لهم على لسان الرسول هذا القول ﴿ ما لكم من إله غيره ﴾ تعليل للأمر بالعبادة ﴿ أفلا تتقون؟ ﴾ عذابه الذي يقتضيه شرككم .

﴿ وقال الملأ من قومه ﴾ أي قادتهم وأشرافهم ، ثم وصف الملأ بالكفر والتكذيب فقال : ﴿ الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة ﴾ أي بما في الآخرة من الحساب والعقاب أو بالمصير اليها أو كذبوا بالبعث .

﴿ وأترفناهم في الحياة الدنيا ﴾ أي وسعنا لهم نعم الدنيا فبطروا بسبب ما صاروا فيه من كثرة المال ورفاهة العيش حتى وصفوا رسولهم بمساواتهم في البشرية وفي الأكل والشرب فقالوا : ﴿ ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون ﴾ منه . قاله الفراء .

وقيل ﴿ ما ﴾ مصدرية فلا تحتاج إلى عائد ، وذلك يستلزم عندهم أنه لا فضل له عليهم ، وهذه شبهة أولى تنتهي عند قوله : لخاسرون .

﴿ ولئن أطعتم بشراً مثلكم ﴾ فيما ذكر من الأوصاف ﴿ إنكم إذاً ﴾ أي إذا أطعتموه ﴿ لخاسرون ﴾ أي مغبونون بترككم آلهتكم واتباعكم إياه من غير فضيلة له عليكم ومن حمقهم أنهم أبوا اتباع مثلهم وعبدوا أعجز منهم .

﴿ أيعدكم أنكم إذا مِتّم﴾ الهمزة للإنكار ، والجملة مستأنفة مقررة لما قبلها من تقبيح اتباعهم له بإنكار وقوع ما يدعوهم إلى الإيمان به واستبعاده ، قرىء بكسر الميم من ﴿ مِتّم ﴾ من مات يمات كخاف يخاف وبضمها من مات يموت كقال يقول ﴿ وكنتم ﴾ أي كان بعض أجزائكم ﴿ تراباً و ﴾ بعضها ﴿ عظاماً ﴾ نخرة لا لحم فيها ، ولا أعصاب عليها ، قيل وتقديم التراب لكونه أبعد في عقولهم ، وقيل المعنى كان متقدموكم تراباً ومتأخروكم عظاماً .

﴿ أنكم مخرجون ﴾ أي مبعوثون من قبوركم أحياء كما كنتم للسؤال والحساب والثواب والعقاب وثنى أنكم للتأكيد ؛ وحسن ذلك طول الفصل بين الأولى والثاني بالظرف ، وإليه ذهب الجرمي والمبرد والفراء وقيل بدل من الأولى واليه ذهب سيبويه .

هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴿٤٣﴾

﴿ هيهات هيهات ﴾ أي بعد ، وقال ابن عباس : بعيد بعيد ، قال ابن الأنباري : وفي هيهات عشر لغات ، ثم سردها وهي مبينة في علم النحو ، وقد قرىء ببعضها قال سليمان الجمل : فيه لغات كثيرة تزيد على أربعين ، ثم ذكر منها مشهورها ، وما قرىء به تركناها لقلة الفائدة هنا ، هو اسم فعل ماض بمعنى مصدر والغالب في الاستعمال أن تستعمل هذه الكلمة مكررة ، والثانية توكيد لفظي للأولى وليست المسئلة من التنازع، واللام في ﴿ لما توعدون ﴾ لبيان المستبعد كما في قوله ﴿ هيت لك ﴾ ، كأنه قيل لماذا هذا الاستبعاد ؟ فقيل لما توعدون .

والمعنى بعد إخراجكم للوعد الذي توعدون ، هذا على أن ﴿ هيهات ﴾ اسم فعل وقال الزجاج : هو في تقدير المصدر أي البعد لما توعدون أو بعد لما توعدون على قراءة من نوّن ، ثم بين سبحانه إترافهم بأنهم قالوا :

﴿إنّ هي ﴾ أي ما الحياة ﴿ إلا حياتنا الدنيا ﴾ لا الحياة الآخرة التي تعدنا بها فأقيم الضمير مقام الأولى لدلالة الثانية عليها ، حذراً من التكرار وإشعاراً بإغنائها عن التصريح كما في هي النفس تتحمل ما حملت ، وهي العرب تقول ما شاءت، وحيث كان الضمير بمعنى الحياة الدالة على الجنس كانت ﴿ إن ﴾ النافية بمنزلة لا النافية للجنس، وجملة:

﴿ نموت ونحيا ﴾ مفسرة لما ادعوه من قصرهم حياتهم على حياة الدنيا ، وقيل يموت الآباء ويحيا الأبناء ، وقيل يموت قوم ويحيا قوم ، أو يموت بعض ، ويولد بعض ، وينقرض قرن ، فيأتي آخر وفيه تقديم وتأخير أي نحيا ونموت وبه قرأ أبيّ وابن مسعود ، ثم صرحوا بنفي البعث ، وأن الوعد به منه افتراء على الله فقالوا :

﴿ وما نحن بمبعوثين ﴾ بعد الموت ﴿ إن هو إلا رجل افترى على الله كذباً ﴾ أي ما هو فيما يدعيه من النبوة والبعث إلا مفترياً يكذب على الله ﴿ وما نحن له بمؤمنين ﴾ أي بمصدقين له فيما يقوله .

﴿ قال ﴾ نبيهم لما علم بأنهم لا يصدقون البته ﴿ رب انصرني ﴾ عليهم وانتقم لي منهم ﴿ بما كذبون ﴾ أي بسبب تكذيبهم إياي ﴿ قال ﴾ الله سبحانه مجيباً لدعائه واعداً له بالقبول لما دعا به ﴿ عما قليل ﴾ من الزمان وفي معناه عن قريب و ﴿ عن ﴾ بمعنى بعد و ﴿ ما ﴾ مزيدة بين الظرف للتوكيد لقلة الزمان ، كما في قوله : ﴿ فبما رحمة من الله ﴾ .

﴿ ليصبحن نادمين ﴾ على ما وقع منهم من التكذيب والعناد ، والإصرار على الكفر ، ثم أخبر سبحانه بأنهم أخذتهم الصيحة ، وحاق بهم عذابه ، ونزل عليهم سخطه فقال : ﴿ فأخذتهم الصيحة ﴾ .

قال المفسرون : صاح بهم جبريل صيحة واحدة مع الريح التي أهلكهم الله بها فماتوا جميعاً ، وقيل الصيحة هي نفس العذاب والهلاك الذي نزل بهم ﴿ بالحق ﴾ أي كائنة بالعدل من الله فماتوا ، يقال : فلان يقضي بالحق أي بالعدل ، ثم أخبر سبحانه عما صاروا اليه بعد العذاب النازل بهم فقال :

﴿ فجعلناهم غثاء ﴾ أي كغثاء السيل قيل الغثاء الجفاء ، وقال

الزجاج : هو البالي من ورق الشجر إذا جرى السيل فخالط زبده ، وقيل كل ما يلقيه السيل ، والقدر مما لا ينتفع به ، وبه يضرب المثل في ذلك ولامه واو ، لأنه من غثا الوادي يغثوا غثواً ، وكذلك غثت القدر ، وقال المحلي : هو نبت يبس ، وعنه : هو العشب إذا يبس ، والمعنى صيرناهم هلكى فيبسوا كما يبس الغثاء ، وقال ابن عباس : جعلوا كالشيء الميت البالي من الشجر .

﴿ فبعداً للقوم الظالمين ﴾ أي بعدوا بعداً ، أو ألزمنا بعداً فهو إخبار أو دعاء واللام لبيان من قيل له ذلك ، كما في . سقياً له وجدعاً له ، قاله الزمخشري ، وقال الحوفي : متعلق ببعداً ، وهذا مردود لأنه لا يحفظ حذف هذه اللام ، ووصول المصدر الى مجرورها البتة ، ولذلك منعوا الاشتغال في قوله : ﴿ فتعساً لهم ﴾ ، وهو من المصادر المنصوبة بأفعال لا يستعمل إظهارها ، ووضع الظاهر موضع المضمر للتعليل .

﴿ ثم أنشأنا من بعدهم قروناً آخرين ﴾ أي مع رسلهم بعد إهلاكهم ، قيل هم قوم صالح ولوط وشعيب ويونس وأيوب وغيرهم كما وردت قصتهم على هذا الترتيب في الأعراف وهود ، وقيل هم بنو إسرائيل وكان فيهم الرسل قبل موسى ، والقرون، الأمم ، ولعل وجه الجمع هنا للقرون ، والإفراد فيما سبق قريباً أنه أراد ههنا أمماً متعددة ، وهناك أمة واحدة، ثم بين سبحانه كمال علمه وقدرته في شأن عباده فقال:

﴿ ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون ﴾ أي ما يتقدم كل طائفة مجتمعة في قرن آجالها المكتوبة لها في الهلاك ولا يتأخر عنها ، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿ فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾ ، ذكر الضمير بعد تأنيثه رعاية المعنى لأن أمة بمعنى قوم ، ثم بين سبحانه أن رسله كانوا بعد هذه القرون متواترين وأن شأن أممهم كان واحداً في التكذيب لهم فقال :

ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾

﴿ثم أرسلنا رسلنا تترا﴾ يعني إرسال كل رسول متأخر عن انشاء القرن الذي أرسل اليه لا على معنى أن إرسال الرسل جميعاً متأخر عن انشاء تلك القرون جميعاً ومعنى تترا تتواتر واحداً بعد واحد ويتبع بعضهم بعضاً من الوتر وهو الفرد ، قال الأصمعي : واترت كتبي عليه أتبعت بعضها بعضاً الا أن بين كل واحد منها وبين الآخر مهلة ، وقال غيره : المتواترة المتتابعة بغير مهلة ؛ والأول أولى لأن ما كان بدونها ، قيل مداركة ومواصلة ، كما في القاموس لا تترا ، وقرىء تتراً بالتنوين على انه مصدر ، قال النحاس : وعلى هذا يجوز تِترا بكسر التاء لأن معنى ثم أرسلنا واترنا ، وقرىء بألف من غير تنوين كشبعى ودعوى فألفه للتأنيث ، أوفي موضع الحال أي متواترين .

قال ابن عباس : بعضهم على اثر بعض ، أي غير متواصلين ، لأن بين كل رسولين زمناً طويلاً .

﴿ كلما جاء أمةً رسولُها كذبوه ﴾ مستأنفة مبينة لمجيء كل رسول لأمته على أن المراد بالمجيء التبليغ ﴿فأتبعنا﴾ الأمم والقرون﴿ بعضهم بعضاً ﴾ أي في الهلاك بما نزل بهم من العذاب ﴿ وجعلناهم أحاديث ﴾ أي سمراً وقصصاً وأخباراً يسمع بها ويتعجب منها ويتحدث من بعدهم بأمرهم وشأنهم ، جمع أحدوثة وهي ما يتحدث به الناس ، كالأعاجيب جمع أعجوبة ، وهي ما

يتعجب الناس منه ، أو جمع حديث على غير قياس ، وفي السمين ولكنه شاذ .

وقال الأخفش : انما يقال ذلك في الشر ولا يقال في الخير ، كما يقال صار فلان حديثاً ، أي عبرة ، وكما قال سبحانه في آية أخرى ﴿ فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق ﴾ .

قلت : وهذه الكلية غير مسلمة ، فقد يقال صار فلان حديثاً حسناً ، وقد شذت العرب في ألفاظ فجمعوها على صيغة أفاعيل كأباطيل وأقاطيع . وقال الزمخشري : الأحاديث تكون اسم جمع للحديث . ومنه أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأفاعيل ليس من أبنية اسم الجمع ، وانما ذكره أصحابنا فيما شذ من الجموع ، كقطيع وأقاطيع ، واذا كان عباديد قد حكموا عليه بأنه جمع تكسير مع أنهم لم يلفظوا له بواحد فأحرى أحاديث ، وقد لفظ له بواحد وهو حديث ، فاتضح أنه جمع تكسير لا اسم جمع لما ذكرنا .

﴿ فبعداً لقوم ﴾ دعاء عليهم ﴿ لا يؤمنون ﴾ وصفهم هنا بعدم الإيمان، وفيما سبق قريباً بالظلم لكون كل من الوصفين صادراً عن كل طائفة من الطائفتين ، أو لكون هؤلاء لم يقع منهم الا مجرد عدم التصديق ، وأولئك ضموا اليه تلك الأقوال الشنيعة التي هي أشد الظلم وأفظعه ، ثم حكى سبحانه ما وقع من فرعون وقومه عند ارسال موسى وهرون اليهم فقال :

﴿ ثم أرسلنا موسى وأخاه هرون ﴾ متلبسين ﴿ بآياتنا ﴾ هي التسع المتقدم ذكرها غير مرة ، ولا يصح عد فلق البحر منها هنا ، لأن المراد الآيات التي كذبوا بها واستكبروا عنها ﴿ وسلطان مبين ﴾ المراد به الحجة الواضحة البينة ، قيل هي الآيات التسع نفسها ، والعطف من باب :

الى الملك القرم وابن الهمام

وقيل أراد العصا لأنها أم الآيات فيكون من باب عطف جبريل على الملائكة وقيل المراد بالآيات الدلائل التي كانت لهما ، وبالسلطان المبين التسع

الآيات ﴿ إلى فرعون وملئه ﴾ أي الأشراف منهم كما سبق بيانه غير مرة ﴿ فاستكبروا ﴾ أي طلبوا الكبر وكلفوه ، وتعظموا عن الايمان فلم ينقادوا للحق ﴿ وكانوا قوماً عالين ﴾ قاهرين للناس أو لبني إسرائيل بالبغي والظلم ، مستعلين عليهم متطاولين كبراً وعناداً وتمرداً .

﴿ فقالوا أنؤمن لبشرين ؟ ﴾ يعنون بهما موسى وهرون ﴿ مثلنا ﴾ الاستفهام للإنكار ، أي كيف نصدق من كان مثلنا في البشرية ، والبشر يطلق على الواحد ، كقوله بشراً سوياً ، كما يطلق على الجمع ، كقوله : ﴿ فإما ترينّ من البشر أحداً ﴾ ، فتثنيته هنا هي باعتبار المعنى الأول ويطلق على المثنى والمذكر والمؤنث ، وأفرد المثل لأنه في حكم المصدر يجري مجراه في الإفراد والتذكير ولا يؤنث أصلاً ، وقد يطابق ما هو له تثنية ، كقوله : ﴿ يرونهم مثليهم رأى العين ﴾ ، وجمعاً كقوله : ﴿ ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾ .

﴿ وقومهما ﴾ أي بنو إسرائيل ﴿ لنا عابدون ﴾ أي أنهم مطيعون لنا ، منقادون لما نأمرهم به كانقياد العبيد . قال المبرّد: العابد المطيع الخاضع . قال أبو عبيدة : العرب تسمي كل من دان[1] الملك عابداً له ، وقيل يحتمل أنه كان يدعي الإلهية فدعا الناس الى عبادته فأطاعوه ، وتقديم الظرف لرعاية الفواصل والجملة حالية ﴿ فكذبوهما ﴾ أي فأصروا على تكذيبهما ﴿ فكانوا من المهلكين ﴾ بالغرق في البحر . ثم حكى سبحانه ما جرى على قوم موسى بعد إهلاك عدوهم فقال :

﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب ﴾ يعني التوراة ، وخص موسى بالذكر لأن التوراة أنزلت عليه في الطور ، وكان هرون خليفته في قومه ﴿ لعلهم ﴾ أي لعل قوم موسى ﴿ يهتدون ﴾ بها الى الحق ويعملون بما فيها من الشرائع ، فجعل سبحانه إيتاء موسى اياها ايتاء لقومه ، لأنها وان كانت منزلة على موسى فهي لارشاد قومه . وقيل المعنى آتينا قوم موسى الكتاب .

وقيل ضمير ﴿ لعلهم ﴾ يرجع الى فرعون وملته ، وهو وَهْمٌ، لأن

---

(١) دانه أطاعه ، فهو يتعدى ويلزم. « المطيعي » .

موسى لم يؤت التوراة الا بعد هلاك فرعون وقومه ، كما قال سبحانه : ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى ﴾ ، ثم أشار سبحانه الى قصة عيسى اجمالاً فقال : ﴿ وجعلنا ابن مريم وأمّه آية ﴾ أي علامة تدل على عظيم قدرتنا وبديع صنعنا وقد تقدم الكلام على هذا في آخر سورة الأنبياء في تفسير قوله سبحانه : ﴿ وجعلناها وابنها آية للعالمين ﴾ .

قال قتادة : ﴿ آية ﴾ أي ولدته من غير أب وفحل ، وخلق من غير نطفة . وعن الربيع بن أنس قال : ﴿ آية ﴾ أي عبرة ، ولم يقل آيتين لأن الاعجوبة فيهما واحدة أو المراد ابن مريم آية وأمه آية ، فحذفت الأولى لدلالة الثانية عليها .

﴿ وآويناهما ﴾ أي أسكناهما وأنزلناهما وأوصلناهما وجعلناهما يأويان ﴿الى ربوة ﴾ بفتح الراء وضمها قراءتان سبعيتان ، قيل هي أرض دمشق ، وبه قال عبد الله بن سلام وسعيد بن المسيب ومقاتل . وقيل بيت المقدس ، قاله قتادة وكعب . وقيل أرض فلسطين ، قاله السدي . قال ابن عباس : الربوة المستوية ، وهي المكان المرتفع من الأرض ، وهو أحسن ما يكون فيه النبات ، وأنبئنا انه دمشق . وقيل هو أعلى مكان من الأرض فيزيد على غيره في الارتفاع ثمانية عشر ميلاً ، فهو أقرب بقاع الأرض الى السماء . وعن مرة البهزي قال : «سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « الربوة الرملة » أخرجه الطبراني وابن أبي حاتم وابن جرير وغيرهم .

وعن أبي هريرة قال : هي الرملة من فلسطين ، وقيل مصر ، وسبب الايواء أنها فرّت بابنها إليها لأن ملك ذلك الزمان كان أراد أن يقتل عيسى ، فهربت به الى تلك الربوة ومكثت بها اثنتي عشرة سنة ، حتى هلك ذلك الملك .

﴿ ذات قرار ﴾ أي مستوى مستقر ليستقر عليه ساكنوه . وقال ابن عباس : أي ذات خصب . وقيل ذات ثمار ﴿ و﴾ ماء ﴿ معين ﴾ قال

﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٥١) وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ (٥٢) فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٥٣) فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ (٥٤) أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ (٥٥) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٦) إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (٥٧) وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (٥٨) وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ (٥٩) وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (٦٠) ﴾

الزجاج والفراء : هو الماء الجاري في العيون ، فالميم على هذا زائدة كزيادتها في منبع . وقيل هو فعيل بمعنى مفعول . قال علي بن سليمان الأخفش : يقال معن الماء إذا جرى ، فهو معين وممعون . وكذا قال ابن الاعرابي . وقيل هو مأخوذ من الماعون وهو النفع .

قال ابن عباس المعين الماء الجاري ، وقيل الذي تراه العيون وهو النهر الذي قال الله ﴿ قد جعل ربك تحتك سرياً ﴾ .

﴿ يا أيها الرسل كلوا ﴾ قال الزجاج : هذه مخاطبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال ابن جرير : إن الخطاب لعيسى . قال الفراء . هو كما تقول للرجل الواحد كفوا عنا ، وقيل إن هذه المقالة خوطب بها كل نبي في زمانه ، لأن هذه طريقتهم التي ينبغي لهم الكون عليها . فيكون المعنى : وقلنا يا أيها الرسل خطاباً لكل واحد على انفراده لاختلاف أزمنتهم . ويدخل تحته عيسى دخولاً أولياً ، فهذه حكاية لرسول الله صلى الله عليه وسلم على وجه الاجمال لما خوطب به كل رسول في عصره جيء بها إثر حكاية إيواء عيسى وأمه ، إلى الربوة إيذاناً بأن ترتيب مبادي التنعم لم يكن من خصائصه عليه السلام ، بل إباحة الطعام شرع قديم جرى عليه جميع الرسل ، ووصّوْا به ، أي وقلنا لكل رسول من الرسل كلوا ﴿ من الطيبات ﴾ وهو ما يستطاب

ويستلذ وقيل هي الحلالات ، وقيل هي ما جمع الوصفين المذكورين . ثم بعد أن أمرهم بالأكل من الطيبات أمرهم بالعمل الصالح فقال :

﴿ واعملوا ﴾ عملاً ﴿ صالحاً ﴾ وهو ما كان موافقاً للشرع ، فعبر عن تلك الأوامر المتعددة المتعلقة بالرسل بصيغة الجمع عند الحكاية إجمالاً للايجاز ، وفيه من الدلالة على بطلان ما عليه الرهبان من رفض الطيبات ما لا يخفى ، ثم علل هذا الأمر بقوله :

﴿ إني بما تعملون عليم ﴾ لا يخفى عليّ شيء منه وإني مجازيكم على حسب أعمالكم إن خيراً فخير وان شراً فشر ، وهو تخويف للرسل ، والمقصود أممهم . أخرج أحمد ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين ، فقال: يا أيها الرسل كلوا » الآية . وقال : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات مارزقناكم ﴾ ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر؛ ومطعمه حرام ومشربه حرام، وملبسه حرام وغذي بالحرام، يمد يديه إلى السماء : يا رب يا رب، فأنّى يستجاب لذلك[١] » وعن حفص الفزاري قال: ذلك عيسى ابن مريم، كان يأكل من غزل أمه وهو مرسل لأن حفصاً تابعي .

﴿ وإن هذه أمتكم أمة واحدة ﴾ هذا من جملة ما خوطب به الأنبياء ، والمعنى واعلموا أن هذه ملتكم وشريعتكم ـ أيها الرسل ـ ملة واحدة وشريعة متحدة ، يجمعها أصل هو أعظم ما بعث الله به أنبياءه وأنزل فيه كتبه ، وهو دعاء جميع الأنبياء إلى عبادة الله وحده لا شريك له . والمراد بها على هذه

(١) مسلم ١٠١٥ .

العقائد ، إذ هي التي اتحدت في كل الشرائع ، أما الأحكام الفرعية فقد اختلفت باختلاف الشرائع ، وقيل المعنى إن هذا الذي تقدم ذكره هو دينكم وملتكم فالزموه . على أن المراد بالأمة هنا الدين كما في قوله : ﴿إنا وجدنا آباءنا على أمة﴾ .

وقال الخليل : أي أنا عالم بأن هذا دينكم الذي أمرتكم أن تؤمنوا به . قال الفراء : « واعلموا أن هذه أمتكم » وقال سيبويه « فاتقون لأن أمتكم أمة واحدة » وإنما أشير إليها بـ ﴿ هذه ﴾ للتنبيه على كمال ظهور أمرها في الصحة والسداد وانتظامها بسبب ذلك في سلك الأمور المشاهدة ، والفاء في ﴿ وأنا ربكم فاتقون ﴾ لترتيب الأمر بالتقوى على ما قبله من كونه ربكم المختص بالربوبية ، أي لا تفعلوا ما يوجب العقوبة عليكم مني بأن تشركوا بي غيري ، أو تخالفوا ما أمرتكم به أو نهيتكم عنه : ثم ذكر سبحانه ما وقع من الأمم من مخالفتهم لما أمرهم به الرسل فقال :

﴿ فتقطعوا أمرهم بينهم زبراً ﴾ الفاء لترتيب عصيانهم على ما سبق من الأمر بالتقوى ، والضمير يرجع الى ما يدل عليه لفظ الأمة . والمعنى أنهم جعلوا دينهم مع اتحاده قطعاً متفرقة وأدياناً مختلفة . قال المبرد : زبراً فرقاً وقطعاً مختلفة ، واحدها زبور ؛ وهي الفرقة والطائفة ، ومثله الزبرة وجمعها زبر بالضم والفتح قيل معنى زبراً كتباً ، فوصف سبحانه الأمم بأنهم اختلفوا ، فاتبعت فرقة التوراة وفرقة الزبور وفرقة الانجيل ؛ ثم حرفوا وبدلوا ، وفرقة مشركة اتبعوا ما رسمه لهم آباؤهم من الضلال ، قرىء زبراً بضم الباء ؛ وقرىء بفتحها ؛ أي قطعاً كقطع الحديد ﴿ كل حزب بما لديهم فرحون ﴾ أي كل فريق من هؤلاء المختلفين بما عندهم من الدين معجبون مسرورون ، لاعتقادهم أنهم على الحق .

﴿ فذرهم في غمرتهم ﴾ أي اتركهم في جهلهم فليسوا بأهل للهداية ولا

يضيق صدرك بتأخير العذاب عنهم ، فلكل شيء وقت شبه سبحانه ما هم فيه من الجهل بالماء الذي يغمر من دخل فيه ، والغمرة في الأصل ما يغمرك ويعلوك ، وأصلها الستر ، والغمر الماء الكثير لأنه يغطي الأرض ، وغمر الرداء هو الذي يشمل الناس بالعطاء ، ويقال للحقد الغمر ، والمراد هنا الحيرة والغفلة والضلالة ، والآية خارجة مخرج التهديد لهم ، والتسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم لا مخرج الأمر له صلى الله عليه وسلم بالكف عنهم ، بل نهى له عن الاستعجال بعذابهم ، والجزع من تأخيره .

ومعنى ﴿ حتى حين ﴾ حتى يحضر وقت عذابهم بالقتل ، أو حتى يموتوا على الكفر فيعذبون بالنار ﴿ أيحسبون ﴾ الهمزة للإنكار ، والجواب عنه مقدر ، يدل عليه قوله الآتي : بل لا يشعرون ﴿ أنما نمدهم به من مال وبنين ﴾ أي ما نعطيهم في هذه الدنيا من الأموال والبنين ، ونجعله مدداً لهم .

﴿ نسارع لهم في الخيرات ﴾ أي فيما فيه خيرهم وإكرامهم ، قال الزجاج : المعنى نسارع لهم به في الخيرات فحذفت به و﴿ ما ﴾ في ﴿ أنما ﴾ موصولة والرابط هو هذا المحذوف ، وقال الكسائي : إن ﴿ أنما ﴾ هو حرف واحد فلا تحتاج إلى رابط ؛ وقرىء يسارع بالتحتية على أن فاعله هو الامداد أو يسارع الله لهم ، وقرىء بالنون ، قال الثعلبي : وهذه هي الصواب لقوله : ﴿ نمدهم ﴾ وهذه الآية حجة على المعتزلة في مسألة الأصلح ، لأنهم يقولون : ان الله لا يفعل بأحد من الخلق الا ما هو أصلح له في الدين ، وقد أخبر أن ذلك ليس بخير لهم في الدين ولا أصلح .

﴿ بل لا يشعرون ﴾ عطف على مقدر ينسحب اليه الكلام أي إضراب انتقالي عن الحسبان المستفهم عنه ، استفهام تقريع ، والمعنى كلا لا نفعل

ذلك ، بل هم لا يشعرون بشيء أصلاً كالبهائم التي لا تفهم ولا تعقل ، فإن ما خوّلناهم من النعم وأمددناهم به من الخيرات ، إنما هـو استدراج لهم واستجرار إلى زيادة الاثم ليزدادوا إثماً ، كما قال سبحانه ﴿ إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً ﴾ وهم يحسبونه مسارعة لهم في الخيرات ، ولما نفى سبحانـه الخيرات الحقيقية عن الكفرة المتنعمين أتبع ذلك بذكر من هو أهل للخيرات عاجلاً وآجلاً فوصفهم بصفات أربع .

الأولى قوله : ﴿ إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون ﴾ الاشفاق الخوف تقول أنا مشفق من هذا الأمر أي خائف ، قيل الاشفاق هو الخشية فظاهر ما في الآية هو التكرار ، وأجيب بحمل الخشية على العذاب أي من عذاب ربهم خائفون ولو من غير فعل خطيئة ، وبه قال الكلبي ومقاتل ، وأجيب أيضاً بحمل الاشفاق على ما هو أثر له وهو الدوام على الطاعة أي دائمون على طاعته وأجيب أيضاً بأن الاشفاق كمال الخوف فلا تكرار ، وقيل هو تكرير للتأكيد كما أشار اليه في التقرير وفيه نظر .

والصفة الثانية قوله : ﴿ والذين هم بآيات ربهم يؤمنون ﴾ قيل المراد بالآيات هي التنزيلية ، وقيل هي التكوينية ؛ وقيل بمجموعهما، قيل وليس المراد بالإيمان بها هو التصديق بوجودها فقط ، فإن ذلك معلوم بالضرورة ولا يوجب المدح ؛ بل المراد التصديق بكونها دلائل وأن مدلولها حق .

والصفة الثالثة قوله : ﴿ والذين هم بربهم لا يشركون ﴾ معه غيره أي يتركون الشرك تركاً كلياً ظاهراً وباطناً .

والصفة الرابعة قوله : ﴿ والذين يؤتون ﴾ أي يعطون ﴿ ما آتوا ﴾ أي ما أعطوا ﴿ وقلوبهم وجلة ﴾ أي خائفة أشد الخوف من أجل ذلك الإعطاء يظنون أن ذلك لا ينجيهم من عذاب الله ، والجملة حالية .

قال الزجاج : قلوبهم وجلة من ﴿ أنهم الى ربهم راجعون ﴾ وسبب الوجل هو أن يخافوا أن لا يقبل منهم ذلك على الوجه المطلوب لا مجرد رجوعهم اليه سبحانه ، وقيل المعنى أن من اعتقد الرجوع الى الجزاء والحساب ؛ وعلم أن المجازي والمحاسب هو الرب الذي لا تخفى عليه خافية لم يخل من وجل ، وقرىء ﴿ يأتون ما أتوا ﴾ مقصوراً من الاتيان .

قال الفراء : ولو صحت لم تخالف قراءة الجماعة لأن من العرب من يلزم في الهمز الألف في كل الحالات ، قال النحاس : ومعناها يعملون ما عملوا يفعلون ما فعلوا من الطاعات .

أخرج الترمذي وابن ماجة والحاكم وصححه وغيرهم عن عائشة قالت : قلت يا رسول الله ، قول الله ﴿ والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة ﴾ أهو الرجل يسرق ويزني ويشرب الخمر ؟ وهو مع ذلك يخاف الله ؟ قال : « لا ، ولكنه الرجل يصوم ويتصدق ويصلي وهو مع ذلك يخاف الله أن لا يتقبل منه »[1] .

وعن ابن عباس قال : يعطون ما أعطوا ويعملون خائفين ، وعن ابن عمر قال : الزكاة ، وعن عائشة قالت : هم الذين يخشون الله ويطيعونه .

وأخرج البخاري في تاريخه والدارقطني والحاكم وصححه وغيرهم ، عن عبيد بن عمير أنه سأل عائشة كيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ هذه الآية ﴿ والذين يؤتون ما آتوا ، والذين يأتون ما أتوا ﴾ قالت : أيتهما أحب إليك ؟ وقلت والذي نفسي بيده لأحدهما أحب إليّ من الدنيا وما فيها جميعاً ، قالت أيتهما قلت الذين يأتون ما أتوا ، فقالت أشهد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرؤها كذلك ، وكذلك أنزلت ولكن الهجاء حرف ، وفي إسناده اسماعيل بن علي وهو ضعيف .

---

(١) المستدرك كتاب التفسير ٢/٣٩٤ .

أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ وَلَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ وَلَدَيۡنَا كِتَٰبٞ يَنطِقُ بِٱلۡحَقِّۚ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿٦٢﴾ بَلۡ قُلُوبُهُمۡ فِي غَمۡرَةٖ مِّنۡ هَٰذَا وَلَهُمۡ أَعۡمَٰلٞ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمۡ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذۡنَا مُتۡرَفِيهِم بِٱلۡعَذَابِ إِذَا هُمۡ يَجۡـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجۡـَٔرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدۡ كَانَتۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَكُنتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسۡتَكۡبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرٗا تَهۡجُرُونَ ﴿٦٧﴾

﴿ أولئك ﴾ أي المتصفون بهذه الصفات ﴿ يسارعون في الخيرات ﴾ أي يبادرون بها ويرغبون في الطاعات أشد الرغبة ، قال الفراء والزجاج : ينافسون فيها ، وقيل يسابقون وقرىء يسرعون ﴿ وهم لها سابقون ﴾ اللام للتقوية أي هم سابقون إياها ، وقيل اللام بمعنى إلى كما في قوله : ﴿ إن ربك أوحى لها ﴾ أي اليها وقيل هم سابقون الناس لأجلها ، والأظهر أن الضمير يعود على الخيرات لتقدمها في اللفظ ، وقيل يعود على الجنة ، وقيل على السعادة .

قال ابن عباس : أي سبقت لهم السعادة من الله ، ثم لما انجر الكلام الى ذكر أعمال المكلفين ذكر لها حكمين : الأول قوله : ﴿ ولا نكلف نفساً الا وسعها ﴾ قد تقدم بيان هذا في آخر سورة البقرة ، وفي تفسير الوسع قولان ، الأول : أنه الطاقة ، كما فسره بذلك أهل اللغة الثاني : أنه دون الطاقة ؛ وبه قال مقاتل والضحاك والكلبي والمعتزلة قالوا : إن الوسع إنما سمي وسعاً لأنه يتسع على فاعله فعله ، ولا يضيق عليه ، فمن لم يستطع الجلوس فليومىء ايماء ومن لم يستطع الصوم فليفطر وهذه جملة مستأنفة للتحريض على ما وصف به السابقون من فعل الطاعات المؤدي الى نيل الكرامات ببيان سهولته ، وكونه غير خارج عن حد الوسع والطاقة ، وأن ذلك عادة الله سبحانه في تكليف عباده ، وهو رد على من جوز تكليف ما لا يطاق .

﴿ و ﴾ جملة ﴿ لدينا كتاب ينطق بالحق ﴾ من تمام ما قبلها من نفي

التكليف بما فوق الوسع ، والمراد بالكتاب صحائف الأعمال أي عندنا كتاب قد أثبت فيه أعمال كل واحد من المكلفين على ما هي عليه ، يظهر به الحق المطابق للواقع من ذون زيادة ولا نقص ، ومثله قوله سبحانه ﴿ هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنّا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون ﴾ وفي هـذا تهديـد للعصاة ، وتأنيس للمطيعين من الحيف والظلم ، وقيل المراد بالكتاب اللوح المحفوظ ، فإنه قد كتب فيه كل شيء ، وقيل المراد القرآن ، والأول أولى،وفي هذه الآية تشبيـه للكتاب ممن يصدر عنه البيان بالنطق بلسانه ، فإن الكتاب يعرب عما فيه ؛ كما يعرب الناطق المحق . .

والمعنى ينطق متلبساً بالحق ، وجملة ﴿ وهم لا يظلمون ﴾ مبينة لما قبلها من تفضله تعالى وعدله في جزاء عباده أي النفوس العاملة لا يظلمون شيئاً منها بنقص ثواب أو بزيادة عقاب ، ومثله قوله سبحانه : ﴿ ووجدوا ما عملوا حاضراً ، ولا يظلم ربك أحداً ﴾ والجمع باعتبار عموم النفس لوقوعها في سياق النفي ثم أضرب سبحانه عن هذا فقال :

﴿ بل قلوبهم في غمرة ﴾ أي بل قلوب الكفار في غمرة غامرة لها ﴿ من هذا ﴾ الكتاب الذي ينطق بالحق أو عن الأمر الذي عليه المؤمنون يقال غمره الماء اذا غطاه ، ونهر غمر يغطّي من دخله ، والمراد بها هنا الغطاء والغفلة أو الحيرة والعمى والجهالة ، قال ابن عباس : يعني بالغمرة الكفر والشك .

﴿ ولهم ﴾ أي للكفار ﴿ أعمال من دون ذلك ﴾ قال ابن عباس : يقول أعمال سيئة دون الشرك منها اقامة امائهم في الزنا ، وقال قتادة ومجاهد : أي لهم خطايا لا بد أن يعملوها من دون الحق .

وقال الحسن وابن زيد : لهم أعمال سيئة لم يعملوها من دون ما هم عليه لا بد أن يعملوها فيدخلون النار ، والمراد بال﴿ دون ﴾ الغير أي الضد

أي أن لهم أعمالاً مضادة ومخالفة لأوصاف المؤمنين ، وقيل الإشارة بقوله : ذلك إما الى أعمال المؤمنين ، أو الى أعمال الكفار أي لهم أعمال من دون أعمال المؤمنين ، التي ذكرها الله ، أو من دون أعمال الكفار التي تقدم ذكرها من كون قلوبهم في غفلة عظيمة مما ذكر ، وهي فنون كفرهم ومعاصيهم التي من جملتها ما سيأتي من طعنهم في القرآن .

قال الواحدي : اجماع المفسرين وأصحاب المعاني على أن هذا إخبار عما سيعملونها من أعمالهم الخبيثة ؛ التي كتبت عليهم لا بد لهم أن يعملوها وجملة ﴿ هم لها عاملون ﴾ مقررة لما قبلها أي واجب عليهم أن يعملوها فيدخلوا بها النار لما سبق لهم في الأزل من الشقاوة لا محيص لهم عن ذلك أي مستمرون عليها ؛ ثم رجع سبحانه إلى وصف الكفار فقال :

﴿حتى﴾ ابتدائية أو حرف جر أو غائية عاطفة ، أقوال ﴿إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجأرون ﴾ مبينة لما قبلها ، والضمير راجع الى ما تقدم ذكره من الكفار ، والمراد بالمترفين المتنعمون منهم وهم الذين أمدهم الله بما تقدم ذكره من المال والبنين او المراد بهم الرؤساء منهم ، والمراد بالعذاب هو عذابهم بالسيف يوم بدر ، أو بالجوع بدعاء النبي (ﷺ) عليهم حيث قال : « اللهم اشدد وطأتك على مضر ، واجعلها عليهم سنين كسني يوسف »[1] .

وقيل المراد عذاب الآخرة ورجح هذا بأن ما يقع منهم من الجؤار انما يكون عند عذاب الآخرة لأنه الاستغاثة بالله ، ولم يقع منهم ذلك يوم بدر ولا في سني الجوع ، ويجاب عنه بأن الجؤار في اللغة الصراخ والصياح .

قال الجوهري : الجؤار مثل الخوار ، يقال : جأر الثور يجأر أي صاح وقد وقع منهم ومن أهلهم وأولادهم عند أن عذبوا بالسيف يوم بدر ، وبالجوع

(١) مسلم ٦٧٥ ـ البخاري ٤٨٣ .

في سني الجوع،وليس الجؤار هنا مقيداً بالجؤار الذي هو التضرع بالدعاء حتى يتم ما ذكره هذا القائل وجملة ﴿ اذا هم يجأرون ﴾ جواب الشرط واذا هي الفجائية والمعنى حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب فأجاءوا الصراخ .

قال ابن عباس : يجأرون يستغيثون أي بربهم ، ويلتجئون اليه في كشف العذاب عنهم ، ومع ذلك لا ينفعهم ، ولذلك أخبر سبحانه أنه يقال لهم حينئذ على جهة التبكيت ﴿ لا تجأروا اليوم ﴾ فالقول مضمر والجملة مسوقة لتبكيتهم وإقناطهم وقطع أطماعهم . وخصص سبحانه المترفين مع أن العذاب لاحق بهم جميعاً واقع على مترفيهم وغير مترفيهم لبيان أنهم بعد النعمة التي كانوا فيها صاروا إلى حالة تخالفها وتباينها ، فانتقلوا من النعيم التام الى الشقاء الخالص ، وخص اليوم بالذكر للتهويل والمعنى لا تصيحوا ولا تضجوا ولا تضجروا ولا تجزعوا ولا تستغيثوا . والجؤار الصراخ باستغاثة . وفي القاموس جأر كمنع جأراً وجؤاراً رفع صوته بالدعاء وتضرع واستغاث ، والبقرة والثور صاحا ، والنبات طال ، والأرض طال نبتها .

﴿ إنكم منا لا تنصرون ﴾ تعليل للنهي عن الجؤار ، والمعنى إنكم من عذابنا لا تمنعون ولا ينفعكم جزعكم . وقيل المعنى لا يلحقكم من جهتنا نصرة تمنعكم مما دهمكم من العذاب ، ثم عدد الله سبحانه عليهم قبائحهم توبيخاً لهم فقال :

﴿ قد كانت آياتي ﴾ أي القرآن ﴿ تتلى عليكم ﴾ في الدنيا ﴿ فكنتم على أعقابكم تنكصون ﴾ أي ترجعون وراءكم . قال ابن عباس : تدبرون ؛ وأصل النكوص أن يرجع القهقرى ؛ أي الى جهة الخلف ، وهو أقبح المشيات لأنه لا يرى ما وراءه ، وهو هنا استعارة للإعراض عن الحق ، وقرأ علي بن أبي طالب على أدباركم بدل على أعقابكم .

﴿ مستكبرين به ﴾ أي بالبيت العتيق . وقيل بالحرم ، والذي سوغ

الاضمار قبل الذكر اشتهارهم بالاستكبار به وافتخارهم بولايته والقيام به ، وكانوا يقولون لا يظهر علينا أحد لأنا أهل الحرم وخدامه ، والى هذا ذهب جمهور المفسرين ، وقيل الضمير عائد إلى القرآن ، والمعنى أن سماعه يحدث لهم كبراً وطغياناً فلا يؤمنون به ، قال ابن عطية : وهذا قول جيد ، وقال النحاس : القول الأول أولى ، وبينه بما ذكرناه ، فعلى الأول يكون به متعلقاً بمستكبرين ؛ وعلى الثاني بقوله :

﴿سامراً﴾ لأنهم كانوا يجتمعون حول البيت بالليل يسمرون ، وكان عامة سمرهم ذكر القرآن والطعن فيه ؛ والسامر كالحاضر ، والحاج والراكب والغائب في الإطلاق على الجمع قال الواحدي : السامر الجماعة يسمرون بالليل ، أي يتحدثون وقيل مأخوذ من السمر ، وهو سهر الليل . وقال الراغب : السامر الليل المظلم ، وقرىء سمراً وسماراً : ورويت هذه عن ابن عباس . قال : الراغب ويقال سامر وسمار وسمر وسامرون . ويجوز أن يتعلق ﴿ به ﴾ بقوله :

﴿ تهجرون ﴾ والهجر ـ بالفتح ـ الهذيان ، أي يهذون في شأن القرآن ؛ أو من الهجر ـ بالضم ـ وهو الفحش ، وقرىء تُهْجِرون من أهجر ، أي افحش في منطقه ، ومن هجّر بالتشديد ، ومن الهجران وهو الترك . ومن الهجر بسكون الجيم وهو القطع والصد ، أي تهجرون آيات الله ورسوله وتزهدون فيهما فلا تصلونهما ، وقرىء بالتحتية وفيه التفات .

قال ابن عباس : تسمرون حول البيت وتقولون هجراً ، وكانت قريشاً يتحلقون حلقاً يتحدثون حول البيت ، وعنه قال : كان المشركون يهجرون برسول الله صلى الله عليه وسلم في القول بسمرهم ، وعنه قال : إنما كره السمر حين نزلت هذه الآية . أخرجه النسائي .

أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ
مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ ۚ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿٧٠﴾
وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَاهُم
بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ
وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ ﴿٧٤﴾

﴿ أفلم يدبّروا القول ﴾ بين سبحانه أن سبب إقدامهم على الكفر هو أحد هذه الأمور الأربعة :

الأول: عدم التدبر في القرآن ، فإنهم لو تدبروا معانيه لظهر لهم صدقه وآمنوا به وبما فيه ، والهمزة للإنكار والفاء للعطف على مقدر ، أي فعلوا ما فعلوا فلم يتدبروا ، والمراد بالقول القرآن . ومثله ﴿أفلا يتدبرون القرآن﴾

والثاني قوله : ﴿ أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين ﴾ أم هي المنقطعة ، أي بل أجاءهم من الكتاب فكان ذلك سبباً لاستكبارهم للقرآن ، والمقصود تقرير أنه لم يأت آباءَهم الأولين رسول فلذلك أنكروه ومثله قوله : ﴿لتنذر قوماً ما أنذر آباؤُهم﴾ . وقيل انه أتى آباءهم الأقدمين رسل ، أرسل الله اليهم كما هي سنة الله سبحانه في إرسال الرسل الى عباده ، فقد عرف هؤلاء ذلك ، فكيف كذبوا هذا القرآن ؟ وقيل المعنى أم جاءهم من الأمن من عذاب الله ما لم يأت آباءهم الأولين كإسماعيل ومن بعده .

والثالث قوله : ﴿ أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون ﴾ وفي هذا إضراب وانتقال من التوبيخ بما تقدم إلى التوبيخ بوجه آخر ، أي بل ألم يعرفوه، بالأمانة والصدق فأنكروه ، ومعلوم أنهم قد عرفوه بذلك ، عن أبي صالح قال : عرفوه ولكنهم حسدوه .

والرابع قوله : ﴿ أم يقولون به جنة ﴾ هذا أيضاً انتقال من توبيخ إلى توبيخ أي بل أيقولون به جنون ؟ مع أنهم قد علموا أنه أرجح الناس عقلاً وأثقبهم ذهناً وأوجههم لباً ، ولكنه جاء بما يخالف هواهم ، فدفعوه وجحدوه تعصباً وحمية، وسيأتي خامس في قوله ، ﴿ أم تسألهم خرجاً ﴾ ، ثم أضرب سبحانه عن ذلك كله فقال : ﴿ بل جاءهم بالحق ﴾ أي ليس الأمر كما زعموا في حق القرآن والرسول ، بل جاءهم متلبساً بالحق ، والحق هو الدين القويم ، أو القرآن المشتمل على التوحيد وشرائع الاسلام ، وعن أبي صالح قال:الحق هو الله عز وجل .

﴿ وأكثرهم للحق كارهون ﴾ لما جبلوا عليه من التعصب والانحراف عن الصواب والبعد عن الحق ، فلذلك كرهوا هذا الحق الواضح الظاهر ، والمراد بالحق هنا أعم من الأول ؛ فلذلك أتى به مظهراً في مقام المضمر ، وظاهر النظم القرآني أنّ أقلهم كانوا لا يكرهون الحق ولكنهم لم يظهروا الايمان خوفاً من الكارهين له أو لقلة فطنتهم وعدم فكرتهم لا لكراهة الحق..

﴿ ولو اتبع الحق أهواءهم ﴾ مستأنفة لبيان أنه لو جاء الحق على ما يهوونه ويريدونه من الشريك والولد لله تعالى لكان ذلك مستلزماً للفساد العظيم وخروج نظام العالم عن الصلاح بالكلية ، وهو معنى قوله : ﴿ لفسدت السموات والأرض ﴾ قال ابن جريج ومقاتل والسدي : الحق هو الله ؛ والمعنى لو جعل الله مع نفسه كما تحبون شريكاً لفسدت هي ﴿ ومن فيهن ﴾ وقال الفراء والزجاج : الحق القرآن ، أي لو نزل القرآن بما يحبون من الشرك لفسد نظام العالم ، وقيل المعنى لو كان الحق ما يقولون من اتخاذ الآلهة مع الله لأختلفت الآلهة ، ومثل ذلك قوله : ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ﴾ لوجود التمانع في الشيء عادة عند تعدد الحاكم وقد ذهب الى القول الأول الأكثرون ، ولكنه يرد عليه أن المراد بالحق هنا هو الحق المذكور قبله ، من قوله : ﴿ بل جاءهم بالحق ﴾ ، ولا يصح أن يكون المراد به هنالك الله

سبحانه ، فالأولى تفسير الحق هنا وهناك بالصدق الصحيح من الدين الخالص من شرع الله ، والمعنى ولو ورد الحق متابعاً لأهوائهم موافقاً لفاسد مقاصدهم لحصل الفساد ، والمراد بمن في السموات والأرض ما فيهما من المخلوقات وخص العقلاء بالذكر لأن غيرهم تبع .

وقرأ ابن مسعود : وما بينهما ، وسبب فساد المكلفين من بني آدم ظاهر ، وهو ذنوبهم التي من جملتها الهوى المخالف للحق ، وأما فساد ما عداهم فعلى وجه التبع لأنهم مدبرون في الغالب بذوي العقول ، فلما فسدوا فسدوا ، ثم ذكر سبحانه أن نزول القرآن عليهم من جملة الحق فقال :

﴿ بل أتيناهم بذكرهم ﴾ إضراب وانتقال عن قوله : ﴿ وأكثرهم للحق كارهون ﴾ أي كيف يكرهون الحق مع أن القرآن أتاهم بتشريفهم وتعظيمهم ، فاللائق بهم الانقياد ، فالمراد بالذكر هنا القرآن ، أي أتيناهم بالكتاب الذي هو فخرهم وشرفهم لأن الرسول منهم والقرآن بلغتهم ؛ ومثله قوله : ﴿وإنه لذكر لك ولقومك ﴾ وحاصل المعنى بل أتيناهم بفخرهم وشرفهم الذي كان يجب عليهم أن يقبلوه ، ويقبلوا عليه وقال قتادة : المعنى بذكرهم الذي ذكر فيه ثوابهم وعقابهم . وقيل المعنى بذكر ما لهم به حاجة من أمر الدين .

وقرىء أتيتهم بتاء التكلم وأتيتهم بتاء الخطاب ، أي أتيتهم يا محمد ، وقرىء بذكراهم ، ونذكرهم بصيغة التكلم من التذكير ، وقيل الذكر هو الوعظ ، وقيل الذي كانوا يتمنونه ، ويقولون لو أن عندنا ذكراً من الأولين وقال ابن عباس : أتيناهم بيّنا لهم .

﴿ فهم ﴾ بما فعلوا من الاستكبار والنكوص ﴿ عن ذكرهم ﴾ المختص بهم ﴿ معرضون ﴾ بسوء اختيارهم لا يلتفتون اليه بحال من الأحوال ، وأتى بذكرهم مظهراً للتوكيد والتشنيع عليهم ، وفي هذا التركيب ما يدل على أن إعراضهم مختص بذلك لا يتجاوزه إلى غيره ؛ ثم بين سبحانه أن دعوة نبيه صلى الله عليه وسلم ليست مشوبة بأطماع الدنيا فقال :

﴿ أم ﴾ منقطعة ، والمعنى لكنهم يزعمون أنك ﴿ تسألهم خرجاً ﴾ تأخذه على الرسالة ، والخرج الأجر والجعل ، فتركوا الإيمان بك وبما جئت به لأجل ذلك مع أنهم يعلمون أنك لم تسألهم ذلك ولا طلبته منهم ﴿ فخراج ﴾ أي فرزق ﴿ربّك﴾ الذي يرزقك في الدنيا وأجره الذي يعطيك في الآخرة ﴿ خير ﴾ لك وقرىء خراجاً ، والخرج هو الذي يكون مقابلاً للدخل ، يقال لكل ما تخرجه إلى غيرك خرجاً ، والخراج غالب في الضريبة على الأرض . قال المبرّد: الخرج المصدر والخراج الاسم .

وقال أبو عمرو بن العلاء : الخراج ما لزمك والخرج ما تبرعت به ، وروي عنه أيضاً الخرج من الرقاب والخراج من الأرض ، فالخرج أخص من الخراج ، تقول خراج القرية وخرج الكوفة ، فزيادة اللفظ لزيادة المعنى .

﴿ وهو خير الرازقين ﴾ أي أفضل المعطين ، والجملة مقررة لما قبلها من كون خراجه سبحانه خيراً ، ثم لما أثبت سبحانه لرسوله من الأدلة الواضحة المقتضية لقبول ما جاء به ونفي عنه أضداد ذلك قال :

﴿وإنّك لتدعوهم إلى صراط مستقيم ﴾ أي إلى طريق واضحة تشهد العقول بأنها مستقيمة غير معوجة ، والصراط في اللغة الطريق ، فسمي الدين طريقاً لأنها تؤدى اليه ، ثم وصفهم سبحانه بأنهم على خلاف ذلك فقال :

﴿وإنّ الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون ﴾ يقال نكب عن الطريق ينكب نكوباً إذا عدل عنه ومال إلى غيره ، والنكوب والنكب العدول والميل ، ومنه النكباء للريح بين ريحين ، سميت بذلك لعدولها عن المهاب ، والمعنى أن هؤلاء الموصوفين بعدم الإيمان بالآخرة ، أي البعث والثواب والعقاب ، لعادلون عن صراط أو عن جنس الصراط ، ثم بين سبحانه أنهم مصرّون على الكفر لا يرجعون عنه بحال فقال :

﴿ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾

﴿ ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر ﴾ أي من قحط وجدب ﴿ للجوا في طغيانهم ﴾ أي لتمادوا في ضلالهم ، وأصل اللجاج التمادي في العناد ، ومنه اللَّجة بالفتح لتردد الصوت ؛ ولجة البحر تردد أمواجه ، ولجة الليل تردد ظلامه وقيل المعنى لو رددناهم إلى الدنيا ولم ندخلهم النار وامتحناهم للجوا في طغيانهم ﴿ يعمهون ﴾ أي يترددون ويتذبذبون ويخبطون .

﴿ ولقد أخذناهم بالعذاب ﴾ تأكيد للشرطية مسوق لتقريرها ، والعذاب قيل هو الجوع الذي أصابهم في سني القحط ، وقيل المرض وقيل القتل يوم بدر ، واختاره الزجاج . وقيل الموت ، وقيل المراد من أصابه العذاب من الأمم الخالية .

﴿ فما استكانوا ﴾ أي ما خضعوا ولا تذللوا ﴿ لربهم ﴾ بل أقاموا على ما كانوا فيه من التمرد على الله والانهماك في معاصيه ﴿ وما يتضرعون ﴾ أي وما يخشعون لله في الشدائد عند إصابتها لهم ولا يدعونه لرفع ذ لك .

أخرج النسائي والطبراني والحاكم وصححه وغيرهم عن ابن عباس قال : جاء أبو سفيان الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : « يا محمد أنشدك الله والرحم فقد أكلنا العلهز » يعني الوبر بالدم ، فأنزل الله ﴿ ولقد أخذناهم

بالعذاب ﴾ الى آخر الآية[1] ، وأصل الحديث في الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا على قريش حين استعصوا فقال : « اللهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف » الحديث[2] ، وأخرج البيهقي وغيره عن ابن عباس أن ابن أثال الحنفي لما أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أسير فخلى سبيله لحق باليمامة فحال بين أهل مكة وبين الميرة من اليمامة حتى أكلت قريش العلهز ، فجاء أبو سفيان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « أليس تزعم أنك بعثت رحمة للعالمين ؟ قال : بلى قال : فلقد قتلت الآباء بالسيف والابناء بالجوع » فأنزل الله هذه الآية .

وعن علي بن أبي طالب في الآية قال : « أي لم يتواضعوا في الدنيا ولم يخضعوا ولو خضعوا لله لاستجاب لهم » .

﴿ حتى ﴾ ابتدائية ﴿إذا فتحنا عليهم باباً ذا عذاب شديد ﴾ قيل هو عذاب الأخرة ، وقيل قتلهم يوم بدر بالسيف . قاله ابن عباس . وقيل القحط الذي أصابهم . وقيل فتح مكة . وقيل قيام الساعة ﴿ إذا هم فيه مبلسون ﴾ أي متحيرون لا يدرون ما يصنعون ، والإبلاس التحير والأياس من كل خير . وقرىء مبلَسون بفتح اللام من أبلسه أي أدخله في الإبلاس والبلاس ، مثل سلام المسح وهو فارسي معرب ، وأبلس أيس ، وقد تقدم في الأنعام .

﴿ وهو الذي أنشأ لكم السمع والأبصار والافئدة ﴾ امتنّ الله سبحانه عليهم ببعض النعم التي أعطاهم ، والمقصود به التقريع والتوبيخ بالنسبة للكافرين وتذكير النعم بالنسبة للمؤمنين وهي نعمة السمع والبصر والفؤاد

---

(١) المستدرك كتاب التفسير ٢/٣٩٤ .

(٢) البخاري كتاب الدعوات باب ٥٨ ـ الترمذي تفسير سورة ٤٤/١ .

فصارت هذه الأمور معهم ليسمعوا المواعظ وينظروا العبر ويتفكروا بالأفئدة فلم ينتفعوا بشيء من ذلك لاصرارهم على الكفر وبعدهم عن الحق ولم يشكروه على ذلك ولهذا قال :

﴿ قليلاً ما تشكرون ﴾ أي شكراً قليلاً حقيراً غير معتدّ به باعتبار تلك النعم الجليلة ، وقيل المعنى انهم لا يشكرونه ألبتّة لا أن لهم شكراً قليلاً ، كما يقال لجاحد النعمة ما أقل شكره أي لا يشكر ، ومثل هذه الآية قوله : ﴿ فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم ﴾ وفيه تنبيه على أن من لم يعمل هذه الأعضاء فيما خلقت له فهو بمنزلة عادمها .

﴿ وهو الذي ذرأكم في الأرض ﴾ أي بثّكم فيها بالنسل كما تبث الحبوب ، وقد تقدم تحقيقه ﴿وإليه تحشرون ﴾ أي تجمعون يوم القيامة بعد تفرقكم ﴿ وهو الذي يحيي ﴾ النسم بالإنشاء ونفخ الروح في المضغة ﴿ ويميت ﴾ النسم بالإفناء على جهة الانفراد والاستقلال ، وفي هذا تذكير بنعمة الحياة وبيان الانتقال منها الى الدار الآخرة .

﴿ وله اختلاف الليل والنهار ﴾ خلقاً وايجاداً ، قال الفراء : هو الذي جعلهما مختلفين يتعاقبان ، ويختلفان في السواد والبياض ، وقيل اختلافهما نقصان أحدهما وزيادة الآخر ، وقيل تكرارهما يوماً بعد يوم وليلة بعد ليلة .

﴿ أفلا تعقلون ﴾ كنه قدرته وتتفكرون في ذلك ، ثم بين سبحانه أنه لا شبهة لهم في إنكار البعث إلا التشبث بحبل التقليد المبني على مجرد الاستبعاد فقال :

﴿ بل قالوا مثل ما قال الأولون ﴾ أي آباؤهم والموافقون لهم في دينهم من قوم نوح ، وهود وصالح وغيرهم ، ثم بين ما قاله الأولون فقال :

قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾

﴿ قالوا : ائذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون ؟ ﴾ فهذا مجرد استبعاد لم يتعلقوا فيه بشيء من الشبه ، ثم كملوا ذلك القول بقولهم : ﴿ لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل ﴾ أي وعدنا هذا البعث الآن ووعده آباؤنا الكائنون من قبلنا فلم نصدقه كما لم يصدقوه ثم صرحوا بالتكذيب ، وفرّوا الى مجرد الزعم الباطل فقالوا :

﴿ إن هذا إلا أساطير الأولين ﴾ أي ما هذا إلا أكاذيب الأولين التي سطروها في الكتب جمع أسطورة كأحدوثة ، والأساطير : الأباطيل والترهات والكذب ، وقيل جمع أسطار وهو جمع سطر ، والأول أوفق ، والمعنى لم نر هذا الوعد شيئاً ، وإنا رأيناه أساطير الأولين ، ثم أمر الله سبحانه نبيه (ﷺ) أن يسأل أهل مكة عن أمور لا عذر لهم من الاعتراف فيها فقال :

﴿ قل لمن الأرض ومن فيها ﴾ المراد بمن الخلق جميعاً وعبر عنهم بمن تغليباً للعقلاء و ﴿ لمن ﴾ خبر مقدم والأرض مبتدأ مؤخر ﴿ إن كنتم تعلمون ﴾ شيئاً من العلم ، وجواب الشرط محذوف أي فاخبروني ، وفي هذا تلويح بجهلهم وفرط غباوتهم .

﴿ سيقولون لله ﴾ أي لا بد أن يقولوا ذلك لأنه معلوم ببداهة العقل وهذا إخبار من الله بما يقع منهم في الجواب قبل وقوعه ، ثم أمره سبحانه أن

يقول لهم بعد اعترافهم ﴿ قل أفلا تذكرون ﴾ ترغيباً لهم في التدبر وإمعان النظر والفكر فإن ذلك مما يقودهم الى اتباع الحق وترك الباطل ، لأن من قدر على ذلك ابتداء قدر على إحياء الموتى .

﴿ قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم ؟ سيقولون لله ﴾ جاء سبحانه باللام نظراً الى معنى السؤال ، فإن قولك : مَن ربّه؟ ولمن هو؟ في معنى واحد كقولك : مَن رب هذه الدار؟ فيقال : زيد ؛ ويقال لزيد ، وقرىء الله بغير لام نظراً إلى لفظ السؤال ، وهذا أوضح من الأولى ، ولكنه يؤيدها أنها مكتوبة في جميع المصاحف باللام بدون الألف .

﴿ قل أفلا تتقون ﴾ عبادة غيره أو تحذرون عقابه أو قدرته على البعث ، فلا تشركوا به ، وفيه تنبيه على أن اتقاء عذاب الله لا يحصل الا بترك عبادة الأوثان ، والاعتراف بجواز الاعادة ، فهذا الختم أبلغ من ختم الآية الأولى لاشتماله على الوعيد الشديد ، ولما ذكر الأرض أولاً والسماء ثانياً ، عمم الحكم ههنا فقال :

﴿ قل من بيده ملكوت كل شيء ؟ ﴾ الملكوت الملك وزيادة التاء للمبالغة نحو جبروت ورحموت ورهبوت، وقال مجاهد : يعني خزائن كل شيء ﴿ وهو يجير ﴾ أي أنه يغيث غيره إذا شاء ويمنعه ﴿ ولا يجار عليه ﴾ أي لا يمنع أحد أحداً من عذاب الآخرة ؛ ولا يقدر على نصره وإغاثته ، يقال : أجرت فلاناً إذا استغاث بك فحميته . وأجرت عليه إذا حميت عنه ؛ والمعنى يحمي ولا يحمى عليه ﴿ إن كنتم تعلمون ﴾ فأجيبوا :

﴿ سيقولون لله ﴾ قرىء باللام نظراً إلى معنى السؤال كما سلف ، وقرىء بغير لام نظراً إلى لفظ السؤال ﴿ قل فأنى تسحرون ؟ ﴾ قال الفراء والزجاج : أي تصرفون عن الحق وتخدعون ، والمعنى كيف يخيل اليكم الحق باطلاً ؟ والصحيح فاسداً،والخادع لهم هو الشيطان أو الهوى أو كلاهما ، ثم بين الله سبحانه أنه قد بالغ في الاحتجاج عليهم فقال :

بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ ﴿٩٥﴾ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾

﴿ بل أتيناهم بالحق ﴾ أي بالأمر الواضح الذي يحق اتباعه ﴿ وإنهم لكاذبون ﴾ فيما ينسبونه الى الله تعالى من الولد والشريك ، ثم نفاهما عن نفسه فقال :

﴿ ما اتخذ الله من ولد ﴾ لأنه منزه عن النوع والجنس وولد الرجل من جنسه ﴿ وما كان معه من إله ﴾ شريك في الألوهية ، ومن في الموضعين زائدة لتوكيد النفي ، ثم بين سبحانه ما يستلزمه ما يدعيه الكفار من إثبات الشريك فقال : ﴿ إذاً لذهب كل إله بما خلق ﴾ وفي الكلام حذف أي لو كان مع الله آلهة أخرى لانفرد كل إله بخلقه واستبد به وامتاز ملكه عن ملك الآخر ، ووقع بينهم التطالب والتحارب والتغالب .

﴿ ولعلا بعضهم على بعض ﴾ أي ولغلب القوي على الضعيف وقهره وأخذ ملكه كعادة الملوك من بني آدم ، وحينئذ فذلك الضعيف المغلوب لا يستحق ان يكون إلهاً ، واذا تقرر عدم إمكان المشاركة في ذلك وانه لا يقوم به الا واحد ؛ تعين أن يكون هذا الواحد هو الله سبحانه ، وهذا الدليل كما دل على نفي الشريك فانه يدل على نفي الولد لأن الولد ينازع أباه في ملكه ، ثم نزّه سبحانه نفسه فقال :

﴿ سبحان الله عما يصفون ﴾ من الشريك والولد ، واثبات ذلك لله عز وجل ﴿ عالم الغيب والشهادة ﴾ أي هو مختص بعلم ما غاب وما شوهد ، وأما غيره سبحانه فهو وإن علم الشهادة لا يعلم الغيب ، وهذا دليل آخر على الوحدانية بواسطة مقدمة أخرى كأنه قيل الله علمهما وغيره لا يعلمهما فغيره ليس بإله وهذا من قبيل الشكل الثاني ، وقرىء بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي هو الله ، وقرىء بالجر على أنه صفة لله عز وجل أو بدل منه ، وروي عن يعقوب أنه كان يخفض إذا وصل ويرفع إذا ابتدأ .

﴿ فتعالى ﴾ الله ﴿ عما يشركون ﴾ عطف على معنى ما تقدم ؛ كأنه قال : علم الغيب فتعالى ، أو أقول : فتعالى ، والمعنى أنه سبحانه متعال متعال عن أن يكون له شريك في الملك .

﴿ قل رب إمّا تريني ما يوعدون ﴾ أي إن كان ولا بد أن تريني العذاب المستأصل لهم ﴿ رب فلا تجعلني في القوم الظالمين ﴾ قال الزجاج : أي إن أنزلت بهم النقمة يا رب ، فاجعلني خارجاً عنهم يعني إن النداء معترض ، وذكر الرب مرتين قبل الشرط وبعده مبالغة في التضرع والابتهال ، وأمره الله أن يسأله أن لا يجعله في القوم الظالمين مع أن الأنبياء لا يكونون معهم أبداً تعليماً له صلى الله عليه وسلم من ربه كيف يتواضع ويهضم نفسه أو لكون شؤم الكفر قد يلحق من لم يكن من أهله كقوله : ﴿ واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصّة ﴾ ثم لما كان المشركون ينكرون العذاب ويسخرون من النبي صلى الله عليه وسلم اذا ذكر لهم ذلك أكد سبحانه وقوعه بقوله :

﴿ وإنّا على أن نريك ما نعدهم لقادرون ﴾ يعني أن الله سبحانه قادر على أن يرى رسوله عذابهم ولكنه يؤخره لعلمه بأن بعضهم سيؤمن أو لكون الله سبحانه لا يعذبهم والرسول فيهم ، وقيل قد أراه الله سبحانه ذلك يوم بدر ويوم فتح مكة ثم أمره سبحانه بالصبر الى أن ينقضي الأجل المضروب فقال :

﴿ ادفع بالتي هي أحسن السيئة ﴾ أي ادفع بالخصلة التي هي أحسن من غيرها وهي الصفح والإعراض عما يفعله الكفار من الخصلة السيئة وهي الشرك،قيل وهذه الآية منسوخة بآية السيف وقيل هي في حق هذه الأمة فيما بينهم منسوخة في حق الكفار .

قال مجاهد : أي أعرض عن أذاهم اياك ، وقال عطاء : ادفع بالسلام وعن أنس قال : هو قول الرجل لأخيه ما ليس فيه فيقول : إن كنت كاذباً فأنا أسأل الله أن يغفر لك وان كنت صادقاً فأنا أسأل الله أن يغفر لي .

﴿ نحن أعلم بما يصفون ﴾ اياك به مما أنت على خلافه أو بما يصفون من الشرك والتكذيب وفي هذا وعيد لهم بالعقوبة ، ثم علمه سبحانه ما يقويه على ما أرشده اليه من العفو والصفح ومقابلة السيئة بالحسنة فقال :

﴿ وقل رب أعوذ بك ﴾ أي أعتصم ﴿ من همزات الشياطين ﴾ جمع همزة وهي في اللغة الدفعة باليد أو بغيرها ؛ يقال همزة ولمزة ونخسة أي دفعة ، وقيل الهمز كلام من وراء القفا ، واللمز المواجهة ، والمراد بها هنا خطراته التي يخطرها بقلب الانسان ووساوسه ، وقيل نفخهم ونفثهم ، والجمع للمرات أو لتنوع الوساوس ، أو لتعدد المضاف اليه ، وفي الآية إرشاد لهذه الأمة الى التعوذ من الشيطان ، ومن همزات الشياطين ؛ وهي سورات الغضب التي لا يملك الانسان فيها نفسه .

وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾

﴿وأعوذ بك رب أن يحضرون﴾ أمره الله سبحانه أن يتعوذ بالله من حضور الشياطين بعدما أمره أن يتعوذ من همزاتهم ؛ وأُعيد كل من العامل والنداء مبالغة ولزيادة اعتناء بهذه الاستعاذة ، والمعنى وأعوذ بك ان يكونوا معي في حال من الأحوال فإنهم اذا حضروا الانسان لم يكن عمل الا الوسوسة ، والاغراء على الشر ، والصرف عن الخير ، وفي قراءة أُبيّ « وقل رب عائذاً بك » .

وأخرج أحمد وأبو داود والترمذي وحسنه والنسائي والبيهقي ،عن عمرو ابن شعيب عن أبيه عن جده قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمنا كلمات نقولهن عند النوم من الفزع : « بسم الله أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه وشر عباده ، ومن همزات الشياطين وأن يحضرون » قال : فكان ابن عمرو يعلمها من بلغ من أولاده أن يقولها عند نومه ، ومن كان منهم صغيراً ـ لا يغفل ان يحفظها كتبها له ، فعلقها في عنقه »[1] وفي اسناده محمد ابن اسحاق وفيه مقال معروف وأخرج أحمد عن الوليد بن الوليد أنه قال : يا رسول الله إني أجد وحشة قال : «إذا اخذت مضجعك فقل أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه وشر عباده ومن همزات الشياطين وأن يحضرون ،

(١) ابو داوود كتاب الطب ١٩ ـ الترمذي كتاب الدعوات ٩٠ .

فإنّه لا يحضرك وبالحري لا يضرك »[1] .

﴿حتى إذا جاء أحدَهم الموتُ﴾ حتى هي الابتدائية دخلت على الشرطية ، وهي مع ذلك غاية لما قبلها متعلقة بقوله لكاذبون . وقيل بيصفون والمراد بمجيء الموت مجيء علاماته ، أي رأس مقعده من النار ومقعده من الجنة لو آمن ﴿ قال ﴾ أي ذلك الأحد الذي حضره الموت تحسراً وتحزناً على ما فرط منه .

﴿ رب ارجعون ﴾ أي ردوني إلى الدنيا ، وإنما قال بضمير الجماعة لتعظيم المخاطب ، وقيل هو على معنى تكرير الفعل ، أي ارجعني ارجعني ارجعني ، قاله أبو البقاء ، ومثله قوله تعالى : ﴿ ألقيا في جهنم ﴾ قال المازني : معناه ألق ألق ، وهكذا قيل في قول امرىء القيس :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

ومثله قول الحجاج : يا حرسي اضربا عنقه . وقول الآخر:

ألا فارحمون يا إله محمد

وقيل إنهم لما استغاثوا بالله قال قائلهم : رب ؛ ثم رجع إلى مخاطبة الملائكة فقال : ارجعون ﴿ لعلي أعمل ﴾ عملاً ﴿ صالحاً ﴾ في الدنيا إذا رجعت اليها من الإيمان وما يتبعه من أعمال الخير .

أخرج ابن أبي الدنيا وابن أبي حاتم عن أبي هريرة قال : إذا أدخل الكافر في قبره فيرى مقعده من النار ، قال : ﴿ رب ارجعون ﴾ أتوب وأعمل صالحاً ، فيقال له قد عمّرت ما كنت معمِّراً، فيضيق عليه قبره ، فهو فالمنهوش ينازع ويفزع ، تهوي إليه حيات الأرض وعقاربها .

وعن ابن جريج قال : زعموا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعائشة : « إن المؤمن إذا عاين الملائكة ، قالوا : نرجعك إلى الدنيا ؟

---

(١) الإمام احمد ١٦١/٢ .

فيقول : الى دار الهموم والأحزان ؟ بل قدما إلى الله ، وأما الكافر فيقولون له : نرجعك ؟ فيقول رب ارجعون لعلي أعمل صالحاً ، وهو مرسل .

وعن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اذا حضر الإنسان الوفاة يجمع له كل شيء يمنعه عن الحق فيجعل بين عينيه ، فعند ذلك يقول رب ارجعون » الآية .

وعن ابن عباس في قوله : ﴿ أعمل صالحاً ﴾ قال : أقول لا إله إلا الله ﴿ فيما تركت ﴾ أي في الموضع الذي ضيعت أو منعت ، وقيل خلفت من التركة وهو الدنيا لأنه ترك الدنيا وصار إلى العقبى . قال قتادة : ما تمنى أن يرجع الى أهله وعشيرته ولا ليجمع الدنيا ويقضي الشهوات ، ولكن تمنى أن يرجع فيعمل بطاعة الله ، فرحم الله امْرءاً عمل فيما تمناه الكافر اذا رأى العذاب . ولما تمنى أن يرجع ليعمل ، رد الله عليه ذلك بقوله :

﴿كلّا إنها كلمة هو قائلها ﴾ فجاء بكلمة الردع والزجر ، والضمير في ﴿إنها﴾ يرجع إلى قوله : ﴿ رب ارجعون ﴾ أي أن هذه الكلمة هو قائلها لا محالة لا يخليها ولا يسكت عنها لاستيلاء الحسرة والندم عليه ، وليس الأمر كما يظنه من أنه يجاب الى الرجوع الى الدنيا ؛ أو المعنى أنه لو أجيب الى ذلك لما حصل منه الوفاء كما في قوله : ﴿ ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه ﴾ وقيل ان الضمير في ﴿ هو ﴾ يرجع الى الله ، أي لا خلف في خبره ، وقد أخبرنا بأنه لا يؤخر نفساً اذا جاء أجلها .

﴿ ومن ورائهم ﴾ أي من أمامهم وبين أيديهم ، والضمير للأحد والجمع باعتبار المعنى لأنه في حكم كلهم ، كما أن الأفراد في الضمائر الأول باعتبار اللفظ ﴿ برزخ ﴾ هو الحاجز بين الشيئين . قاله الجوهري ، واختلف في معنى الآية فقال الضحاك ومجاهد وابن زيد : حاجز بين الموت والبعث . وقال

الكلبي : هو الأجل بين النفختين وبينهما أربعون سنة . وقال السدي : هو الأجل ، وقيل : بينهم وبين الرجوع الى الدنيا .

﴿إلى يوم يبعثون﴾ أي يوم القيامة ، وهو اقناط كلي عن الرجوع الى الدنيا لما علم أنه لا رجعة يوم البعث الى الدنيا ، وانما الرجوع فيه الى حياة تكون في الآخرة . عن عائشة قالت : ويل لأهل المعاصي من أهل القبور ، تدخل عليهم في قبورهم حيات سود ، حية عند رأسه وحية عند رجليه ، تقرضانه حتى تلتقيا في وسطه ، فذلك العذاب في البرزخ الذي قال الله ﴿ ومن ورائهم برزخ الى يوم يبعثون ﴾ .

﴿ فإذا نفخ في الصور ﴾ قيل هذه هي النفخة الأولى ، قاله ابن عباس . وقيل الثانية قاله ابن مسعود وهذا أولى . وهي النفخة التي بين البعث والنشور . وقيل المعنى فإذا نفخ في الأجساد أرواحها ، على أن الصور جمع صورة لا القرن وقد قرىء بها وبضم الصاد وسكون الواو ، والقرن الذي ينفخ فيه ﴿ فلا أنساب بينهم يومئذ ﴾ يتفاخرون بها أو تنفعهم لزوال التراحم والتعاطف ، أي لا يذكرونها لما هم فيه من فرط الحيرة واستيلاء الدهشة ، وهو جمع نسب وهو القرابة .

﴿ ولا يتساءلون ﴾ أي لا يسأل بعضهم بعضاً عنها ، فإن لهم إذ ذاك شغلاً شاغلاً . ومنه قوله : ﴿ يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه ﴾ وقوله : ﴿ ولا يسأل حميم حميماً ﴾ ولا ينافي هذا ما في الآية الأخرى من قوله : ﴿ وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ﴾ فإن ذلك محمول على اختلاف المواقف يوم القيامة فالإثبات باعتبار بعضها والنفي باعتبار بعض آخر ، كما قررناه في نظائر هذا ، مما اثبت تارة ونفي أخرى .

وعن ابن عباس في الآية قال : حين ينفخ في الصور فلا يبقى حي إلا الله . وعنه أنه سئل عن هذه الآية . وقوله : ﴿ وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ﴾ قال : إنها مواقف ، فأما الموقف الذي لا أنساب بينهم ولا

يتساءلون فعند الصعقة الأولى لا أنساب بينهم فيها إذا صعقوا ، فإذا كانت النفخة الآخرة فإذا هم قيام يتساءلون وعنه أنه سئل عن الآيتين فقال : هذا في النفخة الأولى حين لا يبقى على الأرض شيء ، وذاك لما دخلوا الجنة أقبل بعضهم على بعض يتساءلون وعن ابن مسعود قال : إذا كان يوم القيامة جمع الله الأولين والآخرين ، وفي لفظ يؤخذ بيد العبد أو الأمة يوم القيامة على رؤوس الأولين والآخرين ، ثم يناد مناد ألا إن هذا فلان بن فلان فمن كان له حق قبله فليأت إلى حقه .

وأخرج أحمد والطبراني والحاكم والبيهقي في سننه عن المسور بن مخرمة قال ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إن الانساب تنقطع يوم القيامة غير نسبي وسببي وصهري »[1] .

وأخرج البزار والطبراني وأبو نعيم والحاكم والضياء في المختارة عن عمر ابن الخطاب قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « كل سبب ونسب منقطع يوم القيامة الا سببي ونسبي »[2] .

وأخرج ابن عساكر عن ابن عمر قال ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كل نسب وصهر ينقطع يوم القيامة الا نسبي وصهري »[3] وأخرج أحمد عن أبي سعيد الخدري قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول على المنبر : « ما بال رجال يقولون ان رحم رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تنفع قومه ، بلى والله إن رحمي موصولة في الدنيا والآخرة ، وإني أيها الناس فرط لكم »[4] .

﴿ فمن ثقلت موازينه ﴾ أي موزوناته من أعماله الصالحة ، فالموازين

---

(١) الإمام أحمد ٣٢٣/٤ ـ ٣٣٢/٤ .
(٢) صحيح الجامع الصغير ٤٤٠٣ .
(٣) صحيح الجامع الصغير ٤٤٤٠ .
(٤) احمد بن حنبل ١٨/٣ ـ ٣٩/٣ .

جمع موزون ويجوز كونه جمع ميزان ومع وحدته جمعه لتعدد الموزون ﴿ فأولئك هم المفلحون ﴾ أي الفائزون بمطالبهم المحبوبة الناجون من الأمور التي يخافونها .

﴿ ومن خفت موازينه ﴾ وهي أعماله الصالحة ﴿ فأولئك الذين خسروا أنفسهم ﴾ أي ضيعوها وتركوا ما ينفعها ﴿ في جهنم خالدون ﴾ قد تقدم الكلام على هذه الآية مستوفى فلا نعيده .

﴿ تلفح وجوههم النار ﴾ أي تحرقها مستأنفة أو حالية أو خبر لأولئك . واللفح أشد النفح لأنه الإصابة بشدة ، والنفح الإصابة مطلقاً ، كما في قوله تعالى : ﴿ ولئن مستهم نفحة من عذاب ربك ﴾ ، وقيل اللفح الإحراق ، يقال : لفحته النار اذا أحرقته ، ولفحته بالسيف اذا ضربته ، وخص الوجوه لأنها أشرف الأعضاء وقيل تسفع . قال ابن عباس : تلفح تنفخ .

أخرج ابن مردويه والضياء عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله (ﷺ) في الآية : « تلفحهم لفحة فتسيل لحومهم على أعقابهم » وعن ابي مسعود قال : لفحتهم لفحة فما أبقت لحماً على عظم الا ألقته على أعقابهم .

﴿ وهم فيها كالحون ﴾ حالية ، والكالح الذي قد شمرت شفتاه وبدت أسنانه قاله الزجاج ، ودهر كالح أي شديد . قال أهل اللغة : الكلوح تكشر في عبوس وبابه خضع ، ومنه كلوح الأسد أي تكشيره عن أنيابه ، وقيل الكلوح تقطب الوجه ، وكلح الرجل يكلح كلوحاً وكلاحاً وعن ابن مسعود قال : كلوح الرأس النضج بدت أسنانهم وتقلصت شفاههم ، وعن ابن عباس قال : كالحون أي عابسون وعن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم في الآية قال : «تشويهِ النار فتتقلص شفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه وتسترخي شفته السفلى ، حتى تضرب سرته » أخرجه الترمذي[1] ، وقال :

---

(١) الترمذي جهنم باب ٥ ـ تفسير سورة ٢٣ ـ ٤ .

﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿١١١﴾﴾

حديث حسن صحيح غريب ، وقد ورد في صفة أهل النار وما يقولونه وما يقال لهم أحاديث كثيرة معروفة ﴿ ألم تكن آياتي تتلى عليكم ؟ ﴾ في الدنيا ، يعني قوارع القرآن وزواجره تخوفون بها ، ويقال لهم ذلك توبيخاً وتقريعاً ﴿ فكنتم بها تكذبون ﴾ وتزعمون أنها ليست من الله تعالى .

﴿ قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا ﴾ مستأنفة والمعنى غلبت علينا لذاتنا وشهواتنا فسمي ذلك شقوة لأنه يؤول إلى الشقاء وقرىء شقاوتنا ، وبها قرأ ابن مسعود والحسن ، وهما مصدران بمعنى سوء العاقبة ، والشقاء ضد السعادة والشدة والعسر ﴿ وكنا قوماً ضالين ﴾ بسبب ذلك عن الهدى ، فإنهم ضلوا عن الحق والصواب بتلك الشقوة ، ثم طلبوا ما لا يجابون إليه فقالوا :

﴿ ربنا أخرجنا منها ﴾ أي من النار ﴿ فإن عدنا ﴾ إلى ما كنا عليه من الكفر والتكذيب وعدم الإيمان ﴿فإنّا ظالمون ﴾ لأنفسنا بالعود إلى ذلك .

﴿ قال ﴾ تعالى لهم بلسان مالك بعد قدر الدنيا مرتين . قيل هو سبعة آلاف سنة بعدد الكواكب السيارة ، وقيل إثنا عشرة ألف سنة بعدد البروج ، وقيل ثلثمائة ألف سنة وستون بعدد أيام السنة . ذكره القرطبي في التذكرة ، والتحقيق فيه ما ذكرناه في لقطة العجلان ﴿ اخسئوا فيها ﴾ أي اسكتوا في جهنم سكوت هوان قال المبرد : الخسء إبعاد بمكروه ، وقال الزجاج : تباعدوا تباعد سخط ، وأبعدوا بُعد الكلب ، فالمعنى أبعدوا في جهنم ، كما

يقال للكب اخسأ ، أي ابعد ، وخسأت الكلب طردته .

﴿ ولا تكلمون ﴾ في إخراجكم من النار ورجوعكم إلى الدنيا ، أو في رفع العذاب عنكم . وقيل المعنى لا تكلمون رأساً قال الحسن : هو آخر كلام يتكلم به أهل النار وما بعد ذلك إلا الزفير والشهيق وعواء كعواء الكلاب ، ثم علل ذلك بقوله : ﴿ إنه ﴾ تعليل لما قبلها من الزجر عن دعائهم بالخروج منها ﴿ كان فريق من عبادي ﴾ وهم المؤمنون ، وقيل الصحابة المهاجرون ومنهم بلال وصهيب وعمار وخباب .

﴿ يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين ﴾ ومحط التعليل قوله : ﴿ فاتخذتموهم سخرياً ﴾ بكسر السين وبضمها سبعيتان وفرق بينهما أبو عمرو فجعل الكسر من جهة الهزء، والضم من جهة السخرية قال النحاس : ولا يعرف هذا الفرق الخليل ولا سيبويه ولا الكسائي ولا الفراء .

وحكي عن الكسائي أن الكسر بمعنى الاستهزاء والسخرية بالقول ، والضم بمعنى التسخير والاستبعاد بالفعل .

﴿ حتى أنسوكم ذكري ﴾ أي اتخذتموه سخرياً الى هذه الغاية فإنهم نسوا ذكر الله لشدة اشتغالهم بالاستهزاء ﴿ وكنتم منهم تضحكون ﴾ في الدنيا ، والمعنى حتى نسيتم ذكري باشتغالكم بالسخرية والضحك ، فنسب ذلك الى عباده المؤمنين لكونهم السبب ﴿ إني جزيتهم اليوم بما صبروا ﴾ مستأنفة لتقرير ما سبق لبيان حسن حالهم ، والباء للسببية .

﴿ أنهم هم الفائزون ﴾ بفتح الهمزة مفعول ثان لجزيتهم وقرىء بكسرها على الاستئناف . والمعنى جزيتهم بصبرهم الفوز بالجنة . قال الله عز وجل تذكيراً لهم بأن ما ظنوه طويلاً دائماً فهو قليل بالإضافة الى ما أنكروه ، وقرىء قل على صيغة الأمر ، والمعنى قل يا محمد للكفار ، أو يكون أمراً للملك بسؤالهم ، أو التقدير قولوا ، فاخرج الكلام مخرج الأمر للواحد ، والمراد الجماعة .

قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ ٱغۡفِرۡ وَٱرۡحَمۡ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾

﴿ كم لبثتم في الأرض ﴾ التي طلبتم الرجوع اليها ، والغرض من هذا السؤال التبكيت والتوبيخ لأنهم كانوا ينكرون اللبث في الآخرة أصلاً ، ويحتمل أن يكون السؤال عن جميع ما لبثوا في الحياة الدنيا وفي القبور .

وقيل هو سؤال عن مدة لبثهم في القبور لقوله : ﴿ في الأرض ﴾ ولم يقل على الأرض ، ورد بمثل قوله تعالى : ﴿ ولا تفسدوا في الأرض ﴾ ﴿ عدد سنين ﴾ أي لبثتم كم عدداً من السنين ـ بفتح النون على أنها نون الجمع ـ ومن العرب من يخفضها وينونها .

﴿ قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم ﴾ استقصروا مدة لبثهم وشكوا في ذلك لعظم ما هم فيه من العذاب الشديد . وقيل إن العذاب رفع عنهم بين النفختين فنسوا ما كانوا فيه من العذاب في قبورهم ، وقيل أنساهم الله ما كانوا فيه من العذاب من النفخة الأولى الى النفخة الثانية ، ثم لما عرفوا ما أصابهم من النسيان لشدة ما هم فيه من الهول العظيم أحالوا على غيرهم فقالوا :

﴿ فاسئل العادّين ﴾ جمع عادّ من العدد ، أي المتمكنين من معرفة العدد ، وهم الملائكة لأنهم الحفظة العارفون بأعمال العباد وأعمارهم ، وقيل

المعنى فاسئل الحاسبين العارفين بالحساب من الناس .

﴿ قال إن لبثتم إلا قليلاً ﴾ قرىء على الخبر وقرىء قل كما في الآية الأولى ، وقد تقدم توجيه القراءتين أي ما لبثتم في الأرض إلا زمناً قليلاً أو لبثاً قليلاً ، قال تعالى ذلك بلسان مالك تصديقاً لهم وتقريعاً وتوبيخاً ﴿ لو أنكم كنتم تعلمون ﴾ شيئاً من العلم ، والجواب محذوف أي لعلمتم اليوم قلة لبثكم في الأرض ، أو في القبور أو فيهما فكل ذلك قليل بالنسبة الى لبثهم في النار ، ثم زاد في توبيخهم على تماديهم في الغفلة ، وتركهم النظر الصحيح فيما يدل على حقية البعث والقيامة فقال :

﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً ﴾ لا لحكمة ، والهمزة للتوبيخ والتقرير والفاء للعطف على مقدر أي ألم تعلموا شيأ فحسبتم أو أغفلتم وتلاهيتم وتعاميتم فحسبتم والمعنى عابثين أو لأجل العبث ، قال بالأول سيبويه وقطرب وبالثاني أبو عبيدة،والعبث في اللغة اللعب وما لا فائدة فيه ، يقال : عبث يعبث عبثاً ، فهو عابث أي لاعب وأصله من قولهم : عبثت الاقط أي خلطته ، والمعنى أفحسبتم أنا خلقناكم للاهمال كما خلقت البهائم ولا ثواب ولا عقاب .

﴿ وأنكم إلينا لا ترجعون ﴾ بالبعث والنشور فيجازيكم بأعمالكم ؛ قرىء ترجعون مبنياً للفاعل وللمفعول ، وقدم الينا على الفعل لأجل الفواصل ، ثم نزه سبحانه نفسه فقال :

﴿ فتعالى الله ﴾ أي تنزه عن الأولاد والشركاء أو عن أنْ يخلق شيئاً عبثاً أو عن جميع ذلك وهو ﴿ الملك ﴾ الذي يحق له الملك على الإطلاق إيجاداً وإعداماً بدءاً واعادة واحياء وإماتة وعقاباً وإثابة، وكل ما سواه مملوك له بالذات مقهور لملكوته مالك بالعرض من وجه دون وجه وفي حال دون حال

﴿ الحق ﴾ في جميع أفعاله وأقواله وهذا استعظام له تعالى ولشؤونه .

﴿ لا إلّه إلا هو رب العرش الكريم ﴾ فكيف لا يكون إلّهاً ورباً لما هو دون العرش الكريم وما تحته من المخلوقات وما أحاط به من الموجودات كائناً ما كان ووصف العرش بالكريم لنزول القرآن أو الرحمة أو الخير منه أو باعتبار من استوى عليه كما يقال بيت كريم إذا كان ساكنوه كراماً ، أو لنسبته الى أكرم الاكرمين من حيث أنه أعظم مخلوقاته وقرىء الكريم بالرفع على أنه نعت لرب .

أخرج الحكيم الترمذي وأبو يعلى وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن السني في عمل اليوم والليلة وابن مردويه وأبو نعيم في الحلية ، عن ابن مسعود أنه قرأ في أذن مصاب : أفحسبتم حتى ختم السورة فبرىء فقال رسول الله صلى الله « بماذا قرأت في أذنه ؟ فأخبره فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « والذي نفسي بيده لو أن رجلاً موقناً قرأ بها على جبل لزال » .

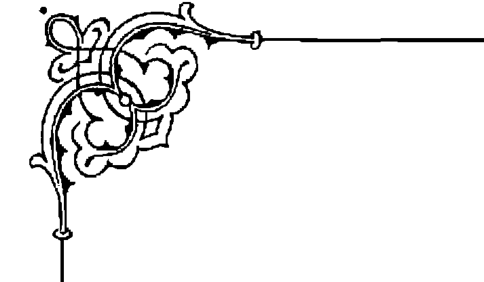
وأخرج ابن السني وابن منده وأبو نعيم قال السيوطي بسند حسن عن ابراهيم التيمي قال : بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في سرية وأمرنا أن نقول اذا أمسينا وأصبحنا ، أفحسبتم الخ فقرأناها فغنمنا وسلمنا ، ثم زيف ما عليه أهل الشرك توبيخاً لهم وتقريعاً فقال :

﴿ ومن يدع مع الله إلّهاً آخر ﴾ يعبده مع الله أو يعبده وحده ﴿ لا برهان له به ﴾ صفة كاشفة لقوله ﴿إلّهاً﴾ لا مفهوم لها أو هي صفة لازمة جيء بها للتأكيد كقوله يطير بجناحيه ، والبرهان الحجة الواضحة والدليل أفلح فيه مراعاة معنى ﴿ من ﴾ وفيه الإظهار في مقام الاضمار للنداء عليهم يستحقه وجملة لا برهان له به معترضة بين الشرط والجزاء ، وقيل إن جواب الشرط قولُهُ لا برهان له به .

﴿إنه﴾ قرىء بالكسر على الاستئناف المفيد للعلة وبالفتح على التعليل ﴿ لا يفلح الكافرون ﴾ قرىء من أفلح ، وقرىء بفتح الياء مضارع فلح بمعنى أفلح فيه مراعاة معنى ﴿ من ﴾ وفيه الإظهار في مقام الإضمار للنداء عليهم بهذا الوصف القبيح جعل فاتحة السورة ﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾ وخاتمتها ﴿ انه لا يفلح الكافرون ﴾ فشتان ما بين الفاتحة والخاتمة ، ثم ختم هذه السورة بتعليم رسوله (ﷺ) أن يدعوه بالمغفرة والرحمة فقال :

﴿ وقل رب اغفر وارحم وانت خير الراحمين ﴾ أمره سبحانه بالاستغفار لتقتدي به أمته وقيل أمره بالاستغفار لأمته وقد تقدم بيان كونه ارحم الراحمين وفي الرحمة زيادة على المغفرة ، وهي ايصال الاحسان زيادة على غفر الذنب ، وأيضاً الغفران قد يكون من غير إحسان الذي هو معنى الرحمة ، ووجه اتصال هذا بما قبله أنه سبحانه لما شرح أحوال الكفار أمر بالانقطاع اليه والالتجاء الى غفرانه ورحمته ، لأن رحمته إذا أدركت أحداً أغنته عن رحمة غيره ورحمة غيره لا تغنيه عن رحمته.







سورة النور

﴿ هي مدنية وآياتها أربع وستون آية ﴾

وبه قال ابن عباس وابن الزبير وعن عائشة مرفوعا قال : لا تنزلوهن الغرف ولا تعلموهن الكتابة يعني النساء[1] وعلموهن الغزل وسورة النور أخرجه البيهقي والحاكم وابن مردويه ، وعن مجاهد مرفوعاً قال : علموا رجالكم سورة المائدة وعلموا نساءكم سورة النور رواه البيهقي وابن المنذر وسعيد بن جبير وهو مرسل .

---

(١) لم يصح في خطر تعليم الكتابة للنساء حديث ، ومن الثابت أن بعض نساء السلف كن عالمات فقيهات ، والتاريخ يحفظ لنا أسماء الكثيرات .

« المطيعي »



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾

﴿ سورة ﴾ هي في اللغة اسم للمنزلة الشريفة ولذلك سميت السورة من القرآن سورة ، ومنه قول زهير :

ألم تـر أن الله أعطاك سورة ترى كل ملك دونها يتذبذب

أي : منزلة وقرىء بالرفع ، وفيه وجهان ، أحدهما : أن يكون خبراً لمبتدأ محذوف ، والتقدير هذه سورة ورجحه الزجاج والفراء والمبرد ، قالوا : لأنها نكرة ولا يبتدأ بها في كل موضع ، والثاني : أن يكون مبتدأ ؛ وجاز الابتداء بالنكرة لكونها موصوفة بقوله :

﴿ أنزلناها ﴾ والخبر : الزانية والزاني وإلى هذا نحا ابن عطية ، والمعنى السورة المنزلة المفروضة كذا وكذا إذ السورة عبارة عن آيات مسرودة لها مبدأ ومختتم، وهذا معنى صحيح ولا وجه لما قاله الأولون وقيل التقدير فمما أوحينا إليك سورة وَرُدَّ بأن مقتضى المقام بيان شأن هذه السورة الكريمة لا بيان أن في جملة ما أوحي إلى النبي صلى الله عليه وسلم سورة شأنها كذا وكذا ، وقرىء بالنصب أي : اتل سورة أو اقرأ أو أنزلنا سـورة أو دونك سـورة ، قالـه الزمخشري ورده أبو حيان وقيل أنزلنا الأحكام حال كونها سـورة من سور القرآن .

﴿ وفرضناها ﴾ قرىء بالتخفيف والتشديد ، ومعنى المشدد قطعناها في الإنزال نجماً نجماً ، والفرض القطع والتشديد للتكثير أو للمبالغة أو لتأكيد الايجاب أو لكثرة الفرائض فيها كالزنا والقذف اللعان والاستئذان وغض البصر وغير ذلك .

ومعنى المخفف أوحيناها وجعلناها مقطوعة ، وقيل ألزمناكم العمل بها وقيل قدرنا ما فيها من الحدود والفرض التقدير ، ومنه ان الذي فرض عليك القرآن ، وقيل بيناها قاله ابن عباس ، وقيل أوجبنا ما فيها من الأحكام إيجاباً قطعياً وفيه من الايذان بغاية وكادة الفرضية ما لا يخفى .

﴿ وأنزلنا فيها آيات بينات ﴾ أي أنزلنا في غصونها وتضاعيفها آيات واضحة الدلالة على مدلولها وتكرير ﴿ أنزلنا ﴾ لكمال العناية بـإنزال هـذه السورة وشأنها لما اشتملت عليه من الأحكام المفروضة .

قال الرازي : ذكر الله في أول السورة أنواعاً من الأحكام والحدود ، وفي آخرها دلائل التوحيد فقوله : ﴿ فرضناها ﴾ إشارة الى الأحكام وقوله هذا إلى ما بين فيها من دلائل التوحيد ويؤيده قوله :

﴿ لعلكم تذكرون ﴾ فإن الأحكام لم تكن معلومة حتى نؤمر بتذكرها ، أما دلائل التوحيد ، فقد كانت كالمعلومة لهم لظهورها ، فأمروا بتذكرها ، قيل والمعنى تتعظون .

وقيل قوله : ﴿ الزانية والزاني ﴾ تفصيل ما أجمل من الآيات البينات ، والزنا هو وطء الرجل للمرأة في فرجها من غير نكاح ولا شبهة نكاح وقيل هو إيلاج فرج في فرج مشتهى طبعاً محرم شرعاً و﴿ الزانية ﴾ هي المرأة المطاوعة للزنا ، الممكنة منه ، كما تنبىء عنه الصيغة المكرهة ، وكذلك ﴿ الزاني ﴾ وتقديم الزانية على الزاني لأنها الأصل في الفعل لكون الداعية فيها أوفر ، ولولا تمكينها منه لم يقع ، قاله أبو السعود؛ إنما قدمت المرأة هنا وأخرت في آية حد السرقة لأن الزنا إنما يتولد بشهوة الوقاع ، وهي في المرأة أقوى وأكثر،

والسرقة إنما تتولد من الجسارة والقوة والجرأة، وهي في الرجل أقوى وأكثر، قاله الكرخي .

وقيل وجه تقديم الزانية على الزاني ههنا أن الزنا في ذلك الزمان كان في النساء أكثر حتى كان لهن رايات تنصب على أبوابهن ليعرفهن من أراد الفاحشة منهن، وقيل لأن العار فيهن أكثر ، إذ موضوعهن الحجبة والصيانة فقدم ذكر الزانية تغليظاً واهتماماً .

﴿ فاجلدوا ﴾ الجلد الضرب ، يقال : جلده إذا ضرب جلده ، مثل بطنه اذا ضرب بطنه ورأسه اذا ضرب رأسه، ودخول الفاء لتضمن المبتدأ معنى الشرط على مذهب الأخفش ، وعلى مذهب سيبويه التقدير فيما يتلى عليكم حكم الزانية ؛ ثم بين ذلك بقوله : ﴿ فاجلدوا ﴾ والخطاب في هذه الآية الكريمة للأئمة ومن قام مقامهم ، وقيل للمسلمين أجمعين لأن اقامة الحدود واجبة عليهم جميعاً ، والامام ينوب عنهم إذ لا يمكنهم الاجتماع على اقامة الحدود .

﴿ كل واحد منهما مائة جلدة ﴾ هو حد الزاني الحر البالغ البكر ، وكذلك الزانية، وثبت بالسنة زيادة على هذا الجلد وهو تغريب عام وبه قال الشافعي، وقال أبو حنيفة : التغريب إلى رأي الإمام، والحديث يرده ، وقال مالك : يجلد الرجل ويغرب ، وتجلد المرأة ولا تغرب ، وأما المملوك والمملوكة فجلد كل واحد منهما خمسين جلدة لقوله سبحانه : ﴿ فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب ﴾ وهذا نص في الإماء وألحق بهن العبيد لعدم الفارق .

وأما من كان محصناً من الأحرار فعليه الرجم بالسنة الصحيحة المتواترة ؛ وبإجماع اهل العلم ، بل وبالقرآن المنسوخ لفظه، الباقي حكمه وهو الشيخ والشيخة اذا زنيا فارجموهما ألبتّة، وزاد جماعة من أهل العلم مع الرجم جلد مائة ، وقد أوضح الشوكاني ما هو الحق في ذلك في شرحه للمنتقى ، وقد مضى الكلام في

حد الزنا مستوفى ، وهذه الآية ناسخة لآية الحبس وآية الأذى اللتين في سورة النساء،وزاد النسفي والتغريب منسوخ بالآية ، وليس بصحيح فقد أثبتته السنة الصحيحة كما أشرنا اليه .

﴿ ولا تأخذكم ﴾ بالتأنيث مراعاة للفظ ، وبالياء لأنه مجازي ، وللفصل بالمفعول والجار ﴿ بهما رأفة ﴾ يقال رأف يرأف رأفة ، على وزن فعلة ، ورأفة على وزن فعالة ، مثل النشأة والنشاءة ، وكلاهما بمعنى الرقة والرحمة . وقيل هي أرقّ الرحمة وأشدّها .

﴿ في دين الله ﴾ أي في طاعته وحكمه ، كما في قوله : ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك ، أي لا يأخذكم اللين في استيفاء الحدود فتعطلوها ، وهذا قول مجاهد وعكرمة وعطاء وسعيد بن جبير والنخعي والشعبي . وقيل تخففوا الضرب ، وهو قول سعيد بن المسيب والحسن .

قال الزهري : يجتهد في حد الزنا والفرية ، أي القذف ، ويخفف في حد الشرب . وقيل يجتهد في حد الزنا ويخفف دون ذلك في حد القذف ودونه في حد الشرب ، ثم قال : مثبتاً للمأمورين ومهيجاً لهم .

﴿ إن كنتم تؤمنون بالله وباليوم الآخر ﴾ أي إن كنتم تصدقون بالتوحيد والبعث الذي فيه جزاء الأعمال لا تعطلوا الحدود ، وفي إلهاب الغضب لله ولدينه ، وذلك لأن الايمان بهما يقتضي التجلد في طاعة الله وفي إجراء أحكامه ، وذكر اليوم الآخر لتذكير ما فيه من العقاب في مقابلة المسامحة في الحدود وتعطيلها، والحاصل أن الواجب على المؤمنين أن يتصلبوا في دين الله ويستعملوا الحث والمتانة ولا يأخذهم اللين والهوان في استيفاء حدود الله ، وكفى برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أسوة في ذلك حيث قال : « لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها »[1] .

---

(١) مسلم ١٦٨٨ ـ البخاري ١٢٨٧ .

﴿ وليشهد عذابهما ﴾ أي لتحضر الجلد إذا أقيم عليهما زيادة في التنكيل بهما وشيوع العار عليهما واشتهار فضيحتهما ﴿ طائفة من المؤمنين ﴾ ندباً ، والطائفة الفرقة التي تكون حافة حول الشيء من الطوف ، وأقلها ثلاثة ، لأنه أقل الجمع ، وقيل اثنان . قاله عكرمة . وقيل واحد . قاله مجاهد . وقيل أربعة لأنهم عدد شهود الزنا . وقيل عشرة .

قال ابن عباس : الطائفة الرجل فما فوقه ، ولا يجب على الإمام حضور رجم ، ولا على الشهود ، لأنه صلى الله عليه وسلم أمر برجم ماعز والغامدية ولم يحضر رجمهما ، وإنما خص المؤمنين بالحضور لأن ذلك أفضح ، والفاسق بين صلحاء قومه أخجل، وتسمية الجلد عذاباً دليل على أنه عقوبة ، ثم ذكر سبحانه شيئاً يختص بالزاني والزانية فقال :

﴿ الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة ، والزانية لا ينكحها الا زان أو مشرك ﴾ يعني أن الغالب أن المائل إلى الزنا لا يرغب في نكاح الصوالح ، والثانية لا يرغب فيها الصلحاء ، فإن المشاكلة علة الألفة والتضامّ، والمخالفة سبب للنفرة والافتراق وقد اختلف أهل العلم في معنى هذه الآية على أقوال :

الأول: أن المقصود منها تشنيع الزنا وتشنيع أهله ، وأنه محرم على المؤمنين ، ويكون معنى ﴿ الزاني لا ينكح إلا زانية ﴾ الوطء لا العقد ، أي الزاني لا يزني إلا بزانية والزانية لا تزني الا بزان ، وزاد ذكر المشركة والمشرك ، لكون الشرك أعم في المعاصي من الزنا .

وردّ هذا الزجاج وقال : لا يعرف النكاح في كتاب الله الا بمعنى التزويج ، ويردّ هذا الرد بأن النكاح بمعنى الوطء ثابت في كتاب الله سبحانه . ومنه قول : ﴿ حتى تنكح زوجاً غيره ﴾ فقد بينه النبي صلى الله عليه وسلم بأن المراد به الوطء . ومن جملة القائلين بأن معنى الآية الزاني لا يزني إلا بزانية سعيد بن جبير وابن عباس وعكرمة ، كما حكاه ابن جرير عنهم وعن ابن

عباس قال : ليس هذا بالنكاح ولكن الجماع ، لا يزني بها حين تزني الا زانٍ أو مشرك .

الثاني: أن الآية هذه نزلت في امرأة خاصة فتكون خاصة بها ، كما قال الخطابي عن ابن عمرو ، قال : كانت امرأة يقال لها أم مهزول وكانت تسافح وتشترط أن ينفق عليها ، فأراد رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتزوجها فأنزل الله هذه الآية ، أخرجه أحمد والنسائي والحاكم وصححه وغيرهم .

الثالث: أنها نزلت في رجل من المسلمين فتكون خاصة به ، قاله مجاهد . وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : كان رجل يقال له مرثد يحمل الأسارى من مكة حتى يأتي بهم المدينة ؛ وكانت امرأة بغي بمكة يقال لها عناق وكانت صديقة له وذكر قصة فيها فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : يا رسول الله أنكح عناقاً ؟ فلم يرد عليّ شيئاً . حتى نزلت ﴿ الزاني لا ينكح إلا زانية ﴾ الآية فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «يا مرثد ، الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين فلا تنكحها»[1] ، أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه والنسائي والحاكم وصححه والبيهقي وغيرهم .

الرابع: أنها نزلت في أهل الصفة فتكون خاصة بهم قاله أبو صالح .

الخامس: أن المراد بالزاني والزانية المحدودان . حكاه الزجاج وغيره عن الحسن قال : وهذا حكم من الله ، فلا يجوز لزان محدود أن يتزوج إلا محدودة ، وروي نحوه عن إبراهيم النخعي ، وبه قال بعض أصحاب الشافعي . قال ابن العربي : وهذا لا يصح نظراً ، كما لا يثبت نقلاً .

السادس: أن هذه الآية منسوخة بقوله سبحانه : ﴿ وأنكحوا الأيامى

---

(١) ابو داوود كتاب النكاح باب ٤ .

منكم ﴾ قال النحاس : وهذا القول عليه أكثر العلماء ، والسابع أن هذا الحكم مؤسس على الغالب العام ، والمعنى ان غالب الزناة لا يرغب إلا في الزواج بزانية مثله ، وغالب الزواني لا يرغبن الا في الزواج بزان مثلهن . قال الكرخي : إن الفاسق الخبيث الذي من شأنه الزنا لا يرغب في نكاح المرأة الصالحة ، وإنما يرغب في نكاح فاسقة مثله أو في مشركة ؛ والفاسقة لا ترغب في نكاح الرجل الصالح بل تنفر عنه ، وانما ترغب فيمن هو من جنسها من الفسقة والمشركين ، فهذا على الأعم الأغلب ، كما يقال : لا يفعل الخير إلا الرجل التقي ، وقد يفعل الخير من ليس بتقي ، فكذا ههنا والفرق بين قوله : ﴿ الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة ﴾ وقوله : ﴿ والزانية لا ينكحها الا زان أو مشرك ﴾ أن الكلام يدل على أن الزاني لا يرغب الا في نكاح الزانية بخلاف الزانية فقد ترغب في نكاح غير الزاني ؛ فلا جرم بين ذلك بالكلام الثاني ، والمقصود زجر المؤمنين عن نكاح الزواني بعد زجرهم عن الزنا ، وهذا أرجح الأقوال ، وسبب النزول يشهد له كما تقدم .

وعن شعبة مولى ابن عباس قال : « كنت مع ابن عباس فأتاه رجل فقال : اني كنت أتبع امرأة فأصبت منها ما حرم الله عليّ ، وقد رزقني الله منها توبة فأردت أن أتزوجها فقال الناس : ﴿ الزاني لا ينكح الا زانية أو مشركة ﴾ فقال ابن عباس : ليس هذا موضع هذه الآية ، إنّما كن نساء بغايا متعاليات ، يجعلن على أبوابهن رايات يأتيهن الناس ، يعرفن بذلك ، فأنزل الله هذه الآية . تزوجها فما كان فيها من اثم فعليّ .

وعن أبي هريرة قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

«لا ينكح الزاني المجلود الا مثله » أخرجه أبو داود وابن المنذر والحاكم وابن أبي حاتم وغيرهم[1] . وعن علي أن رجلاً تزوج امرأة ثم إنه زنى

(١) ابو داوود كتاب النكاح باب ٤ ـ الإمام احمد ٢/٣٢٤ .

فأقيم عليه الحد ، فجاءوا به الى عليّ ففرق بينه وبين امرأته ، وقال : لا تتزوج الا مجلودة مثلك .

وعن مجاهد قال : « كن نساء في الجاهلية بغيات ، فكانت منهن امرأة جميلة تدعى أم جميل ، فكان الرجل من المسلمين يتزوج إحداهن لتنفق عليه من كسبها فنهى الله سبحانه أن يتزوجهن أحد من المسلمين . وهو مرسل .

وعن ابن عباس أنها نزلت في بغايا معلنات كن في الجاهلية وكن زواني مشركات فحرم الله نكاحهن على المؤمنين . وعنه قال كانت بغايا في الجاهلية ، بغايا آل فلان وبغايا آل فلان فقال الله : ﴿ الزاني لا ينكح الا زانية ﴾ فأحكم الله ذلك في أمر الجاهلية وروي نحو هذا عن جماعة من التابعين ، وعن الضحاك قال : انما عني بذلك الزنا ولم يعن به التزويج .

وعن ابن عباس في هذه الآية قال : « الزاني من أهل القبلة لا يزني الا بزانية مثله من أهل القبلة ، أو مشركة من غير أهل القبلة ، والزانية من أهل القبلة لا تزني الا بزان مثلها من أهل القبلة ، أو مشرك من غير أهل القبلة ، وحرم الزنا على المؤمنين .

وقد اختلف في جواز تزوج الرجل بامرأة قد زنى هو بها ؛ فقال الشافعي وأبو حنيفة بجواز ذلك ، وروي عن ابن عباس وعمر وابن مسعود وجابر أنه لا يجوز ، قال ابن مسعود : « اذا زنى الرجل بالمرأة ثم نكحها بعد ذلك فهما زانيان أبدا وبه قال مالك .

﴿ وحرم ذلك ﴾ أي الزنا أو نكاح الزواني لما فيه من التشبه بالفسقة والتعرض للتهمة والطعن في النسب والتسبب لسوء المقالة وغير ذلك من المفاسد ، ومجالسة الخطائين كم فيها من التعرض لاقتراف الآثام فكيف بمزاوجة البغايا والقحاب وقيل هو مكروه فقط ؛ وعبر بالتحريم عن كراهة التنزيه مبالغة في الزجر .

﴿ على المؤمنين ﴾ الأخيار الأبرار فعلى المؤمن أن لا يدخل نفسه تحت

هذه العادة ويتصون عنها ، وقدمت الزانية على الزاني أولاً ثم قدم عليها ثانياً ، لأن تلك الآية سيقت لعقوبتهما على ما جنيا ، والمرأة هي المادة التي منها نشأت تلك الجناية ، لأنها لو لم تطمع الرجل ولم تومض له ولم تمكنه لم يطمع ولم يتمكن ، فلما كانت أصلاً في ذلك بدىء بذكرها . وأما الثانية فمسوقة لذكر النكاح والرجل أصل فيه لأنه الخاطب ومنه بدىء الطلب .

﴿ والذين يرمون﴾ استعار الرمي للشتم بفاحشة الزنا لكونه جناية بالقول ويسمى هذا الشتم بهذه الفاحشة الخاصة قذفاً ، أي يشتمون ﴿ المحصنات ﴾ أي النساء العفيفات بالزنا ، وكذا المحصنين ، وإنما خصهن بالذكر لأن قذفهن أشنع ، والعار فيهن أعظم ، ويلحق الرجال بالنساء في هذا الحكم بلا خلاف بين علماء هذه الأمة ، وقد جمع الشوكاني في ذلك رسالة رد بها على بعض المتأخرين من علماء القرن الحادي عشر لما نازع في ذلك .

وقيل إن الآية تعم الرجال والنساء ، والتقدير الأنفس المحصنات ، ويؤيد هذا قوله في آية أخرى : ﴿ والمحصنات من النساء ﴾ ، فإن البيان بكونهن من النساء يشعر بأن لفظ المحصنات يشمل غير النساء وإلا لم يكن للبيان كثير معنى ؛ وقيل أراد بالمحصنات الفروج ؛ كما قال : ﴿ والتي أحصنت فرجها ﴾ ، فتتناول الآية الرجال والنساء؛ وقيل إن لفظ المحصنات وإن كان للنساء لكنه ههنا يشمل النساء والرجال تغليباً ، وفيه أن تغليب النساء على الرجال غير معروف في لغة العرب ، وقد مضى في سورة النساء ذكر الإحصان وما يحتمله من المعاني ؛ وللعلماء في الشروط المعتبرة في المقذوف والقاذف أبحاث مطولة مستوفاة في كتب الفقه ، منها ما هو مأخوذ من دليل ومنها ما هو مجرد رأي بحت .

قرىء المحصنات بفتح الصاد وكسرها ، وذهب الجمهور من العلماء انه لا حد على من قذف كافراً أو كافرة . وقال الزهري وسعيد بن المسيب وابن أبي ليلى: يجب عليه الحد . وذهب الجمهور أيضاً إلى أن العبد يجلد أربعين جلدة .

﴿ وقالوا ﴾ أي قال المؤمنون عند سماع الإفك ﴿ هذا إفك مبين ﴾ أي كذب بين ظاهر مكشوف لا حقيقة له ، وقوله : ﴿ لولا جاءوا عليه ﴾ من تمام ما يقوله المؤمنون ، أي هلا جاء الخائضون في الإفك ﴿ بأربعة شهداء ﴾ يشهدون على ما قالوا .

﴿ فإذا لم يأتوا بالشهداء فأولئك ﴾ أي الخائضون في الإفك ﴿ عند الله ﴾ أي في حكمه وقضائه الأزلي ، أو شرعه المؤسس على الدلائل الظاهرة المتقنة ﴿ هم الكاذبون ﴾ أي القاذفون الكاملون في الكذب ، وهذا من باب الزواجر ﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة ﴾ هذا خطاب للسامعين ، وفيه زجر عظيم ﴿ ولولا ﴾ هذه لامتناع الشيء لوجود غيره . والمعنى لولا أني قضيت عليك بالفضل في الدنيا بالنعم التي من جملتها الامهال للتوبة ، والرحمة في الاخرة بالعفو .

﴿ لمسّكم فيما أفضتم ﴾ أي بسبب ما أفضتم ﴿ فيه ﴾ من حديث الإفك ، والابهام لتهويل أمره ، يقال : أفاض في الحديث واندفع ، وخاض بمعنى ﴿ عذاب عظيم ﴾ أي لعاجلتكم بالعقاب على ما خضتم فيه من حديث الإفك : وقيل المعنى لولا فضل الله عليكم لمسّكم العذاب في الدنيا والآخرة معاً ، ولكن برحمته ستر عليكم في الدنيا ويرحم في الآخرة من أتاه تائباً .

﴿ إذ تلقونه بألسنتكم ﴾ من التلقي ، والأصل تتلقونه .

قال مقاتل ومجاهد : المعنى يرويه بعضكم عن بعض . قال الكلبي : وذلك أن الرجل منهم يلقى الرجل فيقول بلغني كذا وكذا ويتلقونه تلقياً .

قال الزجاج : معناه يلقيه بعضكم الى بعض ، وقرىء الالقاء ومعناها واضح ، وقرىء بفتح التاء وكسر اللام وضم القاف ، وهي مأخودة من قول العرب : ألق[1] الرجل يَلَق ولقا إذا كذب ، قال ابن سيده : جاءوا بالمتعدي

---

(١) الصحيح ولق يلق ولقاً وهي في الصحاح في مادة الواو ، وفي القاموس في باب القاف فصل الواو ففاؤها واو وليس ألفاً . «المطيعي»

شاهداً على غير المتعدي .

قال ابن عطية : وعندي أراد يلقون فيه ، فحذف حرف الجر فاتصل الضمير .

وقال الخليل وأبو عمر : وأصل الولق الإسراع يقال جاءت الإبل تلق أي تسرع ، وعن ابن جرير مثله وزاد الولق هو الاسراع بالشيء بعد الشيء كعدد في إثر عدد وكلام في إثر كلام ، وقرىء تألقونه من الألق وهو الكذب ؛ وقرىء يلقونه وهو مضارع ولق بكسر اللام والتلقي والتلقف والتلقن معان متقاربة خلا أن في الأول معنى الاستقبال ، وفي الثاني معنى الخطف ، والأخذ بسرعة ، وفي الثالث معنى الحذق والمهارة ؛ وقال الراغب : في التلقن الحذق في التناول ، وفي التلقف الاحتيال فيه .

﴿ وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم ﴾ معناه أن قولهم هذا مختص بالأفواه من غير أن يكون واقعاً في الخارج معتقداً في القلوب ، وقيل ان ذكر الأفواه للتأكيد كما في قوله . يطير بجناحيه ونحوه .

﴿ وتحسبونه ﴾ أي الحديث الذي وقع الخوض فيه والاذاعة له ﴿ هيناً ﴾ أي شيئاً يسيراً لا يلحقكم فيه إثم ﴿ هو عند الله عظيم ﴾ ذنبه وعقابه والجملة في محل الحال ؛ قيل جزع بعضهم عند الموت فقيل له في ذلك فقال أخاف ذنباً لم يكن مني على بال وهو عند الله عظيم .

﴿ ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا ﴾ هذا عتاب لجميع المؤمنين أي هلا اذ سمعتم حديث الإفك قلتم تكذيباً للخائضين فيه المفترين له بمجرد أول السماع : ما ينبغي لنا ولا يمكننا ان نتكلم بهذا الحديث ، ولا يصدر ذلك منا بوجه من الوجوه ﴿ سبحانك هذا بهتان عظيم ﴾ التعجب من أولئك الذين جاؤا بالإفك وأصله التنزيه لله سبحانه ثم كثر حتى استعمل في كل متعجب منه ، والبهتان هو أن يقال في الانسان ما ليس فيه أي

هذا كذب عظيم لكونه قيل في أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها وصدوره مستحيل شرعاً من مثلها ، ثم وعظ سبحانه الذين خاضوا في الإفك فقال :

﴿ يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبداً ﴾ أي ينصحكم أو يحرج الله عليكم ، قاله ابن عباس أو يحرم عليكم أو ينهاكم كراهة أن تعودوا أو من أن تعودوا أو في أن تعودوا لمثل هذا القذف ؛ أو استماع حديثه مدة حياتكم ﴿ ان كنتم مؤمنين ﴾ عائد الى جميع الجمل التي قبله وتارة الى بعضها لا تقوم به حجة ولا يصلح للاستدلال فإنه قد يكون ذلك لدليل ، كما وقع هنا من الاجماع واتفاق الأئمة الأربعة على عدم رجوع هذا الاستثناء الى جملة الجلد ، فالقاذف يجلد عند الجميع سواء تاب أو لم يتب ومما يؤيد ما قررناه ويقويه أن المانع عن قبول الشهادة وهو الفسق المتسبب عن القذف قد زال فلم يبق ما يوجب الرد للشهادة .

واختلف العلماء في صورة توبة القاذف ، فقال عمر بن الخطاب والشعبي والضحاك وأهل المدينة : ان توبته لا تكون الا بأن يكذب نفسه في ذلك القذف الذي وقع منه ، وأقيم عليه الحد بسببه ، وقالت فرقة منهم مالك وغيره : إن توبته تكون بأن يحسن حاله ويصلح عمله ويندم على ما فرط منه ويستغفر الله من ذلك ويعزم على ترك العود الى مثله وان لم يكذب نفسه ولا رجع عن قوله،وقد أجمعت الأمة على أن التوبة تمحو الذنب ولو كان كفراً فتمحو ما هو دون الكفر بالأولى وحكى هذا الاجماع القرطبي .

قال أبو عبيد : الاستثناء يرجع الى الجمل السابقة وليس من رمي غيره بالزنا بأعظم جرماً من مرتكب الزنا ، والزاني اذا تاب قبلت شهادته لأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له ، واذا قبل الله التوبة من العبد كان العباد بالقبول أولى ، مع أن مثل هذا الاستثناء موجود في مواضع من القرآن ، منها قوله ﴿إنما جزاء الذين يحاربون الله ﴾ إلى قوله : ﴿إلا الذين تابوا ﴾ ولا

شك أن هذا الاستثناء يرجع الى الجميع ، قال الزجاج : وليس القاذف بأشد جرماً من الكافر فحقه إذا تاب وأصلح أن تقبل شهادته قال وقوله : ﴿ أبداً ﴾ أي ما دام قاذفاً كما يقال : لا تقبل شهادة الكافر أبداً ، فإن معناه ما دام كافراً انتهى .

وعن ابن عباس في الآية قال : تاب الله عليهم من الفسوق ، وأما الشهادة فلا تجوز وعن عمر بن الخطاب أنه قال لأبي بكرة : إن تبت قبلت شهادتك وعنه قال : توبتهم إكذابهم أنفسهم ، فإن أكذبوا أنفسهم قبلت شهادتهم ، وعن ابن عباس أيضاً قال : من تاب وأصلح فشهادته في كتاب الله تقبل .

وفي الباب روايات عن التابعين وقصة المغيرة في خلافة عمر مروية من طرق معروفة ، وأخرج البخاري والترمذي وابن ماجة عن ابن عباس أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبي صلى الله عليه وسلم بشريك بن سحماء ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « البينة وإلا حد في ظهرك » ، فقال : يا رسول الله إذا رأى أحدنا على امرأته رجلاً ينطلق يلتمس البينة ؟ فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يقول : البينة وإلاحد في ظهرك » ، فقال هلال : والذي بعثك بالحق إني لصادق ، ولينزلن الله ما يبرىء ظهري من الحد ونزل جبريل فأنزل عليه ﴿والذين يرمون أزواجهم﴾ حتى بلغ ﴿إن كان من الصادقين﴾ فانصرف النبي صلى الله عليه وسلم فأرسل اليهما فجاء هلال فشهد ، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: الله يعلم أن أحدكما لكاذب فهل منكما تائب ؟ ثم قامت فشهدت فلما كانت عند الخامسة وقفوها وقالوا أنها موجبة،فتلكأت ونكصت حتى ظننا أنها ترجع ، ثم قالت : لا أفضح قومي سائر اليوم ، فمضت فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « أبصروها فإن جاءت به أكحل العينين سابغ الأليتين خدلج[1] السا- فهو لشريك بن سحماء

(١) خدلج : ممتلىء لحماً .

فجاءت به كذلك فقال النبي (ﷺ) « لولا ما مضى من كتاب الله لكان لي ولها شأن »[١].

وأخرج هذه القصة أبو داود الطيالسي وعبد الرزاق وأحمد وعبد بن حميد وأبو داود وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه ، عن ابن عباس مطولة وأخرجها البخاري ومسلم وغيرهما ، ولم يسمّوا الرجل ولا المرأة .

وفي آخر القصة أن النبي (ﷺ) قال له : « اذهب فلا سبيل لك عليها » فقال : يا رسول الله مالي ؟ قال : لا مال لك إن كنت صدقت عليها فهو بما استحللت من فرجها وإن كنت كذبت عليها فذاك أبعد لك منها » .

وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن سهل بن سعد قال : جاء عويمر إلى عاصم بن عدي فقال : سل رسول الله صلى الله عليه وسلم أرأيت رجلاً وجد مع امرأته رجلاً فقتله أيقتل به ؟ أم كيف يصنع ؟ فسأل عاصم رسول الله صلى الله عليه وسلم فعاب رسول الله صلى الله عليه وسلم السائل ، فقال : عويمر والله لآتين رسول الله صلى الله عليه وسلم ولأسألنه فوجده قد أنزل عليه فدعا بهما فلاعن بينهما قال عويمر: ان انطلقت بها يا رسول الله لقد كذبت عليها ففارقتها قبل أن يأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم فصارت سنة للمتلاعنين فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أبصروها فإن جاءت به أسحم أدعج العينين عظيم الأليتين ، فلا أراه الا قد صدق ، وان جاءت به أحيمر كأنه وحرة فلا أراه إلا كاذباً ، فجاءت به مثل النعت المكروه »[٢] .

وفي الباب أحاديث كثيرة وفيما ذكرنا كفاية ، وأخرج عبد الرزاق عن عمر بن الخطاب وعلي وابن مسعود قالوا : لا يجتمع المتلاعنان أبداً ، ثم ذكر سبحانه بعد ذكره لحكم القذف على العموم حكم نوع من انواع القدف وهو قذف الزوج للمرأة التي تحته بعقد النكاح فقال :

---

(١) البخاري تفسير سورة ٣/٢٤ ـ الترمذي تفسير سورة ٣/٢٤ .

(٢) ابو داوود كتاب الطلاق باب ٢٧ .

إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥﴾ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ أَرۡبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَٱلۡخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدۡرَؤُاْ عَنۡهَا ٱلۡعَذَابَ أَن تَشۡهَدَ أَرۡبَعَ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾ وَٱلۡخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١١﴾

﴿ والذين يرمون أزواجهم ﴾ جمع زوج بمعنى الزوجة فإن حذف التاء منها أفصح من إثباتها الا في الفرائض ، ولم يقيد هنا بالمحصنات اشارة الى أن اللعان يشرع في قذف المحصنة وغيرها فهو في قذف المحصنة يسقط الحد عن الزوج وفي قذف غيرها يسقط التعزير كأن كانت ذمية أو أمة أو صغيرة تحتمل الوطء بخلاف قذف الصغيرة التي لا تحتمله ، وبخلاف قذف الكبيرة التي ثبت زناها ببينة أو اقرار ، فإن الواجب في قذفها التعزير لكنه لا يلاعن لدفعه كما في كتب الفروع وقد وقع قذف الزوجة بالزنا لجماعة من الصحابة كهلال بن أمية وعويمر العجلاني وعاصم بن عدي .

﴿ ولم يكن لهم شهداء ﴾ يشهدون بما رموهن به من الزنا ﴿ الا أنفسهم ﴾ بالرفع على البدل من شهداء ، ولم يذكر الزمخشري غيره ، وقيل إنه نعت له على أن الا بمعنى غير وبالنصب على الاستثناء على الوجه المرجوح ، ولا مفهوم لهذا القيد ، بل يلاعن ولو كان واجداً للشهود الذين يشهدون بزناها لنفي ولد ولدفع العقوبة حداً أو تعزيراً .

﴿ فشهادة أحدهم ﴾ أي الشهادة التي تزيل عنه حد القذف أو فالواجب شهادة أحدهم أو فشهادة أحدهم كائنة أو واجبة ، وقيل فعليهم أن يشهد

أحدهم ﴿ أربع شهادات بالله انه لمن الصادقين ﴾ فيما رماها به من الزنا وهي المشهود به .

﴿ و ﴾ الشهادة ﴿ الخامسة أنّ لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين ﴾ فيما رماها به من الزنا . قرأ الجمهور ﴿ ان ﴾ بالتشديد ونافع بتخفيفها .

﴿ ويدرأ ﴾ أي يدفع ﴿ عنها ﴾ أي عن المرأة ﴿ العذاب ﴾ الدنيوي وهو الحد ، والمعنى انه يدفع عن المرأة الحد ﴿ ان تشهد ﴾ أي شهادتها ﴿ أربع شهادات بالله انه ﴾ أي الزوج ﴿ لمن الكاذبين ﴾ فيما رماني به من الزنا ﴿ و ﴾ تشهد الشهادة ﴿ الخامسة ان غضب الله عليها ان كان ﴾ الزوج ﴿ من الصادقين ﴾ فيما رماها به من الزنا ، وتخصيص الغضب بالمرأة للتغليظ عليها لكونها أصل الفجور ومادته ولأن النساء يكثرن اللعن في العادة ومع استكثارهن منه لا يكون له في قلوبهن كبير موقع بخلاف الغضب .

﴿ ولولا فضل الله عليكم ﴾ فيه التفات عن الغيبة ، والخطاب لكل من الفريقين أي القاذفين والمقذوفات ، ففي الكلام تغليب صيغة الذكور على صيغة الأناث ؛ حيث لم يقل عليكم وعليكن ﴿ ورحمته ﴾ لنال الكاذب منهما عذاب عظيم قاله الزجاج أو لعاجلكم بالعقوبة ، ولكنه ستر عليكم ودفع عنكم الحد باللعان أو لفضحكم ، فجواب ﴿ لو ﴾ محذوف ، ثم بين سبحانه كثير توبته على من تاب ، وعظيم حكمته البالغة فقال :

﴿وأنّ الله تواب ﴾ أي يعود على من تاب اليه ورجع عن معاصيه بالتوبة عليه والمغفرة له في ذلك وغيره ﴿ حكيم ﴾ فيما شرع لعباده من اللعان ، وفرض عليهم من الحدود .

﴿إن الذين جاؤا بالإفك ﴾ هذا شروع في الآيات المتعلقة بالإفك ، وهي ثمانية عشر تنتهي بقوله : ﴿ اولئك مبرؤن ﴾ والإفك أسوأ الكذب وأفحشه وأقبحه وهو مأخوذ من أفك الشيء اذا قلبه عن وجهه ، فالإفك هو الحديث المقلوب ، لكونه مصروفاً عن الحق ، وقيل هو البهتان .

وأجمع المسلمون على أنّ المراد بما في الآية ما وقع من الإفك على عائشة أم المؤمنين ، وانما وصفه الله بأنه إفـك لأن المعروف من حالها رضي الله عنها خلاف ذلك . قال الواحدي : ومعنى القلب في هذا الحديث الذي جاء به أولئك النفر أن عائشة كانت تستحق الثناء بما كانت عليه من الحصانة والشرف والعقل والديانة وعلو النسب والسبب والعفة لا القذف ، فالذين رموها بالسوء قلبوا الأمر عن وجهه فهو إفك قبيح وكذب ظاهر .

﴿ عصبة منكم ﴾ العصبة الجماعة من العشرة إلى الأربعين ، والمـراد بهم هنا عبد الله بن أبيّ رأس المنافقين وزيد بن رفاعة وحسان بن ثـابت ومسطح بن أثاثة وحمنة بنت جحش ومن ساعدهم . وقيل العصبة من الثلاثة إلى العشرة . وقيل من عشرة إلى خمسة عشر ، وأصلها في اللغة الجماعة الذين يتعصب بعضهم لبعض .

وقد أخرج البخاري ومسلم وأهل السنن وغيرهم حديث عائشة الطويل في سبب نزول هذه الآيات بألفاظ متعددة وطرق مختلفة ، حاصله أن سبب النزول هو ما وقع من أهل الإفك الذين تقدم ذكرهم في شأن عائشة ، وذلك أنها خرجت من هودجها تلتمس عقداً لها انقطع من جزع ، فرحلوا وهم يظنون أنها في هودجها فرجعت وقد ارتحل الجيش والهودج معهم ، فأقامت في ذلك المكان ومرّ بها صفوان بن المعطل وكان متأخراً عن الجيش فأناخ راحلته وحملها عليها ، فلما رأى ذلك أهل الإفك قالوا ما قالوا ، فبرأها الله مما قالوا : هذا حاصل القصة مع طولها وتشعب أطرافها فلا نطول بذكر ذلك .

وجملة ﴿ لا تحسبوه شراً لكم ﴾ إن كانت خبراً لـ ﴿إن﴾ فظاهر، وإن كان الخبر ﴿ عصبة ﴾ فهي مستأنفة خوطب بها النبي صلى الله عليه وسلم وعائشة وأبو بكر وصفوان بن المعطـل الذي قذف مع عائشة أم المؤمنين وتسلية لهم ، والضمير المنصوب للإفك ، والشر ما زاد ضره على نفعه .

﴿ بل هو خير لكم ﴾ الخير ما زاد نفعه على ضره ، وأما الخير الذي لا

شر فيه فهو الجنة ، والشر الذي لا خير فيه فهو النار . ووجه كونه خيراً لهم أنه يحصل لهم به الثواب العظيم مع بيان براءة أم المؤمنين عائشة ، وصيرورة قصتها هذه شرعاً عاماً ، وهذا غاية الشرف والفضل ، وفيه تهويل الوعيد لمن تكلم فيهم ، والثناء على من ظن بهم خيراً .

﴿ لكل امرىء منهم ﴾ أي من العصبة الكاذبة ﴿ ما اكتسب من الاثم ﴾ بسبب تكلمه بالإفك ﴿ والذي تولى ﴾ أي تحمل ﴿ كبره ﴾ أي معظمه ﴿ منهم ﴾ فبدأ بالخوض فيه وأشاعه وهو ابن أبيّ ، قرأ جماعة بضم الكاف . قال الفراء : وهو وجه جيد ، لأن العرب تقول : فلان تولى عظم كذا وكذا ، أي أكبره . وقرىء بكسرها . قيل هما لغتان . وقيل هو بالضم معظم الإفك وبالكسر البداءة به ، وقيل هو بالكسر الاثم .

فالمعنى أن الذي تولى معظم الإفك من العصبة ﴿ له عذاب عظيم ﴾ في الدنيا أو في الآخرة أو فيهما ، واختلف في هذا الذي تولى كبره من عصبة الإفك من هو منهم ، فقيل هو عبد الله بن أُبي ، وقيل هو حسان والأول هو الصحيح ، وقد روى محمد بن اسحاق وغيره أن النبي صلى الله عليه وسلم جلد في الإفك رجلين وامرأة ، وهم مسطح بن أثاثة وحسان بن ثابت وحمنة بنت جحش ، وقيل جلد عبد الله بن أبيّ وحسان وحمنة ولم يجلد مسطحاً لأنه لم يصرح بالقذف ، ولكن كان يسمع ويشيع من غير تصريح ، وقيل لم يجلد أحداً منهم .

قال القرطبي : المشهور من الأخبار والمعروف عند العلماء أن الذين حُدّوا حسان ومسطح وحمنة ولم يسمع بحد لعبدالله بن أُبَيّ.

ويؤيد هذا ما في سنن أبي داود عن عائشة قالت : لما نزل عذرى قام النبي صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك وتلا القرآن ، فلما نزل من المنبر أمر بالرجلين والمرأة فضربوا حدّهم ، وسماهم حسان ومسطح وحمنة ، واختلفوا في وجه تركه صلى الله عليه وسلم لجلد عبد الله بن أبيّ ، فقيل لتوفير العذاب

العظيم له في الآخرة ؛ وحد من عداه ليكون ذلك تكفيراً لذنبهم .

كما ثبت صلى الله عليه وآله وسلم في الحدود انه قال : « إنها كفارة لمن أقيمت عليه » .

وقيل ترك حده تألفاً لقومه واحتراماً لابنه ، فإنه كان من صالحي المؤمنين وإطفاء لثائرة الفتنة ، فقد كان ظهرت مباديها من سعد بن عبادة ومن معه ، كما في صحيح مسلم .

وأخرج البخاري وابن المنذر والطبراني وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن الزهري قال : كنت عند الوليد بن عبد الملك فقال : الذي تولى كبره منهم عليّ فقلت: لا ، حدثني سعيد بن المسيب وعروة بن الزبير وعلقمة بن وقاص وعبد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود ، كلهم سمع عائشة تقول : الذي تولى كبره منهم عبد الله بن أُبيّ قال : فقال لي فما كان جرمه ؟ قلت حدثني شيخان من قومك : أبو سلمة بن عبد الرحمن بن عوف وأبو بكر ابن عبد الرحمن بن الحرث بن هشام أنهما سمعا عائشة تقول : كان مسيئاً في أمري .

وقال يعقوب بن شيبة[1] في مسنده : دخل سليمان بن يسار على هشام ابن عبد الملك فقال له : يا سليمان الذي تولى كبره من هو؟ قال ابن أُبَيّ. قال كذبت هو عليّ ، قال : أمير المؤمنين أعلم بما يقول ، فدخل الزهري فقال : يا ابن شهاب من الذي تولى كبره ؟ فقال : ابن أبيّ ، قال : كذبت ، هو عليّ ، قال : أنا أكذب،لا أبا لك والله لو نادى مناد من السماء أن الله قد أحل الكذب ما كذبت . حدثني عروة وسعيد وعبد الله وعلقمة عن عائشة: أن الذي تولى كبره عبد الله بن أبي .

وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن مسروق قال : « دخل حسان ابن ثابت على عائشة فشبب . وقال:

(١) عبد الله بن محمد بن أبي شيبة .

لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾

حصان رزان ما تزن بريبة وتصبح غرثى من لحوم الغوافل

قالت : لكنك لست كذلك ، قلت : تدعين مثل هذا يدخل عليك ؟ وقد أنزل الله فيه ﴿ والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم ﴾ فقالت : وأي عذاب أشد من العمى ، ثم صرف سبحانه الخطاب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه إلى المؤمنين بطريق الالتفات فقال :

﴿ لولا ﴾ تحضيضية ، أي هلا ﴿ إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً ﴾ تأكيداً للتوبيخ والتقريع ومبالغة في معاتبتهم وشروعاً في توبيخهم وتعييرهم وزجرهم بتسعة زواجر . الأول هذا ؛ والثاني ﴿ لولا جاءوا عليه ﴾ ، والثالث ﴿ ولولا فضل الله ﴾ . والرابع ﴿ إذ تلقونه ﴾ ، والخامس ﴿ ولولا إذ سمعتموه ﴾ ، والسادس ﴿ يعظكم الله ﴾ ، والسابع ﴿إن الذين يحبون ﴾ والثامن ﴿ ولولا فضل الله عليكم ﴾ والتاسع ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ـ إلى سميع عليم ـ ﴾ .

ومعنى الآية كان ينبغي للمؤمنين حين سمعوا مقالة أهل الإفك أن يقيسوا ذلك على أنفسهم ، فإن كان ذلك يبعد فيهم فهو في أم المؤمنين أبعد .

وقيل كان ينبغي لكم بمجرد سماعه أن تحسنوا الظن في أم المؤمنين ، فضلاً عن أن تتمادوا في سماعه ؛ فضلاً أن تصرّوا عليه بعد السماع .

قال الحسن : معنى بأنفسهم بأهل دينهم لأن المؤمنين كنفس واحدة في اشتراك الكل في الإيمان، ألا ترى إلى قوله : ﴿ ولا تقتلوا أنفسكم ؟ ﴾ .

قال الزجاج : وكذلك يقال للقوم الذين يقتل بعضهم بعضاً أنهم يقتلون أنفسهم . قال المبرد : ومثله قوله تعالى : ﴿ فاقتلوا أنفسكم ﴾ قال النحاس : معنى ﴿ بأنفسهم ﴾ بإخوانهم . وقيل بأبناء جنسهم ، فأوجب الله سبحانه على المسلمين إذا سمعوا رجلاً يقذف أحداً ويذكره بقبيح لا يعرفونه به أن ينكروا عليه ويكذبوه وإنما عدل عن الخطاب إلى الغيبة وعن الضمير إلى الظاهر ولم يقل ظننتم بأنفسكم خيراً ، وقلتم ليبالغ في التوبيخ بطريق الالتفات وليدل التصريح بلفظ الإيمان على أن الاشتراك فيه يقتضي أن لا يصدق مؤمن على أخيه ولا مؤمنة على أختها قول عائب ولا طاعن ، وهذا من الأدب الحسن الذي قل القائم به والحافظ له ، وليتك تجد من يسمع فيسكت ولا يشيع ما يسمعه بإخوانه ، وكفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع .

قال العلماء : في الآية دليل على أن درجة الايمان والعفاف لا يزيلها الخبر المحتمل وإن شاع .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وغيرهم عن بعض الأنصار أن امرأة أبي أيوب قالت له حين قال أهل الإفك ما قالوا : ألا تسمع ما يقول الناس في عائشة ؟ قال : بلى وذلك الكذب، أكنت أنت فاعلة ذلك يا أم أيوب ؟ قالت : لا والله ، قال : فعائشة خير منك وأطيب ، إنما هذا كذب وإفك باطل ، فلما نزل القرآن ذكر الله من قال من الفاحشة ما قال من أهل الإفك ، ثم قال :﴿ولولا إذ سمعتموه ﴾ الآية ، أي كما قال أبو أيوب وصاحبته .

وقال ابن مسعود وعمر بن عبد العزيز وقبيصة : يجلد ثمانين قال القرطبي : وأجمع العلماء على أن الحر لا يجلد للعبد إذا افترى عليه لتباين مرتبتهما .

وقد ثبت في الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم : « أن من قذف مملوكه بالزنا أقيم عليه الحد يوم القيامة إلا أن تكون كما قال »[1] وشرائط الإحصان خمسة : الاسلام والعقل والبلوغ والحرية والعفة من الزنا ؛ والمحصن كالمحصنة في وجوب حد القذف؛ وبسط الكلام في هذا في كتب الفروع . ثم ذكر سبحانه شرطاً لإقامة الحد على من قذف المحصنات فقال :

﴿ ثم لم يأتوا بأربعة شهداء ﴾ يشهدون عليهن بوقوع الزنا منهن برؤيتهم . ولفظ ﴿ ثم ﴾ يدل على أنه يجوز أن تكون شهادة الشهود في غير مجلس القذف . وبه قال الجمهور . وخالف في ذلك مالك . وظاهر الآية أنه يجوز أن تكون الشهود مجتمعين ومفترقين ، وخالف في ذلك الحسن ومالك ، وإذا لم يكمل الشهود أربعة كانوا قذفة يحدون حد القذف .

وقال الحسن والشعبي : إنه لا حد على الشهود ولا على المشهود عليه . وبه قال أحمد وأبو حنيفة ومحمد بن الحسن ، ويرد ذلك ما وقع في خلافة عمر رضي الله عنه من جلده للثلاثة الذين شهدوا على المغيرة بالزنا ، ولم يخالف في ذلك أحد من الصحابة . وقد اختلف في إعراب ﴿ شهداء ﴾ على أقوال ، ثم بين الله سبحانه ما يجب على القاذف فقال :

﴿ فاجلدوهم ﴾ أي كل واحد منهم ﴿ ثمانين جلدة ﴾ الجلد الضرب كما تقدم والمجالدة المضاربة في الجلود أو بالجلود ، ثم استعير للضرب بالعصا والسيف وغيرهما ، وقد تقدم بيان الجلد قريباً .

﴿ ولا تقبلوا لهم شهادة ﴾ أي فاجمعوا لهم بين الأمرين ، الجلد وترك

---

(١) مسلم ١٦٦٠ ـ البخاري ٢٥٢٠ .

قبول الشهادة في شيء لأنهم قد صاروا بالقذف غير عدول بل فسقة كما حكم الله به عليهم في آخر هذه الآية . ومعنى ﴿ أبداً ﴾ ما داموا في الحياة ، ثم بين سبحانه حكمهم بعد صدور القذف منهم وإصرارهم عليه وعدم رجوعهم الى التوبة فقال :

﴿ وأولئك هم الفاسقون ﴾ لإتيانهم كبيرة ، وهذه الجملة مستأنفة مقررة لمضمون ما قبلها ، والفسق هو الخروج عن الطاعة ومجاوزة لحد المعصية ، وفيه دليل على أن القذف من الكبائر لأن اسم الفسق لا يقع إلا على صاحب كبيرة ، ثم بين الله سبحانه أن هذا التأييد لعدم قبول شهادتهم هو مع عدم التوبة فقال :

﴿إلا الذين تابوا من بعد ذلك ﴾ أي من بعد اقترافهم لذنب القذف ﴿ وأصلحوا ﴾ أعمالهم التي من جملتها ذنب القذف ومداركة ذلك بالتوبة والانقياد للحد ﴿فإنّ الله غفور رحيم ﴾ يغفر ذنوبهم ويرحمهم ، وقد اختلف أهل العلم في هذا الاستثناء هل يرجع إلى الجملتين قبله ؟ وهي عدم قبول الشهادة ، والحكم عليهم بالفسق،أم إلى الجملة الأخيرة وهذا الاختلاف بعد اتفاقهم على أنه لا يعود الى جملة الجلد بل يجلد التائب كالمصرّ وبعد اجماعهم أيضاً على أن الاستثناء يرجع الى جملة الحكم بالفسق فمحل الخلاف هل يرجع الى جملة عدم قبول الشهادة أم لا؟ فقال الجمهور: إن هذا الاستثناء يرجع الى الجملتين ، فإذا تاب القاذف قبلت شهادته وزال عنه الفسق لأن سبب ردها هو ما كان متصفاً به من الفسق بسبب القذف فإذا زال بالتوبة بالاجماع كانت الشهادة مقبولة .

وقال القاضي شريح وابراهيم النخعي والحسن البصري وسعيد بن جبير ومكحول وابن زيد وسفيان الثوري وأبو حنيفة : إن هذا الاستثناء يعود الى جملة الحكم بالفسق لا الى جملة عدم قبول الشهادة فيرتفع بالتوبة عن القاذف

وصف الفسق ولا تقبل شهادته أصلاً .

وذهب الشافعي والضحاك الى التفصيل فقالا : لا تقبل شهادته وإن تاب . الا أن يعترف على نفسه بأنه قد قال البهتان فحينئذ نقبل شهادته ، وقول الجمهور هو الحق لأن تخصيص التقييد بالجملة الآخرة ، دون ما قبلها مع كون الكلام واحداً في واقعة شرعية من متكلم واحد خلاف ما تقتضيه لغة العرب،وأولوية الجملة الأخيرة المتصلة بالقيد بكونه قيداً لها لا تنفي كونه قيداً لما قبلها،غاية الأمر أن تقييد الأخيرة بالقيد المتصل بها أظهر من تقييد ما قبلها به ، ولهذا كان مجمعاً عليه وكونه أظهر لا ينافي كونه فيما قبلها ظاهر .

وقد أطال أهل الأصول الكلام في القيد الواقع بعد جمل ، بما هو معروف عند من يعرف ذلك الفن ، والحق هو هذا،والاحتجاج بما وقع تارة من القيود فإن الايمان يقتضي عدم الوقوع في مثله ما دمتم أحياء ، وفيه تهييج عظيم وتقريع بالغ .

﴿ ويبين الله لكم الآيات ﴾ في الأمر والنهي لتعملوا بذلك وتتأدبوا بآداب الله وتنزجروا عن الوقوع في محارمه ﴿ والله عليم ﴾ بما تبدونه وما تخفونه أو بأمر عائشة وصفوان ﴿ حكيم ﴾ في تدبيراته لخلقه أو في حكمه ببراءتها ثم هدد سبحانه القاذفين ومن أراد أن يتسامع الناس بعيوب المؤمنين وذنوبهم فقال :

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾

﴿إنّ الذين يحبون أنْ تشيع الفاحشة﴾ هي فاحشة الزنـا ، والقول السيء ، أي يحبون أن تفشوا الفاحشة وتنتشر من قولهم شاع الشيء يشيع شيوعاً وشيعاً وشيعاناً إذا ظهر وانتشر ، والمراد بشيوعها شيوع خبرها . قال علي بن أبي طالب : قائل الفاحشة والذي شيع بها في الاثم سواء .

﴿ في الذين آمنوا ﴾ أي المحصنين العفيفين أو كل من اتصف بصفة الايمان ﴿ لهم عذاب أليم في الدنيا ﴾ بإقامة الحد عليهم ﴿ والآخرة ﴾ بعذاب النار ﴿ والله يعلم ﴾ جميع المعلومات ﴿ وأنتم لا تعلمون ﴾ الا ما علمكم به وكشفه لكم . ومن جملة ما يعلمه الله عظم ذنب القذف وعقوبة فاعله .

﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رؤوف رحيم ﴾ لعاجلكم بالعقوبة ومن رأفته لعباده ان لا يعاجلهم بذنوبهم ، ومن رحمته لهم أن يتقدم اليهم بمثل هذا الاعذار والانذار وهو تكرير لما تقدم تذكيراً للمنة منه سبحانه على عباده بترك المعاجلة لهم .

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ﴾ جمع خطوة وهي ما بين القدمين والخَطوة بالفتح المصدر أي لا تتبعُوا مسالك الشيطان ومذاهبه وآثاره ولا تسلكوا طرائفه التي يدعوكم اليها ، قرأ الجمهور : خطوات بفتح الخاء والطاء وقرىء بضم الخاء والطاء وبإسكان الطاء وهما سبعينان .

﴿ ومن يتبع خطوات الشيطان ﴾ جواب الشرط محذوف تقديره فقد غوى وقيل جزاء الشرط محذوف أقيم مقامه ما هو علة له أعني قوله : ﴿ فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر ﴾ أي فقد ارتكب الفحشاء والمنكر لأنّ دأبه أن يستمر آمراً لغيره بهما أو صار فيه خاصية الشيطان وهي الأمر بهما، والفحشاء ما أفرط قبحه ، والمنكر ما ينكره الشرع، وضمير إنه للشيطان ، وقيل للشأن والأولى أن يكون عائداً الى ﴿ من ﴾ لأن من اتبع الشيطان صار مقتدياً به في الأمر بالفحشاء والمنكر والآية عامة في حق كل واحد ، لأن كل مكلف ممنوع من ذلك .

﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته ﴾ قد تقدم بيانه، وجواب لولا هو قوله : ﴿ ما زكى منكم من أحد أبداً ﴾ أي لولا التفضل والرحمة من الله ما طهر أحد منكم نفسه من دنسها ما دام حياً قرىء زكى مخففاً ومشدداً أي ما طهره الله، وقال مقاتل : ما صلح، والأولى تفسير زكى بالتطهر والتطهير وهو الذي ذكره ابن قتيبة ، وعن ابن عباس قال : ما اهتدى أحد من الخلائق لشيء من الخير ، والآية على العموم وقيل خاصة بالذين خاضوا في الإفك وأنهم طهروا وتابوا غير عبد الله فإنه استمر على الشقاوة حتى هلك ، والأول أولى .

﴿ولكنّ الله يزكي من يشاء ﴾ من عباده بالتفضل عليهم والرحمة لهم ﴿ والله سميع ﴾ لما يقولونه ﴿ عليم ﴾ بجميع المعلومات ، وفيه حث بالغ على الإخلاص، وتهييج عظيم لعباده التائبين، ووعيد شديد لمن يتبع الشيطان ويحب أن تشيع الفاحشة في عباد الله المؤمنين ولا يزجر نفسه بزواجر الله سبحانه .

وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾

﴿ ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة ﴾ لا ناهيـة والفعل مجزوم بحذف الياء لأنه معتل بها أي لا يحلف ووزنه يفتعل من الأليّة كهدية، يقال أليّة وألايا مثل هدية وهدايا،وهي اليمين يقال ائتلى يـأتلي بوزن انتهى ينتهي اذا حلف ، ومنه قوله سبحانه : ﴿ للذين يؤلون من نسائهم ﴾ وقالت فرقة : هو من ألوت في كذا إذا قصرت ومنه لم آل جهداً أي لم أقصر وكذا منه قوله تعالى : ﴿ لا يألونكم خبالاً ﴾ والأول أولى بدليل سبب النزول ، قـال ابن عباس : لا تقسموا أن لا تنفعوا أحداً .

أخرج ابن المنذر عن عائشة قالت : كان مسطح بن أثاثة ممن تولى كبره من أهل الإفك، وكان قريباً لأبي بكر،وكان في عياله فحلف أبو بكر ان لا ينيله خيراً أبداً فأنزل الله هذه الآية ، قالت فأعاده أبو بكر الى عياله وقال : لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها الا تحللتها واتيت الذي هو خير ، وقد روي هذا من طرق عن جماعة من التابعين .

وعن ابن عباس في الآية قال : كان ناس من أصحاب رسول الله ﷺ قد رموا عائشة بالقبيح وأفشوا ذلك وتكلموا فيها ، فأقسم ناس من أصحاب النبي ﷺ منهم أبو بكر أن لا يتصدقوا على رجل تكلم بشيء من هذا ولا يَصِلُوه فقال : لا يقسم أولوا الفضل منكم والسعة أن لا يصلوا أرحامهم،

وأن لا يعطوهم من أموالهم ، كالذي كانوا يفعلون قبل ذلك ، فأمر الله أن يغفر لهم ويعفي عنهم.

﴿ أن يؤتوا ﴾ قال الزجاج أي على أن لا يؤتوا فحذف ﴿ لا ﴾ وقال أبو عبيدة: لا حاجة الى إضمار لا ، والمعنى: لا يحلفوا على أن لا يحسنوا إلى المستحقين للاحسان من ﴿أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله﴾ الجامعين لتلك الأوصاف ، وعلى الوجه الآخر يكون المعنى : لا يقصروا في أن يحسنوا إليهم وإن كانت بينهم وبينهم شحناء لذنب اقترفوه ، وقرى بتاء الخطاب على الالتفات . ثم علمهم سبحانه أدباً آخر فقال :

﴿ وليعفوا ﴾ عن ذنبهم الذي أذنبوه عليهم ، وجناتهم التي اقترفوها ، من عفا الربع أي درس،والمراد محو الذنب حتى يعفو كما يعفو أثر الربع ﴿ وليصفحوا ﴾ بإغضاء عن الجاني والإغماض عن جنايته ، والإعراض عن لومه ، فإن العفو أن يتجاوز عن الجاني ، والصفح أن يتناسى جرمه . وقيل : العفو بالفعل والصفح بالقلب ، وقرىء في الفعلين جميعاً بالفوقية ثم ذكر سبحانه ترغيباً عظيماً لمن عفا وصفح فقال :

﴿ ألا تحبون أن يغفر الله لكم ﴾ بسبب عفوكم وصفحكم عن الفاعلين للاساءة عليكم ، قال أبو بكر : بلى أنا أحب أن يغفر الله لي ، ورجع إلى مسطح ما كان ينفقه عليه ﴿ والله غفور رحيم ﴾ أي كثير المغفرة والرحمة لعباده مع كثرة ذنوبهم ، فكيف لا يقتدي العباد بربهم في العفو والصفح عن المسيئين إليهم ؟ .

﴿ إن الذين يرمون ﴾ بالزنا ﴿ المحصنات ﴾ العفائف قد مر تفسيرها ، وذكرنا أن الإجماع على أن حكم المحصنين من الرجال حكم المحصنات من النساء في حد القذف ﴿ الغافلات ﴾ أي اللاتي غفلن عن الفاحشة بحيث لا

تخطر ببالهن ولا يفطن لها ، وفي ذلك من الدلائل على كمال النزاهة ، وطهارة الجيب ما لم يكن في المحصنات ، وقيل : هنّ السليمات الصدور ، النقيات القلوب ، اللاتي ليس فيهن دهاء ولا مكر ، لأنهن لم يجربن الأمور ، ولم يرزن الأحوال فلا يفطن لما تفطن له المجربات العرافات ، وكذلك البله من الرجال الـذين غلبت عليهم سلامة الصدور ، وحسن الظن بالناس، لأنهم أغفلوا أمر دنياهم فجهلوا حذق التصرف فيها ، وأقبلوا على آخرتهم فشغلوا نفوسهم بها .

﴿ المؤمنات ﴾ بالله ورسوله ، وقد اختلف في هذه الآية هل هي خاصة أو عامة ، فقال سعيد بن جبير : هي خاصة فيمن رمى عائشة ، وقال مقاتل : هي خاصة بعبد الله بن أُبي ، رأس المنافقين وقال الضحاك ، والكلبي : هي في عائشة وسائر أزواج النبي ﷺ دون سائر المؤمنين والمؤمنات ، فمن قذف إحدى أمهات المؤمنين فهو من أهل هذه الآية . قال الضحاك : ومن أحكام هذه الآية ، أنه لا توبة لمن رمى إحدى أزواجه ﷺ ، ومن قذف غيرهن فقد جعل الله له التوبة ، كما تقدم في قوله ﴿ إلا الذين تابوا ﴾ ، وقيل إن هذه الآيـة خاصـة بمن أصرّ على القـذف ، ولم يتب ، وقيل إنها خـاصـة بمشـركي مكـة ، لأنهم كانوا يقولون للمرأة إذا خرجت مهاجرة إنما خرجت لتفجر .

وقيل إنها تعمّ كل قاذف ومقذوف من المحصنات والمحصنين ، واختاره النحاس وهو الموافـق لما قرره أهل الأصول ، من أن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب . قال أهل العلم : إن كان المراد بهذه الآية المؤمنين من القذفة فالمراد باللعنة في قوله : ﴿ لعنوا في الدنيا والآخرة ﴾ الإبعاد عن الثناء الحسن على ألسنة أهل الإيمان ، وضرب الحد ، وهجر سائر المؤمنين لهم ، وزوالهم عن رتبة العدالة ، واستيحاش أهل الإيمان منهم ، وإن كان المراد بها من قذف عائشة خاصة . كانت هذه الأمور في جانب عبد الله بن أبيّ رأس المنافقين ، وإن كانت في مشركي مكة ، فإنهم ملعونون في الدنيا والآخرة .

﴿ولهم عذاب عظيم﴾ على ذنب عظيم، وجملة ﴿يوم تشهد عليهم ألسنتهم﴾ مقررة لما قبلها، مبينة لحلول وقت ذلك العذاب بهم، وتعيين اليوم لزيادة التهويل بما فيه من العذاب، الذي لا يحيط به وصف، قريء تشهد بالفوقية، وبالتحتية، وهما سبعيتان، والمعنى تشهد ألسنة بعضهم على بعض في ذلك اليوم، وقيل تشهد عليهم ألسنتهم في ذلك اليوم بما تكلموا به.

﴿وأيديهم وأرجلهم، بما كانوا يعملون﴾ أي: بما عملوا في الدنيا من قول أو فعل، وأن الله سبحانه ينطقها بالشهادة عليهم، والمشهود به محذوف. وهو ذنوبهم التي اقترفوها ، أي تشهد هذه عليهم بذنوبهم التي اقترفوها ومعاصيهم التي عملوها .

أخرج الطبراني ، وأبو يعلى ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ قال : « إذا كان يوم القيامة عرف الكافر بعمله فجحد وخاصم، فيقال احلفوا فيحلفون . ثم يصمتهم الله وتشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم ، ثم يدخلهم النار » ، وقد روى عن النبي ﷺ من طريق جماعة من الصحابة ما يتضمن شهادة الجوارح على العصاة.

﴿يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق﴾ أي يوم تشهد عليهم جوارحهم بأعمالهم القبيحة يعطيهم الله جزاءهم عليها موفراً . فالمراد بالدين هنا الجزاء بالحق الثابت الذي لا شك في ثبوته ، قريء يوفيهم من أوفى مخففاً ، ومن وفّى مشدداً ، وقريء الحقُّ بالرفع على أنه نعت لله ، وروي ذلك عن ابن مسعود رضي الله عنه ، وبالنصب على أنه نعت لدينهم ، قال أبوعبيدة : ولولا كراهة خلاف الناس لكان الوجه الرفع ، ليكون نعتاً لله عز وجل ، وليكون موافقاً

لقراءة أُبي ، وذلك أن جرير بن حازم قال : رأيت في مصحف أبيّ: يوفيهم الله الحق دينهم ، قال النحاس : وهذا الكلام من أبي عبيدة غير مرضي ، لأنه احتج بما هو مخالف للسواد الأعظم ، ولا حجة أيضاً فيه ، لأنه لو صح أنه في مصحف أبيّ كذلك ، لجاز أن يكون دينهم بدلاً من الحق وعن ابن عباس قال : دينهم أي حسابهم ، وكل شيء في القرآن الدين فهو الحساب وأخرج الطبراني وغيره عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده أن النبي ﷺ قرأ يومئذ يوفيهم الله الحق دينهم .

﴿ ويعلمون أنّ الله هو الحق المبين ﴾ أي يعلمون عند معاينتهم لذلك ، ووقوعه على ما نطق به الكتاب العزيز، أن الله هو الحق الثابت في ذاته وصفاته، وأفعاله ﴿ المبين ﴾ المظهر للأشياء كما هي في أنفسها، وإنما سمي سبحانه الحق لأن عبادته هي الحق دون عبادة غيره؛ وقد سمي بالحق أي الموجود لأن نقيضه الباطل، وهو المعدوم، وتفسيره بظهور ألوهيته تعالى وعدم مشاركة الغير له فيها ، وعدم قدرة ما سواه على الثواب والعقاب ، ليس له كثير مناسبة للمقام ، ولم يغلظ الله سبحانه وتعالى ؛ في القرآن في شيء من المعاصي تغليظه في إفك عائشة . فأوجز في ذلك وأشبع ، وفصل وأجمل ، وأكد وكرر ؛ وما ذلك إلا ما روي عن ابن عباس من أذنب ذنباً ثم تاب منه قبلت توبته إلا من خاض في أمر عائشة ، وهذا منه تعظيم ومبالغة في أمر الإفك .

ولقد برأ الله تعالى أربعة بأربعة، برأ يوسف بشاهد من أهلها ، وموسى بالحجر الذي ذهب بثوبه ، ومريم بإنطاق ولدها ، وعائشة بهذه الآي العظام في كتابه المعجز ؛ المتلو على وجه الدهر ، بهذه المبالغات ؛ فانظر كم بينها وبين تبرئة أولئك حيث لم يرض لها ببراءة صبي ولا نبي . حتى برأها بكلامه من القذف والبهتان ؛ وما ذاك إلا لإظهار علو منزلة رسوله .والتنبيه على أنافة محله صلى الله عليه وآله وأصحابه أجمعين .

﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٢٦) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٢٧) فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨) لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (٢٩) قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠)﴾

ثم ختم سبحانه الآيات الواردة في أهل الإفك بكلمة جامعة فقال : ﴿ الخبيثات ﴾ من النساء ﴿ للخبيثين ﴾ من الرجال أي مختصات بهم لا يكدن يتجاوزنهم إلى غيرهم ،كلام مستأنف مؤسس على قاعدة السنة الإلٰهية الجارية فيما بين الخلق . على موجب أن الله تعالى ملكاً يسوق الأهل إلى أهلها ﴿ و ﴾ كذا ﴿ الخبيثون للخبيثات ﴾ أي مختصون بهن لا يتجاوزنهن لأن المجانسة من دواعي الانضمام .

﴿ و ﴾ هكذا ﴿ الطيبات للطيبين والطيبون للطيبات ﴾ قال مجاهد ، وسعيد بن جبير وعطاء وأكثر المفسرين : المعنى الكلمات الخبيثات من القول للخبيثين من الرجال ، والخبيثون من الرجال للخبيثات من الكلمات ، والكلمات الطيبات من القول للطيبين من الناس ، والطيبون من الناس للطيبات من الكلمات ، وعن ابن عباس مثله ، وزاد نزلت في الذين قالوا في زوجة النبي ﷺ ما قالوا من البهتان ، وعن قتادة نحوه ، وكذا روي عن جماعة من التابعين قال النحاس : وهذا أحسن ما قيل . قال الزجاج : ومعناه لا يتكلم بالخبيثات إلا الخبيث من الرجال والنساء ، ولا يتكلم بالطيبات إلا

الطيب من الرجال والنساء ، وهذا ذم للذين قذفوا عائشة بالخبث ، ومدح للذين برءوها .

وقيل : إن هذه الآية مبنية على قوله : ﴿ الزاني لا ينكح إلا زانية ﴾ فالخبيثات الزواني ، والطيبات العفائف ، وكذا الخبيثون والطيبون ، وعن ابن زيد قال : نزلت في عائشة حين رماها المنافقون بالبهتان ، والفرية فبرأها الله من ذلك ، وكان ابن أبيّ هو الخبيث ؛ وكان هو أولى بأن تكون له الخبيثة ، ويكون هو لها ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم طيباً فكان أولى أن تكون له الطيبة ، وكانت عائشة الطيبة ، وكانت أولى بأن يكون لها الطيب .

﴿ أولئك مبرءون مما يقولون ﴾ الإشارة إلى الطيبين والطيبات ، أي هم مبرءون مما يقوله الخبيثون والخبيثات ، وقيل الإشارة إلى أزواج النبي ﷺ وقيل : إلى رسول الله ﷺ ، وعائشة وصفوان بن المعطل ، وقيل إلى عائشة وصفوان فقط ، قال الفراء : وجمع كما قال : فإن كان له إخوة ، والمراد أخوان ، قال ابن زيد : ههنا برئت عائشة .

﴿ لهم مغفرة ﴾ عظيمة لما لا يخلو عنه البشر من الذنوب ﴿ ورزق كريم ﴾ هو رزق الجنة ، روي أن عائشة كانت تفتخر بأشياء لم تعطها امرأة غيرها ،منها أن جبريل أتى بصورتها في خرقة حرير ، وقال هذه زوجتك ، ومنها أن النبي ﷺ لم يتزوج بكراً غيرها ، وقبض رسول الله ﷺ في حجرها وفي يومها . ودفن في بيتها ، وكان ينزل عليه الوحي وهي معه في اللحاف ، ونزلت براءتها من السماء ، وأنها ابنة الصديق وخليفة رسول الله ﷺ ، وخلقت طيبة ، ووعدت مغفرة ورزقاً كريماً .

وكان مسروق إذا حدث عن عائشة يقول : حدثتني الصديقة ابنة الصديق حبيبة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، المبرأة من السماء؛ وقال حسان معتذراً في حقها :

حصان ، رزان ، ما تزن بريبة وتصبح غرثى من لحوم الغوافل
حليلة خير الناس ، ديناً ومنصباً نبي الهدى ، والمكرمات الفواضل
عقيلة حي من لؤي بن غالب كرام المساعي مجدها غير زائل
مهذبة ، قد طيب الله خيمها وطهرها من كل شين وباطل

ولما فرغ سبحانه من ذكر الزجر عن الزنا والقذف شرع في ذكر الزجر عن دخول البيوت بغير استئذان لما في ذلك من مخالطة الرجال بالنساء فربما يؤدي إلى أحد الأمرين المذكورين، وأيضاً فإن الإنسان يكون في بيته ومكان خلوته على حالة قد لا يحب أن يراه عليها غيره، فنهى الله سبحانه عن دخول بيوت الغير فقال:

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم ﴾ أي التي لستم تملكونها ولا تسكنونها ، وليس لكم عليها يد شرعية أما المكتري . والمستعير ، فكل منهما يدخل بيته ، والمعنى لا تدخلوها إلى غاية هي قوله : ﴿ حتى تستأنسوا ﴾ الاستئناس : الاستعلام ، والاستخبار أي حتى تستعلموا من في البيت والمعنى حتى تعلموا أن صاحب البيت قد علم بكم ، وتعلموا أنه قد أذن بدخولكم فإذا علمتم ذلك دخلتم ، ومنه قوله ﴿ فإن آنستم منها رشداً ﴾ أي علمتم . قال الخليل : الاستئناس الاستكشاف من أنس الشيء إذا أبصره كقوله ﴿ إني آنست ناراً ﴾ أي أبصرت .

وقال ابن جرير : إنه بمعنى تؤنسوا أنفسكم ، قال ابن عطية وتصريف الفعل يأبى أن يكون من أنس ومعنى كلام ابن جرير هذا أنه من الاستئناس الذي هو خلاف الاستيحاش لأن الذي يطرق باب غيره لا يدري أيؤذن له أم لا ؟ فهو كالمستوحش حتى يؤذن له فإذا أذن له استأنس . فنهى سبحانه عن دخول تلك البيوت حتى يؤذن للداخل وقيل : هو من الأنس وهو أن يتعرف هل ثَمَّ إنسان أم لا ؟ قال الواحدي : قال جماعة المفسرين : حتى تستأذنوا

ويؤيده ما حكاه القرطبي عن ابن عباس وأُبي وسعيد بن جبير أنهم قرءوا حتى تستأذنوا ، قال ما لك فيما حكاه عنه ابن وهب : الاستئناس فيما نرى والله أعلم ـ الاستئذان ؛ وعن ابن عباس قال : أخطأ الكاتب : حتى تستأذنوا .

﴿ وتسلموا على أهلها ﴾ وفي مصحف عبد الله حتى تسلموا على أهلها ، وتستأذنوا ؛ وعن عكرمة نحوه : أخرج ابن أبي شيبة ؛ والطبراني وغيرهما عن أبي أيوب قال : قلت يا رسول الله أرأيت قول الله حتى تستأنسوا او تسلموا على أهلها ، هذا التسليم قد عرفناه فما الاستئناس . قال : «يتكلم الرجل بتسبيحة وتكبيرة وتحميدة ؛ ويتنحنح ؛ فيؤذن أهل البيت» قال ابن كثير : هذا حديث غريب[1] .

وأخرج الطبراني عن أبي أيوب أن النبي ﷺ قال : «الاستئناس أن تدعو الخادم حتى يستأنس أهل البيت ، الذين تسلم عليهم » وفي الصحيحين وغيرهما من حديث سهل بن سعد قال : اطلع رجل من جحر في حجرة النبي ﷺ ومعه مدرى يحك بها رأسه قال : لو أعلم أنك تنظر لطعنت بها في عينيك ، إنما جعل الاستئذان من أجل النظر»[3] وفي لفظ : إنما جعل الإذن من أجل البصر ،وعن أنس قال : قال رجل من المهاجرين : لقد طلبت عمري كله في هذه الآية فما أدركتها : أن أستأذِنَ على بعض إخواني فيقول : إرجع فأرجع وأنا مغتبط لقوله ﴿ وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم ﴾ .

وعن ابن عباس قال : نسخ واستثنى من ذلك. فقال ﴿ ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتاً غير مسكونة فيها متاع لكم ﴾ أخرج أحمد والبخاري في الأدب وأبو داود والترمذي والنسائي والبيهقي من طريق كلدة أن صفوان بن

---

(١) ابن كثير ٣/٢٨٠ .

(٢) مسلم ٢١٥٦ ـ البخاري ٢٣٠٠ .

أمية بعثه في الفتح بِلِبَأ[١] وضَغابيس[٢]. والنبي ﷺ بأعلى الوادي قال : فدخلت عليه ولم أسلم ولم أستأذن ، فقال النبي ﷺ : «أرجع فقل : السلام عليكم أأدخل ؟ قال الترمذي حسن غريب لا نعرفه إلا من حديثه .

وأخرج أحمد والبخاري في الأدب ؛ وأبو داود والبيهقي في السنن من طريق ربعي قال : حدثنا رجل من بني عامر استأذن على النبي ﷺ وهو في بيت فقال : أألج ؟ فقال النبي ﷺ لخادمه أخرج إلى هذا فعلمه الإستئذان . فقل له : قل السلام عليكم أأدخل ؟ .

وأخرج ابن جرير عن عمر بن سعيد الثقفي نحوه مرفوعاً . ولكنه قال أن النبي ﷺ قال لأمة له يقال لها روضة : «قومي إلى هذا فعلميه» واختلفوا هل يقدم الاستئذان على السلام ؟ أو العكس ؟ فقيل : يقدم الاستئذان فيقول أأدخل سلام عليكم ؟ لتقديم الاستئناس في الآية على السلام. وقال الأكثرون : إنه يقدم السلام على الاستئذان فيقول : السلام عليكم أأدخل ؟ وهو الحق لأن البيان منه ﷺ للآية كان هكذا : وقيل : إن وقع بصره على إنسان قدّم السلام : وإلا قدم الاستئذان .

﴿ ذلكم ﴾ أي الاستئناس والتسليم أي دخولكم مع الاستئذان والسلام ﴿ خير لكم ﴾ من التهجم بغير إذن ومن الدخول بغتة ﴿ لعلكم تذكّرون﴾ أنّ الاستئذان خير لكم ، وهذه الجملة متعلقة بمقدر أي : أمرتم بالاستئذان والمراد بالتذكر الاتعاظ ، والعمل بما امروا به .

﴿ فإن لم تجدوا فيها ﴾ أي في البيوت التي لغيركم ﴿ أحداً ﴾ ممن يستأذن عليه ، ويصلح للإذن ، أو كان ولكنه لم يأذن أو لم يكن فيها أحد اصلاً ﴿ فلا

(١) اللِّبَأ : هو أول ما يُحلَب عند الولادة، ولَبَأتِ الشاة ولدَها أرضعته اللِّبَأ (النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ٢٢١/٤، تحقيق محمود محمد الطناحي، طبعة عيسى البابي الحلبي بالقاهرة).

(٢) الضغابيس: صغار القِثّاء، واحدها ضُغبوس، وقيل هي نبتٌ ينبت في أصول الثُمام، يُشبه الهِليون، يُسلَق بالخل والزيت ويؤكل (النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ٨٩/٣).

تدخلوها حتى يؤذن لكم ﴾ بدخولها من جهة من يملك الإذن فإن المانع من الدخول ليس الاطلاع على العورات فقط ، بل وعلى ما يخفيه الناس عادة مع أن التصرف في ملك الغير بغير إذنه محظور ، واستثنى ما إذا عرض فيه حرق أو غرق أو كان فيه منكر ونحوه وعن مجاهد قال : المعنى فإن لم تجدوا فيها أحداً ، أي لم يكن فيها متاع . وضعفه ابن جرير . وهو حقيق بالضعف فإن المراد بالأحد المذكور أهل البيوت الذين يأذنون للغير بدخولها لامتاع الداخلين إليها .

﴿ وإن قيل لكم ﴾ أي : إن قال لكم أهل البيت : ﴿ أرجعوا فارجعوا ﴾ ولا تعاودوهم بالاستئذان مرة أخرى ولا تنتظروا بعد ذلك أن يؤذن لكم بعد أمرهم لكم بالرجوع. ولا تقفوا على الباب ملازمين ، ثم بين سبحانه أن الرجوع أفضل من الإلحاح وتكرير الاستئذان ، والقعود على الباب ، والاصرار على الانتظار ، فقال :

﴿ هو ﴾ أي الرجوع ﴿ أزكى لكم ﴾ أي : أفضل واطهر من التدنس بالمشاحة على الدخول ومن اللج والعناد والوقوف على الأبواب ، لما في ذلك من سلامة الصدر ، والبعد من الريبة ، والفرار من الدناءة والرذالة، وإذا حضر أحد إلى الباب فلم يستأذن وقعد على الباب منتظراً جاز وكان ابن عباس يأتي دور الأنصار لطلب الحديث فيقعد على الباب ولا يستأذن حتى يخرج إليه الرجل فيراه ويقول : يا ابن عم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لو اخبرتني بمكانك ؟ فيقول هكذا أمرنا ان نطلب العلم ﴿ والله بما تعملون عليم ﴾ لا تخفى عليه من أعمالكم خافية ، ومنه الدخول بإذن وغير إذن .

﴿ ليس عليكم جُناح﴾ في الدخول بغير استئذان ﴿ أن تدخلوا بيوتاً غير مسكونة ﴾ أي البيوت التي ليست بموضوعة لسكنى طائفة مخصوصة ، بل كانت موضوعة ليدخلها كل من له حاجة تقصد منها ، وقد اختلف الناس في المراد

بهذه البيوت فقال محمد بن الحنفية وقتادة ومجاهد هي الفنادق التي في الطرق السابلة الموضوعة لابن السبيل ، يأوي اليها .

وقال ابن زيد ، والشعبي : هي حوانيت القيساريات وبيوت التجار ، وحوانيتهم في الأسواق والرُبَط، قال الشعبي : لأنهم جاءوا بيوعهم فجعلوها فيها ، وقالوا للناس : هلم وقال عطاء : المراد بها الخرب التي يدخلها الناس للبول والغائط ففي هذا أيضاً متاع، وقيل هي بيوت مكة ، روي ذلك عن محمد بن الحنفية أيضاً ، وهو موافق لقول من قال : إن الناس شركاء فيها ولكن قد قيد سبحانه هذه البيوت المذكورة هنا بأنها غير مسكونة .

﴿ فيها متاع لكم ﴾ المتاع : المنفعة عند أهل اللغة فيكون معنى الآية فيها منفعة لكم ، كاستكنان من الحر ، والبرد ، وإيواء الرحال : والسلع ، والشراء ، والبيع ، ومنه قوله : ومتعوهن . وقولهم : أمتع الله بك ، وقد فسر الشعبي المتاع في كلامه المتقدم بالأعيان التي تباع ، قال جابر ابن زيد : وليس المراد بالمتاع الجهاز ، ولكن ما سواه من الحاجة . قال النحاس: وهو حسن موافق للغة .

﴿ والله يعلم ما تبدون وما تكتمون ﴾ أي ما تظهرون ، وما تخفون ، وفيه وعيد لمن لم يتأدب بآداب الله في دخول بيوت الغير ، ويدخل الخربات ، والدور الخالية من أهل الريبة ، ولما ذكر سبحانه حكم الاستئذان أتبعه بذكر حكم النظر على العموم فقال :

﴿ قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ﴾ فيندرج تحته غض البصر من المستأذن كما قال صلى الله عليه وآله وسلم : «إنما جعل الإذن من أجل البصر»(١) ، وخص المؤمنين مع تحريمه على غيرهم لكون قطع ذرائع الزنا التي

(١) مسلم ٢١٥٦ ـ البخاري ٢٣٠٠ .

منها النظر هم أحق بها من غيرهم ، وأولى بذلك ممن سواهم ، وقيل : إن في الآية دليلاً على أن الكفار غير مخاطبين بالشرعيات كما يقوله بعض أهل العلم ، وفي الكلام حذف ، والتقدير : قل للمؤمنين غضوا يغضوا ، ومعنى غض البصر إطباق الجفن على العين بحيث يمنع الرؤية ، و ﴿ من ﴾ هي التبعيضية ، وإليه ذهب الأكثرون وعليه اقتصر القاضي كالكشاف ، وبينوه بأن المعنى غض البصر عما يحرم ، والاقتصار به على ما يحل .

وقيل وجه التبعيض أنه يعفى للناظر ، أول نظرة تقع من غير قصد ، وقال الأخفش : إنها زائدة ، وأنكر ذلك سيبويه . وقيل : إنها لبيان الجنس قاله أبو البقاء ، واعترض عليه بأنه لم يتقدم مبهم حتى يكون مفسراً بـ ﴿ من ﴾ وقيل إنها لابتداء الغاية ، قاله ابن عطية ، وعليه اقتصر أبو حيان في النهر ، وقيل : الغض : النقصان ، يقال . غض فلان من فلان ، أي : وضع منه . فالبصر إذاً لم يمكن من عمله فهو مغضوض منه ، ومنقوص ، فتكون ﴿ من ﴾ صلة للغض ، وليست لمعنى من تلك المعاني الأربعة ، وفي هذه الآية دليل على تحريم النظر إلى غير من يحل النظر إليه .

قال ابن عباس : يغضوا أبصارهم يعني . من شهواتهم ، مما يكره الله . وأخرج أبو داود ، والترمذي ،والبيهقي في سننه ، عن بريدة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «لا تتبع النظرة النظرة فإن الأولى لك وليست لك الأخرى»[١] .

وفي مسلم ، وأبي داود ، والترمذي ، والنسائي ، عن جرير البجلي قال . سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن نظرة الفجأة فأمرني أن أصرف[٢] . وفي الصحيحين ؛ وغيرهما ؛ من حديث أبي سعيد قال . قال

(١) ابو داوود كتاب النكاح باب ٤٣ ـ الترمذي كتاب الأدب ٢٨ .
(٢) مسلم ٢١٥٩ ـ الترمذي كتاب الأدب باب ٢٨ .

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «إياكم والجلوس على الطرقات» ! قالوا : يا رسول الله ما لنا بد من مجالسنا نتحدث فيها ! فقال : « إن أبيتم فأعطوا الطريق حقه » . قالوا : وما حقه يا رسول الله ؟ قال : « غض البصر ؛ وكف الأذى ؛ ورد السلام ؛ والأمر بالمعروف ؛ والنهي عن المنكر »[1] .

﴿ ويحفظوا فروجهم ﴾ أي يجب عليهم حفظها عما يحرم عليهم ولا يحل لهم . وقيل المراد ستر فروجهم عن أن يراها من لا تحل له رؤيتها ، ولا مانع من إرادة المعنيين ، فالكل يدخل تحت حفظ الفرج ، وقيل وجه المجيء بمن في الأبصار دون الفروج أنه موسع في النظر فإنه لا يحرم منه إلا ما استثنى ، ألا ترى أن المحارم لا بأس بالنظر إلى شعورهن وصدورهن ؟ وكذا الإماء المستعرضات للبيع بخلاف حفظ الفرج ، فإنه مضيق فيه . فإنه لا يحل منه إلا ما استثنى .

وقيل الوجه أن غض البصر كلِّه كالمتعذر ، بخلاف حفظ الفرج ، فإنه ممكن على الاطلاق قال أبو العالية : كل ما في القرآن من حفظ الفرج فهو عن الزنا إلا ما في هذا الموضع فإنه أراد به الإستتار حتى لا يقع بصر الغير عليه .

﴿ ذلك ﴾ أي ما ذكر من الغض والحفظ ﴿ أزكى ﴾ أي أطهر ﴿ لهم ﴾ من دنس الريبة ، وأطيب من التلبس بهذه الدنيئة ﴿ إن الله خبير بما يصنعون ﴾ لا يخفى عليه شيء من صنعهم ، فيجازيهم عليه ، وفي ذلك وعيد لمن لم يغض بصره ويحفظ فرجه .

---

(١) مسلم ٢١٢١ ـ البخاري ١٢١٧ .

وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾

﴿ وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ﴾ خص سبحانه الإناث بهذا الخطاب على طريق التأكيد لدخولهن تحت خطاب المؤمنين تغليباً كما في سائر الخطابات القرآنية وظهر التضعيف في يغضضن، ولم يظهر في يغضوا لأن لام الفعل من الأول متحركة ، ومن الثاني ساكنة ، وهما في موضع جزم جواباً للأمر . وبدأ سبحانه بالغض في الموضعين قبل حفظ الفرج . لأن النظر وسيلة إلى عدم حفظ الفرج . والوسيلة مقدمة على المتوسل إليه .

وعن مقاتل قال : بلغنا . والله أعلم ، أن جابر بن عبد الله الأنصاري حدث أن أسماء بنت يزيد كانت في نخل لها لبني حارثة . فجعل النساء يدخلن عليها غير متزرات فيبدو ما في أرجلهن . يعني الخلاخل ، وتبدو صدورهن وذوائبهن فقالت أسماء ما أقبح هذا ! فأنزل الله في ذلك وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن الآية .

وبالجملة أمر الله سبحانه المؤمنين والمؤمنات بغض الأبصار . فلا يحل للرجل أن ينظر إلى المرأة ، ولا للمرأة أن تنظر إلى الرجل ، فإن علاقتها به كعلاقته بها وقصدها منه كقصده منها ، وقال مجاهد : إذا أقبلت المرأة جلس إبليس على رأسها فزينها لمن ينظر ، وإذا أدبرت جلس على عجيزتها فزينها لمن

ينظر ، وقد أشتملت هذه الآية الكريمة على خمسة وعشرين ضميراً للإناث ما بين مرفوع ومجرور ولم يوجد لها نظير في القرآن في هذا الشأن .

﴿ و ﴾ كذلك ﴿ يحفظن فروجهن ﴾ أي يجب عليهن حفظ فروجهن على الوجه الذي تقدم في حفظ الرجال لفروجهم ، أخرج البخاري وأهل السنن وغيرهم عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده قال : قلت يا رسول الله عوراتنا ما نأتي منها وما نذر ؟ قال : « احفظ عورتك إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك » قلت : يا نبي الله إذا كان القوم بعضهم في بعض ؟ قال : « ان استطعت ان لا يراها أحد فلا يرينها قلت : إذا كان أحدنا خالياً ؟ قال : فالله أحق أن يستحيا منه من الناس[1] .

وفي الصحيحين وغيرهما من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة ، فزنا العين النظر وزنا اللسان النطق ، وزنا الأذنين السماع ، وزنا اليدين البطش ، وزنا الرجلين الخطو ، والنفس تتمنى ، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه »[2] .

وأخرج الحاكم وصححه عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ : «النظرة سهم من سهام إبليس مسمومة ، فمن تركها من خوف الله أثابه الله إيماناً يجد حلاوته في قلبه» ، والأحاديث في هذا الباب كثيرة[3] .

﴿ ولا يبدين زينتهن ﴾ أي ما يتزين به من الحلية وغيرها مثل الخلخال والخضاب في الرجل والسوار في المعصم والقرط في الأذن والقلائد في العنق فلا يجوز للمرأة إظهارها ولا يجوز للأجنبي النظر إليها ثم استثنى سبحانه من هذا النهي فقال :

---

(١) الترمذي كتاب الأدب باب ٢٢ ، ٣٩ ـ الإمام أحمد ٤/٥ .
(٢) مسلم ٢٦٥٧ ـ البخاري ٢٣٧٢ .
(٣) المستدرك كتاب الرقاق ٣١٤/٤ .

﴿ إلا ما ظهر منها ﴾ أي ما جرت العادة والجبلة على ظهوره واختلف الناس في ظاهر الزينة ما هو؟ فقال ابن مسعود وسعيد بن جبير : هو الثياب وزاد سعيد الوجه وقال عطاء والأوزاعي : الوجه والكفان وقال ابن عباس وقتادة والمسور بن مخرمة : هو الكحل والخاتم والسوار والخضاب في الكف إلى نصف الساق ونحو ذلك فإنه يجوز للمرأة أن تبديه وقال ابن عطية : إن المرأة لا تبدي شيئاً من الزينة وتخفي كل شيء من زينتها ، ووقع الاستثناء فيما يظهر منها بحكم الضرورة ولا يخفى عليك أن ظاهر النظم القرآني النهي عن إبداء الزينة إلا ما ظهر منها كالجلباب والخمار ونحوهما مما في الكف والقدمين من الحلية ونحوها .

وإن كان المراد بالزينة مواضعها ، كان الاستثناء راجعاً الى ما يشق على المرأة ستره كالكفين والقدمين ونحو ذلك وهكذا إذا كان النهي عن إظهار الزينة يستلزم النهي عن إظهار مواضعها بفحوى الخطاب فإنه يحمل الاستثناءعلى ما ذكرناه في الموضعين وأما إذا كانت الزينة تشمل مواضع الزينة وما تتزين به النساء فالأمر واضح والاستثناء يكون من الجميع .

قال القرطبي في تفسيره : الزينة على قسمين خلقية ومكتسبة فالخلقية وجهها فإنه أصل الزينة والمكتسبة ما تحاوله المرأة في تحسين خلقها كالثياب والحلي والكحل والخضاب ومنه قوله تعالى : ﴿ خذوا زينتكم ﴾ وعن ابن مسعود قال : الزينة السوار والدملج والخلخال والقرط والقلادة إلا ما ظهر منها قال: الثياب والجلباب وعنه قال : الزينة زينتان زينة ظاهرة وزينة باطنة لا يراها إلا الزوج فأما الزينة الظاهرة فالثياب وأما الزينة الباطنة فالكحل والسوار والخاتم وفي لفظ فالظاهرة منها الثياب وما خفي الخلخالان والقرطان والسواران .

وعن ابن عباس في الآية قال : الكحل والخاتم والقرط والقلادة وعنه قال : هو خضاب الكف والخاتم وعن ابن عمر قال : الزينة الظاهرة الوجه

والكفان وقال ابن عباس : إلا ما ظهر منها اي وجهها وكفاها والخاتم وعنه قال : رقعة الوجه وباطن الكف وعن عائشة انها سئلت عن الزينة الظاهرة فقالت : القلب والفتخ وضمت طرف كمها .

وأخرج أبو داود والبيهقي وابن مردويه عن عائشة أن أسماء بنت أبي بكر دخلت على النبيﷺ وعليها ثياب رقاق فأعرض عنها وقال : « يا أسماء إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح أن يرى منها إلا هذا وأشار إلى وجهه وكفه »[1] . وهذا مرسل لأنه من طريق خالد بن دريك عن عائشة ولم يسمع منها وإنما رخص في هذا القدر للمرأة أن تبديه من بدنها لأن المرأة لا تجد بداً من مزاولة الأشياء بيديها ومن الحاجة الى كشف وجهها خصوصاً في الشهادة والمحاكمة والنكاح وتضطر الى المشي في الطرقات وظهور قدميها وخاصة الفقيرات منهن قال المحلى : فيجوز نظره أي نظر ما ظهر منها لأجنبي إن لم يخف فتنة في أحد وجهين ، والثاني يحرم لأنه مظنه الفتنة ورجح حسماً للباب انتهى أي باب النظر عن تفاصيل الأحوال كالخلوة بالأجنبية .

﴿ وليضربن بخمرهنّ على جيوبهنّ﴾ الخُمُر جمع خمار وهو ما تغطي به المرأة رأسها ومنه اختمرت المرأة وتخمرت والجيوب جمع جيب وهو موضع القطع من الدرع والقميص مأخوذ من الجوب وهو القطع وقيل المراد بالجيب هنا محله وهو العنق وإلا فهو في الأصل طوق القميص وعدي الضرب بـ ﴿ على ﴾ لتضمينه معنى الالقاء والباء زائدة أو تبعيضية .

وقال المفسرون : إن نساء الجاهلية كن يسدلن خمرهن من خلفهن وكانت جيوبهن من قدام واسعة فكان ينكشف نحورهن وقلائدهن فأمرن أن يضربن مقانعهن على الجيوب ليستر بذلك ما كان يبدو منها، وفي لفظ الضرب مبالغة في الالقاء الذي هو الالصاق وقرىء خمرهن بتحريك الميم وبكسرها وكثير من متقدمي النحويين لا يجوزون الكسر قال الزجاج : يجوز أن تبدل من

---

(١) ابو داوود كتاب اللباس باب ٣١ .

الضمة كسرة وأما ما روي عن حمزة من الجمع بين الضم والكسرة فمحال لا يقدر الإنسان أن يتكلم به إلا على الإيماء .

وقد فسر الجمهور الجيوب بما قدمنا ، وهو المعنى الحقيقي وقال مقاتل : إن معنى ﴿ على جيوبهن ﴾ على صدورهن ، فالمضاف محذوف ، أي على مواضع جيوبهن ، وقد أخرج البخاري في صحيحه وأبو داود ، والنسائي والبيهقي وغيرهم في سننهم ، عن عائشة قالت : رحم الله النساء المهاجرات الأولات ، لما انزل الله ﴿ وليضربن بخمرهن على جيوبهن ﴾ شققن أكثف مروطهن فاختمرن به، واخرج الحاكم وصححه ، وابن جرير وغيرهما عنها بلفظ أخذ النساء أزرهن فشققنها من قبل الحواشي فاختمرن بها .

﴿ ولا يبدين زينتهن ﴾ أي مواضع الزينة الباطنة ، وهي ما عدا الوجه الكفين ، كالصدر والساق والرأس ونحوها، قال الخطيب : أي الزينة الخفية التي لم يبح لهن كشفها في الصلاة ، ولا للأجانب وقال أبو السعود : كرر النهي لاستثناء بعض مواضع الرخصة باعتبار الناظر ، بعدما استثنى بعض موارد الضرورة باعتبار المنظور فقال :

﴿ إلا لبعولتهن ﴾ أي لا يدعن الجلباب والخمار إلا لأزواجهن ، والبعل هو الزوج والسيد في كلام العرب ، وقدم البعول لأنهم المقصودون بالزينة ، ولأن كل بدن الزوجة والسرية حلال لهم ، ومثله قول سبحانه ﴿والذين هم لفروجهم حافظون ، إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم ، فانهم غير ملومين﴾ ثم لما استثنى الله سبحانه الزوج أتبعه باستثناء ذوي المحارم فقال :

﴿ أو آبائهن ، أو آباء بعولتهن ، أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن ، أو اخوانهن أو بني إخوانهن أو بني أخواتهن ﴾ فجوز للنساء أن يبدين الزينة الباطنة لهؤلاء لكثرة المخالطة الضرورية بينهم وبينهن وعدم خشية الفتنة من قبلهم ، لما في الطباع من النفرة عن مماسة القرائب وقد روي عن الحسن والحسين رضي الله

عنهما أنهما كانا لا ينظران الى أمهات المؤمنين ، ذهاباً منهما إلى أن أبناء البعولة لم يذكروا في الآية التي في أزواج النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهي قوله ﴿لا جناح عليهن في آبائهن﴾ ، والمراد بأبناء بعولتهن ذكور أولاد الأزواج ويدخل في قوله ﴿أو أبنائهن﴾ أولاد الأولاد وان سفلوا او أولاد بناتهن وإن سفلوا وكذا آباء البعولة وآباء الآباء ، وآباء الأمهات ، وإن علوا وكذلك أبناء البعولة وإن سفلوا وكذلك أبناء الاخوة والأخوات .

وذهب الجمهور إلى أن العم والخال كسائر المحارم في جواز النظر الى ما يجوز لهم وقال الشعبي وعكرمة : ليس العم والخال من المحارم قال الكرخي : وعدم ذكر الأعمام والأخوال لما أن الأحوط ان يتسترن منهم حذراً من أن يصفوهن لأبنائهم والمعنى أن سائر القرابات تشترك مع الأب والابن في المحرمية إلا ابني العم والخال وهذا من الدلالات البليغة في وجوب الاحتياط عليهن في النسب،وليس في الآية ذكر الرضاع وهو كالنسب .

﴿ أو نسائهن ﴾ أي : المختصات بهن من جهة الاشتراك في الايمان ، الملابسات لهن بالخدمة أو الصحبة ، ويخرج من ذلك نساء الكفار من أهل الذمة وغيرهم ، فلا يحل لهن أن يبدين زينتهن لهن ، لأنهن لا يتحرجن عن وصفهن للرجال ، وفي هذه المسألة خلاف بين أهل العلم ، قال ابن عباس : هن المسلمات لا تبديها ليهودية ولا نصرانية ، وهو النحر ، والقرط ، والوشاح وما يحرم أن يراه إلا محرم .

وأخرج سعيد بن منصور ، والبيهقي ، وابن المنذر ، عن عمر بن الخطاب أنه كتب الى أبي عبيدة : أما بعد فإنه بلغني أن نساء من نساء المؤمنين يدخلن الحمامات ، مع نساء أهل الشرك ،فإنه من قبلك عن ذلك، فإنه لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن ينظر الى عورتها إلا أهل ملتها .

﴿ أو ما ملكت أيمانهن ﴾ فيجوز لهم نظرهن ، إلا ما بين السرة والركبة ، فيحرم نظره لغير الأزواج ، قاله المحلي : وظاهر الآية يشمل العبيد

والاماء ، من غير فرق بين أن يكونوا مسلمين ، أو كافرين . وبه قال جماعة من أهل العلم ، وإليه ذهبت عائشة ، وأم سلمة ، وابن عباس ، ومالك . وقال سعيد ابن المسيب : لا تغرنكم هذه الآية إنما عني بها الاماء ، ولم يعن بها العبيد ، وكان الشعبي يكره أن ينظر المملوك إلى شعر مولاته ، وهو قول عطاء ، ومجاهد ، والحسن ، وابن سيرين وروي عن ابن مسعود ، وبه قال أبو حنيفة ، وابن جريج وقال ابن عباس : لا بأس أن يرى العبد شعر سيدته .

وأخرج البيهقي ، وأبو داود ، وغيرهما ، عن أنس أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أتى فاطمة رضي الله تعالى عنها بعبد قد وهب لها ، وعلى فاطمة ثوب إذا قنع به رأسها لم يبلغ رجليها ، وإذا غطت به رجليها لم يبلغ رأسها ، فلما رأى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ما تلقى ، قال : « إنه ليس عليك بأس إنما هو أبوك ، وغلامك » وهو ظاهر القرآن .[1]

وأخرج عبد الرزاق ، وأحمد ، عن أم سلمة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : «إذا كان لاحداكن مكاتب وكان له ما يؤدي ، فلتحتجب منه[2]» قال سليمان الجمل عن شيخه: فيجوز لهن أن يكشفن لهم ما عدا ما بين السرة والركبة ، ويجوز للعبيد ايضاً ان ينظروا له ، وأن يكشفوا لهن من أبدانهم ، ما عدا مابين السرة والركبة ، لكن بشرط العفة ، وعدم الشهوة من الجانبين .

﴿ او التابعين غير أولى الإربة من الرجال ﴾ أصل الإربة، والإرب ، والمأربة الحاجة ، والجمع مآرب ، أي : حوائج ، ومنه قوله سبحانه :﴿ ولي فيها مآرب أخرى﴾ قيل : المراد بغير أولى الاربة من الرجال الحمقاء الذين لا حاجة لهم في النساء ، وقيل . البله ، وقيل : العنين ، وقيل : الخصي ، وقيل : المخنث ، وقيل : الشيخ الكبير ، وقيل : هو المجبوب ، ولا وجه لهذا

(١) ابو داوود وكتاب اللباس باب ٣٢ .
(٢) ابو داوود كتاب العتق الباب ١ ـ احمد بن حنبل ٢٨٩/٦ ـ ٣٠٨ ـ ٣١١ .

التخصيص ، بل المجبوب الذي بقي أنثياه ، والخصي الذي بقي ذكره ، والعنين والمخنث ، وهو المتشبه بالنساء ، والشيخ الهرم كالفحل . كذا أطلق الأكثرون .

وقال في الشامل : لا يحل للخصي النظر الى أن يكبر ويهرم وتذهب شهوته ، وكذا المخنث ، وبه قال شيخه القاضي أبو الطيب ، وأطلق أبو مخلد البصري في الخصي ، والمخنث ، وجهين ، والمراد بالآية ظاهرها ، وهم من يتبع أهل البيت في فضول الطعام ، ولا حاجة له في النساء ، ولا يحصل منه ذلك في حال من الأحوال ، فيدخل في هؤلاء من هو بهذه الصفة ، ويخرج من عداه . قال ابن عباس في الآية : هذا الذي لا تستحي منه النساء ، وعنه قال : هذا الرجل يتبع القوم وهو مغفل في عقله لا يكترث للنساء ، وعنه قال : كان الرجل يتبع الرجل في الزمان الأول لا يغار عليه ، ولا ترهب المرأة أن تضع خمارها عنده ، وهو الأحمق الذي لا حاجة له في النساء ، وعنه قال : هو المخنث الذي لا يقوم زبّه.

وأخرج مسلم وأبو داود ، والنسائي ، والبيهقي ، وغيرهم ، عن عائشة قالت : كان رجل يدخل على أزواج النبي صلى الله عليه وآله وسلم مخنث ، فكانوا يدعونه من غير أولى الأربة فدخل النبي صلى الله عليه وآله وسلم يوماً ، وهو عند بعض نسائه ، وهو ينعت امرأة ، قال : إذا أقبلت أقبلت بأربع ، وإذا أدبرت بثمان . قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « ألا أرى هذا يعرف ما ههنا لا يدخلَنَّ عليكم » فحجبوه[1] .

﴿ أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ﴾ الطفل يطلق على المفرد ، والمثنى والمجموع . أو المراد به هنا الجنس ، الموضوع وضع الجمع ، بدلالة وصفه . بوصف الجمع ، وفي مصحف أبي : أو الأطفال . على الجمع قاله ابن قتيبة ، قيل : معناه لم يبلغوا حد الشهوة ، قاله الفراء ، والزجاج ، يقال : ظهرت على كذا إذا غلبته ، وقهرته ، والمعنى : لم يطلعوا

(١) مسلم ٢١٨١ ـ أبو داوود ـ كتاب اللباس باب ٣٣ .

على عورات النساء ، ويكشفوا عنها للجماع ، أو لم يبلغوا حد الشهوة للجماع ، وقيل : لم يعرفوا العورة من غيرها من الصغر ، وقيل : لم يبلغوا، وأن القدرة على الوطء ، من : ظهر على فلان ، إذا قوي عليه ، وقيل : لم يحتلم .

قرأ الجمهور : عورات بسكون الواو ، تخفيفاً لحرف العلة ، وهي لغة جمهور العرب وعامتها وقرىء بفتحها ، وهي لغة هذيل بن مدركة ، والعورات جمع عورة ، وهي ما يريد الانسان ستره من بدنه ، وغلب في السوأتين . واختلف العلماء في وجوب ستر ما عدا الوجه والكفين من الأطفال فقيل لا يلزم ، لأنه لا تكليف عليه ، وهو الصحيح ، وقيل : يلزم ، لأنها قد تشتهي المرأة ، وهكذا اختلف في عورة الشيخ الكبير ، الذي قد سقطت شهوته ، والأولى بقاء الحرمة ، كما كانت ، فلا يحل النظر الى عورته ، ولا يحل له أن يكشفها ، وقد اختلف العلماء في حد العورة .

قال القرطبي : أجمع المسلون على أن السوأتين عورة من الرجل ، والمرأة ، وأن المرأة كلها عورة إلا وجهها ويديها ، على خلاف في ذلك . وقال الأكثر : إنّ عورة الرجل من سرته الى ركبته . قال ابن عباس : الزينة التي تبديها لهؤلاء قرطها وقلادتها ، وسوارها ، فأما خلخالها ، ومعضدها ، ونحرها ، وشعرها ! ، فإنها لا تبديها إلا لزوجها ، ومجموع هذه المستثنيات اثنا عشر نوعاً .

﴿ ولا يضربن بأرجلهن ، ليعلم ما يخفين من زينتهن ﴾ أي : لا تضرب المرأة برجلها إذا مشت ليسمع صوت خلخالها من يسمعه من الرجال فيعلمون أنها ذات خلخال ، فإن ذلك مما يورث الرجال ميلاً إليهن ، ويوهم أن لهن ميلاً الى الرجال وهذا سد لباب المحرمات وتعليم للأحوط وإلا فصوت النساء ليس بعورة عند الشافعي ، فضلاً عن صوت خلخالهن وقال الزجاج : وسماع هذه الزينة اشد تحريكاً للشهوة من إبدائها قال ابن عباس في الآية : وهو أن

تقرع الخلخال بالآخر عند الرجال او تكون في رجلها خلاخل ، فتحركهن عند الرجال ، فنهى الله عن ذلك ، لأنه من عمل الشيطان . وسماع صوت الزينة كإظهارها ومنه سمي صوت الحلى وسواساً فنبه به على أن الذي لأجله نهى عنه به ما عليهن من الحلي وغيره .

وفي القرطبي من فعل ذلك منهن فرحاً بحليهن فهو مكروه ، ومن فعل ذلك منهن تبرجاً وتعرضاً للرجال فهو حرام مذموم وكذلك من ضرب بنعله الأرض من الرجال فعل ذلك عجباً حرم فإن العجب كبيرة ، وإن فعل ذلك تبرجاً لم يحرم انتهى .

ثم ارشد سبحانه عباده الى التوبة عن المعاصي فقال :

﴿ وتوبوا الى الله جميعاً أيها المؤمنون ﴾ مما وقع لكم من النظر الممنوع منه ومن غيره وفيه الأمر بالتوبة ولا خلاف بين المسلمين في وجوبها وأنها فرض من فرائض الدين . قيل العبد لا يخلو عن سهو ويقصر في أوامره ونواهيه ، وإن اجتهد فلذا وصاهم جميعاً بالتوبة ، وقد تقدم الكلام على التوبة في سورة النساء .

وقيل إن المراد بالتوبة هنا هي عما كانوا يعملونه في الجاهلية ، والأول أولى لما تقرر في السنة أن الاسلام يجبُّ ما قبله ، وقد ورد أحاديث في الأمر بالتوبة والاستكثار منها قيل وأحوج الناس الى التوبة من توهّم أنه ليس له حاجة إلى التوبة ، وظاهر الآية يدل على أن العصيان لا ينافي الايمان ثم ذكر ما يرغبهم في التوبة فقال ﴿ لعلكم تفلحون ﴾ أي تفوزون بسعادة الدنيا والآخرة أو تنجون من ذلك لقبول التوبة منه وفي الآية تغليب الذكور على الاناث .

ولما أمر سبحانه بغض الأبصار وحفظ الفروج أرشد بعد ذلك الى ما يحل للعباد من النكاح الذي يكون به قضاء الشهوة وسكون دواعي الزنا ، ويسهل بعده غض البصر عن جميع المحرمات . وحفظ الفرج عما لا يحل فقال :

وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾

﴿ وأنكحوا الأيامى منكم ﴾ الأيّم بالتشديد التي لا زوج لها ومن ليس له زوجة فيشمل الرجل والمرأة غير المتزوجين والجمع أيامى والأصل أيايم قال ابو عمرو والكسائي : اتفق أهل اللغة على أن الأيم في الأصل هي المرأة التي لا زوج لها بكراً كانت أو ثيباً قال أبو عبيدة : يقال رجل أيم وامرأة أيم وأكثر ما يكون في النساء وهو كالمستعار في الرجال والخطاب في الآية للأولياء والسادة .

وقيل للأزواج والأول أرجح وفيه دليل على أن المرأة لا تنكح نفسها .

وعن عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : أيما امرأة نكحت بغير إذن وليها فنكاحها باطل ثلاثاً »[١] أخرجه ابو داود والترمذي وعندهما عن أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا نكاح إلا بولي »[٢] وقد خالف في ذلك أبو حنيفة فجوز للمرأة تزويج نفسها واختلف أهل العلم في هذا النكاح هل هو مباح ؟ أو مستحب ؟ أو واجب ؟ فذهب الى الأول الشافعي وغيره والى الثاني مالك وأبو حنيفة وإلى الثالث بعض أهل

(١) الترمذي كتاب النكاح باب ١٤ ـ ابن ماجة كتاب النكاح باب ١٥ .
(٢) الترمذي كتاب النكاح باب ١٤ ـ أبو داوود كتاب النكاح باب ١٩ .

العلم على تفصيل لهم في ذلك فقالوا : إن خشي على نفسه الوقوع في المعصية وجب عليه ، وإلا فلا .

والظاهر ان القائلين بالاباحة والاستحباب لا يخالفون في الوجوب مع الخشية وبالجملة فهو مع عدمها سنة من السنن المؤكدة لقوله ﷺ في الحديث الصحيح بعد ترغيبه في النكاح ومن رغب عن سنتي فليس مني ولكن مع القدرة عليه وعلى مؤنه ، وعن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ « يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحسن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء » أخرجه البخاري ومسلم[1] .

قال ابن عباس : أمر الله سبحانه بالنكاح ورغبهم فيه وأمرهم أن يزوجوا أحرارهم وعبيدهم ووعدهم في ذلك الغنى كما سيأتي .وعن أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه قال : أطيعوا الله فيما أمركم من النكاح ينجز لكم ما وعدكم من الغنى ، وعن قتادة قال : ذكر لنا أن عمر بن الخطاب قال : ما رأيت كرجل لم يلتمس الغنى في الباءة وقد وعد الله فيها ما وعد فقال ﴿إن يكونوا فقراء﴾ الآية وعن ابن مسعود نحوه .

وعن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ « أنكحوا النساء يأتينكم بالمال » أخرجه البزار والدارقطني وأخرجه أبو داود في مراسيله عن عروة مرفوعاً . وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « ثلاثة حق على الله عونهم الناكح يريد العفاف ، والمكاتب يريد الأداء والغازي في سبيل الله »[2]. وقد ورد في الترغيب في مطلق النكاح أحاديث كثيرة ليس هذا موضع ذكرها والمراد بالأيامى ههنا الأحرار والحرائر وأما المماليك فقد بين ذلك بقوله :

﴿ والصالحين من عبادكم وإمائكم ﴾ وقرىء عبيدكم والصلاح هو

---

(١) مسلم ١٤٠٠ ـ البخاري ٩٦٧ .

(٢) الترمذي فضائل الجهاد باب ٢٠ ـ النسائي كتاب النكاح باب ٥ .

الايمان وقيل القيام بحقوق النكاح حتى يقوم العبد بما يلزم بها وتقوم الأمة بما يلزم للزوج،أو المراد بالصلاح أن لا تكون صغيرة لا تحتاج الى النكاح، وخص الصالحين بالذكر ليحصن دينهم ويحفظ عليهم صلاحهم،ولأن الصالحين منهم هم الذين مواليهم يشفقون عليهم وينزلونهم منزلة الأولاد في المودة، وكانوا مظنة التوصية والاهتمام بهم، ومن ليس بصالح فحاله على العكس من ذلك، وذكر سبحانه الصلاح في المماليك دون الأحرار لأن الغالب في الأحرار الصلاح بخلاف المماليك .

وفيه دليل على أن المملوك لا يزوج نفسه وإنما يزوجه ويتولى تزويجه مالكه وسيده،وقد ذهب الجمهور الى أنه يجوز للسيد أن يكره عبده وأمته على النكاح وقال مالك لا يجوز، ثم رجع سبحانه الى الكلام في الأحرار فقال :

﴿ إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله ﴾ أي لا تمتنعوا من تزويج الأحرار بسبب فقر الرجل والمرأة أو أحدهما مالاً فإنهم إن يكونوا فقراء يغنهم الله سبحانه ويتفضل عليهم بذلك، فإن في فضل الله غنية عن المال فإنه غاد ورائح ،قال الزجاج : حث الله على النكاح وأعلم أنه سبب لنفي الفقر ولا يلزم أن يكون هذا حاصلاً لكل فقير إذا تزوج فإن ذلك مقيد بالمشيئة،وقد يوجد في الخارج كثير من الفقراء لا يحصل لهم الغنى إذا تزوجوا، وقيل المعنى أنه يغنيهم بغنى النفس أي القناعة،وقيل المعنى إن يكونوا فقراء إلى النكاح يغنهم الله من فضله بالحلال ليتعففوا عن الزنا،والوجه الأول أولى ويدل عليه قوله سبحانه : ﴿وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء ﴾ فيحمل المطلق هنا على المقيد هناك .

وقيل هو اجتماع الرزقين رزق الزوج والزوجة، وقيل إنَّ الله وعد الغنى بالنكاح وبالتفرق وهو قوله : ﴿ وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته ﴾ وجملة ﴿ والله واسع عليم ﴾ مقررة لما قبلها ومؤكدة والمراد أنه سبحانه ذو سعة لا ينقص من سعة ملكه غنى من يغنيه من عباده،عليم بمصالح خلقه ،يغني من يشاء ويفقر من يشاء ثم

ذكر سبحانه حال العاجزين عن النكاح بعد بيان جواز مناكحتهم إرشادا لهم إلى ما هو الأولى فقال :

﴿ وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً ﴾ يقال استعف إذا طلب أن يكون عفيفاً أي ليطلب العفة عن الزنا والحرام من لا يجد سبب نكاح وهو المال، وقيل النكاح هنا ما ينكح به المرأة من المهر والنفقة كاللحاف اسم لما يلتحف به واللباس إسم لما يلبس قال ابن عباس : ليتزوج من لا يجد فإن الله سيغنيه ،وقيد سبحانه هذا النهي بتلك الغاية وهي :

﴿ حتى يغنيهم الله من فضله ﴾ أي يرزقهم رزقاً يستغنون به ويتمكنون بسببه من النكاح ،وفي هذه الآية ما يدل على تقييد الجملة الأولى وهي ﴿ إن يكونوا فقراء يغنهم الله ﴾ بالمشيئة كما ذكرنا ،فانه لو كان وعداً ـ حتماً لا محالة في حصوله ـ لكان الغنى والزواج متلازمين ، وحينئذ لا يكون للأمر بالاستعفاف مع الفقر كثير فائدة فانه يستغني عند تزوجه لا محالة فيكون في تزوجه مع فقره تحصيل للغنى ،إلا أن يقال إن الأمر بالاستعفاف للعاجز عن تحصيل مبادىء النكاح ،ولا ينافي ذلك وقوع الغنى له من بعد أن ينكح ،فانه قد صدق عليه أنه لم يجد نكاحاً إذا كان غير واجد لأسبابه، التي يتحصل بها وأعظمها المال .

وانظر كيف رتب هذه الأوامر فأمر أولاً بما يعصم من الفتنة ويبعد عن مواقعة المعصية وهو غض البصر،ثم بالنكاح المحصن المغني عن الحرام،ثم بعزة النفس الأمارة بالسوء عن الطموح إلى الشهوة عند العجز عن النكاح إلى أن يقدر عليه،ثم لما رغب سبحانه في تزويج الصالحين من العبيد والاماء أرشد المالكين الى طريقة يصير بها المملوك من جملة الأحرار فقال :

﴿ والذين يبتغون الكتاب مما ملكت إيمانكم ﴾ من العبيد والإماء ، والكتاب مصدر كاتب كالمكاتبة ، يقال كاتب يكاتب كتاباً ، ومكاتبة ، كما يقال : قاتل يقاتل قتالاً ، ومقاتلة ، وقيل : الكتاب ههنا اسم عين للكتاب الذي يكتب فيه

الشيء ، وذلك لانهم كانوا إذا كاتبوا العبد كتبوا عليه وعلى أنفسهم بذلك كتاباً ، فيكون المعنى : الذين يطلبون كتاب المكاتبة ومعناها في الشرع أن يكاتب الرجل عبده على مال يؤديه منجماً ، فإذا أداه فهو حر . عن عبد الله بن صبيح عن أبيه قال : كنت مملوكاً لحويطب بن عبد العزى ، فسألته الكتابة فأبى ، فنزلت هذه الآية،

وظاهر قوله ﴿فكاتبوهم﴾أن العبد إذا طلب المكاتبة.من سيده،وجب عليه أن يكاتبه بالشرط المذكور بعده ، وهو ﴿ إن علمتم فيهم خيراً ﴾ الخير هو القدرة على أداء ما كوتب عليه ، وإن لم يكن له مال،وقيل هو المال فقط كما ذهب إليه مجاهد والحسن ، وعطاء ، والضحاك ،وطاووس ، ومقاتل وروي عن علي ، وابن عباس ، وعنه أيضاً أمانة ووفاء ، وعنه قال : إن علمت مكاتبك يقضيك، وعنه قال : حيلة ولا تلقوا مؤونتهم على المسلمين ، وذهب إلى الأول ابن عمر ، وابن زيد ، واختاره مالك ، والشافعي والفراء والزجاج .

قال الفراء : يقول إن رجوتم عندهم وفاء ، وتأدية للمال وقال الزجاج : لما قال : ﴿ فيهم ﴾ كان الأظهر الاكتساب والوفاء واداء الأمانة وقال النخعي : إن الخير الدين ، والأمانة ، وروي مثل هذا عن الحسن . وقال عبيدة السلماني : إقامة الصلاة قال الطحاوي : وأقول من قال إنه المال لا يصح عندنا ، لأن العبد مال لمولاه ، فكيف يكون له مال ، قال : والمعنى عندنا إن علمتم فيهم الدين والصدق .

قال أبو عمرو بن عبد البر : من لم يقل إن الخير هنا المال أنكر أن يقال إن علمتم فيهم مالاً ، وإنما يقال علمت فيه الخير والصلاح والأمانة ، ولا يقال علمت فيه المال،هذا حاصل ما وقع من الاختلاف بين أهل العلم ، في الخير المذكور في هذه الآية وإذا تقرر لك هذا فاعلم أنه قد ذهب إلى ظاهر ما يقتضيه الأمر المذكور في الآية من الوجوب عكرمة وعطاء ومسروق ، وعمرو

ابن دينار ، والضحاك ، وأهل الظاهر ، فقالوا : يجب على السيد أن يكاتب مملوكه إذا طلب منه ذلك ، وعلم فيه خيراً ، وقال الجمهور من أهل العلم ، لا يجب ذلك ، وتمسكوا بالإجماع على أنه لو سأل العبد سيده أن يبيعه من غيره لم يجب عليه ذلك ، ولم يجبر عليه ، فكذا الكتابة لأنها معاوضة .

ولا يخفاك أنه حجة واهية ، وشبهة داحضة، والحق ما قاله الأولون وبه قال عمر وابن عباس واختاره ابن جرير عن أنس بن مالك قال : سألني سيرين المكاتبة فأبيت عليه ، فأتى عمر بن الخطاب فأقبل علي بالدرة وقال : كاتبه وتلا ﴿ فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً ﴾ فكاتبته قال ابن كثير إن إسناده صحيح .

وعن يحيى بن كثير قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « إن علمتم فيهم حرفة ، ولا ترسلوهم كلاً على الناس » . أخرجه أبو داود في المراسيل ، والبيهقي في سننه . ولا تجوز الكتابة على أقل من نجمين عند الشافعي ، وجوزها أبو حنيفة إلى نجم واحد ، وقيل : إن الأمر مطلق ، فيجوز حالاً ، ومؤجلاً ، ومنجماً ، وغير منجم . ثم أمر سبحانه الموالي بالإحسان إلى المكاتبين فقال :

﴿ وآتوهم من مال الله الذي آتاكم ﴾ ففي هذه الآية الأمر للمالكين بإعانة المكاتبين على مال الكتابة ، إما بأن يعطوهم شيئاً من المال أو بأن يحطوا عنهم مما كوتبوا عليه . وظاهر الآية عدم تقدير ذلك بمقدار ، وقيل : الثلث ، وقيل الربع ، وقيل : العشر . ولعل وجه تخصيص الموالي بهذا الأمر هو كون الكلام فيهم ، وسياق الكلام معهم ، فإنهم هم المأمورون بالكتابة .

وقال الحسن والنخعي وبريدة: إن الخطاب بقوله : ﴿ واتوهم ﴾ لجميع الناس . وقال زيد بن أسلم : إن الخطاب للولاة بأن يعطوا المكاتبين من مال الصدقة حظهم ، كما في قوله سبحانه : ﴿ وفي الرقاب ﴾ ، وللمكاتب

أحكام معروفة إذا وفى ببعض مال الكتابة . قال ابن عباس : أي : ضعوا عنهم من مكاتبتهم ، وعن نافع قال : كان ابن عمر يكره أن يكاتب عبده إذا لم تكن له حرفة ، ويقول : تطعمني من أوساخ الناس وعن ابن عباس في الآية قال : أمر الله المؤمنين أن يعينوا في الرقاب .

وعن علي ابن أبي طالب : أمر الله السيد أن يدع للمكاتب الربع من ثمنه ، وهذا تعليم من الله ليس بفريضة ، ولكن فيه أجراً . وقال صاحب الجمل : إن الأمر للوجوب . وعن بريدة في الآية قال : حث الناس على أن يعطوه ، ثم إنه سبحانه لما أرشد الموالي إلى نكاح الصالحين من المماليك ، نهى المسلمين عما كان يفعله أهل الجاهلية من إكراه إمائهم على الزنا فقال :

﴿ ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء ﴾ المراد بالفتيات هنا الإماء وإن كان الفتى والفتاة قد يطلقان على الأحرار في مواضع أخر ، والفتى : الشاب ، والفتاة : الشابة ، والبِغاء بالكسر والمد ، مصدر بغت المرأة تبغي بغاء ، إذا زنت ، وفجرت ، وهذا مختص بزنا النساء ، فلا يقال : للرجل إذا زنى : إنه بغى . قاله الأزهري . والجمع : البغايا ، والبغيّ القينة ، وإن كانت عفيفة ، لثبوت الفجور لها في الأصل ، قاله الجوهري ، ولا يراد به الشتم لأنه اسم جعل كاللقب . والأمة تباغي ، أي : تزاني ، وشرط الله سبحانه هذا النهي بقوله :

﴿ إن أردن تحصناً ﴾ لأن الإكراه لا يتصور ، ولا يكون إلا عند إرادتهن للتحصن ، فإن من لم ترد التحصن لا يصح أن يقال لها مكرهة على الزنا ، والمراد بالتحصن هنا التعفف والتزوج ، وقيل : إن هذا القيد راجع إلى الأيامى . قال الزجاج ، والحسن بن الفضل : في الكلام تقديم ، وتأخير ، أي : وأنكحوا الأيامى منكم ، والصالحين من عبادكم وإمائكم، إن أردن تحصناً . وقيل : إن هذا الشرط ملغى ، وقيل : إن هذا الشرط باعتبار ما

عليه ، فإنهم كانوا يكرهونهن ، وهن يردن التعفف ، وليس لتخصيص النهي بصورة إرادتهن التعفف عن الزنا ، وقيل : إن هذا الشرط خرج مخرج الغالب لأن الغالب أن الإكراه لا يكون إلا عند إرادة التحصن ، فلا يلزم منه جواز الإكراه عند عدم إرادة التحصن ، وهذا الوجه أقوى هذه الوجوه .

فإن الأمة قد تكون غير مريدة للحلال ، ولا للحرام ، كما فيمن لا رغبة لها في النكاح ، والصغيرة ، فتوصف بأنها مكرهة على الزنا مع عدم إرادتها للتحصن ، فلا يتم ما قيل من أنه لا يتصور الإكراه إلا عند إرادة التحصن إلا أن يقال إن المراد بالتحصن هنا مجرد التعفف ، وإنه لا يصدق على من كانت تريد الزواج أنها مريدة للتحصن ، وهو بعيد . فقد قال الحبر ابن عباس : إن المراد بالتحصن : التعفف ، والتزوج ، وتابعه على ذلك غيره .

أخرج مسلم ، وسعيد بن منصور ، وابن أبي شيبة ، وغيرهم ، عن جابر بن عبدالله قال : كان عبد الله بن أُبيّ يقول لجارية له : اذهبي فابغينا شيئاً ، وكانت كارهة ، فأنزل الله هذه الآية . وذكر مسلم في صحيحه عن جابر أن جارية لعبد الله بن أبي يقال لها . مسيكة ، وأخرى يقال لها : أميمة ، وكان يريدهما على الزنا فشكتا ذلك إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فأنزل الله هذه الآية .

وأخرج البزار ، وغيره ، عن أنس نحو حديث جابر الأول ، وعن علي ابن أبي طالب قال : كان أهل الجاهلية يبغين[1] إماؤهم فنهوا عن ذلك في الإسلام ،وعن ابن عباس قال : كانوا في الجاهلية يكرهون إماءهم على الزنا يأخذون أجورهن فنزلت الآية ،وقد ورد النهي منه صلى الله عليه وآله وسلم عن مهر البغي ، وكسب الحجام ، وحلوان الكاهن ، ثم علل سبحانه هذا النهي بقوله :

---

(١) يبغين إماؤهم هو وجه صحيح في جمع الفعل قبل .

﴿ لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ﴾ وهو ما تكسبه الأمة بفرجها ، وهذا التعليل خارج مخرج الغالب ، والمعنى : أن هذا الغرض هو الذي كان يحملهم على إكراه الإماء على البغاء في الغالب ، لأن إكراه الرجل لأمته على البغاء ، لا لفائدة له أصلاً ، لا يصدر مثله عن العقلاء ، فلا يدل هذا التعليل على أنه يجوز له أن يكرهها ، إذا لم يكن مبتغياً بإكراهها عرض الحياة الدنيا، وقيل إن هذا التعليل للإكراه هو باعتبار أن عادتهم كانت كذلك ، لا أنه مدار للنهي عن الإكراه لهن ، وهذا يلاقي المعنى الأول ، ولا يخالف .

﴿ ومن يكرههن ، فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم ﴾ هذا مقرر لما قبله ، ومؤكد له ، والمعنى أن عقوبة الإكراه راجعة إلى المكرِهين لا إلى المكرهات ، كما تدل عليه قراءة ابن مسعود وغيره ، فإن الله غفور رحيم لهن . قيل وفي هذا التفسير بعد ، لأن المكرهة على الزنا غير آثمة ، وأجيب بأنها وإن كانت مكرهة فربما لا تخلو في تضاعيف الزنا عن شائبة مطاوعة ، إما بحكم الجبلة البشرية ، أو بكون الإكراه قاصراً عن حد الإلجاء المزيل للاختيار بالمرة ، وإما لغاية تهويل أمر الزنا وحث المكرهات على التثبت في التجافي عنه والتشديد في تحذير المكرهين ، ببيان أنهن حيث كن عرضة للعقوبة ، لولا ان تداركتهن المغفرة والرحمة مع قيام العذر في حقهن، فما حال من يكرههن في استحقاق العقاب، وقيل : إن المعنى غفور رحيم لهم ، إما مطلقاً أو بشرط التوبة ، ولما فرغ سبحانه من بيان تلك الأحكام شرع في وصف القرآن بصفات ثلاث فقال :

وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾

﴿ ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات ومثلاً من الذين خلوا من قبلكم ، وموعظة للمتقين ﴾ فالأولى أنه آيات بينات أي واضحات في أنفسهن تصدقها الكتب المتقدمة والعقول المستقيمة ، أو موضحات ومبينات فيدخل فيها الآيات المذكورة في هذه السورة دخولاً أولياً ، والصفة الثانية كونه مثلاً من الذين خلوا من قبل هؤلاء . أي خبراً عجيباً كائناً من جهة أمثال الذين مضوا من القصص العجيبة ، والأمثال المضروبة لهم في الكتب السابقة .

فإن العجب من قصة عائشة هو كالعجب من قصة يوسف ومريم ، وما اتهما به ثم تبين بطلانه وبراءتهما سلام الله عليهما ، والصفة الثالثة كونه موعظة ينتفع بها المتقون خاصة ، فإن الله قد ختم على قلوب غيرهم ، وجعل على أبصارهم غشاوة عن سماع المواعظ ، والاعتبار بقصص الذين خلوا ، وفهم ما تشتمل عليه الآيات البينات ، ثم أردف الله وصف القرآن بكونه سبحانه في غاية الكمال ونهاية الجمال، فقال :

﴿ الله نور السموات والأرض ﴾ مستأنفة لتقرير ما قبلها ، قال البيضاوي : النور في الأصل كيفية تدركها الباصرة أولاً ، وتدرك بواسطتها سائر المبصرات كالكيفية الفائضة من النيرين على الأجرام الكثيفة المحاذية

لها ، وهو بهذا المعنى لا يصح إطلاقه على الله تعالى ، إلا بتقدير مضاف أي ذو نور السموات كقولك زيد عدل .

أو يكون المراد المبالغة في وصفه سبحانه بأنه نور لكمال جلاله وظهور عدله وبسطة أحكامه ، كما يقال فلان نور البلد ، وقمر الزمن، وشمس العصر، قيل ومعنى النور في اللغة الضياء . وهو الذي يبين الأشياء ويُري الأبصار حقيقة ما تراه فيجوز إطلاق النور على الله على طريقة المدح . ولكونه أوجد الأشياء المنورة . وأوجد أنوارها . ويدل عليه قراءة زيد بن علي وأبي جعفر وعبد العزيز المكي : الله نَوَّرَ السموات والأرض على صيغة الفعل الماضي . وفاعله ضمير يرجع الى الله والسموات مفعوله فمعنى الله نورهما أنه سبحانه صيرهما منيرتين باستقامة أحوال أهلهما وكمال تدبيره عز وجل لمن فيهما كما يقال الملك نور البلد، وهكذا قال الحسن ومجاهد والأزهري والضحاك والقرظي وابن عرفة، وابن جرير وغيرهم .

وقال هشام الجواليقي وطائفة من المجسمة : إنه سبحانه نور لا كالأنوار وجسم لا كالأجسام . وقال ابن عباس وأنس في الآية : الله هادي السموات والأرض فهم بنوره إلى الحق يهتدون وبهدايته من حيرة الضلالة ينجون، وقيل نور السماء بالملائكة ونَوَّرَ الأرض بالأنبياء، وقيل مزين السماء والأرض زين السماء بالشمس والقمر والنجوم وزين الأرض بالأنبياء والعلماء والمؤمنين ويقال زين الأرض بالنبات والأشجار، وقيل معناه أن الأنوار كلها منه وقد يذكر هذا اللفظ على طريق المدح كما قال الشاعر.

إذا سار عبد الله من مرو ليلة فقد سار عنها نورها وجمالها

وعن ابن عباس يدبر الأمر فيهما نجومهما وشمسهما وقمرهما، ﴿ مثل نوره ﴾ مبتدأ، وخبره ﴿ كمشكاة ﴾ أي صفة نوره الفائض عنه الظاهر على الأشياء كمشكاة، وهذه الجملة إيضاح لما قبلها وتفسير فلا محل لها، وثم مضاف محذوف أي كمثل مشكاة وهي الكوة في الحائط التي لا منفذ لها كذا حكاه الواحدي عن جميع المفسرين وحكاه القرطبي عن جمهورهم .

قيل هي لغة حبشية ، وقيل عربية ورسمت بالواو كالصلاة والزكاة، وأصل المشكاة الوعاء يجعل فيه الشيء، وقيل هي عمود القنديل الذي يجعل فيه الفتيلة،وقيل هي الانبوبة وسط الفتيل، وقيل هي الحديدة أو الرصاصة التي يوضع فيها الزيت، وقيل هي العمود الذي يوضع على رأسه المصباح ، وقيل ما يعلق فيه القنديل من الحديدة وقال مجاهد : هي القنديل والأول أولى .

ووجه تخصيص المشكاة أنها أجمع للضوء الذي يكون من مصباح أو غيره، وعن ابن عباس قال في الآية : مثل نوره أي هداه في قلب المؤمن كمشكاة يقول موضع الفتيلة،وفي إسناده مقال وعن أبيّ بن كعب قال : هو المؤمن الذي قد جعل الإيمان، والقرآن في صدره فضرب الله مثله فقال : ﴿ الله نور السموات والأرض مثل نوره ﴾ وبدأ بنور نفسه ثم ذكر نور المؤمن فصدر المؤمن المشكاة وعن ابن عباس : مثل نوره الذي أعطى المؤمن كمشكاة، وفي قراءة أبيّ مثل نور المؤمن وفي لفظ نور من آمن به كمشكاة، وعن ابن عباس أيضاً : مثل نور من آمن بالله كمشكاة وهي الكوة وعنه قال : هي خطأ من الكاتب هي أعظم من أن يكون نوره مثل نور المشكاة بل مثل نور المؤمن كالمشكاة وقيل المعنى مثل نور الله عز وجل في قلب المؤمن وهي النور الذي يهتدى به وقيل أراد بالنور القرآن،وقيل أراد محمداً ﷺ،وقيل هو الطاعة سمى الله طاعته نوراً، وأضاف هذه الأنوار إلى نفسه تشريفاً وتفضيلاً،وقيل مثل نوره أي صفة دلائله التي يقذفها في قلب المؤمن والدلائل تسمى نوراً قاله القرطبي .

واختلفوا في هذا التشبيه هل هو مركب ؟ أو غير مركب ؟ وقيل ليس فيه مقابلة جزء من المثال بجزء من الممثل به بل وقع التشبيه فيه لجملة بجملة .

﴿ فيها مصباح ﴾ هو السراج الضخم ، وأصله من الضوء ﴿ المصباح في زجاجة ﴾ واحدة الزجاج يعني القنديل قال الزجاج : النور في الزجاج وضوء النار أبينَ منه في كل شيء وضوءه يزيد في الزجاج ، ووجه ذلك أن الزجاج جسم شفاف . يظهر فيه النور أكمل ظهور ثم وصف الزجاجة فقال :

﴿ الزجاجة كأنها ﴾ والنور فيها ﴿ كوكب دري ﴾ منسوب إلى الدر لكون الصفاء والحسن والإشراق فيه ما يشابه الدر، وقال الضحاك : الكوكب الدري الزهرة، وقرىء درىء بكسر الدال أخذوه من درات النجوم تدرأ إذا اندفعت، قاله أبو عمرو، وقرىء بضم الدال مهموزاً، وأنكره الفراء والزجاج والمبرد . وقال أبو عبيد : إن ضممت الدال وجب أن لا يهمز، لأنه ليس في كلام العرب . والدراري هي المشهورة من الكواكب، كالمشتري والزهرة والمريخ، وما يضاهيها من الثوابت .

وقال أُبيّ: دري أي مضيء من الدرء بمعنى الدفع لدفعه الظلام . ثم وصف المصباح بقوله : ﴿ يوقد ﴾ وقد قرىء بالتاء على أن الضمير راجع إلى الزجاجة دون المصباح . وقرىء بالتحتية وتخفيف القاف . وضم الدال . وقرىء توقد على أنه فعل ماض . من التفعل . والضمير في هاتين راجع إلى المصباح . قال النحاس : وهاتان متقاربتان لأنهما جميعاً للمصباح . وهو أشبه بهذا الوصف لأنه الذي ينير ويضيء وإنما الزجاجة وعاء له وقرىء على أنه فعل مضارع وأصله تتوقد .

﴿ من شجرة ﴾ أي ابتداء إيقاد المصباح منها، وقيل يوقد من زيت شجرة ﴿ مباركة ﴾ أي كثيرة المنافع والبركة، وقيل المنماة . قال أُبَيّ: أصل المبارك الإخلاص لله وحده وعبادته لا شريك له ﴿ زيتونة ﴾ الزيتون من أعظم الثمار نماء . قيل ومن بركتها أن أغصانها تورق من أسفلها إلى أعلاها . وهي إدام ودهان . ودباغ ووقود وليس فيها شيء إلا وفيه منفعة . وهي أصفى الأدهان وأضوءها .

وقيل إنها أول شجرة نبتت بعد الطوفان ونبتت في منازل الأنبياء . ودعا لها سبعون نبياً بالبركة ، منهم إبراهيم ، ومحمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وهي شجرة[1] لا يسقط ورقها . وعن اسيد بن ثابت . أو أبي أسيد الأنصاري

(١) قد ورد في البخاري مرفوعاً عن ابن عمر صريحاً أن الشجرة التي لا يسقط ورقها هي النخلة . ولا يمنع هذا من مشاركة شجرة الزيتون لها في هذه الصفة .

قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « كلوا الزيت ، وادهنوا به . فإنه من شجرة مباركة » أخرجه الترمذي[1] .

﴿ لا شرقية ولا غربية ﴾ صفة لشجرة ودخلت ﴿ لا ﴾ لتفيد النفي ، وقرىء بالرفع أي لا هي شرقية ولا هي غربية ، وقد اختلف المفسرون في معنى هذا الوصف فقال عكرمة ، وقتادة ، وغيرهما : إن الشرقية هي التي تصيبها الشمس إذا شرقت ، ولا تصيبها إذا غربت ، لأن لها ستراً ، والغربية هي التي تصيبها إذا غربت ، ولا تصيبها إذا شرقت ، وهذه الزيتونة هي في صحراء ، أو في منكشف من الأرض بحيث لا يسترها ، ولا يواريها عن الشمس شيء لا في حال شروقها ، ولا في حال غروبها ، وما كانت من الزيتون هكذا فثمرها أجود ، وأنضج ، وزيتها أصفى .

وقيل : إن المعنى أنها شجرة في دوحة ، قد أحاطت بها ، فهي غير منكشفة من جهة الشرق ولا من جهة الغرب حكى هذا ابن جرير عن ابن عباس قال ابن عطية : وهذا لا يصح عنه ، لأن الشجرة التي بهذه الصفة يفسد جناها ، وذلك مشاهد في الوجود . ورجح القول الأول الفراء ، والزجاج . وقال الحسن : ليست هذه الشجرة من شجر الدنيا ، وإنما هو مثل ضربه الله لنوره ، ولو كانت في الدنيا لكانت إما شرقية وإما غربية .

قال الثعلبي : فقد أفصح القرآن بأنها من شجر الدنيا ، لأن قوله زيتونة بدل من قوله : شجرة . قال ابن زيد : إنها من شجر الشام . فإن الشام لا شرقي . ولا غربي . والشام هي الأرض المباركة ، وشجرها أفضل، وقيل : معناه أنها ليست في مقناة لا تصيبها الشمس ، ولا في مضحاة لا يصيبها الظل ، فهي لا تضرها شمس ولا ظل، وقيل : معناها أنها معتدلة ليست في شرق يضرها الحر ، ولا في غرب يضرها البرد . قال أُبي : فمثله كمثل شجرة التفت بها الشجر ، فهي خضراء ناعمة ، لا تصيبها الشمس على أي حال

(١) الترمذي كتاب الأطعمة باب ٤٣ ـ الإمام أحمد ٤٩٧/٣ .

كانت ، لا إذا طلعت ، ولا إذا غربت ، فكذلك هذا المؤمن، قد أجير من أن يظله شيء من الفتن ، ثم وصف الزيتونة بوصف آخر فقال :

﴿ يكاد ﴾ أي : يقرب ﴿ زيتها يضيء ﴾ من صفائه ﴿ ولو لم تمسسه نار ﴾ قرىء بالفوقية لأن النار مؤنثة ، قال أبو عبيد : إنه لا يعرف إلا هذه القراءة ، وقرأ ابن عباس بالتحتية ، لكون تأنيثها غير حقيقي . والمعنى أن هذا الزيت في صفائه وإنارته يكاد يضيء بنفسه من غير أن تمسه النار أصلاً .

﴿ نور ﴾ أي هو نور كائن ﴿ على نور ﴾ صفة لنور مؤكدة له ، وقيل نور الله أي هداه للمؤمنين نور على نور الإيمان . وقال مجاهد : والمراد النار على الزيت ، وقال الكلبي : المصباح نور ، والزجاجة نور ، وقيل نور بالزيت مع نور بالنار . وقال السدي : نور الإيمان ، ونور القرآن . وقيل نور متضاعف من غير تحديد ، لتضاعفه بحد معين ، وتحديد مراتب تضاعف ما مثل به من نور المشكاة بما ذكر ، لكونه أقصى مراتب تضاعفه عادة .

وعن ابن عباس أن اليهود قالوا لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم : كيف يخلص نور الله من السماء ، فضرب الله مثل ذلك لنوره ، فقال : ﴿ الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة ﴾ ، وهي كوة البيت ، ﴿ فيها مصباح ﴾ ، وهو السراج، يكون في الزجاجة وهو مثل ضربه الله لطاعته ، فسمى طاعته نوراً ، ثم سماها أنواعاً شتى ، ﴿ لا شرقية ولا غربية ﴾ . قال : وهي وسط الشجر لا تنالها الشمس إذا طلعت ، ولا إذا غربت ، وذلك أجود الزيت يكاد زيتها يضيء بغير نار ﴿ نور على نور ﴾ يعني بذلك إيمان العبد وعمله، ﴿ يهدي الله لنوره من يشاء ﴾ ، وهو مثل المؤمن .

وعن ابن عمر قال : المشكاة جوف محمد صلى الله عليه وآله وسلم، والزجاجة قلبه، والمصباح الذي في قلبه ، والشجرة إبراهيم ، لا شرقية ولا غربية ، لا يهودية ولا نصرانية ، ثم قرأ ﴿ ما كان ابراهيم يهودياً ، ولا نصرانياً ، ولكن كان حنيفاً مسلماً ﴾ الآية . وعن شمر بن عطية قال : جاء

ابن عباس إلى كعب الأحبار فقال : حدثني عن قول الله يعني هذه الآية قال : مثل نور محمد صلى الله عليه وآله وسلم ككوة ضربها الله مثلاً لفمه ، فيها مصباح والمصباح قلبه ، والزجاجة صدره ، كأنها كوكب دري ، شبه صدر محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالكوكب الدري ، ثم رجع المصباح إلى قلبه ؛ فقال يوقد من شجرة إلى قوله يكاد قال : يكاد محمد صلى الله عليه وآله وسلم يبين للناس ولو لم يتكلم أنه نبي كما يكاد الزيت أن يضيء ولو لم تمسسه نار .

قال ابن العربي : قال ابن عباس : هذا مثل نور الله ، وهداه ، في قلب المؤمن ، كما يكاد الزيت الصافي يضيء قبل أن تمسسه النار ، فإن مسته النار زاد ضوؤه ، كذلك قلب المؤمن ، يكاد يعمل بالهدى قبل أن يأتيه العلم ؛ فإذا جاء العلم زاد هدى على هدى ، ونوراً على نور ، كقلب إبراهيم من قبل أن تجيئه المعرفة ، قال : هذا ربي من قبل أن يخبره أحد بأن له رباً ، فلما أخبره الله أنه ربه زاد هدى ، إذ قال له ربه : أسلم ، قال : أسلمت لرب العالمين .

وأقول : إن تفسير النظم القرآني بهذا ، ونحوه ، مما تقدم عن أُبيّ ابن كعب ، وابن عباس ، وابن عمر رضي الله تعالى عنهم ليس على ما يقتضيه لغة العرب ، ولا ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما يجوز العدول عن المعنى العربي إلى هذه المعاني ، التي هي شبيهة بالألغاز والتعمية ، ولكن هؤلاء الصحابة ومن وافقهم ممن جاء بعدهم استبعدوا تمثيل نور الله سبحانه بنور المصباح في المشكاة ، ولهذا قال ابن عباس : هو أعظم من أن يكون نوره مثل نور المشكاة . كما قدمنا عنه . ولا وجه لهذا الاستبعاد ، فإنا قد قدمنا في أول البحث ما يرفع الإشكال ويوضح ما هو المراد على أحسن وجه ، وأبلغ أسلوب ، وعلى ما تقتضيه لغة العرب ، ويفيده كلام الفصحاء ، فلا وجه للعدول عن الظاهر ، لا من كتاب . ولا من سنة ، ولا من لغة .

وأما ما حكي عن كعب الأحبار في هذا كما قدمنا فإن كان هو سبب

عدول أولئك الصحابة الأجلّاء عن الظاهر في تفسير الآية ، فليس مثل كعب رحمه الله ، ممن يقتدي به في مثل ذلك ، وقد نبهناك ـ فيما سبق ـ أن تفسير الصحابي إذا كان مستنده الرواية عن أهل الكتاب ـ كما يقع ذلك كثيراً ـ فلا تقوم به الحجة ولا يسوغ لأجله العدول عن التفسير العربي ، نعم ، إن صحت قراءة أُبيّ بن كعب ، كانت هي المستندة لهذه التفاسير المخالفة للظاهر ، وتكون كالزيادة المبينة للمراد ، وإن لم تصح ، فالوقوف على ما تقتضيه قراءة الجمهور من السبعة ، وغيرهم ، ممن قبلهم ، وممن بعدهم هو المتعين .

﴿ يهدي الله لنوره ﴾ هداية خاصة ، موصلة إلى المطلوب ، وليس المراد بالهداية هنا مجرد الدلالة قال ابن عباس : لنوره لدين الإسلام ، وهو نور البصيرة ﴿ من يشاء ﴾ من عباده لأن الأسباب دون مشيئته لاغية إذ بها تمامها ﴿ ويضرب الله الأمثال للناس ﴾ أي يبين الأشياء بأشباهها ونظائرها ، تقريباً لها إلى الأفهام ، وتسهيلاً لإدراكها ، لأن إبراز المعقول في هيئة المحسوس وتصويره بصورته يزيده وضوحاً وبياناً .

﴿ والله بكل شيء عليم ﴾ لا يغيب عنه شيء من الأشياء معقولاً ، كان أو محسوساً ، ظاهراً كان ، أو باطناً . ومنه ضرب الأمثال .

﴿ في بيوت ﴾ أي : ذلك المصباح يوقد في بيوت ، وقيل : متعلق بما قبله ، أي كمشكاة في بعض بيوت الله ، وهي المساجد ، كأنه قيل : مثل نوره كما يرى في المسجد نور المشكاة من صفتها كيت وكيت ، وقيل : صفة لزجاجة . وقال ابن الأنباري : سمعت أبا العباس يقول : هو حال للمصباح ، والزجاجة ، والكوكب ، كأنه قيل : وهي في بيوت ، وعلى هذه الأقوال لا يوقف على ﴿ عليم ﴾ وقيل : متعلق بما بعده ، وهو يسبح الآتي ، أي : يسبح رجال في بيوت ، وعلى هذا يكون قولها فيها ؛ تكريراً للتوكيد ، والتذكير ، والإيذان بأن التقديم للاهتمام ، لا لقصر التسبيح على الوقوع في البيوت فقط .

وقيل : متعلق بمحذوف ، أي : سبّحوه في بيوت ، وعلى هذين القولين يوقف على ﴿ عليم ﴾ فهذه ستة أوجه ذكرها السمين ، وغيره . وقيل : إنه منفصل عما قبله ، كأنه قال تعالى : الله في بيوت أذن الله أن ترفع . قال الحكيم الترمذي : وبذلك جاءت الأخبار أنه من جلس في المسجد فإنما يجالس ربه ، وقد قيل على تقدير تعلقه بمشكاة أو بمصباح ، أو بيوقد ، ما الوجه في توحيد المصباح ، والمشكاة ، وجمع البيوت ، ولا تكون المشكاة الواحدة ، ولا المصباح الواحد إلا في بيت واحد . وأجيب بأن هذا من الخطاب ، الذي يفتح أوله بالتوحيد . ويختم بالجمع ، كقوله سبحانه : ﴿ يا أيها النبي إذا طلقتم النساء ﴾ ونحوه .

وقيل معنى في بيوت في كل واحد من البيوت فكأنه قال : في كل بيت ، أو في كل واحد من البيوت ، واختلف الناس في البيوت على أقوال الأول أنها جميع المساجد ، وهو قول مجاهد ، والحسن وغيرهما . قال ابن عباس : بيوت الله في الأرض تضيء لأهل السماء كما تضيء النجوم لأهل الأرض . الثاني أن المراد بها بيوت بيت المقدس ، روي ذلك عن الحسن، الثالث أنها بيوت النبي ﷺ روي هذا عن مجاهد، الرابع : هي البيوت كلها قاله عكرمة . الخامس . أنها المساجد الأربعة الكعبة ، ومسجد قبا ، ومسجد المدينة ، ومسجد بيت المقدس ، قاله ابن زيد والقول الأول أظهر لقوله : ﴿ يسبح له فيها بالغدو والآصال ﴾ والباء من بيوت تضم وتكسر كل ذلك ثابت في اللغة، ومعنى :

﴿ أذن الله ﴾ أمر وقضى ومعنى ﴿ أن ترفع ﴾ تبنى قاله مجاهد وعكرمة وغيرهما ومنه قوله سبحانه ، ﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت ﴾ . وقال الحسن البصري : وغيره معنى ترفع تعظم فلا يذكر فيها الخنا من القول ، ويرفع شأنها وتطهر من الأنجاس والأقذار ، ورجحه الزجاج ، وقيل المراد بالرفع هنا مجموع الأمرين .

﴿ و ﴾ معنى ﴿ يذكر فيها اسمه ﴾ كل ذكر لله عز وجل ، وقيل هو التوحيد، وقيل المراد تلاوة القرآن، والأول أولى ، وفي القرطبي قد كره بعض

أصحابنا تعليم الصبيان في المساجد ، لأنهم لا يتحرزون عن الأقذار والأوساخ فيؤدي ذلك إلى عدم تنظيف المساجد . وقد ورد في تعظيم المساجد وتنزيهها عن القذر واللغو وتنظيفها وتطييبها أحاديث ليس هذا موضوع ذكرها .

﴿ يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال ﴾ قرىء يسبح مبنياً للفاعل وللمفعول،فعلى الثانية يكون رجال مرفوعاً بفعل مقدر كأنه قيل من يسبحه ؟ فقيل يسبحه رجال وعلى الأولى يكون رجال فاعل يسبح وقرىء تسبح بالفوقية وكسر الموحدة وعلى هذا يكون الفاعل أيضاً رجال ، وإنما أنث الفعل لكون جمع التكسير يعامل معاملة المؤنث في بعض الأحوال .

واختلف في هذا التسبيح ما هو؟ فالأكثرون حملوه على الصلاة المفروضة قالوا : الغدوة صلاة الصبح ، والآصال صلاة الظهر والعصر والعشاءين لأن اسم الآصال يشملها ، والمعنى يصلي له فيها بالغداة صلاة الصبح . وبالآصال صلاة الظهر والعصر ، والعشائين ، وإنما وحد الغدو ، لأن صلاته واحدة ، وفي الآصال صلوات ، والآصال جمع أصل جمع أصيل ، وهو العشي ، وقيل صلاة الصبح والعصر .

وقيل المراد صلاة الضحى ، قاله ابن عباس وعنه في الآية قال : هي المساجد تكرم ، وينهى عن اللغو فيها ، ويذكر فيها اسم الله ، يتلى فيها كتابه ، يسبح له فيها بالغدو والآصال ، صلاة الغداة ، وصلاة العصر ، وهما أول ما فرض الله من الصلاة فأحب أن يذكرهما ويذكر بهما عباده ، وعنه قال : إن صلاة الضحى لفي القرآن ، وما يغوص عليها إلا غواص في هذه الآية،وقيل المراد بالتسبيح هنا معناه الحقيقي ، وهو تنزيه الله سبحانه عما لا يليق به في ذاته وصفاته وأفعاله ، ويؤيد هذا ذكر الصلاة والزكاة ، بعده وهدا أرجح مما قبله ، لكونه المعنى الحقيقي مع وجود دليل ، يدل على خلاف ما ذهب إليه الأولون وهو ما ذكرناه ، قيل: خص الرجال بالذكر في هذه المساجد لأن النساء ليس عليهن حضور المساجد لجمعة ولا لجماعة .

﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ۗ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾﴾

﴿ لا تلهيهم تجارة ولا بيع ﴾ هذه صفة لرجال ، أي لا يشغلهم التجارة في السفر، والبيع في الحضر ، وخص التجارة بالذكر لأنها أعظم ما يشتغل به الإنسان ، وقال الفراء ، التجارة لأهل الجلب ، والبيع ما باعه الرجل على يديه ،وخص قوم التجارة ههنا بالشراء لذكر البيع بعدها ، وبمثل قول الفراء ، قال الواقدي فقال التجار هم الجلاب المسافرون ، والباعة هم المقيمون .

ومعنى ﴿ عن ذكر الله ﴾ هو ما تقدم في قوله : ﴿ يذكر فيها اسمه ﴾ ، أي باللسان والقلب ، وقيل المراد الأذان ، وقيل ذكره بأسمائه الحسنى ، أي يوحدونه ويمجدونه ، وقيل المراد الصلاة ، ويرده ذكر الصلاة بعد الذكر هنا .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه ، عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ في الآية قال : « هم الذين يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله» وأخرج ابن مردويه والديلمي ، عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « الذين يبتغون من فضل الله » .

وعن ابن عباس قال : كانوا رجالاً يبتغون من فضل الله يشترون ويبيعون فإذا سمعوا النداء بالصلاة ألقوا ما في أيديهم ، وقاموا إلى المسجد فصلوا ، وعنه في الآية قال : ضرب الله هذا المثل قوله : ﴿ كمشكاة ﴾ لأولئك القوم الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ، وكانوا أتجر الناس وأبيعهم ولكن لم تكن تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وعنه قال : عن ذكر الله عن شهود الصلاة ، وعن ابن عمر أنه كان في السوق ، فأقيمت الصلاة

فأغلقوا حوانيتهم ثم دخلوا المسجد فقال ابن عمر : فيهم نزلت ﴿ رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ﴾ .

وعن ابن مسعود انه رأى ناساً من أهل السوق سمعوا الأذان فتركوا أمتعتهم فقال : هؤلاء الذين قال الله فيهم ﴿ لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ﴾ وأخرج البيهقي ، وابن أبي حاتم وغيرهما ، عن أسماء بنت يزيد قالت : قال رسول الله ﷺ : « يجمع الله يوم القيامة الناس في صعيد واحد يسمعهم الداعي وينفذهم البصر ، فيقوم مناد فينادي أين الذين كانوا يحمدون الله في السرّاء والضرّاء فيقومون ـ وهم قليل ـ فيدخلون الجنة بغير حساب ثم يعود فينادي أين الذين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع ؟ فيقومون ـ وهم قليل ـ فيدخلون الجنة بغير حساب ، ثم يعود فينادي ليقم الذين كانوا لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله فيقومون ـ وهم قليل ـ فيدخلون الجنة بغير حساب ثم يقوم سائر الناس فيحاسبون »[1] وأخرجه الحاكم وصححه وابن مردويه عن عقبة بن عامر مرفوعاً نحوه .

﴿ وإقام الصلاة ﴾ أي إقامتها لمواقيتها من غير تأخير ، وأدائها في وقتها جماعة لأن مؤخر الصلاة عن وقتها لا يكون من مقيمي الصلاة ، وحذفت التاء لأن الإضافة تقوم مقامها في ثلاث كلمات جمعها الشاعر في قوله :

ثـلاثـة تحـذف تـاآتهـا مضافة عنـد جميع النحـاة
وهي إذا شئت أبو عذرها وليت شعري وإقام الصلاة

وقيل الرابع عد الأمر ، أي عدة الأمر ، وقيل في توجيه حذفها غير ذلك وقد احتاج من حمل ذكر الله على الصلاة المفروضة أن يحمل إقام الصلاة على تأديتها في أوقاتها فراراً من التكرار ولا ملجىء إلى ذلك ؛ بل يحمل الذكر على معناه الحقيقي كما قدمنا .

﴿ وإيتاء الزكاة ﴾ المفروضة ؛ وقيل المراد طاعة الله والإخلاص إذ ليس لكل مؤمن مال ﴿ يخافون يوماً ﴾ أي يوم القيامة والنصب على أنه مفعول

(١) الحاكم ، كتاب التفسير ٢/٣٩٩ .

للفعل لا ظرف له يعني أن هؤلاء الرجال ـ وإن بالغوا في ذكر الله تعالى والطاعات ـ فإنهم مع ذلك وجلون خائفون لعلمهم بأنهم ما عبدوا الله حق عبادته،ثم وصف هذا اليوم بقوله :

﴿ تتقلب فيه القلوب ﴾ أي تضطرب وتتحول من الهول والفزع . وقيل المراد انتزاعها من أماكنها إلى الحناجر فلا ترجع إلى أماكنها ولا تخرج ﴿ و ﴾ تشخص ﴿ الأبصار ﴾ من هول ذلك اليوم، وقيل المراد بتقلبها هو أن تصير عمياً بعد أن كانت مبصرة، وقيل المراد بتقلب القلوب أنها تكون متقلبة بين الطمع في النجاة والخوف من الهلاك ؛ وأما تقلب الأبصار فهو نظرها من أي ناحية يؤخذون والى اي ناحية يصيرون، وقيل المراد تحول قلوبهم وأبصارهم عما كانت عليه من الشك إلى اليقين ومثله قوله : ﴿ فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد ﴾ فما كان يراه في الدنيا غياً يراه في الآخرة رشداً ؛ وقيل المراد التقلب على جمر جهنم وقيل غير ذلك .

﴿ ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ﴾ اللام لام العاقبة والصيرورة لا لام العلة الباعثة أي يفعلون ما يفعلون من التسبيح ، والذكر وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ليجزيهم الله أحسن جزاء أعمالهم حسبما وعدهم ، من تضعيف ذلك إلى عشرة أمثاله وإلى سبعمائة ضعف، وقيل: المراد بما في هذه الآية ما يتفضل به سبحانه عليهم ، زيادة على ما يستحقونه ، والأول أولى لقوله :

﴿ ويزيدهم من فضله ﴾ فإن المراد به التفضل عليهم بما فوق الجزاء الموعود به ، أي يتفضل بأشياء لم توعد لهم بخصوصياتها أو بمقاديرها ، ولم يخطر ببالهم كيفياتها ، ولا كمياتها ، بل إنما وعدت بطريق الإجمال في مثل قوله تعالى : ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ ، وقوله عليه السلام حكاية عنه عز وجل : « أعددت لعبادي الصالحين ، ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر »[1] غير ذلك من المواعيد الكريمة التي من جملتها قوله تعالى :

(١) مسلم ٢٨٢٤ ـ البخاري ١٥٣٤ .

﴿ والله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ فإنه تذييل مقرر للزيادة، ووعد كريم بأنه تعالى يعطيهم غير أجور أعمالهم ، من الخيرات بما لا يفي به الحساب والمعنى من غير أن يحاسبه على ما أعطاه ، أو إن إعطاءه سبحانه لا نهاية له . قال الكرخي : وضع الموصول موضع ضمير ﴿ هم ﴾ للتنبيه بما في حيز الصلة على أن مناط الرزق المذكور محض مشيئته تعالى لا أعمالهم المحكية وذلك تنبيه على كمال قدرته ، وكمال جوده ، وسعة إحسانه ، ولما ذكر سبحانه حال المؤمنين ، وما يؤول إليه أمرهم ذكر مثلاً للكافرين فقال :

﴿ والذين كفروا أعمالهم ﴾ التي هي من أعمال الخير ، كالصدقة ، والعتق والوقف ، والصلاة ، وفك العاني ، وعمارة البيت ، وسقاية الحاج ﴿ كسراب ﴾ هو ما يرى في المفاوز من لمعان الشمس عند اشتداد حر النهار ، على صورة الماء في ظن ما يراه ، وسمي سراباً لأنه يسرب ، أي : يجري كالماء ؛ يقال : سرب الفحل ، أي مضى ، وسار في الأرض ويسمى الآل وقيل الآل هو الذي يكون ضحى ، كالماء إلا أنه يرتفع عن الأرض . حتى يصير كأنه بين السماء والأرض ﴿ بقيعة ﴾ أي فيها فالباء بمعنى في ، وهو جمع قاع وهو الموضع المنخفض الذي يستقر فيه الماء مثل جيرة وجار قاله الهروي .

وقال أبو عبيدة : قيعة وقاع واحد، حكاه النحاس قال الجوهري : القاع المستوى من الأرض والجمع أقوع وأقواع وقيعان صارت الواو ياء لكسرة ما قبلها،والقيعة مثل القاع قال : وبعضهم يقول هو جمع والقاع ما انبسط من الأرض واتسع ولم يكن فيه نبت وفيه يكون السراب، وقرىء بقيعاه بهاء مدورة كما يقال رجل عزهاه،وقيعات بتاء مبسوطة وقيل الألف متولدة من إشباع العين على الأول وجمع قيعة على الثاني .

﴿ يحسبه الظمآن ماء ﴾ الظمآن العطشان ، وقرىء الظمآن بغير همز ، والمشهور عنهم الهمز ، وتخصيص الظمآن بالحسبان مع كون الريان يراه كذلك . لتحقيق التشبيه ، المبني على الطمع ، ولأنه أحوج إليه من غيره ، فالتشبيه به أتم .

﴿ حتى إذا جاءه ﴾ أي : إذا جاء العطشان ذلك الذي حسبه ماء ، أو جاء موضعه ﴿ لم يجده شيئاً ﴾ مما قدره ، وحسبه ، وظنه ، ولا من غيره . والمعنى أن الكفار يعولون على أعمالهم ، التي يظنونها من الخير ، ويطمعون في ثوابها ، فإذا قدموا على الله سبحانه ، لم يجدوا منها شيئاً ، لأن الكفر أحبطها ، ومحا أثرها .

عن ابن عباس قال : هو مثل ضربه الله ، كرجل عطش ، فاشتد عطشه ، فرأى سراباً ، فحسبه ماء ، فطلبه ، فظن أنه قدر عليه ، حتى أتى ، فلما أتاه ، لم يجده شيئاً ، وقبض عند ذلك ، يقول الكافر كذلك ، إذا أتاه الموت ، لم يجد عمله ، يغني عنه شيئاً ، ولا ينفعه ، إلا كما نفع السراب العطشان .

﴿ووجد الله عنده﴾ بالمرصاد، وقيل وجد وعد الله بالجزاء، على عمله . وقيل وجد أمر الله عند حشره،وقيل حكمه ، وقضاءه ، عند المجيء . وقيل قدم على الله . وقيل عند العمل ، والمعنى متقارب ﴿ فوفاه حسابه ﴾ أي أعطاه ، وافياً ، كاملاً ، حساب عمله المذكور ، وجزاءه . فإن اعتقاده لنفعه بغير إيمان ، وعمله بموجبه ، كفر على كفر ، موجب للعقاب قطعاً . وإفراد الضميرين الراجعين إلى الذين كفروا ، إمّا لإرادة الجنس ، كالظمآن الواقع في التمثيل ، وإما للحمل على كل واحد منهم ، وكذا إفراد ما يرجع إلى أعمالهم .

﴿ والله سريع الحساب ﴾ لعباده من آمن منهم ، ومن كفر . عن السدي ، عن أبيه ، عن أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : إن الكفار يبعثون يوم القيامة ورداً عطاشاً، فيقولون أين الماء ؟ فيمثل لهم السراب ، فيحسبونه ماء ، فينطلقون إليه فيجدون الله عنده ، فيوفيهم حسابهم ، والله سريع الحساب . أخرجه ابن أبي حاتم ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر . وفي إسناده السدي عن أبيه ، وفيه مقال . معروف .

أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾

﴿ أو كظلمات ﴾ معطوف على ﴿ كسراب ﴾ ضرب الله سبحانه مثلاً آخر ، لأعمال الكفار أي : كما أنها تشبه السراب الموصوف بتلك الصفات ، فهي أيضاً تشبه الظلمات . قال الزجاج : أعلم الله سبحانه أن أعمال الكفار إن مثلت بما يوجد ، فمثلها كمثل السراب ، وإن مثلت بما يرى فهي كهذه الظلمات التي وصفت . وقال أيضاً : إن شئت مثلت بالسراب ، وأن شئت مثلت بهذه الظلمات ، فـ ﴿ أو ﴾ للإباحة والتخيير ، حسبما تقدم من القول في ﴿ أو كصيّب ﴾ .

قال الجرجاني : الآية الأولى في ذكر أعمال الكفار ، والثانية في ذكر كفرهم ، ونسق الكفر على أعمالهم ، لأنه أيضاً من أعمالهم . قال القشيري : فعند الزجاج التمثيل وقع لأعمال الكفار ، وعند الجرجاني لكفر الكفار ، وقيل ﴿ أو ﴾ للتقسيم باعتبار وقتين ، فإنها كالسراب في الدنيا ، وكالظلمات في الآخرة . وقيل : أو للتنويع ، يعني أن أعمالهم إن كانت حسنة فهي كسراب ، وإن كانت سيئة فهي كظلمات .

﴿ في بحر لجيّ ﴾ معظم الماء ، والجمع : لجج ، وهو الذي لا يدرك

عمقه ، ثم وصف سبحانه هذا البحر بصفة أخرى فقال : ﴿ يغشاه ﴾ أي : يعلو هذا البحر ﴿ موج ﴾ فيستره ، ويغطيه بالكلية ، والموج : ما ارتفع من الماء ، ثم وصف هذا الموج بقوله : ﴿ من فوقه ﴾ أي من فوق هذا الموج ﴿ موج ﴾ ثان متراكم فيه إشارة إلى كثرة الأمواج ، وتراكم بعضها فوق بعض ، ثم وصف الموج الثاني فقال :

﴿ من فوقه سحاب ﴾ فيجتمع حينئذ جوف البحر وأمواجه والسحاب المرتفعة فوقه ، وقيل : إن المعنى، يغشاه موج ، من بعده موج ، فيكون الموج يتبع بعضه بعضاً ، حتى كأن بعضه فوق بعض ، والبحر أخوف ما يكون إذا توالت أمواجه ، فإذا انضم إلى ذلك وجود السحاب من فوقه ، زاد الخوف شدة ، لأنها تستر النجوم التي يهتدي بها من في البحر ، ثم إذا أمطرت تلك السحاب . وهبت الريح المعتادة ، في الغالب عند نزول المطر ، تكاثفت الهموم ، وترادفت الغموم ، وبلغ الأمر إلى الغاية التي ليس وراءها غاية ، ولهذا قال سبحانه : ﴿ ظلمات بعضها فوق بعض ﴾ أي هي ظلمات أو هذه ظلمات ، متكاثفة ، مترادفة . ففي هذه الجملة بيان لشدة الأمر ، وتعاظمه ، وبلوغه النهاية القصوى . ووجه الشبه أن الله تعالى ذكر ثلاثة أنواع من الظلمات ؛ ظلمة البحر ، وظلمة الأمواج ، وظلمة السحاب . وكذلك الكافر له ثلاث ظلمات ؛ ظلمة الاعتقاد ، وظلمة القول ؛ وظلمة العمل . وقال أبي ابن كعب : الكافر يتقلب في خمس من الظلمات ؛ كلامه ظلمة ، وعمله ظلمة ، ومدخله ظلمة ، ومخرجه ظلمة ، ومصيره إلى ظلمات يوم القيامة في النار .

قرىء سحابُ ظلماتٍ بالإضافة ووجهها أن السحاب ترتفع وقت هذه الظلمات ، فأضيف إليها لهذه الملابسة ،وقرىء بالقطع والتنوين ، ومن غرائب التفاسير أنه سبحانه أراد بالظلمات أعمال الكافر ، وبالبحر اللجي قلبه ، وبالموج فوق الموج ما يغشي قلبه ، من الجهل ، والشك ، والحيرة ، وبالسحاب الرين ، والختم ، والطبع ، على قلبه . وهذا تفسير هو عن لغة

العرب بمكان بعيد وعن ابن عباس قال : يعني بالظلمات الأعمال . وبالبحر اللجى قلب الإنسان ؛ يغشاه موج ؛ يعني بذلك الغشاوة التي على القلب ؛ والسمع ، والبصر ، ثم بالغ سبحانه في هذه الظلمات المذكورة بقوله :

﴿ إذا أخرج ﴾ أي الناظر ، أو الحاضر في هذه الظلمات ، أو من ابتلى بها ﴿ يده ﴾ مع أنها أقرب شيء إليه ﴿ لم يكد يراها ﴾ أي لم يقرب من رؤيتها ، قال الزجاج ، وأبو عبيدة : المعنى لم يرها ولم يكد . وقال الفراء : إن كاد زائدة ، والمعنى إذا أخرج يده لم يرها ، كما تقول : ما كدت أعرفه . وقال المبرد : يعني لم يرها إلا من بعد الجهد لشدة الظلمة . قال النحاس ؛ أصح الأقوال في هذا أن المعنى لم يقارب رؤيتها ، فإذن لم يرها رؤية بعيدة ولا قريبة .

﴿ ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ﴾ مقررة لما قبلها من كون اعمال الكفرة على تلك الصفة . قال الزجاج : ذلك في الدنيا ، والمعنى من لم يهده الله لم يهتد . وقيل : إن المعنى من لم يجعل له نوراً ، يمشي به يوم القيامة ، فما له من نور ، يهتدي به إلى الجنة . وقيل : من لم يجعل له ديناً ، وإيماناً فلا دين له . وقيل : المعنى من لم يقدر له الهداية ، ولم يوفقه لأسبابها فما له من نور ، خلاف الموفق ، الذي له نور على نور . والآية عامة في حق جميع الكفار،وقيل خاصة فيمن نزلت فيه ، وهو عتبة بن ربيعة ، كان يلتمس الدين في الجاهلية ، ويلبس المسوح ، فلما جاء الإسلام كفر ، وعاند والأول أولى .

﴿ ألم تر ان الله يسبح له من في السموات والأرض ؟ ﴾ قد تقدم تفسير مثل هذه الآية في تفسير سورة سبحان ، والخطاب لكل من له أهلية النظر ، أو للرسول ﷺ ، وقد علمه من جهة الاستدلال ، ومعنى ﴿ ألم تر ﴾ ألم تعلم ؟ والهمزة للتقرير ، أي قد علمت علماً يقيناً ، شبيهاً بالمشاهدة ، والوثاقة بالوحي ، وظاهره أنه استعارة ، ومقتضى كلام النحويين أن رأى العلمية

حقيقة ، قاله الشهاب والتسبيح التنزيه في ذاته ، وأفعاله ، وصفاته ، عن كل ما لا يليق به .

ومعنى ﴿ من في السموات والأرض ﴾ من هو مستقر فيهما من العقلاء وغيرهم ، وتسبيح غير العقلاء ما يسمع من أصواتها ، ويشاهد من أثر الصنعة البديعة فيها، وقيل إن التسبيح هنا هو الصلاة من العقلاء ، والتنزيه من غيرهم ، وقد قيل إن هذه الآية تشكل الحيوانات ، والجمادات ، وأن آثار الصنعة البديعة الإلهية في الجمادات ناطقة ، ومخبرة باتصافه سبحانه ، بصفات الجلال ، والكمال وتنزهه عن سمات النقص والزوال . وفي ذلك تقريع للكفار وتوبيخ لهم حيث جعلوا الجمادات التي من شأنها التسبيح لله سبحانه شركاء له يعبدونها ، كعبادته عز وجل ، وبالجملة فإنه ينبغي حمل التسبيح على ما يليق ، بكل نوع من أنواع المخلوقات ، على طريقة عموم المجاز .

﴿ والطير صافّات﴾ أي باسطات أجنحتها في الهواء ، وخص الطير بالذكر مع دخولها تحت من في السموات والأرض ، لعدم استمرار استقرارها في الأرض ، وكثرة لبثها في الهواء ، وهو ليس من السماء ، ولا من الأرض ، ولما فيها من الصنعة البديعة ، التي يقدر بها تارة على الطيران ، وتارة على المشي ، بخلاف غيرها من الحيوانات . وذكر حالة من حالات الطير ، وهي كون صدور التسبيح منها ، حال كونها صافات لأجنحتها ، لأن هذه الحالة هي أغرب أحوالها ، فإن استقرارها في الهواء مسبحة ، من دون تحريك لأجنحتها ، ولا استقرار على الأرض من أعظم صنع الله الذي أتقن كل شيء ، ثم زاد في البيان فقال :

﴿ كل قد علم صلاته وتسبيحه ﴾ أي كل واحد من هذه المسبحات لله ، قد علم صلاة المصلي ، وتسبيح المسبح . وقيل إن المعنى أن كل مصل ، ومسبح ؛ قد علم صلاة نفسه ، وتسبيح نفسه . قال السمين : وهذا أولى لتوافق الضمائر . قيل والصلاة هنا بمعنى التسبيح ، وكرر للتأكيد ، والصلاة

قد تسمى تسبيحاً . وقيل المراد بها هنا الدعاء ، أي علم دعاءه .

وفائدة الإخبار بأن كل واحد قد علم ذلك أن صدور هذا التسبيح هو عن علم قد علّمها الله ذلك ؛ وألهمها إليه لا أن صدوره منها على طريقة الاتفاق بلا روية ، وفي ذلك زيادة دلالة على بديع صنع الله سبحانه ؛ وعظم شأنه من كونه جعلها مسبحة له ، عالمة بما يصدر منها ، غير جاهلة له وقال السدي : الصلاة للإنسان ، والتسبيح لما سوى ذلك من خلقه،وقيل إن ضرب أجنحة الطير صلاته ، وصوته تسبيحه ؛ أو المعنى كل واحد من هذه المسبحة ؛ قد علم الله صلاته له ؛ وتسبيحه إياه ؛ والأول أرجح ؛ لاتفاق القراء على رفع ﴿ كل ﴾ ولو كان الضمير لله لكان نصب كل أولى،وقيل المعنى علم كل صلاة الله وتسبيحه ؛ أي اللذين أمر بهما وبأن يفعلا ، كإضافة الخلق إلى الخالق، والأول أولى . وقرىء عُلِم على البناء للمفعول .

﴿ والله عليم بما يفعلون ﴾ مقررة لما قبلها ، أي لا يخفى عليه طاعتهم ، ولا تسبيحهم ، ولا يعزب عن علمه شيء . ثم بين سبحانه أن المبدأ منه ، والمعاد إليه فقال ﴿ ولله ﴾ لا لغيره ﴿ ملك السموات والأرض ﴾ أي خزائن المطر ، والرزق ، والنبات ، لأنه خالقهما ، ولا يملكهما أحد سواه ومن ملك شيئاً فبتمليكه تعالى إياه .

﴿ وإلى الله ﴾ لا إلى غيره ﴿ المصير ﴾ أي الرجوع بعد الموت ، وقد تقدم تفسير مثل هذه الآية في غير موضع ، ثم ذكر سبحانه دليلاً آخر ، من الآثار العلوية ، فقال :

﴿ ألم تر أن الله يزجي سحاباً ؟ ﴾ الإزجاء السوق قليلاً ، قليلاً ، والمعنى أنه يسوق السحاب سوقاً رفيقاً إلى حيث يشاء ، يقال زجى الشيء تزجية ، دفعه برفق ، وتزجى بكذا اكتفى به ، وأزجى الإبل ساقها . والمزجى الشيء القليل ، وبضاعة مزجاة ، قليلة ، والريح تزجي السحاب . والبقرة تزجي ولدها ، أي تسوقه .

﴿ ثم يؤلف بينه ﴾ أي بين أجزائه فيضم بعضه إلى بعض ويجمعه بعد تفرقه ليقوى ، ويتصل ، ويكثف ، والأصل في التأليف الهمز . وقرىء يؤلف بالواو تخفيفاً والسحاب واحد في اللفظ ولكن معناه جمع ولهذا دخلت ﴿بين﴾ عليه لأن أجزاءه في حكم المفردات له . قال الفراء : إن الضمير في ﴿ بينه ﴾ راجع إلى جملة السحاب كما تقول الشجر قد جلست بينه لأنه جمع وأفرد الضمير باعتبار اللفظ .

﴿ ثم يجعله ركاماً ﴾ أي متراكماً يركب بعضه بعضاً والركم جمع الشيء ، يقال ركم الشيء يركمه ركماً ، أي جمعه ، وألقى بعضه على بعض ، وبابه نصر ، وارتكم الشيء وتراكم إذا اجتمع والركمة الطين المجموع والركام الرمل المتراكم والسحاب ونحوه ﴿ فترى الودق ﴾ هو المطر عند جمهور المفسرين يقال ودقت السحاب فهي وادقة ، وودق المطر يدق أي قطر يقطر . وقيل إن الودق المطر ، ضعيفاً كان ، أو شديداً ، والرؤية هنا بصرية .

﴿ يخرج من خلاله ﴾ أي من فتوقه وفروجه ، التي هي مخارج القطر منه ، قال كعب[1] : إن السحاب غربال المطر ، لولا السحاب حين ينزل المطر من السماء ، لأفسد ما يقع عليه من الأرض . وقرىء : من خلله على الإفراد ، وقد وقع الخلاف في ﴿ خلال ﴾ هل هو مفرد ؟ كحجاب ، أو جمع كجبال ؟ .

﴿ وينزل من السماء ﴾ أي . من عال لأن السماء قد يطلق على جهة العلو ﴿ من جبال ﴾ أي من قطع عظام تشبه الجبال ﴿ فيها من برد ﴾ من للتبعيض وهو مفعول ينزل قيل : التقدير من برد برداً . وقيل : ينزل من السماء قدر جبال ، أو مثل جبال ، من برد إلى الأرض قال الأخفش : إن ﴿ من ﴾ زائدة في الموضعين ، أي ينزل من السماء برداً ، يكون كالجبال .

والحاصل أن من في ﴿ من السماء ﴾ لابتداء الغاية باتفاق المفسرين ،

---

(١) لقد نبه المؤلف في أكثر من موضع على رفض التلقي عن كعب الأحبار، وهو الحق الذي تجب الصيرورة إليه لأن السحاب هو عين المطر لقوله تعالى: «وهو الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً فيرسله إلى بلد ميت» ولا عبرة بما ذهب إليه المصنف في تفسير البقرة من الرد على من قال بأن المطر أبخرة منعقدة من الماء. لأنه مدفوع بالقرآن الكريم وبالحقائق العلمية وهي معجزات التنزيل، المطيعي.

بلا خلاف ، وفي من جبال ثلاثة أوجه . الأول : أنها لابتداء الغاية ، والثاني : أنها للتبعيض . كأنه قال : وينزل بعض جبال ، الثالث : أنها زائدة ، أي : ينزل من السماء جبالاً ، وأما ﴿ من ﴾ في من برد ففيها أربعة أوجه الثلاثة المتقدمة ، والرابع أنها لبيان الجنس ، قاله الحوفي ، والزمخشري . اي وينزل من السماء بعض جبال . التي هي البرد . فالمنزل برد ، لأن بعض البرد برد .

قال الزجاج : معنى الآية وينزل من السماء من جبال ، برد فيها ، وذكر أبو البقاء أن التقدير شيئاً من جبال . قيل إن في السماء جبالاً من برد ، كما في الأرض جبال من حجر . وقيل : المراد بذكر الجبال الكثرة كما يقال فلان يملك جبالاً من ذهب وفضة .

﴿ فيصيب به ﴾ أي بما ينزل من البرد كما في البيضاوي ، والخازن ﴿ من يشاء ﴾ أن يصيبهم من عباده ﴿ ويصرفه عمن يشاء ﴾ منهم ، أو يصيب به مال من يشاء ، ويصرفه عن مال من يشاء ، وقد تقدم الكلام على مثل هذا في البقرة ﴿ يكاد سنا برقه ﴾ العامة على قصر سنا ، وهو الضوء ، وهو من ذوات الواو ، يقال سنا يسنو سناً ، أي أضاء يضيء ، وبالمدّ الرفعة ، كذا قال المبرّد، وغيره. قرىء سناء برقه بالمد على المبالغة ، في شدة الضوء، والصفاء، فأطلق عليه اسم الرفعة والشرف وقرىء بضم الباء من بُرَقِه ، وفتح الراء . وهي على هذه جمع برق . وقال النحاس : البرقة المقدار من البرق . والبرقة الواحدة ، والمعنى : يكاد ضوء البرق الذي في السحاب .

﴿ يذهب بالأبصار ﴾ من شدة بريقه ، وزيادة لمعانه . وهو كقوله : ﴿ يكاد البرق يخطف أبصارهم ﴾ وقرىء : يذهب ، من الإذهاب ، ويذهب من الذهاب ، والأبصار جمع بصر ، أي الناظرة ، والباء للإلصاق . وقيل : للتعدية وقيل : هي بمعنى : من ، والمفعول محذوف تقديره : يذهب النور من الأبصار ، فسبحان من يخرج الماء ، والنار ، والنور ، والظلمة من شيء واحد وقيل : زائدة .

﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ مِّن مَّآءٖۖ فَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ بَطۡنِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ رِجۡلَيۡنِ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰٓ أَرۡبَعٖۚ يَخۡلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٤٥﴾ لَّقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖۚ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٤٦﴾ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعۡنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٤٨﴾﴾

﴿يقلب الله الليل والنهار﴾ أي : يعاقب بينهما ، فيأتي بالليل ، ويذهب بالنهار ، ويأتي بالنهار ، ويذهب بالليل . وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « قال الله تعالى : « يؤذيني ابن آدم يسب الدهر ، وأنا الدهر ، بيدي الأمر أقلب الليل والنهار» أخرجه البخاري ومسلم[1] .

وقيل يزيد في أحدهما ، وينقص الآخر . وقيل يقلبهما باختلاف ما يقدره فيهما من خير وشر ، ونفع وضر . وقيل بالحر والبرد، وقيل المراد بذلك تغيير النهار بظلمة السحاب مرة ، وبضوء الشمس أخرى . تغيير الليل بظلمة السحاب تارة ، وبضوء القمر أخرى .

﴿إن في ذلك﴾ إشارة إلى ما تقدم من إزاء السحاب ، وإنزال الودق والبرد ، وتقليب الجديدين ﴿لعبرة﴾ أي لدلالة واضحة يكون بها الاعتبار ﴿لأولي الأبصار﴾ أي لكل من له بصر يبصر به ، فهي براهين لائحة على جوده ، ودلائل واضحة على صفاته ، لمن نظر وتدبر ، ثم ذكر سبحانه دليلاً ثالثاً من عجائب خلق الحيوان ، وبديع صنعته فقال :

﴿والله خلق كل دابّة﴾ وقرىء : خالق ، والمعنيان صحيحان ، والدابة كل ما دب على الأرض من الحيوان . يقال دب يدب فهو دابّ، والهاء

(١) مسلم ٣٣٤٦ ـ البخاري ٢٠٤٢ .

للمبالغة، ومعنى ﴿من ماء﴾ من نطفة ، وهي المني ، كذا قال الجمهور ، ثم خالف بين المخلوقات من النطفة فمنها هوام ، ومنها بهائم ، وقال جماعة : إن المراد الماء المعروف لأن آدم خلق من الماء والطين . قيل وخلق كل دابة من نطفة ، إنما هو بحسب الأغلب في خلق حيوانات الأرض المشاهدة ، وإلا فالملائكة خلقوا من نور ، وهم أكثر المخلوقات عدداً ، والجانّ خلقوا من نار ، وهم بقدر تسعة أعشار الإنس . كما قيل ، وآدم خلق من الطين ، وعيسى من الريح ، التي نفخها جبريل، في جيب مريم ، وخلق الدود من نحو الفاكهة ، والعفونات ، ثم فصل سبحانه أحوال كل دابة فقال :

﴿ فمنهم من يمشي على بطنه ﴾ وهي الحيات ، والهوام ، والحوت والدود ، ونحو ذلك ، وسمي الزحف على البطن مشياً ، استعارة ، كما استعير المشفر للشفة ، وبالعكس . كما يقال في الأمر المستمر قد مشى هذا الأمر ، وفلان ما يمشي له أمر ، أو على طريق المشاكلة لذكر الزاحف مع الماشين ﴿ ومنهم من يمشي على رجلين ﴾ وهم الإنسان والطير والنعام .

﴿ ومنهم من يمشي على أربع ﴾ كالبهائم ، وسائر الحيوانات ، وقدم ما هو أعرف في القدرة ، وهو الماشي بغير آلة المشي من أرجل أو غيرها ثم الماشي على رجلين ثم الماشي على أربع وقال : ﴿ من ﴾ ولم يقل ﴿ ما ﴾ تغليباً لمن يعقل ، على ما لا يعقل لأن جعل النفيس أصلاً ، والخسيس تبعاً أولى . قال ابن عباس : كل شيء يمشي على أربع إلا الإنسان ، وأقول هذه الطيور على اختلاف أنواعها ، تمشي على رجلين ، وهكذا غيرها ، كالنعامة فإنها تمشي على رجلين ، وليست من الطير ، فهذه الكلية المروية عنه رضي الله تعالى عنه لا تصح ، ولم يتعرض سبحانه لما يمشي على أكثر من أربع لقلته . وقيل : لأن المشي على أربع فقط ، وإن كانت القوائم كثيرة وقيل : لعدم الاعتداد بما يمشي على أكثر من أربع ، ولا وجه يكون لهذا ، فإن المراد التنبيه على بديع الصنع ، وكمال القدرة ، فكيف يقال ، لعدم الاعتداد بما يمشي على أكثر من أربع .

وقيل : ليس في القرآن ما يدل على عدم المشي على أكثر من أربع لأنه لم ينف ذلك ، ولا جاء بما يقتضي الحصر ، وفي مصحف أبيّ : ومنهم من يمشي على أكثر ، فعم بهذه الزيادة جميع ما يمشي على أكثر من أربع ، كالسرطان ، والعناكب ، والحيوان المعروف بأم أربع وأربعين ، وكثير من خشاش الأرض كالعقارب . وقيل : إنما لم يتعرض لهذا القسم لدخوله في قوله :

﴿ يخلق الله ما يشاء ﴾ أي : مما ذكر هنا ، ومما لم يذكره ، كالجمادات مركبها وبسيطها ، ناميها وغير ناميها ، على اختلاف الصور والأعضاء ، والهيئآت ، والحركات ، والطبائع ، والقوى ، والأفعال ، مع اتحاد العنصر بمقتضى مشيئته ﴿ إن الله على كل شيء قدير ﴾ لا يعجزه شيء ، ولا يمنعه مانع ، بل الكل من مخلوقاته ، داخل تحت قدرته سبحانه .

﴿ لقد أنزلنا آيات مبينات ﴾ بكسر الياء وفتحها سبعيتان وكذلك في كل ما جاء في هذا الجمع في القرآن ، والمراد بها القرآن ، فإنه قد اشتمل على بيان كل شيء،ما فرطنا في الكتاب من شيء ، وفيه التفات قد تقدم مثل هذا في غير موضع ﴿ والله يهدي من يشاء ﴾ بتوفيقه للنظر الصحيح وإرشاده إلى التأمل الصادق ﴿ إلى صراط مستقيم ﴾ أي طريق مستو لا عوج فيه ، فيتوصل بذلك إلى الخير التام ، وهو نعيم الجنة ، ثم شرع سبحانه في بيان أحوال من لم تحصل له الهداية إلى الصراط المستقيم فقال:

﴿ ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ﴾ وهؤلاء هم المنافقون ، الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر ، ويقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم ، فإنهم كما حكى الله عنهم ههنا ، ينسبون إلى أنفسهم الإيمان بالله وبالرسول ، والطاعة لله ولرسوله نسبة بمجرد اللسان لا عن اعتقاد صحيح . وعن قتادة قال : أناس من المنافقين أظهروا الإيمان والطاعة ، وهم في ذلك يصدون عن سبيل الله وطاعته وجهاده مع رسوله .

﴿ ثم يتولى ﴾ أي يعرض ﴿ فريق منهم ﴾ أي من هؤلاء المنافقين القائلين هذه المقالةَ ﴿ من بعد ذلك ﴾ أي من بعد ما صدر عنهم مما نسبوه إلى أنفسهم من دعوى الإيمان والطاعة ثم حكم عليهم سبحانه وتعالى بعدم الإيمان فقال ﴿ وما أولئك ﴾ القائلون بهذه المقالة ﴿ بالمؤمنين ﴾ على الحقيقة الموافق قلوبهم لألسنتهم فيشمل الحكم بنفي الإيمان جميع القائلين . ويندرج تحتهم من تولى اندراجاً أولياً .

وقيل إن الإشارة بقوله ﴿ أولئك ﴾ راجع إلى من تولى ، والأول أولى والكلام مشتمل على حكمين ، الحكم الأول على بعضهم بالتولي ، والحكم الثاني على جميعهم بعدم الإيمان، وقيل أراد بمن تولى من تولى عن قبول حكمه صلى الله عليه وآله وسلم، وقيل أراد بذلك رؤساء المنافقين ، وقيل أراد بتولي هذا الفريق رجوعهم إلى الباقين ، ولا ينافي ما تحتمله هذه الآية باعتبار لفظها ورودها على سبب خاص ، ثم وصف هؤلاء المنافقين بأن فريقاً منهم يعرضون عن إجابة الدعوة إلى الله وإلى رسوله في خصومتهم فقال:

﴿ وإذا دعوا إلى الله ورسوله ﴾ المبلغ عنه ﴿ ليحكم بينهم ﴾ أي الرسول فالضمير راجع إليه . لأنه المباشر للحكم . وإن كان الحكم في الحقيقة لله سبحانه ومثل ذلك قوله تعالى: والله ورسوله أحق أن يرضوه ﴿ إذا فريق منهم معرضون ﴾ إذا هي الفجائية ، أي فاجأ فريق منهم الاعراض عن المحاكمة إلى الله والرسول ، أو عن الاجابة ، والمجيء إليه . وهذا هو شأن مقلدة المذاهب بعينه اليوم[1]، يعرضون عن إجابة الداعي إلى الله ورسوله ، وعن التحاكم إليهما ، أي إلى كتابه وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم .

ثم ذكر سبحانه أن إعراضهم إنما هو إذا كان الحق عليهم ، وأما إذا كان لهم فإنهم يذعنون لعلمهم بأن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا يحكم إلا بالحق فقال :

(١) قياس مع الفارق ولا يجوز تشبيه المؤمنين بالمنافقين.

﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾﴾

﴿ وإن يكن لهم الحق ﴾ أي إذا كان الحكم لهم على غيرهم ﴿ يأتوا إليه مذعنين ﴾ مطيعين منقادين لحكمه طلباً لحقهم ، لا رضاء بحكم رسولهم . قال الزجاج : الإذعان الإسراع مع الطاعة ، يقال : أذعن لي بحقي ، أي طاوعني لما كنت ألتمس منه ، وصار يسرع إليه ، وبه قال مجاهد . وقال الأخفش وابن الأعرابي : مذعنين مقرين وقال النقاش : خاضعين . والمعنى أنهم لمعرفتهم أنه ليس معك إلا الحق المر، والعدل البحت ، يمتنعون عن المحاكمة إليك ، إذا ركبهم الحق ، لئلا تنتزعه من أحداقهم ، بقضائك عليهم لخصومهم ، وإن ثبت لهم الحق على خصم أسرعوا إليك ، ولم يرضوا إلا بحكومتك لتأخذ لهم ما وجب لهم في ذمة الخصم .

ثم قسّم الأمر في إعراضهم عن حكومته إذا كان الحق عليهم فقال :

﴿ أفي قلوبهم مرض ﴾ هذه الهمزة للتوبيخ والتقريع لهم ، والمرض النفاق أي أكان هذا الاعراض منهم بسبب النفاق الكائن في قلوبهم وقيل مرض أي كفر وميل الى الظلم ﴿ أم ارتابوا ﴾ وشكوا في أمر نبوة محمد ﷺ وعدله في الحكم ، أو رأوا منه تهمة فزال ثقتهم ويقينهم به .

﴿ أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله ﴾ في الحكومة ، والحيف الميل

في الحكم يقال حاف في قضيته أي جار فيما حكم به، ثم أضرب عن ضرب هـذه الأمور التي صـدرها بـالاستفهام الإنكـاري فقال ﴿ بـل أولئـك هم الظالمون ﴾ أي ليس ذلك لشيء مما ذكر بل لعنادهم وظلمهم فإنه لو كان الاعراض لشيء مما ذكر لما أتوا إليه مذعنين إذا كان الحق لهم .

وقيل إضراب عن القسمين الأخيرين ، لتحقق القسم الأول . ووجه التقسيم أن امتناعهم إما لخلل فيهم أو في الحاكم، والثـاني إما أن يكون محققاً عندهم ، أو متوقعاً ، وكلاهما باطل لأن منصب نبوته ، وفرْط أمانته صلى الله عليه وآله وسلم يمنعه ، فتعين الأول. وظلمهم يعم خلل عقيدتهم ، وميل نفوسهم إلى الحيف . وضمير الفصل لنفي ذلك عن غيرهم ، سيما المدعو إلى حكمه. قاله البيضاوي .

وفي هذه الآية دليل على وجوب الاجابة إلى القاضي العالم بحكم الله العادل في حكمه لأن العلماء ورثة الأنبياء ، والحكم من قضاة الاسلام العالمين بحكم الله العارفين بالكتاب والسنة العادلين في القضاء ، هو حكم بحكم الله ورسوله ، الـداعي إلى التحاكم إليهم قد دعا إلى الله وإلى رسوله أي إلى حكمهما.

قال ابن خواز منداد : واجب على كل من دعى إلى مجلس الحاكم أن يجيب ما لم يعلم أن الحاكم فاسق قال القرطبي : في هذه الآية دليل على وجوب إجابة الداعي الى الحاكم لأن الله سبحانه ذم من دعى إلى رسوله ليحكم بينه وبين خصمه ، فأعرض بأقبح ذم ، فقال ﴿ أفي قلوبهم مرض ﴾ الآية انتهى فإن كان القاضي مقصراً لا يعلم بأحكام الكتاب والسنة ، ولا يعقل حجج الله ، ومعاني كلامه وكلام رسوله بل كان جاهلاً جهلاً بسيطاً . وهو من لا علم له بشيء من ذلك ، أو جهلاً مركباً ، وهو من لا علم عنده بما ذكرنا ، ولكنه قد عرف بعض اجتهادات المجتهدين ، واطلع على شيء من علم الرأي ، فهذا في الحقيقة جاهل، وان اعتقد أنه يعلم بشيء من العلم فاعتقاده باطل .

فمن كان من القضاة هكذا فلا تجب الإجابة إليه ، لأنه ليس ممن يعلم بحكم الله ورسوله حتى يحكم به بين المتخاصمين اليه بل هو من قضاة الطاغوت وحكام الباطل ، فإن ما عرفه من علم الرأي انما رخص في العمل به للمجتهد الذي هو منسوب إليه عند عدم الدليل من الكتاب والسنة ، ولم يرخص فيه لغيره ممن يأتي بعده ، وإذا تقدر لديك هذا ، وفهمته حق فهمه ، علمت أن التقليد والانتساب إلى عالم من العلماء دون غيره . . والتعبد بجميع ما جاء به من رواية ورأى وإهمال ما عداه ، من أعظم ما حدث في هذه الملة الإسلامية من البدع المضلة والفواقر الموحشة ، فإنا لله وإنا إليه راجعون .

وقد أوضحت هذا في كتابي الجنة وأوضحه الشوكاني في القول المفيد ، وأدب الطلب وغيره في غيرهما فمن أراد أن يقف على حقيقة هذه البدعة التي طبقت الأقطار الاسلامية فليرجع إليها،وعن الحسن في الآية قال : إن الرجل كان يكون بينه وبين الرجل خصومة أو منازعة . على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فإذا دعي إلى النبي ﷺ وهو محق أذعن وعلم أن النبي ﷺ سيقضي له بالحق . وإذا أراد أن يظلم فدعى إلى النبي ﷺ أعرض . وقال : انطلق إلى فلان فأنزل الله سبحانه ﴿ وإذا دعوا إلى الله ورسوله ﴾ إلى قوله : ﴿ هم الظالمون ﴾ فقال رسول الله ﷺ : « من كان بينه وبين أخيه شيء فدعاه إلى حكم من حكام المسلمين فلم يجب فهو ظالم لا حق له » أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم .

قال ابن كثير :[1] « بعد أن ساق هذا المتن ما لفظه وهذا حديث غريب وهو مرسل : وقال ابن العربي : هذا حديث باطل فأما قوله فهو ظالم فكلام صحيح وأما قوله فلا حق له فلا يصح ويحتمل أن يريد أنه على غير الحق انتهى .

وأقول : وأما كون الحديث مرسلاً فظاهر وأما ما دعوى كونه باطلاً فمحتاجة إلى برهان فقد أخرجه ثلاثة من أئمة الحديث كما ذكرنا ويبعد كل

---

(١) ابن كثير ٣/٢٩٨ .

البعد أن يتفقوا على ما هو باطل وليس في إسناده عند ابن أبي حاتم كذاب ولا وضاع ويشهد له ما أخرجه الطبراني عن الحسن عن سمرة قال : قال رسول الله ﷺ « فمن دعي إلى سلطان فلم يجب فهو ظالم لا حق له انتهى ، ولا يخفاك أن قضاة العدل ، وحكام الشرع الذين هم على الصفة التي قدمنا لك قريباً . هم سلاطين الدين المترجمون عن الكتاب والسنة ، المبينون للناس ما نزل اليهم . ثم لما ذكر ما كان عليه أهل النفاق ، أتبعه بما يجب على المؤمنين أن يفعلوه إذا دعوا إلى حكم الله ورسوله ، فقال :

﴿ إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ﴾ أي : إلى كتاب الله العزيز وسنة رسوله المطهرة ﴿ ليحكم بينهم ، أن يقولوا : سمعنا وأطعنا ﴾ أي هذا القول ، لا قولاً آخر ، وهذا وإن كان على طريقة الخبر ، فليس المراد به ذلك ، بل المراد به تعليم الأدب الشرعي عند هذه الدعوة من أحد المتخاصمين للآخر ، والمعنى أنه ينبغي للمؤمنين أن يكونوا هكذا ، إذا سمعوا الدعاء المذكور ، قابلوه بالطاعة والإذعان والإجابة . قال مقاتل وغيره : يقولون : سمعنا قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وأطعنا أمره ، وإن كان ذلك فيما يكرهونه ويضرهم .

وقد قدمنا الكلام على الدعوة إلى الله ورسوله للحكم بين المتخاصمين ، وذكرنا من تجب الإجابة إليه من القضاة ، ومن لا تجب ، وهذه الآية على إيجازها حاوية لكل ما ينبغي للمؤمنين أن يفعلوه. ثم أثنى سبحانه عليهم بقوله :

﴿ وأولئك ﴾ المؤمنون الذين قالوا هذا القول ﴿ هم المفلحون ﴾ أي : الناجون الفائزون بخيري الدنيا والآخرة ، ثم أردف الثناء عليهم بثناء آخر فقال : ﴿ ومن يطع الله ورسوله، ويخشى الله ، ويتقه ﴾ هذه الجملة مقررة لما قبلها ، من حسن حال المؤمنين ، وترغيب من عداهم إلى الدخول في عدادهم والمتابعة لهم في طاعة الله ورسوله ، في كتابه وسنته والخشية من الله عز وجل فيما مضى والتقوى له فيما يستقبل وفي ﴿ يتقه ﴾ قرآآت من الجزم والكسر .

﴿ فأولئك ﴾ أي : الموصوفون بما ذكر من الطاعة والخشية والتقوى ﴿ هم الفائزون ﴾ بالنعيم الدنيوي ، والأخروي ، لا من عداهم . وعن بعض الملوك أنه سأل عن آية كافية فتليت له هذه الآية ، وهي جامعة لأسباب الفوز والفلاح الكاملة الشاملة وبالله التوفيق ، وهو المستعان . ثم حكى سبحانه عن المنافقين أنهم لما كرهوا حكمه ، أقسموا بأنه لو أمرهم بالخروج إلى الغزو لخرجوا ، فقال :

﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم ﴾ المعنى : يجهدون أيمانهم جهداً ومعناه طاقة ما قدروا أن يحلفوا ، مأخوذ من قولهم : جهد نفسه إذا بلغ طاقتها ، وأقصى وسعها ، وقيل : التقدير مجتهدين في إيمانهم ، كقولهم : افعل ذلك جهدك وطاقتك وقد خلط الزمخشري الوجهين فجعلهما واحداً . وقيل : جهد اليمين أن يحلف بالله ولا يزيد على ذلك شيئاً .

﴿ لئن أمرتهم ﴾ بالخروج إلى الجهاد ﴿ ليخرجن ﴾ وليغزون ، ولما كانت مقالتهم هذه كاذبة ، وأيمانهم فاجرة رد الله عليهم زاجراً فقال : ﴿ قل لا تقسموا ﴾ أي لا تحلفوا على ما تزعمونه من الطاعة والخروج إلى الجهاد إن أمرتم به . وههنا تمّ الكلام ثم ابتدأ فقال :

﴿ طاعة معروفة ﴾ أي طاعتهم طاعة معروفة بأنها طاعة نفاقية لم تكن عن اعتقاد ، وقيل : طاعة معروفة أولى بكم من أيمانكم . وقيل : لتكن منكم طاعة ، أو لتوجد ، وفي هذا ضعف لأن الفعل لا يحذف إلا إذا تقدم ما يشعر به ، وقيل : أمركم طاعة ، بل قال الواسطي : إنه الأولى لأن الخبر محط الفائدة ، وعليه فالمعنى : أمركم الذي يطلب منكم طاعة معروفة معلومة ، لا يشك فيها ولا يرتاب . وقرىء : طاعةً بالنصب أي أطيعوا طاعة .

﴿ إن الله خبير بما تعلمون ﴾ من الطاعة بالقول ، وما تشمرونه من المخالفة بالفعل وهذا تعليل لما قبلها من كون طاعتهم طاعة نفاق . ثم أمر الله سبحانه نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أن يأمرهم بطاعة الله ورسوله ، فقال :

قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾

﴿ قل : أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ﴾ طاعة ظاهرة وباطنة ، بخلوص اعتقاد وصحة نية وهذا التكرير منه سبحانه لتأكيد وجوب الطاعة عليهم ، فإن قوله: ﴿ قل لا تقسموا طاعة معروفة ﴾ في حكم الأمر بالطاعة وقيل : إنهما مختلفان فالأول نهي بطريق الرد والتوبيخ ، والثاني أمر بطريق التكليف لهم والإيجاب عليهم .

﴿ فإن تولوا ﴾ خطاب للمأمورين وفيه رجوع من الخطاب مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى الخطاب لهم لتأكيد الأمر عليهم والمبالغة في العناية بهدايتهم إلى الطاعة والإنقياد .

وجواب الشرط قوله : ﴿ فإنما عليه ﴾ أي : على النبي ﴿ ما حمل ﴾ مما أمر به من التبليغ وقد فعل ﴿ وعليكم ما حملتم ﴾ أي : ما أمرتم به من الطاعة والإجابة ، وهو وعيد لهم كأنه قال لهم : فإن توليتم فقد صرتم حاملين للحمل الثقيل ، وفيه المشاكلة .

﴿ وإن تطيعوه ﴾ فيما أمركم به ونهاكم عنه ﴿تهتدوا﴾ إلى الحق وترشدوا إلى الخير وتفوزوا بالأجر . قد أخرج مسلم والترمذي وغيرهما عن علقمة بن وائل الحضرمي عن أبيه قال : قدم زيد بن أسلم على رسول الله صلى الله

عليه وآله وسلم فقال : أرأيت إن كان علينا أمراء يأخذون منا الحق ولا يعطونا ؟ قال : « فإنما عليهم ما حملوا وعليكم ما حملتم »[1] . وعن جابر أنه سئل إن كان عليّ إمام فاجر ، فلقيت معه أهل ضلالة ، أقاتل ؟ أم لا ؟ قال : قاتل أهل الضلالة أينما وجدتهم .

وعلى الإمام ما حمل وعليكم ما حملتم ﴿ و ﴾ جملة ﴿ ما على الرسول إلا البلاغ المبين ﴾ مقررة لما قبلها واللام إما للعهد فيراد بالرسول نبينا صلى الله عليه وآله وسلم وإما للجنس فيراد كل رسول والبلاغ المبين : التبليغ الواضح أو الموضح ، والمعنى : أن الرسول قد أدى البلاغ فأدوا أيضاً أنتم ما عليكم من طاعته .

﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ﴾ الخطاب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ولمن معه و ﴿ من ﴾ للبيان . وقيل : للتبعيض والجملة مقررة لما قبلها ، من أن طاعتهم لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سبب لهدايتهم وهذا وعد من الله سبحانه لمن آمن بالله وعمل الأعمال الصالحات بالاستخلاف لهم ، كما قال سبحانه .

﴿ ليستخلفنهم في الأرض ﴾ بدلاً عن الكفار ، وهو وعد يعم جميع الأمة ، وقيل هو خاص بالصحابة ، ولا وجه لذلك فإن الإيمان ، وعمل الصالحات لا يختص بهم . بل يمكن وقوع ذلك من كل واحد من هذه الأمة . ومن عمل بكتاب الله وسنة رسوله فقد أطاع الله ورسوله . واللام في ﴿ ليستخلفنهم ﴾ جواب لقسم محذوف أو جواب للوعد ، وتنزيله منزلة القسم لأنه ناجز لا محالة والمعنى ليجعلنهم فيها خلفاء يتصرفون فيها تصرف الملوك في مملوكاتهم ، وقد أبعد من قال إنها مختصة بالخلفاء الأربعة أو بالمهاجرين أو أن المراد بالأرض أرض مكة . وقد عرفت أن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

قال ابن العربي : إنها بلاد العرب والعجم وهو الصحيح لأن أرض مكة

---

(١) مسلم ١٨٤٦ ـ الترمذي كتاب الفتن الباب ٣٠ .

محرمة على المهاجرين ففي الحديث لكن البائس سعد بن خولة يرثي له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن توفي بمكة وقال في الصحيح أيضاً يمكث المهاجر بمكة بعد قضاء نسكه ثلاثاً، وظاهر قوله ﴿ كما استخلف الذين من قبلهم ﴾ كل من استخلفه الله في أرضه فلا يخص ذلك بني إسرائيل ولا أمة من الأمم دون غيرها قرىء على البناء للفاعل والمفعول .

﴿ وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ﴾ معطوفة على ليستخلفنهم داخلة تحت حكمه كائنة من جملة الجواب، والمراد بالتمكين هنا التثبيت والتقرير أي يجعله الله ثابتاً مقرراً ويوسع لهم في البلاد ليملكوها ويظهر دينهم على جميع الأديان، والمراد بالدين هنا الإسلام كما في قوله ﴿ ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾، ذكر سبحانه وتعالى الاستخلاف لهم أولاً وهو جعلهم ملوكاً، وذكر التمكين ثانياً فأفاد ذلك أن هذا الملك ليس على وجه العروض والطروّ بل على وجه الاستقرار والثبوت بحيث يكون الملك لهم ولعقبهم من بعدهم .

﴿وليبدلنّهم من بعد خوفهم أمناً ﴾ معطوفة على التي قبلها وقرىء من أبدل ومن بدل وهما لغتان وزيادة البناء تدل على زيادة المعنى فقراءة التشديد أرجح من التخفيف، وزعم ثعلب أن بينهما فرقاً، وأنه يقال بدلته أي غيرته وأبدلته أزلته وجعلت غيره مكانه قال النحاس : وهذا القول صحيح والمعنى أنه سبحانه يجعل لهم مكان ما كانوا فيه من الخوف من الأعداء أمناً ويذهب عنهم أسباب الخوف الذي كانوا فيه بحيث لا يخشون إلا الله سبحانه ولا يرجون غيره .

وقد كان المسلمون قبل الهجرة وبعدها بقليل في خوف شديد من المشركين، لا يخرجون إلا في السلاح، ولا يمسون ولا يصبحون إلى على ترقب لنزول المضرة بهم من الكفار، ثم صاروا في غاية الأمن، والدعة وأذل الله لهم شياطين المشركين وفتح عليهم البلاد ومهد لهم في الأرض ومكنهم منها فللّه الحمد .

وعن البراء قال : فينا نزلت ونحن في خوف شديد، وعن أبي العالية قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه بمكة نحواً من عشر سنين يدعون إلى الله وحده وإلى عبادته وحده لا شريك له سراً وهم خائفون، ولا يؤمرون بالقتال حتى أمروا بالهجرة إلى المدينة، فقدموا المدينة فأمرهم الله بالقتال وكانوا بها خائفين، يمسون في السلاح ويصبحون في السلاح، فغبروا بذلك ما شاء الله، ثم إن رجلاً من أصحابه قال: يا رسول الله ما يأتي علينا يوم نأمن فيه ونضع السلاح ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « لن تغبروا إلا يسيراً حتى يجلس الرجل منكم في الملأ العظيم محتبياً ليست فيهم حديدة » فأنزل الله وعد الله الذين آمنوا إلى آخر الآية فأظهر الله نبيه على جزيرة العرب فأمنوا ووضعوا السلاح .

ثم إن الله قبض نبيه فكانوا كذلك آمنين في زمان أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله تعالى عنهم . حتى وقعوا فيما وقعوا وكفروا النعمة فأدخل الله عليهم الخوف الذي كان رفع عنهم واتخذوا الحجر والشرط وغيروا فغير ما بهم .

وعن أُبيّ بن كعب قال : لما قدم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المدينة وآوتهم الأنصار رمتهم العرب عن قوس واحدة فكانوا لا يبيتون إلا في السلاح ولا يصبحون إلا فيه . فقالوا : أترون انا نعيش حتى نبيت آمنين مطمئنين لا نخاف إلا الله، فنزلت هذه الآية، وأنجز الله وعده وأظهرهم على جزيرة العرب وافتتحوا أبعد بلاد المشرق والمغرب ومزقوا ملك الأكاسرة وملكوا خزائنهم واستولوا على الدنيا .

وفي الآية أوضح دليل على صحة خلافة أبي بكر الصديق، والخلفاء الراشدين بعده لأن المستخلفين الذين آمنوا وعملوا الصالحات هم هم وفي أيامهم كانت الفتوحات العظيمة وفتحت كنوز كسرى وغيره من الملوك وحصل الأمن والتمكين وظهور الدين، وعن سفينة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : « الخلافة بعدي ثلاثون سنة ثم تكون ملكاً ثم قال : أمسك خلافة أبي بكر سنتين وخلافة عمر عشر سنين وخلافة عثمان اثنتي

عشرة سنة وعلي ستاً قال علي : قلت لحماد القائل لسعيد : أمسك سفينة قال : نعم . أخرجه[١] أبو داود والترمذي .

قلت وفيه إجمال، تفصيله أن خلافة أبي بكر كانت سنتين وثلاثة أشهر وخلافة عمر كانت عشر سنين وستة أشهر وخلافة عثمان اثنتي عشرة سنة وخلافة علي أربع سنين وتسعة أشهر وعلى هذا تكون مدة خلافة الأئمة الأربعة تسعة وعشرين سنة وستة أشهر وكملت ثلاثين سنة بخلافة الحسن وكانت ستة أشهر ثم نزل عنها والله أعلم .

وجملة ﴿ يعبدونني ﴾ حالية أو مستأنفة مسوقة للثناء عليهم، وفيه أوجه سبعة ذكرها السمين ﴿ لا يشركون بي شيئاً ﴾ أي يعبدونني غير مشركين بي في العبادة شيئاً من الأشياء . وقيل معناه لا يراؤن بعبادتي أحداً ، وقيل معناه لا يخافون أحداً غيري قاله ابن عباس وقيل معناه لا يحبون غيري .

﴿ ومن كفر ﴾ هذه النعم ﴿ بعد ذلك ﴾ الوعد الصحيح ، أي : من استمر على الكفر أو من كفر بعد الإيمان ﴿ فأولئك هم الفاسقون ﴾ أي الكاملون في الفسق وهو الخروج عن الطاعة ، والطغيان في الكفر وعن مجاهد قال : الفاسقون العاصون . وعن أبي العالية قال : الكفر بهذه النعمة ليس الكفر بالله ، ولذلك الفاسقون ولم يقل الكافرون . قال أهل التفسير : أو من كفر بهذه النعمة ، وجحد حقها الذين قتلوا عثمان فلما قتلوه غير الله ما بهم من الأمن وأدخل عليهم الخوف حتى صاروا يقتتلون بعد أن كانوا إخواناً والقصة معروفة .

﴿ وأقيموا الصلاة ﴾ أي فآمنوا واعملوا الصالحات وأقيموا الصلاة ﴿ وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول ﴾ قد تقدم الكلام على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وكرر الأمر بطاعة الرسول للتأكيد وخصه بالطاعة لأن طاعته طاعة الله، ولم يذكر ما يطيعونه فيه لقصد التعميم كما يشعر به الحذف على ما تقرر في

---

(١) أبو داوود كتاب السنة باب ٨ ـ الترمذي ، كتاب الفتن باب ٤٨ .

لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾

علم المعاني من أن مثل هذا الحذف مشعر بالتعميم ﴿ لعلكم ترحمون ﴾ أي افعلوا ما ذكر راجين أن يرحمكم الله سبحانه.

﴿ لا تحسبن ﴾ بالفوقية أي لا تحسبن يا محمد وقرىء بالتحتية ﴿ الذين كفروا معجزين ﴾ فائتين وقال قتادة: سابقين ﴿ في الأرض ﴾ وقد تقدم تفسيره وتفسير ما بعده ﴿ ومأواهم النار ﴾ عطف خبر على إنشاء أو على مقدر أي بل هم مقهورون مدركون، ومأواهم ﴿ ولبئس المصير ﴾ أي المرجع النار ولما فرغ سبحانه من ذكر ما ذكره من دلائل التوحيد رجع إلى ما كان فيه من الاستئذان فذكره ههنا على وجه أخص فقال.

﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ الخطاب للمؤمنين ويدخل المؤمنات فيه تغليباً كما في غيره من الخطابات، قال العلماء: هذه الآية خاصة ببعض الأوقات واختلفوا في المراد بقوله: ﴿ليستأذنكم﴾ على أقوال أنها منسوخة قاله سعيد بن المسيب وقال سعيد بن جبير: إن الأمر فيها للندب لا للوجوب، وقيل كان ذلك واجباً حيث كانوا لا أبواب لهم، ولو عاد الحال لعاد الوجوب حكاه المهدوي عن ابن عباس، وقيل إن الأمر ههنا للوجوب وإن الآية محكمة غير منسوخة وإن حكمها ثابت على الرجال والنساء، قال القرطبي: وهو قول أكثر العلماء وقال السلمي: إنها خاصة بالنساء وقال ابن عمر: هي خاصة بالرجال دون النساء، والمراد بقوله.

﴿ الذين ملكت أيمانكم ﴾ العبيد والإماء وعن مقاتل بن حيان قال:

بلغنا أن رجلاً من الأنصار وامرأته أسماء بنت مرشدة صنعا للنبي صلى الله عليه وآله وسلم طعاماً فقالت أسماء : يا رسول الله ما أقبح هذا إنه ليدخل على المرأة وزوجها وهما في ثوب واحد ـ غلامهما ـ بغير إذن فأنزل الله في ذلك هذه الآية يعني بها العبيد والإماء، وعن السدي قال : كان أناس من أصحاب رسول الله ﷺ يعجبهم أن يواقعوا نساءهم في هذه الساعات ليغتسلوا ثم يخرجوا إلى الصلاة فأمرهم الله أن يأمروا المملوكين والغلمان أن لا يدخلوا عليهم في تلك الساعات إلا بإذن، فلا يرد كيف أمرهم الله بالاستئذان ؟ مع أنهم غير مكلفين ولو كان المقصود أمرهم بالذات لما كان لتخصيص النداء والخطاب بالمؤمنين وجه .

﴿ والذين لم يبلغوا الحلم منكم ﴾ أي الصبيان والمراد الأحرار قرىء الحلم بسكون اللام وبضمها قال الأخفش : الحلم من حلم الرجل بفتح اللام ومن الحلم حلم بضم اللام يحلم بكسرها، واتفقوا على أن الاحتلام بلوغ واختلفوا فيها إذا بلغ خمس عشرة سنة ولم يحتلم فقال أبو حنيفة : لا يكون بالغاً حتى يبلغ ثماني عشرة سنة ويستكملها، والجارية سبع عشرة سنة وقال الشافعي وأبو يوسف ومحمد وأحمد في الغلام والجارية بخمس عشرة سنة يصير مكلفاً وتجري عليه الأحكام وإن لم يحتلم.

﴿ ثلاث مرات ﴾ أي ثلاثة أوقات في اليوم والليلة، وعبر عن الأوقات بالمرات لأن الأصل وجوب الاستئذان هو بسبب مقارنة تلك الأوقات لمرور المستأذنين بالمخاطبين لا نفس الأوقات، وانتصاب ثلاث مرات على المصدرية أي ثلاث استئذانات، ورجح هذا أبو حيان وقال : لأنك إذا قلت ضربتك ثلاث مرات لا يفهم منه إلا ثلاث ضربات، أو منصوب على الظرفية أي ثلاث أوقات ثم فسر تلك الأوقات بقوله .

﴿ من قبل صلاة الفجر ﴾ وذلك لأنه وقت القيام عن المضاجع وطرح

ثياب النوم ولبس ثياب اليقظة وربما يبيت عرياناً أو على حالة لا يجب أن يراه غيره فيها ﴿ وحين تضعون ثيابكم ﴾ التي تلبسونها في النهار ﴿ من ﴾ شدة حر ﴿ الظهيرة ﴾ وذلك عند انتصاف النهار فإنهم قد يتجردون عن الثياب لأجل القيلولة ﴿ من ﴾ للبيان أو بمعنى في أو بمعنى اللام ثم ذكر سبحانه الوقت الثالث فقال :

﴿ ومن بعد صلاة العشاء ﴾ وذلك لأنه وقت التجرد عن ثياب اليقظة والخلوة بالأهل والالتحاف بثياب النوم، ثم أجمل سبحانه هذه الأوقات بعد التفصيل بقوله ﴿ ثلاث عورات لكم ﴾ أي أوقات ثلاث عورات وقيل جعل نفس ثلاث مرات نفس ثلاث عورات مبالغة وقيل هو ثلاث .

وقال أبو حاتم : النصب ضعيف مردود، وقال الفراء : الرفع أحب إلي، قال الكسائي : العورات الساعات التي تكون فيها العورة، قال الزجاج : المعنى ليستأذنكم أوقات ثلاث عورات، وعورات جمع عورة وهي في الأصل الخلل . ثم غلب في الخلل الواقع فيما يهم حفظه ويتعين ستره أي هي ثلاث أوقات ، يختل فيها الستر، وقرىء عَورات بفتح الواو وهي لغة هذيل وتميم . فإنهم يفتحون عين فعلات سواء كان واواً أو ياء . والجملة مستأنفة ، مسوقة لبيان علة وجوب الاستئذان .

عن عبد الله بن سويد قال : سألت رسول الله ﷺ عن العورات الثلاث فقال : « إذا أنا وضعت ثيابي بعد الظهيرة لم يلج عليَّ أحد من الخدم من الذين لم يبلغوا الحلم ، ولا أحد لم يبلغ الحلم من الأحرار إلا بإذن، وإذا وضعت ثيابي بعد صلاة العشاء ومن قبل صلاة الصبح » أخرجه ابن مردويه .

وعن ابن عباس قال : إنه لم يؤمن بها أكثر الناس يعني آية الإذن . وإني لآمر جاريتي هذه ، الجارية قصيرة قائمة على رأسه أن تستأذن علي، وعنه

قال : ترك الناس ثلاث آيات لم يعملوا بهن هذه الآية والآية التي في سورة النساء ﴿ وإذا حضر القسمة ﴾ الآية ، والآية التي في الحجرات ﴿إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ .

وعنه قال : إذا خلا الرجل بأهله بعد العشاء فلا يدخل عليه صبي ولا خادم إلا بإذنه حتى يصلي الغداة، وإذا خلا بأهله عند الظهر فمثل ذلك . ورخص لهم في الدخول فيما بين ذلك بغير إذن وهو قوله ﴿ ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن ﴾ فأما من بلغ الحلم فإنه لا يدخل على الرجل وأهله إلا بإذن على كل حال . وهو قوله : ﴿ وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم ﴾ .

وعنه أن رجلاً سأله عن الاستئذان في الثلاث العورات ، التي أمر الله بها في القرآن فقال : إن الله ستير يحب الستر، وكان النّاس ليس لهم ستور على أبوابهم ولا حجاب في بيوتهم ، فربما فجأ الرجل خادمه ، أو ولده أو يتيم في حجره ، وهو على أهله ، فأمرهم الله أن يستأذنوا في تلك العورات التي سمي الله، ثم جاء الله بعد بالستور ، فبسط عليهم في الرزق ، فاتخـذوا الستور واتخذوا الحجال ، فرأى الناس أن ذلك قد كفاهم من الاستئذان الذي أمروا به .

وعن ابن عمر في الآية قال : هي على الذكور دون الإناث . ولا وجه هذا التخصيص ، فالاطلاع على العورات في هذه الأوقات كما يكرهه الإنسان من الذكور يكرهه من الإناث . وعن السلمي قال : هي في النساء خاصة ، والرجال يستأذنون على كل حال بالليل والنهار .

وعن ابن مسعود قال : عليكم إذن علـى أمهاتكم ، وعنه قال : يستأذن الرجل على أبيه وأمه وأخته ، أخرجه البخاري في الأدب وعن جابر نحوه ،

وسئل الشعبي عن هذه الآية أمنسوخة هي ؟ قال : لا والله . قال السائل : إن الناس لا يعلمون بها ، قال : والله المستعان . وقال سعيد بن جبير : إن ناساً يقولون أن هذه الآية نسخت والله ما نسخت ولكنها مما تهاون به الناس وقال سعيد بن المسيب : إنها منسوخة والأول أولى .

﴿ ليس عليكم ، ولا عليهم جناح بعدهن ﴾ أي ليس على المماليك ولا على الصبيان إثم في الدخول بغير استئذان ، لعدم ما يوجبه من مخالفة الأمر ، والاطلاع على العورات ، بعد كل واحدة من هذه العورات الثلاث ، وهي الأوقات المتخللة بين كل اثنين منها ، والجملة مستأنفة مقررة للأمر بالاستئذان في تلك الأحوال خاصة . وقال أبو البقاء ﴿ بعدهن ﴾ أي بعد استئذانهم فيهن ،ورُدّ بأنه لا حاجة إلى هذا التقدير ، الذي ذكره ، بل المعنى ليس عليكم جناح ولا عليهم أي العبيد والإماء والصبيان في عدم الاستئذان بعد هذه الأوقات المذكورة .

﴿ طوافون ﴾ أي هم طوافون ﴿ عليكم ﴾ والجملة مستأنفة مبينة للعذر رخص في ترك الاستئذان والمعنى يطوفون عليكم ، ومنه الحديث في الهرة إنما هي من الطوافين عليكم أو الطوافات . أي هم خدمكم فلا بأس أن يدخلوا عليكم في غير هذه الأوقات بغير إذن ﴿ بعضكم ﴾ يطوف . أو طائف ﴿ على بعض ﴾ والجملة تدل مما قبلها ، أو مؤكدة لها ، والمعنى أن كلا منكم يطوف على صاحبه، العبيد على الموالي والموالي على العبيد، وإنما أباح سبحانه الدخول في غير تلك الأوقات، الثلاثة بغير استئذان لأنها كانت العادة أنهم لا يكشفون عوراتهم في غيرها .

﴿ كذلك ﴾ أي مثل ذلك التبيين ﴿ يبين الله لكم الآيات ﴾ الدالة على ما شرعه لكم من الأحكام ﴿ والله عليم ﴾ أي كثير العلم بالمعلومات ﴿ حكيم ﴾ كثير الحكمة في أفعاله .

وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾

﴿ وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم ﴾ بين سبحانه ههنا حكم الأطفال الأحرار اذا بلغوا الحلم ، بعد ما بين فيما مر حكم الأطفال الذين لم يبلغوا الحلم ، في أنه لا جناح عليهم في ترك الاستئذان ، فيما عدا الأوقات الثلاثة فقال ﴿فليستأذنوا﴾ إذا دخلوا عليكم في جميع الأوقات ﴿كما استأذن الذين من قبلهم ﴾ الموصول عبارة عن الذين قيل لهم لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا الآية ، والمعنى استئذاناً كما استأذن الأحرار الكبار الذين أمروا بالاستئذان من غير استثناء .

قال عطاء : واجب على الناس أن يستأذنوا إذا احتلموا ، أحراراً كانوا ، أو عبيداً . وسئل حذيفة أيستأذن الرجل على والدته ؟ قال : نعم . إن لم تفعل رأيت منها ما تكره . وقال الزهري وسعيد بن المسيب : يستأذن الرجل على أمه وفي هذا المعنى نزلت هذه الآية .

﴿ كذلك يبين الله لكم آياته ، والله عليم ﴾ بأمور خلقه فيما يبين من الأحكام ﴿ حكيم ﴾ بما دبر وشرع من مصالح الأنام ﴿ والقواعد من النساء ﴾ المراد بهن العجائز اللاتي قعدن عن الحيض ، أو عن الاستمتاع ، أو عن الولد من الكبر ، فلا يلدن ولا يحضن واحدتها قاعد ، بلا هاء ليدل حذفها على أنه قعود الكبر ، كما قالوا امرأة حامل ليدل حذف الهاء على أنه حمل حبل ويقال قاعدة في بيتها ، وحاملة على ظهرها ، قال الزجاج : هن اللاتي قعدن عن

التزويج وهو معنى قوله :

﴿ اللاتي لا يرجون نكاحا ﴾ أي لا يطمعن فيه لكبرهن ، وقال أبو عبيدة : اللاتي قعدن عن الولد وليس هذا بمستقيم ، لأن المرأة تقعد عن الولد وفيها مستمتع . وقيل هن العجائز اللواتي إذا رآهن الرجال استقذروهن . فأما من كانت فيها بقية جمال ، وهي محل الشهوة فلا تدخل في حكم هذه الآية ، ثم ذكر سبحانه حكم القواعد فقال :

﴿ فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن ﴾ التي تكون على ظاهر البدن كالجلباب ، والرداء الذي فوق الثياب ، والقناع الذي فوق الخمار ، ونحوها ، لا الثياب إلى العورة الخاصة ، والخمار . وإنما جاز لهن ذلك لانصراف الأنفس عنهن ، إذ لا رغبة للرجال فيهن ، فأباح الله سبحانه لهن ما لم يبحه لغيرهن . وعن ابن عباس في الآية قال : هي المرأة لا جناح عليها أن تجلس في بيتها بدرع وخمار ، وتضع عنها الجلباب ، ما لم تتبرج بما كرهه الله . وعنه أنه كان يقرأ أن يضعن من ثيابهن ، ويقول : هو الجلباب ، وعن ابن عمر قال : تضع الجلباب ، وعن ابن مسعود مثله ، وزاد الرداء ، ثم استثنى حالة من حالاتهن فقال :

﴿ غير متبرجات بزينة ﴾ أي غير مظهرات للزينة التي أمرن باخفائها في قوله ﴿ ولا يبدين زينتهن ﴾ لينظر إليهن الوجال، أو زينة خفية كقلادة ، وسوار وخلخال . والتبرج التكشف ، والظهور للعيون والتكلف في إظهار ما يخفي وإظهار المرأة زينتها ومحاسنها للرجال ، ومنه بروج مشيدة ، وبروج السماء . ومنه قولهم سفينة بارجة أي لا غطاء عليها.

﴿ وأن يستعففن ﴾ أي وأن يتركن وضع الثياب ، ويطلبن العفة عنه ، وقرىء بغير السين ﴿ خير لهن والله سميع عليم ﴾ أي كثير السماع ، والعلم بليغهما .

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَـٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَـٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّـٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَـٰلَـٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَـٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾

﴿ ليس على الأعمى جرج ، ولا على الأعرج حرج ، ولا على المريض حرج ﴾ اختلف أهل العلم في هذه الآية ، هل هي محكمة أو منسوخة ، قال بالأول جماعة من العلماء وبالثاني جماعة ، قيل إن المسلمين كانوا إذا غزوا خلفوا زمناهم وكانوا يدفعون إليهم مفاتيح أبوابهم ، ويقولون لهم . قد أحللنا لكم أن تأكلوا مما في بيوتنا،وكانوا يتحرجون من ذلك . وقالوا : لا ندخلها وهم غيب ، فنزلت هذه الآية رخصة لهم ، فمعنى الآية نفي الحرج عن الزمنى في أكلهم من بيوت أقاربهم ، أو بيوت من يدفع إليهم المفتاح ، إذا خرج للغزو قال النحاس : وهذا القول من أجل ما روى في الآية لما فيه عن الصحابة والتابعين من التوقيف ، وقيل : إن هؤلاء المذكورين كانوا يتحرجون من مؤاكلة الاصحاء ، حذاراً من استقذارهم إياهم ، وخوفا من تأذيهم بأفعالهم فنزلت .

وقيل : إن الله رفع الحرج عن الأعمى فيما يتعلق بالتكليف الذي يشترط فيه البصر ، وعن الأعرج فيما يشترط في التكليف به القدرة الكاملة على المشي على وجه يتعذر الإتيان به مع العرج ، وعن المريض فيما يؤثر المرض في

إسقاطه ، وقيل ؛ المراد بهذا الحرج المدفوع عن هؤلاء ، هو الحرج في الغزو أي لا حرج على هؤلاء في تأخرهم عن الغزو ، وقيل : كان الرجل إذا أدخل أحداً من هؤلاء الزمنى إلى بيته ، فلم يجد شيئا يطعمهم إياه ذهب بهم إلى بيوت قرابته فيتحرج الزمنى من ذلك فنزلت .

وعن سعيد بن جبير قال : لما نزلت ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ﴾ : قالت الأنصار : ما بالمدينة مال أعز من الطعام ؟ كانوا يتحرجون أن يأكلوا مع الأعمى ، يقولون : إنه لا يبصر موضع الطعام ، وكانوا يتحرجون الأكل مع الأعرج ، يقولون : إن الصحيح يسبقه إلى المكان ، ولا يستطيع أن يزاحم . ويتحرجون الأكل مع المريض ، يقولون لا يستطيع أن يأكل مثل الصحيح ، وكانوا يتحرجون أن يأكلوا في بيوت أقاربهم ، فنزلت ليس على الأعمى ، يعني في الأكل مع الأعمى وعن مقسم نحوه .

وعن مجاهد قال : كان الرجل يذهب بالأعمى ، أو الأعرج ، أو المريض إلى بيت أمه أو بيت أخيه أو بيت عمه أو بيت عمته أو بيت خاله ، أو بيت خالته فكان الزمنى يتحرجون من ذلك يقولون : إنما يذهبون بنا إلى بيوت غيرهم ،فنزلت هذه الآية رخصة لهم ، وعن عائشة قالت : كان المسلمون يرغبون في النفير مع النبي ﷺ فيدفعون مفاتيحهم إلى زمناهم ، ويقولون لهم : قد أحللنا لكم أن تأكلوا مما احتجتم إليه ، فكانوا يقولون : إنه لا يحل لنا أن نأكل إنهم أذنوا لنا من غير طيب نفس ، وإنما نحن زمنى ، فأنزل الله : ﴿ ولا على أنفسكم أن تأكلوا ﴾ إلى قوله ﴿ أو ما ملكتم مفاتحه ﴾ كما سيأتي .

وعن ابن عباس قال ؛ لما نزلت ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ﴾ قال المسلمون : إن الله قد نهانا أن نأكل أموالنا بيننا

بالباطل ، والطعام هو أفضل الأموال ، فلا يحل لأحد منا أن يأكل عند أحد ، فكف الناس عن ذلك ، فأنزل الله ﴿ ليس على الأعمى حرج ﴾ ، إلى قوله ﴿ أو ما ملكتم مفاتحه ﴾ وهو الرجل يوكل الرجل بضيعته . والذي رخص الله أن يأكل من ذلك الطعام والتمر وشرب اللبن وكانوا أيضاً يتحرجون أن يأكل الرجل الطعام وحده حتى يكون معه غيره ، فرخص الله لهم فقال ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعاً أو أشتاتاً .

وعن الضحاك قال : كان أهل المدينة قبل أن يبعث النبي صلى الله عليه وآله وسلم لا يخالطهم في طعامهم أعمى ولا مريض ، ولا أعرج ، لا يستطيع المزاحمة على الطعام فنزلت رخصة في مؤاكلهم ، وعن الزهري أنه سئل عن قوله ﴿ ليس على الأعمى حرج ﴾ ، ما بال الأعمى والأعرج والمريض ذكروا هنا ؟ فقال : أخبرني عبيد الله بن عبد الله أن المسلمين كانوا إذا غزوا خلفوا زمناهم وكانوا يدفعون إليهم مفاتيح أبوابهم ، يقولون : قد أحللنا لكم أن تأكلوا مما في بيوتنا ، وكانوا يتحرجون من ذلك ، يقولون لا ندخلها ، وهم غيّب، فأنزل الله هذه الآية رخصة لهم .

﴿ ولا على أنفسكم ﴾ أي عليكم ، وعلى من يماثلكم من المؤمنين ، وهذا ابتداء كلام مستأنف ، أي ولا عليكم أيها الناس ، والحاصل أن رفع الحرج عن الأعمى والأعرج ، والمريض . إن كان باعتبار مؤاكلة الأصحاء ، أو دخول بيوتهم ، فيكون ولا على أنفسكم متصلا بما قبله ، وإن كان رفع الحرج عن أولئك باعتبار التكاليف التي يشترط فيها وجود البصر ، وعدم العرج ، وعدم المرض ، فقوله ﴿ ولا على أنفسكم ﴾ ، ابتداء كلام غير متصل بما قبله .

﴿ أن تأكلوا ﴾ أنتم ومن معكم ﴿ من بيوتكم ﴾ أي البيوت التي فيها متاعكم ، وأهلكم ، فيدخل بيوت الأولاد ، وكذا قال المفسرون لأنها داخلة في

بيوتهم ، لكون بيت ابن الرجل بيته ، فلذا لم يذكر سبحانه بيوت الأولاد وذكر بيوت الآباء ، وبيوت الأمهات ومن بعدهم . قال النحاس ، وعارض بعضهم هذا ، فقال : هذا تحكم على كتاب الله سبحانه ، بل الأولى في الظاهر أن يكون الإبن مخالفاً لهؤلاء ، ويجاب عن هذه المعارضة ، بأن رتبة الأولاد بالنسبة إلى الآباء ، لا تنقص عن رتبة الآباء بالنسبة إلى الأولاد ، بل للآباء خصوصية في أموال الأولاد ، لحديث أنت ومالك لأبيك ، وحديث ولد الرجل من كسبه .

وقد ذكر سبحانه بيوت الإخوة والأخوات ، بل بيوت الأعمام والعمات بل بيوت الأخوال والخالات ، فكيف ينفي سبحانه الحرج عن الأكل من بيوت هؤلاء ، ولا ينفيه عن بيوت الأولاد أو المعنى من بيوت أزواجكم ، لأن بيت المرأة كبيت الزوج ، ولأن الزوجين صارا كنفس واحدة ، وقيل أراد من أموال عيالكم ، والعموم أولى فيشمل الكل .

﴿ أو بيوت آبائكم ، أو بيوت أمهاتكم ، أو بيوت إخوانكم ، أو بيوت أخواتكم ، أو بيوت أعمامكم ، أو بيوت عماتكم ، أو بيوت أخوالكم ، أو بيوت خالاتكم ﴾ وقد قيد بعض العلماء جواز الأكل من بيوت هؤلاء بالإذن منهم ، لأن الإذن ثابت دلالة وقال آخرون : يشترط الإذن قيل هذا إذا كان الطعام مبذولا ، فإن كان محرزاً دونهم ، لم يجزهم كله قال الخطيب : وهؤلاء يكفي فيهم أدنى قرينة ، بل ينبغي أن يشترط فيهم أن لا يعلم عدم الرضا بخلاف غيرهم من الأجانب ، فلا بد فيهم من صريح الإذن أو قرينة قوية هذا ما ظهر لي ، ولم أر من تعرض لذلك ، ثم قال سبحانه :

﴿ أو ما ملكتم مفاتحه ﴾ أي البيوت التي تملكون التصرف فيها . بإذن أربابها وذلك كالوكلاء ، والخزان فيهم فإنهم يملكون التصرف في بيوت من أذن لهم بدخول بيته وإعطائهم مفتاحه ، وقيل المراد بها بيوت المماليك ، قرىء

ملكتم بفتح الميم وتخفيف اللام وبضم الميم وكسر اللام مع تشديدها وقرىء مفاتيحه ومفتاحه على الإفراد ، والمفاتح جمع مفتح ، والمفاتيج جمع مفتاح .

﴿ أو صديقكم ﴾ أي لا جناح عليكم أن تأكلوا من بيوت صديقكم ، وإن لم يكن بينكم وبينه قرابة فإن الصديق في الغالب يسمح لصديقه بذلك وتطيب به نفسه والصديق يطلق على الواحد ، والجمع ومثله العدو ، والخليط والفطين والعشير قال قتادة : اذا دخلت بيت صديقك من غير مؤامرته . ثم أكلت من طعامه بغير إذنه لم يكن بذلك بأس . وعن ابن زيد قال : هذا شيء قد انقطع ، انما كان هذا في أوله ، ولم يكن لهم أبواب ، وكانت الستور مرخاة فربما دخل الرجل البيت ، وليس فيه أحد فربما وجد الطعام ، وهو جائع فسوغه الله أن يأكله ، وقال : ذهب ذلك اليوم ؛ البيوت فيها أهلها فإذا خرجوا أغلقوا.

قال النسفي : فأما الآن فقد غلب الشح على الناس . فلا يؤكل إلا بإذن،انتهى،قال المحلي: المعنى يجوز الأكل من بيوت من ذكر ؛ وان لم يحضروا أي الاصناف الاحد عشر . اذا علم رضاهم به بصريح اللفظ ، أو بالقرينة وان كانت ضعيفة ، وخصوا هؤلاء بالذكر ، لأن العادة جارية بالتبسط بينهم وقيل ان هذا كان جائزاً في صدر الاسلام ثم نسخ والأول أولى،ثم قال سبحانه

﴿ وليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعاً أو اشتاتاً ﴾ أي مجتمعين أو مفترقين جمع شت ، وهو المصدر بمعنى التفرق ، يقال : شت القوم ، أي : تفرقوا ، وهذا كلام مستأنف مشتمل على بيان حكم آخر ، من جنس ما قبله وقد كان بعض العرب يتحرج أن يأكل وحده ، حتى يجد له أكيلاً يؤاكله فيأكل معه وبعض العرب كان لا يأكل إلا مع ضيف . قال قتادة : كان هذا الحي من بني كنانة بن خزيمة يرى أحدهم أن عليه مخزاة أن يأكل وحده ، في

الجاهلية ، حتى إن كان الرجل يسوق الذود الحفل ، وهو جائع ، حتى يجد من يؤاكله ، ويشاربه فأنزل الله هذه الآية

وعن عكرمة وأبي صالح قالا : كانت الأنصار إذا نزل بهم الضيف لا يأكلون حتى يأكل الضيف معهم فنزلت رخصة لهم وعن ابن عباس قال : خرج الحرث غازياً مع رسول الله ﷺ وخلف على أهله خالد بن يزيد فحرج أن يأكل من طعامه وكان مجهوداً فنزلت وقد ترجم البخاري في صحيحه باب قوله تعالى هذا،ومقصوده فيما قال أهل العلم في هذا الباب إباحة الأكل جميعاً وإن اختلفت أحوالهم في الأكل فقد سوغ النبي ﷺ ذلك فصار سنة في الجماعات التي تدعى إلى الطعام في النهد والولائم والإملاق في السفر وما ملكت مفاتحه بأمانة أو قرابة أو صداقة فلك أن تأكل مع القريب أو الصديق ووحدك،والنهد ما يجمعه الرفقاء من مال أو طعام على قدر نفقتهم ينفقونه بينهم .

قال ابن دريد : يقال من ذلك تناهد القوم الشيء بينهم قال المزي وفي حديث الحسن : أخرجوا نهدكم فإنه أعظم للبركة واحسن لأخلاقكم والنهد ما تخرجه الرفقة عند المناهدة وهو استقسام النفقة بالسوية بالسفر وغيره

﴿ فإذا دخلتم بيوتاً ﴾ هذا شروع في بيان أدب آخر أدب به عباده أي إذا دخلتم بيوتا غير البيوت التي تقدم ذكرها ﴿ فسلموا على انفسكم ﴾ أي على أهلها الذين هم بمنزلة أنفسكم،وقيل المراد البيوت المذكورة سابقاً وعلى القول الأول فقال الحسن والنخعي : هي المساجد والمراد سلموا على من فيها من صنفكم فإن لم يكن في المساجد فقيل يقول : السلام على رسول الله ﷺ وقيل يقول السلام عليكم مر الملائكة،وقال بالقول الثاني أعني أنها البيوت المذكورة سابقاً جماعة من الصحابة والتابعين، وقيل المراد بالبيوت هنا كل البيوت المسكونة وغيرها فيسلم على أهل المسكونة .

وأما غير المسكونة فيسلم على نفسه بأن يقول : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ،قال ابن العربي : القول بالعموم في البيوت هو الصحيح ولا دليل على التخصيص، وأطلق القول ليدخل تحت هذا العموم كل بيت كان للغير أو لنفسه فإذا دخل بيتاً لغيره استأذن ﴿ تحية ﴾ أي فحيوا تحية ثابتة صادرة مشروعة .

﴿ من عند الله ﴾ أي من جهته ومن لدنه يعني أن الله حياكم بها،وقال الفراء : إن الله أمركم أن تفعلوها طاعة له،ثم وصف هذه التحية فقال : ﴿ مباركة ﴾ أي كثيرة البركة والخير دائمتهما يثاب عليها ﴿ طيبة ﴾ أي تطيب بها نفس المستمع، وقيل حسنة جميلة، وقال الزجاج : أعلم الله سبحانه أن السلام مبارك طيب لما فيه من الأجر والثواب،قال ابن عباس في الآية : وهو السلام لأنه اسم الله وهو تحية أهل الجنة .

وعن جابر بن عبدالله قال : إذا دخلت على أهلك فسلم عليهم تحية من عند الله مباركة طيبة، أخرجه البخاري وغيره، وعن ابن عباس قال : هو المسجد إذا دخلته فقل السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، وعن ابن عمر قال : إذا دخلت البيت غير المسكون أو المسجد فقل : السلام الخ .

﴿ كذلك يبين الله لكم الآيات ﴾ أي يفصل لكم معالم دينكم تأكيداً لما سبق،وقد قدمنا أن الاشارة بذلك إلى مصدر الفعل ﴿ لعلكم تعقلون ﴾ تعليل لذلك التبين برجاء يعقل آيات الله سبحانه وفهم معانيها .

إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾

﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ﴾ مستأنفة مسوقة لتقرير ما تقدمها من الأحكام،وإنما من صيغ الحصر،والمعنى لا يتم إيمان ولا يكمل حتى يؤمن بالله ورسوله ﴿وإذا كانوا معه ﴾ أي مع رسول الله ﷺ هو صلة ثانية ومحط الكمال ﴿ على أمر جامع ﴾ أي طاعة يجتمعون عليها نحو الجمعة والجماعة والنحر والفطر والجهاد أو تشاور في أمر وأشباه ذلك .

وسمى الأمر جامعاً مبالغة،وفيه إسناد مجازى لأن الأمر لما كان سبباً في جمعهم نسب الجمع إليه مجازاً،وقرىء على أمر جميع والحاصل أن الأمر الجامع والجميع هو الذي يعم نفعه أو ضرره وهو الأمر الجليل الذي يحتاج إلى اجتماع أهل الرأي والتجارب .

﴿ لم يذهبوا ﴾ أي يتفرقوا عنه ولم ينصرفوا عما اجتمعوا له لعروض عذر لهم ﴿ حتى يستأذنوه ﴾ واعتبار هذا في كمال إيمانهم لأنه كالمصداق لصحته والمميز المخلص فيه عن المنافق،فإن ديدنه وعادته التسلل والفرار،ولتعظم الجرم في الذهاب عن مجلس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بغير إذنه .

قال المفسرون : كان رسول الله ﷺ إذا صعد المنبر يوم الجمعة وأراد الرجل أن يخرج من المسجد لحاجة أو لعذر لم يخرج حتى يقوم بحيال النبي صلى الله عليه واله وسلم حيث يراه فيعرف أنه إنما قام ليستأذن فيأذن لمن يشاء منهم قال مجاهد : وإذن الإمام يوم الجمعة أن يشير بيده،قال الزجاج : أعلم الله أن المؤمنين إذا كانوا مع نبيهم فيما يحتاج فيه إلى الجماعة لم يذهبوا حتى يستأذنوه وكذلك ينبغي ان يكونوا مع الإمام لا يخالفونه ولا يرجعون عنه في جمع من جموعهم إلا بإذنه، وللإمام أن يأذن على ما يرى لقوله فأذن لمن شئت منهم قال العلماء : كل أمر اجتمع عليه المسلمون مع الإمام لا يخالفونه ولا يرجعون عنه إلا بإذن .

ثم قال سبحانه مؤكداً على أسلوب أبلغ ومعظماً لهذا الأمر

﴿ إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله ﴾ فبين سبحانه أن المستأذنين هم المؤمنون بالله ورسوله،كما حكم أولاً بأن المؤمنين الكاملي الإيمان هم الجامعون بين الإيمان بهما وبين الاستئذان وأن الذاهب بغير إذن ليس كذلك .

﴿ فإذا استأذنوك لبعض شأنهم ﴾ أي لاجل بعض الأمور التي يهمهم كما وقع لسيدنا عمر حين خرج مع النبي ﷺ في غزوة تبوك حيث استأذن الرسول في الرجوع إلى أهله فاذن له النبي ﷺ وقال له : ارجع فلست بمنافق ﴿ فأذن لمن شئت منهم ﴾ فإنه يأذن لمن شاء منهم ويمنع من شاء على حسب ما تقتضيه المصلحة التي يراها رسول الله ﷺ وفيه رفع شأنه ﷺ .

واستدل به على أن بعض الاحكام مفوض إلى رأيه ومن منع ذلك قيد المشيئة بأن تكون تابعة لعلمه بصدقه،أي فأذن لمن علمت أن له عذراً، ثم أرشده الله سبحانه إلى الاستغفار لهم فقال :

﴿ واستغفر لهم الله ﴾ بعد الإذن فيه إشارة إلى أن الاستئذان وإن كان لعذر مسوغ فلا يخلو عن شائبة تأثير أمر الدنيا على الآخرة، لان اغتنام مجالسه

أولى من الاستئذان ﴿ إن الله غفور رحيم ﴾ أي كثير المغفرة لفرطات العباد والرحمة بالتيسير عليهم، بالغ فيهما إلى الغاية التي ليس وراءها غاية .

﴿ لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً ﴾ مستأنفة مقررة لما قبلها أي لا تجعلوا دعوته إياكم كالدعاء من بعضكم لبعض في التساهل في بعض الاحوال عن الإجابة بل أجيبوه فوراً وإن كنتم في الصلاة أو الرجوع بعير استئذان أو رفع الصوت وقال سعيد بن جبير ومجاهد : المعنى قولوا يا رسول الله برفق ولين ولا تقولوا يا محمد بتجهم وعلى هذا جماعة كثيرة وقال قتادة : أمرهم أن يشرفوه ويفخموه،وقيل المعنى لا تتعرضوا الدعاء الرسول عليكم بإسخاطه فإن دعوته موجبة .

وقيل : المعنى يجب عليكم المبادرة لأمره، واختاره أبو العباس، ويؤيده قوله : ﴿ فليحذر الذين يخالفون عن أمره ﴾ وقيل معناه لا تجعلوا دعاء الرسول ربه مثل ما يدعو صغيركم ، وكبيركم وفقيركم ، وغنيكم ، يسأله حاجة ، فربما تجاب دعوته وربما لا تجاب فإن دعوات الرسول مسموعة مستجابة، وعن سعيد بن جبير في الآية قال : يعني كدعاء أحدكم إذا دعا أخاه باسمه، ولكن وقروه ، وقولوا له : يا رسول الله ؛ يا نبي الله ، قال : لا تصيحوا به من بعيد : يا أبا القاسم !! ولكن كما قال الله في الحجرات : ﴿ إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله ﴾ ، والأول أولى .

﴿ قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذاً ﴾ أي : يخرجون وينسلون من المسجد في الخطبة واحداً بعد واحد ، من غير استئذان ، خفية مستترين بشيء ، و﴿ قد ﴾ للتحقيق ، والتسلل : الخروج من البين في خفية . يقال : تسلل فلان من بين أصحابه ، إذا خرج من بينهم ، واللواذ من الملاوذة ، وهو أن تستتر بشيء مخافة من يراك ؛ وأصله أن يلوذ هذا بذاك وذاك بهذا واللوذ ما يطيف بالجبل ، وقيل اللواذ الروغان من شيء إلى شيء في خفية ، أي

متلاوذين ، يلوذ بعضهم ببعض ، وينضم إليه ، وقيل : يلوذون لواذاً ، وقرىء : لَـوَاذ بفتح اللام .

وفي الآية بيان ما كان يقع من المنافقين ، فإنهم كانوا يتسللون عن صلاة الجمعة متلاوذين ينضم بعضهم إلى بعض استتاراً من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وقد كان يوم الجمعة أثقل يوم على المنافقين لما يرون من الاجتماع للصلاة والخطبة ، فكانوا يفرون عن الحضور ويتسللون في خفية ، ويستتر بعضهم ببعض ، وينضم إليه وقيل اللواذ الفرار من الجهاد ، وبه قال الحسن عن مقاتل قال : كان لا يخرج أحد لرعاف أو إحداث حتى يستأذن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، يشير إليه بأصبعه التي تلي الإبهام ، فيأذن له النبي صلى الله عليه وآله وسلم يشير إليه بيده . وكان من المنافقين من يثقل عليه الخطبة ، والجلوس في المسجد فكان إذا استأذن رجل من المسلمين قام المنافق إلى جنبه يستتر به حتى يخرج ، فأنزل الله هذه الآية ، أخرجه أبو داود في مراسيله .

﴿ فليحذر الذين يخالفون عن أمره ﴾ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها أي : يخالفون أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم بترك العمل بمقتضاه ، ويذهبون سمتاً خلاف سمته ، وعُـدِّيَ فعل المخالفة بعن ، مع كونه متعدياً بنفسه لتضمينه ، معنى الإعراض ، أو الصد . وقيل الضمير لله سبحانه لأنه الأمر بالحقيقة . قال أبو عبيدة والأخفش ﴿ عن ﴾ زائدة هنا ، وقال الخليل وسيبويه : ليست بزائدة ، بل هي بمعنى : بعد كقوله : ﴿ ففسق عن أمر ربه ﴾ ، أي : بعد أمر ربه ، والأولى ما ذكرناه من التضمين .

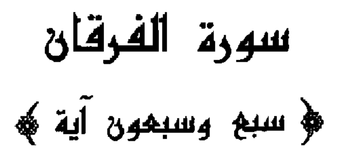
﴿ أن تصيبهم فتنة ﴾ أي : فليحذر المخالفون عن أمر الله ، أو أمر رسوله ، أو أمرهما جميعاً إصابة فتنة لهم ، والفتنة هنا غير مقيدة بنوع من أنواع الفتن ، وقيل : هي القتل . وقيل : الزلازل . وقيل : تسلط سلطان جائر . وقيل : الطبع على قلوبهم . وقيل : إسباغ النعم استدراجاً ، أو محنة في الدنيا .

﴿ أو يصيبهم عـذاب أليم ﴾ أي : في الآخرة ، كـما أن الفتنة التي حذرهم من إصابتها لهم هي في الدنيا ، وكلمة ﴿ أو ﴾ لمنع الخلو ، قال القرطبي : احتج الفقهاء على أن الأمر للوجوب بهذه الآية ، ووجه ذلك أن الله سبحانه حذرهم من مخالفة أمره ، وتوعد بالعقاب عليها ، بقوله : ﴿ أن تصيبهم فتنة ﴾ الآية ، فيجب امتثال أمـره ، ويحرم مخالفته ، والآية تشمل كل من خالف أمر الله ، وأمر رسوله .

﴿ ألا إن لله ﴾ تنبيه على أن لا يخالفوا أمر من له ﴿ ما في السموات والأرض ﴾ من المخلوقات بأسرها فهي ملكه ، وخلقه وعبيده ﴿ قد يعلم ما أنتم عليه ﴾ أيها العباد من الأحوال التي أنتم عليهـا ، فيجازيكم بحسب ذلـك ، ويعلم ههنا بمعنى علم ، وأدخل قد ليؤكد علمه بما هم عليه من المخالفة عن الدين الحق ، ويرجع توكيد العلم إلى توكيد الوعيد .

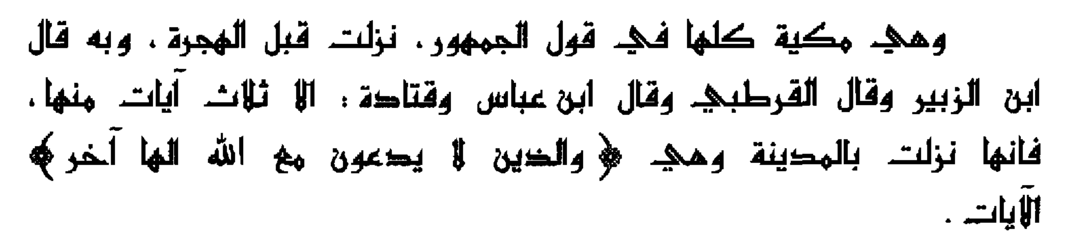
﴿ ويوم ﴾ أي ويعلم يوم ﴿ يرجعون إليه ﴾ فيجازيهم فيه بما عملوا ، وفيه التفات عن الخـطاب ،وتعليق علمه سبحانه بيوم الرجوع لا بنفس رجوعهم لزيادة تحقق علمه ، لأن العلم بوقت وقوع الشيء يستلزم العلم بوقوعه على أبلغ وجه ﴿ فينبئهم بما عملوا ﴾ من الأعمال التي من جملتها مخالفة الأمر ، والظاهر من السياق أن هذا الوعيد للمنافقين .

﴿ والله بكل شيء عليم ﴾ لا يخفى عليه شيء من أعمالهم وغيرها ، عن عقبة بن عامر قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وهو يقرأ هذه الآية في خاتمة سورة النور ، وهو جاعل أصبعيه تحت عينيه . يقول : بكل شيء بصير ، أخرجه الطبراني وغيره . قال السيوطي بسند حسن .



سورة الفرقان

﴿ سبع وسبعون آية ﴾



وهي مكية كلها في قول الجمهور، نزلت قبل الهجرة، وبه قال ابن الزبير وقال القرطبي وقال ابن عباس وقتادة: إلا ثلاث آيات منها، فإنها نزلت بالمدينة وهي ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ﴾ الآيات.

وأخرج البخاري ومسلم ومالك والشافعي وابن حبان والبيهقي في سننه عن عمر بن الخطاب، قال: سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فاستمعت لقراءته. فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يقرئه بها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فكدت أساوره في الصلاة، فتصبرت حتى سلم، فلببته بردائه. فقلت: من أقرأك هذه السورة التي سمعتك تقرأ؟ قال: أقرأنيها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقلت: كذبت، فإن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد أقرأنيها على غير ما قرأت؛ فانطلقت به أقوده إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقلت: إني سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أرسله، اقرأ يا هشام، فقرأ عليه القراءة التي سمعته يقرأ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: كذلك أنزلت، ثم قال: اقرأ يا عمر؛ فقرأت القراءة التي أقرأني، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «كذلك أنزلت، إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف، فاقرؤا ما تيسر منه»[1].

---

(١) مسلم ٨١٨ - البخاري ١١٩٥.

بسم الله الرحمن الرحيم

تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾

﴿ تبارك الذي نزّل لفرقان ﴾ تكلم سبحانه في هذه السورة على التوحيد لأنه أقدم وأهم ، ثم في النبوة لأنها الواسطة ثم في المعاد ، لأنه الخاتمة وأصل تبارك مأخوذ من البركة . وهي النماء والزيادة . حسيّـة كانت أو عقلية . قال الزجاج : تبارك تفاعل من البركة ، وبه قال ابن عباس ، قال : ومعنى البركة الكثرة من كل ذي خير ، وقال الفراء : إن تبارك وتقدس في العربية واحد . ومعناهما العظمة . وقيل المعنى تبارك عطاؤه ، أي زاد وكثر ، وقيل دام وثبت .

قـال النحـاس : وهذا أولاها في اللغة، والاشتقاق من برك الشيء إذا ثبت ، ومنه برك الجمل ، أي دام وثبت ، واعترض مـا قالـه الفراء بـأن التقديس إنما هو من الطهارة ، وليس من ذا في شيء . قال العلماء : هذه اللفظة لا تستعمل إلا لله سبحانه ، ولا تستعمل إلا بلفظ الماضي . والمعنى تعالى الله عما سواه في ذاته وصفاته ، وأفعاله التي من جملتها تنزيل القرآن الكريم المعجز الناطق بعلو شأنه تعالى ، وسمو صفاته ، وابتناء أفعاله على أساس الحكم والمصالح ، وخلوها عن شائبة الخلل بالكلية ، والفرقان القرآن وسمي فرقاناً لأنه يفرق بين الحق والباطل بأحكامه أو بين المحقّ والمبطل .

قال قتادة : هو القرآن فيه حلاله وحرامه وشرائعه ودينه وقيل لأنه نزل مفرقاً في أوقات كثيرة ، ولهذا قال : ﴿نــزّل﴾ بالتشديد لتكثير التفريق .

﴿ على عبده ﴾ محمد ﷺ ثم علل التنزيل بقوله ، ﴿ ليكون للعالمين نذيراً ﴾ فإن النذارة هي الغرض المقصود من الإنزال والمراد بالعالمين هنا الإنس والجن لأن النبي ﷺ مرسل إليهما ، قال المحلي : دون الملائكة ، ولم يكن غيره من الأنبياء على نبينا وعليهم الصلاة والسلام مرسلاً إلى الثقلين .

والنذير المنذر أي ليكون محمد ﷺ منذراً أي وبشيراً أو ليكون إنزال القرآن منذراً أو ليكون إنزاله انذاراً أو ليكون محمد ﷺ إنذاراً وجعل الضمير للنبي ﷺ أولى ، لأن صدور الإنذار منه حقيقة ومن القرآن مجاز .

والحمل على الحقيقة أولى ، أو لكونه أقرب مذكور قال قتادة : بعث الله محمداً ﷺ نذيراً من الله لينذر الناس بأس الله ، ووقائعه بمن خلا قبلكم .

وقيل إنّ رجوع الضمير إلى الفرقان أولى لقوله تعالى :﴿إنَّ هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم﴾. ويصح رجوعه للمنزِّل وهو الله وقوله ﴿ للعالمين ﴾ متعلق بـ﴿نذيراً ﴾ قدم عليه لرعاية الفاصلة . ثم إنه سبحانه وصف ذاته الكريمة بصفات أربع .

الأولى : ﴿ الذي له ملك السموات والأرض ﴾ دون غيره لا استقلالاً ، ولا تبعاً فهو المتصرف فيهما ، وفيه تنبيه على افتقار الكل إليه في الوجود وتوابعه من البقاء وغيره .

﴿ و ﴾ **الصفة الثانية** : ﴿ لم يتخذ ولداً ﴾ فيه رد على اليهود والنصارى .

﴿ و ﴾ : ﴿ لم يكن له شريك في الملك ﴾ فيه رد على طوائف

المشركين من الثنوية والوثنية وعباد الأصنام ، وأهل الشرك الخفي . فأثبت له الملك بجميع وجهوهه ، ثم نفى ما يقوم مقامه فيه ، ثم نبه على ما يدل عليه فقال .

﴿ وخلق كل شيء ﴾ من الموجودات مما تطلق عليه صفة المخلوق ، وهي **الصفة الرابعة** : ﴿ فقدره تقديراً ﴾ أي قدر كل شيء مما خلق بحكمته ، على ما أراده وهيأه لما يصلح له ، وسواه تسوية لا اعوجاج فيه ، ولا زيادة على ما تقتضيه الحكمة والمصلحة ولا نقصاً عن ذلك في بابي الدنيا والدين . وقيل : أحدثه إحداثاً مراعى فيه التقدير حسب إرادته ، كخلقه الإنسان من مواد مخصوصة وصور وأشكال معينة ، فقدره وهيأه لما أراد منه ، من الخصائص والأفعال أو فقدره للبقاء إلى أجل مسمى .

قال قتادة : بيّن الله لكل شيء من خلقه صلاحه وجعل ذلك بقدر معلوم . قال الواحدي : قال المفسرون : قدر له تقديراً من الأجل والرزق فجرت المقادير على ما خلق ،وقيل أريد بالخلق هنا مجرد الإحداث والإيجاد مجازاً من غير ملاحظة معنى التقدير ، وإن لم يخل عنه في نفس الأمر ، فيكون المعنى أوجد كل شيء فقدره ، لئلا يلزم التكرار هذا أوضح دليل على المعتزلة في خلق أفعال العباد ، ثم صرح سبحانه في تزييف مذاهب عبدة الأوثان فقال :

﴿ واتخذوا من دونه ﴾ الضمير للكفار ، أو المنذرين أو للمشركين ، وإن لم يتقدم لهم ذكر لدلالة العالمين ، ونفي الشريك ، والنذير عليهم أي اتخذ المشركون لأنفسهم متجاوزين الله ﴿ آلهة ﴾ قال قتادة : هي الأوثان التي تعبد من دون الله ﴿ لا يخلقون شيئاً ﴾ أي لا يقدرون على خلق شيء من الأشياء وغلب العقلاء على غيرهم لأن في معبودات الكفار الملائكة وعزيراً والمسيح .

﴿ وهم يخلقون ﴾ أي يخلقهم الله سبحانه قال قتادة : أي هو الله الخالق

الرازق وهذه الأوثان تُخْلَقَ ولا تَخْلُق شيئاً ولا تضر ولا تنفع، وقيل عبر عن الآلهة بضمير العقلاء جرياً على اعتقاد الكفار أنها تضر وتنفع ، وقيل المعنى عبدتهم يصورونهم وينحتونهم، ثم لما وصف سبحانه نفسه الكريمة بالقدرة الباهرة وصف الآلهة المشركين بالعجز البالغ فقال :

﴿ ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ﴾ أي لا يقدرون على أن يجلبوا لأنفسهم نفعاً ولا يدفعوا عنها ضرراً ، وقدم ذكر الضر لأن دفعه أهم من جلب النفع ، وإذا كانوا بحيث لا يقدرون على الدفع والنفع فيما يتعلق بأنفسهم فكيف يملكون ذلك لمن يعبدهم وهذا يدل على غاية عجزهم ، ونهاية ضعفهم ، ثم زاد في بيان عجزهم فنص على هذه الأمور فقال :

﴿ ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً ﴾ أي لا يقدرون على إماتة الأحياء ، ولا إحياء الموتى ، ولا بعثهم من القبور ، لأن النشور هو الإحياء بعد الموت ، يقال : أنشر الله الموتى ، فنشروا . وقدم الموت لمناسبته للضر المتقدم ولما فرغ سبحانه من بيان التوحيد وتزييف مذاهب المشركين ، شرع في ذكر شبه منكري النبوة ، فالشبهة الأولى ما حكاه عنه بقوله :

﴿ وقال الذين كفروا ﴾ أي مشركو العرب ﴿ إن هذا ﴾ أي ما هذا القرآن ﴿ إلا إفك ﴾ أي كذب ﴿ افتراه ﴾ أي اختلقه محمد ﷺ ﴿ وأعانه عليه ﴾ أي على الاختلاق ﴿ قوم آخرون ﴾ يعنون من اليهود قيل وهم أبو فكيهة يسار مولى الحضرمي ، وعداس مولى حويطب بن عبد العزى ، وجبر مولى ابن عامر ، وكان هؤلاء الثلاثة من اليهود ، وقد مر الكلام على مثل هذا في سورة النحل، ثم رد الله سبحانه عليهم فقال :

﴿ فقد جاؤوا ظلماً وزوراً ﴾ أي فقد قالوا ظلماً هائلاً عظيماً وكذباً ظاهراً، والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها لكن لا على أنهما أمران متغايران حقيقة

بل على أن الثاني هو عين الأول حقيقة ، وإنما الترتيب بحسب التغاير الاعتباري و﴿ قد ﴾ لتحقيق ما جاؤوا به من الظلم والزور ، وانتصاب ﴿ ظلماً ﴾ جاؤوا فإن ﴿ قد ﴾ لتحقيق ما جاؤوا به من الظلم والزور ، وانتصاب ﴿ ظلماً ﴾ بجاؤوا فإن جاء قد تستعمل استعمال أتى ، وتعدى تعديته ، وقال الزجاج : الأصل جاؤوا بظلم ، وقيل على الحال ، وإنما كان ذلك منهم ظلماً لأنهم نسبوا القبيح إلى من هو مبرأ منه . فقد وضعوا الشيء في غير موضعه ، وهذا هو الظلم .

وقيل هو جعل الكلام المعجز إفكاً مختلقاً متلفقاً من اليهود ، وأما كون ذلك منهم زوراً فظاهر لأنهم قد كذبوا في هذه المقالة ، ثم ذكر الشبهه الثانية فقال :

﴿وقالوا أساطير الأولين﴾ أي أحاديثهم ، وما سطروه من الأخبار مثل خبر رستم وإسفنديار. قال الزجاج : واحد الأساطير أسطورة ، مثل أحاديث وأحدوثة ، وقال غيره : جمع أسطار ، مثل أقاويل وأقوال ﴿ اكتتبها ﴾ أي استكتبها أو كتبها لنفسه ، أو المعنى جمعها من الكتب ، وهو الجمع لأمر الكتابة بالقلم ، والأول أولى . ومحل اكتتبها النصب على الحال ، أو الرفع على أنه خبر ثان . وقرىء اكتتبها مبنياً للمفعول والمعنى اكتتبها له كاتب ، لأنه كان أمياً لا يكتب ولا يقرأ .

﴿ فهي تملى عليه ﴾ أي تلقى عليه تلك الأساطير بعدما اكتتبها ليحفظها من أفواه من يمليها عليه من ذلك المكتتب . لكونه أمياً لا يقدر على أن يقرأها من ذلك المكنوب بنفسه . أو المعنى أراد اكتتابها فهي تملي عليه لأنه يقال أمليت عليه فهو يكتب ﴿ بكرة وأصيلاً ﴾ أي غدوة وعشياً ، كأنهم قالوا : إن هؤلاء يعلمون محمداً ﷺ، طرفي النهار ، وقيل معنى بكرة وأصيلاً دائماً في جميع الأوقات فأجاب الله سبحانه عن هذه الشبهة بقوله :

﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٦ وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝٧ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ۝٨ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ۝٩ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًۢا ۝١٠ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ۝١١﴾

﴿ قل أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض ﴾ أي ليس ذلك مما يفترى ، ويفتعل ، بإعانة قوم وكتابة آخرين من الأحاديث الملفقة وأخبار الأولين بل هو أمر سماوي أنزله الذي يعلم كل شيء لا يغيب عنه شيء من الأشياء فلهذا عجزتم عن معارضته ولم تأتوا بسورة مثله ، وخص السر للاشارة إلى انطواء ما أنزله سبحانه على أسرار بديعة ، لا يبلغ إليها عقول البشر ، والسر : الغيب ، أي يعلم الغيب الكائن فيهما .

﴿ إنه كان غفوراً رحيماً ﴾ تعليل لتأخير العقوبة أي : إنكم ، وإن كنتم مستحقين لتعجيل العقوبة بما تفعلونه من الكذب على رسول الله ﷺ ، والظلم له فإنه لا يعجل عليكم بذلك لأنه كثير المغفرة والرحمة ، ثم لما فرغ سبحانه من ذكر ما طعنوا به على القرآن ، ذكر ما طعنوا به على الرسول ﷺ فقال :

﴿ وقالوا : مال هذا الرسول ؟ ﴾ في الاشارة هنا تصغير لشأن المشار إليه ، وهو رسول الله ﷺ وسموه رسولاً استهزاء وسخرية ، وحاصل ما ذكر هنا ستة قبائح ، والأخيرة هي قوله ﴿إلّا رجلاً مسحوراً ﴾ وقد رَدّ الله عليهم هذه الستة إجمالاً في البعض ، وتفصيلاً في البعض ، والمعنى ، أي شيء . وأي سبب حصل ، لهذا الذي يدعى الرسالة حال كونه ﴿يأكل الطعام﴾ كما نأكله .

﴿ ويمشي في الأسواق ﴾ ويتردد فيها لطلب المعاش كما نتردد ، زعموا أنه كان يجب أن يكون الرسول ملكاً مستغنياً عن الطعام ، والكسب،والاستفهام للإنكار ، وهو يرجع إلى السبب مع تحقق المسبب ، وهو الأكل والمشي ، ولكنه استبعد تحقق ذلك لانتفاء سببه عندهم ، تهكماً واستهزاء ، والمعنى : أنه إن صح ما يدعيه من النبوة فما باله يخالف حاله حالنا ؟ ﴿ لولا ﴾ للتحضيض ، هذا ما استظهره ابن هشام ، بعد نقله عن الهروي أنها للاستفهام أي : هلا .

﴿ أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً ﴾ طلبوا أن يكون النبي مصحوباً بملك . يعضده ويساعده ، تنزلوا عن اقتراح كون الرسول ملكاً ، مستغنياً عن الأكل والكسب ، إلى اقتراح أن يكون معه ملك يصدقه ، ويشهد له بالرسالة ﴿ أو يلقى إليه كنز ﴾ تنزلوا من مرتبة نزول الملك معه إلى اقتراح أن يكون معه كنز يلقى إليه من السماء ، ليستغني به عن طلب الرزق .

﴿ أو تكون له جنة يأكل منها ﴾ قرأ الجمهور بالفوقية ، وقرىء بالتحتية لأن تأنيث الجنة غير حقيقي ، وقرىء نأكل بالنون ، أي : بستان نأكل نحن من ثماره ، وبالتحتية ، أي : يأكل هو وحده منه ، ليكون له بذلك مزية علينا ، حيث يكون أكله من جنته : قال النحاس : والقراءتان حسنتان ، وإن كانت القراءة بالياء أبين ، لأنه قد تقدم ذكر النبي ﷺ وحده ، فعود الضمير إليه أبين .

عن ابن عباس قال : إن عتبة بن ربيعة وأبا سفيان بن حرب ، والنضر ابن الحرث ، وأبا البختري والأسود بن عبد المطلب ، وزمعة بن الأسود ، والوليد بن المغيرة ، وأبا جهل بن هشام ، وعبدالله بن أبي أمية ، وأمية بن خلف ، والعاص بن وائل ، ومنبه بن الحجاج ، اجتمعوا فقال بعضهم لبعض : ابعثوا إلى محمد وكلموه ، وخاصموه ، حتى تعذروا منه ، فبعثوا إليه ، ان أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك .

قال : فجاءهم رسول الله ﷺ فقالوا : يا محمد ، إنا بعثنا إليك لنعذر

منك ، فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالاً ، جمعنا لك من أموالنا ، وإن كنت تطلب به الشرف . فنحن نسودك ، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك فقال رسول الله ﷺ : «ما بي مما تقولون ما جئتكم بما جئتكم به أطلب أموالكم ! ولا الشرف فيكم ! ولا الملك عليكم ، ولكن الله بعثني إليكم رسولاً وأنزل عليّ كتاباً ، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً ، فبلغتكم رسالة ربي ، ونصحت لكم ، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وإن تردوه علي أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم » قالوا : يا محمد فإن كنت غير قابل منا شيئاً مما عرضنا عليك ، أو قالوا : فإذا لم تفعل هذا ، فسل نفسك ، وسل ربك ، أن يبعث معك ملكاً يصدقك ، بما تقول ، ويراجعنا عنك ، وسله أن يجعل لك جناناً ، وقصوراً ، من ذهب وفضة ، يغنيك عما نراك تبتغي ، فإنك تقوم بالاسواق ، وتلتمس المعاش ، كما نلتمسه،حتى نعرف فضلك ، ومنزلتك من ربك ، إن كنت رسولاً ، كما تزعم .

فقال لهم رسول الله ﷺ : « ما أنا بفاعل ، ما أنا بالذي يسأل ربه هذا ، وما بعثت إليكم بهذا ، ولكن الله بعثني بشيراً ونذيراً» فأنزل الله في ذلك هذه الآية أخرجه ابن اسحق ، وابن جرير ، وابن المنذر .

﴿ وقال الظالمون ﴾ المراد بهم هنا هم القائلون بالمقالات الأول ، وإنما وضع الظاهر موضع المضمر مع الوصف بالظلم للتسجيل عليهم به : ﴿ إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً ﴾ أي مخدوعاً مغلوباً على عقله بالسحر ، وقيل ذا سحر ، وهي الرئة ، أي : بشراً له رئة لا ملكاً ، فالمراد بالسحر هنا لازمه ، وهو اختلال العقل وقد تقدم بيان مثل هذا في سبحان .

﴿ أنظر كيف ﴾ استعظام للأباطيل التي اجترؤا على التفوه بها ، وتعجب منها أي : أنظر كيف ﴿ ضربوا لك الأمثال ﴾ وقالوا : في حقك تلك الاقاويل العجيبة الخارجة عن العقول ، الجارية مجرى الأمثال واخترعوا لك تلك الصفات ، والأحوال الشاذة ، البعيدة من الوقوع ، ليتوصلوا بها إلى تكذيبك والأمثال هي الأقوال النادرة ، والاقتراحات الغريبة ، وهي ما ذكروه ههنا من

المفتري ، والملى عليه ، والمسحور .

﴿ فضلوا ﴾ عن الصواب ، فلا يجدون طريقاً إليه ، ولا وصلوا إلى شيء منه ، بل جاؤوا بهذه المقالات الزائفة ، التي لا تصدر عن أدنى العقلاء ، وأقلهم تمييزاً ، ولهذا قال ﴿ فلا يستطيعون سبيلاً ﴾ يعني لا يجدون إلى القدح في نبوة هذا النبي طريقاً من الطرق .

﴿ تبارك ﴾ أي تكاثر خير ﴿ الذي إن شاء جعل لك ﴾ في الدنيا معجلاً ﴿ خيراً من ذلك ﴾ الذي اقترحوه من الكنز والبستان ، ثم فسر الخير فقال ﴿ جنات تجري من تحتها الأنهار ﴾ أي في الدنيا لأنه تعالى شاء أن يعطيه إياها في الآخرة ﴿ ويجعل لك قصوراً ﴾ قد تقرر في علم الإعراب أن الشرط إذا كان ماضياً جاز في جوابه الجزم والرفع فجعل ههنا في محل جزم ورفع فيجوز فيما عطف عليه أن يجزم كما قرأ الجمهور ، وأن يرفع كما قرأ ابن كثير ، والقصر البيت من الحجارة ، لأن الساكن به مقصور عن ان يوصل إليه . وقيل هو بيت الطين . وبيوت الصوف ، والشعر .

عن خيثمة قال : قيل للنبي صلى الله عليه وآله وسلم : إن شئت أعطيناك من خزائن الأرض ومفاتيحها ما لم يعط نبي قبلك ، ولا نعطيها أحداً بعدك ، ولا ينقصك ذلك مما لك عند الله شيئاً وإن شئت جمعتها لك في الآخرة ، فقال : «اجمعوها لي في الآخرة» فأنزل الله سبحانه هذه الآية أخرجه الفريابي وابن أبي شيبة وابن جرير وغيرهم . ثم أضرب الله سبحانه عن توبيخهم بما حكاه عنهم من الكلام الذي لا يصدر عن العقلاء فقال :

﴿ بل كذبوا بالساعة ﴾ أي : بل أتوا بأعجب من ذلك كله ، وهو تكذيبهم بالساعة ، فلهذا لا ينتفعون بالدلائل ، ولا يتأملون فيها ، ثم ذكر سبحانه ما أعده لمن كذب بالساعة فقال ﴿ وأعتدنا ﴾ أي : والحال إنا أعتدنا ، وهيأنا وخلقنا ﴿ لمن كذب بالساعة سعيراً ﴾ قال أبو مسلم : أي جعلناه عتيداً ، ومعداً لهم ، انتهى . والسعير هي النار المتسعرة المشتعلة ، والنار موجودة اليوم

﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولًا ﴿١٦﴾﴾

لهذه الآية ، كما أن الجنة كذلك لقوله تعالى ﴿ أعدت للمتقين ﴾

ووضع الساعة موضع ضميرها للمبالغة في التشنيع وإعداد السعير لهم وإن لم يكن لخصوص تكذيبهم بالساعة بل لأي تكذيب بشيء من الشريعة ، لكن الساعة لما كانت هي العلة القريبة لدخولهم السعير ، اقتصر على ترتيب الإعداد على التكذيب بها .

﴿ إذا رأتهم ﴾ قيل : معناها إذا ظهرت لهم فكانت بمرأى الناظر في البعد ، وقيل : المعنى إذا رأتهم خزنتها وقيل : إن الرؤية هنا حقيقية وكذلك التغيظ والزفير ، ولا مانع من أن يجعلها الله سبحانه مدركة هذا الإدراك ، وهو الأرجح ومعنى ﴿ من مكان بعيد ﴾ أنها رأتهم وهي بعيدة عنهم ، قيل : بينها وبينهم مسيرة خمسمائة عام ، وقيل : عام .

وعن ابن عباس قال : من مسيرة مائة عام ، وذلك إذا أتي بجهنم تقاد بسبعين ألف زمام ، يشد بكل زمام سبعون ألف ملك لو تركت لأتت على كل بر وفاجر ، فترى تزفر زفرة لا تبقى قطرة من دمع إلا بدت ، ثم تزفر الثانية فتقطع القلوب من أماكنها ، وتبلغ القلوب الحناجر .

وعن رجل من الصحابة قال : قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « من يقل عليّ ما لم أقل ، أو ادعى إلى غير والديه أو انتمى إلى غير مواليه فليتبوأ بين عيني جهنم مقعداً ، قيل : يا رسول الله وهل لها من عينين ؟ قال : « نعم أما سمعتم الله يقول : ﴿ إذا رأتهم من مكان بعيد ؟ ﴾ أخرجه عبد بن حميد

وابن جرير من طريق خالد بن دريك ونحوه عند رزين في كتابه وصححه ابن العربي في قبسه ، وله لفظ بمعناه .

وأخرج الترمذي من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « يخرج عنق من النار يوم القيامة له عينان يبصران ، وأذنان تسمعان ولسان ينطق ، يقول : إني وكلت بثلاث بكل جبار عنيد ، وبكل من دعا مع الله إلهاً آخر . وبالمصورين »[1] وفي الباب عن أبي سعيد قال أبو عيسى هذا حديث حسن غريب صحيح .

﴿ سمعوا لها تغيظاً ﴾ أي : غلياناً كالغضبان إذا غلى صدره من الغضب ، يعني : أن لها صوتاً يدل على التغيظ على الكفار أو لغليانها صوتاً يشبه صوت المغتاط . ﴿وزفيراً ﴾ هو الصوت ، أي سمعوا لها صوتاً يشبه صوت المتغيظ وقال قطرب : أراد علموا لها تغيظاً ، وسمعوا لها زفيراً ، وقيل المعنى فيها تغيظاً ، وزفيراً للمعذبين ، كما قال لهم فيها زفير وشهيق ، وفي واللام ، متقاربان بأن تقول هذا الله وفي الله ﴿ وإذا ألقوا منها ﴾ أي طرحوا ﴿ مكاناً ضيقاً ﴾ وصف المكان بالضيق للدلالة على زيادة الشدة ، وتناهي البلاد عليهم .

وعن يحيى بن أسيد أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، لما سئل عن هذه الآية قال : والذي نفسي بيده إنهم ليستكرهون في النار ، كما يستكره الوتد في الحائط » وعن ابن عباس « أنه يضيق عليهم كما يضيق الزج في الرمح »

﴿ مقرنين ﴾ أي حال كونهم قد قرنت أيديهم إلى أعناقهم بالجوامع مصفدين بالحديد . وقيل : مكتفين . وقيل قرنوا مع الشياطين ، أي قرن كل واحد منهم إلى شيطانه ، وقد تقدم الكلام على مثل هذا في سورة إبراهيم ﴿ دعوا هنالك ﴾ أي في ذلك المكان الضيق ﴿ ثبوراً ﴾ أي هلاكاً ، كما قال الزجاج ، وقال ابن عباس : ثبوراً ، أي ويلاً . وقيل ثبرنا ثبوراً وقيل مفعول

---

(١) الترمذي كتاب جهنم باب ١ ـ الإمام أحمد ٢ / ٣٣٦ ـ ٣ / ٤٠ .

له ، والمعنى أنهم يتمنون هنالك الهلاك ، وينادونه لما حل بهم من البلاء ، ويقولون يا ثبوراه . أي إحضر ، فهذا أوانك ، لكنهم لا يهلكون . وأجيب عليهم بقوله :

﴿ لا تدعوا اليوم ثبوراً واحداً ﴾ والقائل لهم هم الملائكة خزنة جهنم ، أي اتركوا دعاء ثبوراً واحداً ﴿ وادعوا ثبوراً كثيراً ﴾ والثبور مصدر يقع على القليل والكثير ، فلهذا لم يجمع ، ومثله ضربته ضرباً كثيراً ، وقعد قعوداً طويلاً ، فالكثرة ههنا هي بحسب كثرة الدعاء المتعلق به ، لا بحسب كثرته في نفسه ، فإنه شيء واحد ، والمعنى لا تدعوا على أنفسكم بالثبور دعاء واحداً ، وادعوه أدعية كثيرة . فإن ما أنتم فيه من العذاب أشد من ذلك لطول مدته وعدم تناهيه . وقيل هذا تمثيل وتصوير لحالهم بحال من يقال له ذلك من غير أن يكون هناك قول وهو خلاف ظاهر القرآن .

وقيل إن المعنى أنكم وقعتم فيما ليس ثبوركم فيه واحداً ، بل هو ثبور كثير لأن العذاب أنواع كثيرة ، كل نوع منها ثبور لشدته أو لأنه يتجدد لقوله تعالى ﴿ كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب ﴾ أو لأنه ينقطع فهو في كل وقت ثبور ، والأولى أن المراد بهذا الجواب عليهم الدلالة على خلود عذابهم وإقناطهم عن حصول ما يتمنونه من الهلاك المنجي لهم مما هم فيه .

أخرج أحمد ، والبزار والبيهقي ، وغيرهم قال السيوطي بسند صحيح عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «إن أول ما يكسى حلته من النار إبليس فيضعها على حاجبيه ويسحبها من خلفه ، وذريته من بعده ، وهو ينادي يا ثبوراه ، ويقولون : يا ثبورهم . حتى يقف على الناس ، فيقول : يا ثبوراه ويقولون : يا ثبورهم ، فيقال لهم لا تدعوا اليوم ثبوراً واحداً ، وادعوا ثبوراً كثيراً[1]» ثم وبخهم الله سبحانه توبيخاً بالغاً ، على لسان رسوله فقال :

(١) الإمام احمد ١٥٢/٣ ـ ١٥٣/٣ ـ ٢٤٩/٣ .

﴿ قل أذلك ﴾ أي السعير المتصفة بتلك الصفات العظيمة ﴿ خير أم جنة الخلد ﴾ وفي إضافة الجنة إلى الخلد إشعار بدوام نعيمها . وعدم انقطاعه . والمجيء بلفظ ﴿ خير ﴾ هنا مع أنه لا خير في النار أصلاً لأن العرب قد تقول ذلك . ومنه ما حكاه سيبويه عنهم ، أنهم يقولون : السعادة أحب إليك أم الشقاوة ؟ وقد علم أن السعادة أحب إليه . وقيل ليس هذا من باب التفضيل ، وإنما هو كقولك عنده خير قال النحاس وهذا قول حسن .

﴿ التي وعد ﴾ أي وعدها ﴿ المتقون ﴾ فالراجع إلى الموصول محذوف ثم قال سبحانه ﴿ كانت ﴾ أي تلك الجنة ﴿ لهم ﴾ أي للمتقين ﴿ جزاء ﴾ على أعمالهم ﴿ ومصيراً ﴾ يصيرون إليه وهذا في علم الله ، أو في اللوح المحفوظ قبل خلقهم بأزمنة متطاولة ، أو قال ذلك لأن ما وعد الله به فهو في تحققه كأنه قد كان

﴿ لهم فيها ﴾ أي في الجنة ﴿ ما يشاؤون ﴾ أي ما يشاؤونه من النعم ، وضروب الملاذ كما في قوله ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم . ولعله تقصر همم كل طائفة على ما يليق برتبتها ، لأن الظاهر أن الناقص لا يدرك شيئاً مما هو للكامل بالتشهي، وفيه تنبيه على أن كل المرادات لا تحصل إلا في الجنة ، قال الشهاب : وإنه تعالى لا يلقي في خواطرهم أن ينالوا رتبة من هو أشرف منهم ، ولا يتلفتوا إلى حال غيرهم ﴿ خالدين ﴾ أي في نعيم الجنة ومن تمام النعيم أن يكون دائماً إذ لو انقطع لكان مشوباً بضرب من الغم وقد تقدم تحقيق معنى الخلود .

﴿ كان ﴾ أي ما يشاؤونه ، وقيل كان الخلود وقيل الوعد المدلول عليه وبقوله ﴿ وعد المتقون ﴾ ﴿ على ربك وعداً مسؤولاً ﴾ أي الوعد الحقيقي بأن يسئل وبطلب كما في قوله ﴿ ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ﴾، وقيل إن الملائكة تسأل لهم الجنة كقوله ﴿ وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ﴾ وقيل المراد به الوعد الواجب وان لم يسأل، وقال ابن عباس : يقول تعالى سلوا الذي وعدتكم تنجزوه .

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾

﴿ ويوم يحشرهم ﴾ أي اذكر ، وتعليق التذكير باليوم ، مع أن المقصود ذكر ما فيه للمبالغة والتأكيد ، كما مر مراراً ﴿ وما يعبدون من دون الله ﴾ غلب غير العقلاء من الأصنام والأوثان ونحوها على العقلاء من الملائكة والجن والمسيح تنبيهاً على أنها جميعاً مشتركة في كونها غير صالحة لكونها آلهة،أو لأن من يعبد من لا يعقل . أكثر ممن يعبد من يعقل منها . فغلبت اعتباراً بكثرة من يعبدها ، وقال مجاهد ، وابن جريج : المراد الملائكة والإنس والجن ، والمسيح وعزير بدليل خطابهم وجوابهم فيما بعد ، وقال الضحاك وعكرمة والكلبي : المراد الأصنام خاصة ، وأنها وإن كانت لا تسمع ولا تتكلم، فإن الله سبحانه يجعلها يوم القيامة سامعة ناطقة ، وقيل عام و﴿ ما ﴾ يتناول العقلاء وغيرهم ؛ لأنه أريد به الوصف كأنه قيل ومعبوديهم .

﴿ فيقول ﴾ الله تعالى إثباتاً للحجة على العابدين ؛ وتقريعاً وتبكيتاً لهم ﴿ أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء ﴾ الاستفهام للتوبيخ والتقريع، والمعنى إن كان ضلالهم بسببكم ؛ وبدعوتكم لهم إلى عبادتكم ﴿ أم هم ضلوا السبيل ﴾ أي طريق الحق بأنفسهم لعدم التفكر فيما يستدل به على الحق والتدبّر فيما يتوصل به إلى الصواب ﴿ قالوا ﴾ أي المعبودون مستأنفة جواب سؤال مقدر، ومعنى

﴿ سبحانك ﴾ التعجب مما قيل لهم ، لكونهم ملائكة . أو أنبياء معصومين ، أو جمادات لا تعقل ، أي تنزيهاً لك .

﴿ ما كان ينبغي ﴾ وقرىء مبنياً للمفعول قال ابن خالويه : زعم سيبويه أنها لغة ، أي ما صح ولا استقام ﴿ لنا أن نتخذ من دونك ﴾ أي متجاوزين إياك ﴿ من أولياء ﴾ فنعبدهم فكيف ندعو عبادك إلى عبادتنا نحن مع كوننا لا نعبد غيرك ، والولي يطلق على التابع كما يطلق على المتبوع ، هذا معنى الآية على قراءة الجمهور ﴿ نتخذ ﴾ مبنياً للفاعل وقرىء مبنياً للمفعول . والمعنى أن يتخذنا المشركون أولياء من دونك ، وقال أبو عبيدة : لا تجوز هذه القراءة وبه قال أبو عمرو بن العلاء ، وعيس بن عمر ؛ لأنه سبحانه ذكر ﴿ من ﴾ مرتين ، ولو كانت صحيحة لقال أن نتخذ من دونك أولياء أي لحذفت من الثانية ، وقيل إنها زائدة ، ثم حكى عنهم سبحانه بأنهم بعد هذا الجواب ذكروا سبب ترك المشركين للإيمان فقال :

﴿ ولكن متعتهم ، وآباءهم حتى نسوا الذكر ﴾ وفي هذا ما يدل على أنهم هم الذين ضلوا السبيل ، ولم يضلهم غيرهم ، والمعنى ما أضللناهم ؛ ولكنك يا رب متعتهم ومتعت آباءهم بالنعم ، ووسعت عليهم الرزق ، وأطلت لهم العمر ، حتى غفلوا عن ذكرك ، ونسوا موعظتك ، والتدبر لكتابك والنظر في عجائب صنعك ، وغرائب مخلوقاتك ؛ وجعلوا ذلك ذريعة إلى ضلالهم ؛ عكس القضية ؛ وقيل المراد بنسيان الذكر ههنا ، هو ترك الشكر .

﴿ وكانوا ﴾ هؤلاء الذين أشركوا بك ، وعبدوا غيرك في قضائك الأزلي ﴿ قوماً بوراً ﴾ أي هلكى ، قاله ابن عباس مأخوذ من البوار ، وهو الهلاك يقال رجل بائر . وقوم بور ؛ يستوي فيه الواحد والجماعة . لأنه مصدر يطلق على القليل والكثير ، أو جمع بائر ، وقيل البوار الفساد ، يقال : بارت بضاعته أي فسدت ، وأمر بائر ، أي فاسد ، وهي لغة الأزد . وقيل المعنى الأخير فيهم مأخوذ من بوار الأرض ، وهو تعطيلها من الزرع ، فلا يكون فيها خير ، وقيل إن

البوار الكساد . ومنه بارت السلعة إذا كسدت ، وهذا كله يرجع إلى معنى الهلاك والفساد ثم يقال للكفار بطريق الخطاب عدولاً عن الغيبة .

﴿ فقد كذبوكم ﴾ وفي الكلام حذف ، والتقدير فقال الله عند تبري المعبودين مخاطباً للمشركين العابدين لغير الله فقد كذبكم المعبودون،وقرىء مخففاً أي كذبوكم في قولهم ﴿ بما تقولون ﴾ أي في قولكم أنهم آلهة وهذه المفاجأة بالاحتجاج والإلزام حسنة رائعة ، وخاصة إذا انضم إليها الالتفات ، وحذف القول ، ونظيرها ﴿ يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل ﴾ ، إلى قوله ﴿ فقد جاءكم بشير ونذير ﴾ وقول القائل :

قالوا خراسان أقصى ما يراد بنا ثم القفول فقد جئنا خراسانا

وقال ابن زيد : المعنى قد كذبوكم أيها المؤمنون ، هؤلاء الكفار بما جاء به محمد صلى الله عليه وآله وسلم وعلى هذا فمعنى بما تقولون : بما تقولونه من الحق وقرىء فقد كذبوكم مخففاً ، وبما يقولون بالتحتية أي كذبوكم في قولهم .

﴿ فما تستطيعون ﴾ أيها الكفار ﴿ صرفاً ﴾ أي دفعاً للعذاب عنكم بوجه من الوجوه وقيل حيلة ﴿ ولا نصراً ﴾ أي نصركم،وقرىء بالتحتية فالمعنى فما يستطيع آلهتكم ان يصرفوا عنكم العذاب او ينصروكم ، وقيل المعنى فما يستطيع هؤلاء الكفار لما كذبهم المعبودون صرفاً للعذاب الذي عذبهم الله به ولا نصراً من الله وقال أبو عبيد : المعنى فما يستطيعون لكم صرفا عن الحق الذي هداكم الله إليه ولا نصراً لأنفسهم بما ينزل بهم من العذاب بتكذيبهم إياكم ﴿ ومن يظلم منكم نذقه عذاباً كبيراً ﴾ هذا وعيد لكل ظالم ويدخل تحتهم الذين فيهم السياق دخولاً أولياً، والعذاب الكبير عذاب النار،وفسر الخلود فيها،وهو يليق بالمشرك دون الفاسق إلا على قول المعتزلة والخوارج .

وقرىء يذقه بالتحتية وهذه الآية وأمثالها مقيدة بعدم التوبة، وعن الحسن قال : الظلم هو الشرك،وقال ابن جريج : يظلم يشرك ثم يرجع سبحانه إلى

خطاب رسوله موضحاً لبطلان ما تقدم من قولهم يأكل الطعـام ويمشي في الأسواق فقال :

﴿ وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق ﴾ قال الزجاج : الجملة الواقعة بعد إلا صفة لموصوف محذوف والمعنى ما أرسلنا قبلك أحداً منهم الا آكلين وماشين فأنت مثلهم في ذلك وقد قيل لهم مثل ما قيل لك، وقال الفراء : لا محل لها من الإعراب انما هي صلة لموصول محذوف والتقدير إلا من أنهم كما في قوله ﴿ إلا واردها ﴾ أي إلا من يردها،وبه قال الكسائي وقال الزجاج : هذا خطأ لأن من الموصولة لا يجوز حذفها،وقال ابن الانباري : التقدير إلا وإنهم،وقرىء إنهم بكسر إن لوجود اللام في خبرها وهو مجمع عليه عند النحاة . وقال المبرد : يجوز فيه الفتح،قال النحاس : وأحسبه وهماً. وقرىء يمشون مخففاً ومثقلاً . قال قتادة : يقول إن الرسل قبل محمد ﷺ كانوا بهذه المنزلة يأكلون ويمشون .

﴿ وجعلنا بعضكم لبعض فتنة ﴾ هذا الخطاب عام للناس ، وفيه تسلية له ﷺ أيضاً ، فإنه أشرف الأشراف ، وقد ابتلى بأخس الأخساء ، وقد جعل سبحانه بعض عبيده فتنة لبعض ، فالصحيح فتنة للمريض ، والغني فتنـة للفقير،وقيل المراد بالبعض الأول كفار الأمم ، وبالبعض الثاني الرسل ، ومعنى الفتنـة الابتلاء ، والمحنـة . والأول أولى ، فإن البعض من النـاس ممتحن بالبعض مبتلى به فالمريض يقول لِمَ لم أجعل كالصحيح ؟ وكذا صاحب كل آفة ، والصحيح مبتلى بالمريض ، فلا يضجر منه ولا يحقره،والغني مبتلى بالفقير يواسيه ، والفقير مبتلى بالغنى يحسده ، ونحوه هذا مثله .

وقيل المراد بالآية أنه كان إذا أراد الشريف أن يسلم ، ورأى الوضيع قد أسلم قبله ، أنف وقال : لا أسلم بعده فيكون له علي السابقة والفضل ! فيقيم على كفره . فذلك افتتان بعضهم ببعض،واختار هذا الفراء والزجاج ولا وجه لقصر الآية على هذا ؛ فإن هؤلاء إن كانوا سبب النزول فالاعتبار بعموم

اللفظ لا بخصوص السبب . وقال الحسن : في الآية يقول الفقير لو شاء الله جعلني غنياً مثل فلان ، ويقول السقيم : لو شاء الله لجعلني صحيحاً مثل فلان ويقول الأعمى : لو شاء الله لجعلني بصيراً مثل فلان .

وعن أبي الدرداء أنه سمع النبي ﷺ يقول : «ويل للعالم من الجاهل وويل للجاهل من العالم ، وويل للمالك من المملوك ، وويل للمملوك من المالك ، وويل للشديد من الضعيف وويل للضعيف من الشديد ، وويل للسلطان من الرعية ، وويل للرعية من السلطان بعضكم لبعض فتنة،وهو قوله تعالى ﴿ وجعلنا بعضكم لبعض فتنة ﴾[1] أسنده الثعلبي ثم قال سبحانه بعد الإخبار بجعل البعض فتنة للبعض :

﴿ أتصبرون ﴾ هذا الاستفهام للتقرير والتقدير : أتصبرون على ما ترون من هذه الحالة الشديدة والابتلاء العظيم فتؤجروا أم لا تصبرون فيزداد غمكم، وعليه جرى الأكثرون وقيل : معنى أتصبرون اصبروا مثل قوله ﴿ فهل أنتم منتهون ﴾ أي انتهوا، روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله قال : «انظروا إلى من هو أسفل منكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم[2] » ثم وعد الله الصابرين بقوله :

﴿ وكان ربك بصيراً ﴾ أي بكل من يصبر ومن لا يصبر فيجازي كُلًّا منهما بما يستحقه ﴿ وقال الذين لا يرجون لقاءنا ﴾ هذه المقالة من جملة شبههم التي قدحوا بها في النبوة أي وقال : المشركون الذين لا يبالون بلقاء الله وقيل المعنى لا يخافون لقاء ربهم بالشر، وهي لغة تهامة، وأصل اللقاء الوصول إلى الشيء ومنه الرؤية فإنها وصول إلى المرئي، والمراد به الوصول إلى جزائه، ويمكن أن يراد به الرؤية على الأول، قال الفراء : وضع الرجاء موضع الخوف . وقيل : لا يأملون لقاءنا بالخير لكفرهم بالبعث والحمل على المعنى الحقيقي أولى

(١) الأحاديث الضعيفة ٦١٥٤ ـ ٦١٥٥ ، من حديثين حتى ويل للمملوك من المالك.
(٢) مسلم ٢٩٦٣ ـ البخاري ٢٤٣٤ .

۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ لَقَدِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ وَعَتَوۡ عُتُوّٗا كَبِيرٗا ﴿٢١﴾ يَوۡمَ يَرَوۡنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشۡرَىٰ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُجۡرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ يَوۡمَئِذٍ خَيۡرٞ مُّسۡتَقَرّٗا وَأَحۡسَنُ مَقِيلٗا ﴿٢٤﴾ وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّ لِلرَّحۡمَٰنِۚ وَكَانَ يَوۡمًا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ عَسِيرٗا ﴿٢٦﴾ وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا ﴿٢٧﴾

فالمعنى لا يأملون لقاء ما وعدنا على الطاعة من الثواب ومعلوم أن من لا يرجو الثواب لا يخاف العقاب .

﴿ لولا ﴾ هَلاّ ﴿ أنزل علينا الملائكة ﴾ فيخبروننا أن محمداً ﷺ صادق، أو هَلاّ أنزلوا علينا رسلاً يرسلهم الله ﴿ أو نرى ربنا ؟ ﴾ عياناً فيخبرنا بأن محمداً ﷺ رسول، ثم أجاب الله سبحانه عن شبهتهم هذه فقال :

﴿ لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً ﴾ أي أضمروا الاستكبار عن الحق والعناد في قلوبهم كما في قوله تعالى ﴿ إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه ﴾ والعتو مجاوزة الحد في الطغيان والبلوغ إلى أقصى غاياته قال ابن عباس : عتوا أي شدة الكفر، ووصفه بالكبر لكون التكلم بما تكلموا به من هذه المقالة الشنيعة في غاية الكبر والعظم، فإنهم لم يكتفوا بإرسال البشر حتى طلبوا إرسال الملائكة إليهم بل جاوزوا ذلك إلى التخيير بينه وبين مخاطبة الله سبحانه ورؤيته في الدنيا من دون ان يكون بينهم وبينه ترجمان، ولقد بلغ هؤلاء الرذالة بأنفسهم مبلغاً، هي أحقر وأقل وأرذل من أن تكون من أهله أو تعد من المستعدين له، وهكذا من جهل قدر نفسه ولم يقف عند حده ومن جهلت نفسه قدره رأى غيره منه ما لا يرى.

﴿ يوم ﴾ أي : اذكر يوم ﴿ يرون الملائكة ﴾ أي ملائكة العذاب رؤية

ليست على الوجه الذي طلبوه والصورة التي اقترحوها، بل على وجه آخر وهو يوم ظهورهم لهم عند الموت أو عند الحشر، قال مجاهد : يوم القيامة، وعن عطية العوفي نحوه .

﴿ لا بشرى يومئذ للمجرمين ﴾ أي يمنعون البشرى يوم يرون، أو لا توجد لهم بشرى فيه ، فأعلم سبحانه بأن الوقت الذي يرون فيه الملائكة وهو وقت الموت أو يوم القيامة قد حرمهم الله البشرى، بخلاف المؤمنين فلهم البشرى بالجنة، قال الزجاج : المجرمون في هذا الموضع الذين اجترموا الكفر بالله ، وهو ظاهر في موضع مضمر، أو عام يتناولهم بعمومه ، وهم الذين اجترموا الذنوب والمراد : الكفار ، لأن مطلق الأسماء يتناول أكمل المسميات .

﴿ ويقولون ﴾ عند مشاهدتهم للملائكة : ﴿ حجراً ﴾ حراماً ﴿ محجوراً ﴾هذه كلمة كانوا يتكلمون بها عند لقاء عدو ، وهجوم نازلة هائلة ، يضعونها موضع الاستعاذة يقال للرجل: أتفعل كذا ؟ فيقول : حجرا محجوراً أي حراماً عليك التعرض لي .

والمعنى يطلبون من الله أن يمنع المكروه فلا يلحقهم أي : يسأله أن يمنع ذلك منعاً، ويحجره حجراً . وقيل إن هذا من الملائكة أي يقولون للكفار : حراماً محرماً أن يدخل أحد منكم الجنة. وأن تكون البشرى اليوم إلا للمؤمنين وقال أبو سعيد الخدري : حراماً محرماً أن نبشركم مما نبشر به المتقين ، وعن الحسن . وقتادة قالا : هي كلمة كانت العرب تقولها عند الشدائد، وقال مجاهد : أي عوذاً معاذ الملائكة تقوله والحجر مصدر بمعنى الاستعاذة، والكسر والفتح لغتان وقرىء بهما ، وقرىء الضم وهو لغة فيه وهو من حجره إذا منعه وقد ذكر سيبويه في باب المصادر المنصوبة بأفعال متروك إظهارها ، هذه الكلمة ، وجعلها من جملتها ، وبه قال السمين ، والبيضاوي . والحجر : العقل ، لأنه يمنع صاحبه ، ومحجوراً صفة مؤكدة للمعنى ، كقولهم ذيل ذائل وموت مائت .

﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل ﴾ هذا وعيد آخر ، وذلك أنهم كانوا يعملون أعمالاً لها صور الخير ، من صلة الرحم ، وإغاثة الملهوف ، وإطعام الطعام ، وأمثالها ولم يمنع من الأثابة عليها إلا الكفر ، الذي هم عليه فمثلت حالهم وأعمالهم ، بحال قوم خالفوا سلطانهم ، واستعصوا عليه ، فقدم إلى ما معهم من المتاع فأفسده ، ولم يترك منه شيئاً، وإلا فلا قدوم ههنا أو هو من الصفات ، كالمجيء والنزول ، فيجب الإيمان به من غير تأويل ، ولا تعطيل ، ولا تكييف ولا تشبيه ، ولا تمثيل ، كما هو مذهب السلف الصلحاء ، وهو الحق .

قال الواحدي : معنى قدمنا عمدنا ، وقصدنا ، يقال : قدم فلان إلى امر كذا إذا قصده ، أو عمده، وقيل هو قدوم الملائكة أخبر به عن نفسه تعالى والقصد في حق الله يرجع لمعنى الإرادة .

﴿ فجعلناه هباء منثوراً ﴾ أي باطلاً، لا ثواب له ، لأنهم لم يعملوا لله عز وجل ومنه الحديث الصحيح « كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد »[1] والهباء واحده هباءة ، والجمع أهباء . قال النضر بن شميل : الهباء التراب الذي تطيره الريح ، كأنه دخان . وقال الزجاج : هو ما يدخل من الكوة مع ضوء الشمس شبه الغبار . وكذا قال الخليل ، والأزهري . وقال ابن عرفة : الهباء ، والهبوة التراب الدقيق . وقيل هو ما يسطع من حوافر الدواب ، عند السير من الغبار، وعن علي قال : الهباء شعاع الشمس ، الذي يخرج من الكوة ، وعنه الهباء وهج الغبار ، يسطع ، ثم يذهب ، فلا يبقى منه شيء .

وعن ابن عباس قال : الهباء الذي يطير من النار إذا اضطرمت يطير منها الشرر ، فإذا وقع لم يكن شيئاً، وعنه قال : هو ما تسفي الريح ، وتبثه من

(١) مسلم ١٧١٨ ـ البخاري ١٣٠٣ .

التراب وحطام الشجر . وعنه هو الماء المهراق . والمعنى الأول هو الذي ثبت في لغة العرب ، ونقله العارفون بها ، والمنثور المفرق،والمعنى أن الله سبحانه أحبط أعمالهم حتى صارت بمنزلة الهباء المنثور ، لم يكتف سبحانه بتشبيه عملهم بالهباء حتى وصفه بأنه متفرق متبدد ، وبالجملة هو استعارة عن جعله بحيث لا يقبل الاجتماع ولا يقع به الانتفاع . إذ لا ثواب فيه ، لعدم شرطه ويجازون عليه في الدنيا . ثم ميز سبحانه حال الأبرار من حال الفجار فقال :

﴿ أصحاب الجنة يومئذ ﴾ أي يوم القيامة ﴿ خير مستقراً ﴾ أي أفضل منزلاً في الجنة ، من الكافرين في الدنيا ﴿ وأحسن مقيلاً ﴾ أي موضع قائلة فيها،أو هم خير منهم في الآخرة لو فرض أن يكون لهم ذلك ، أو أفعل لمجرد الوصف من غير مفاضلة . عن ابن عباس قال : في الغرف من الجنة. قال النحاس : والكوفيون يجيزون «العسل أحلى من الخل» .قال ابن مسعود : لا ينتصف النهار من يوم القيامة حتى يقيل أهل الجنة في الجنة ، وأهل النار في النار . وقال الأزهري : القيلولة عند العرب الاستراحة نصف النهار إذا اشتد الحر ، وإن لم يكن مع ذلك نوم لأن الله تعالى قال : ﴿ وأحسن مقيلاً ﴾ والجنة لا نوم فيها.

وقال ابن عباس : الحساب في ذلك اليوم في أوله ، ويروى أن يوم القيامة يقصر على المؤمنين حتى يكون كما بين العصر إلى الغروب . والآية أشارت إلى أن كُلًّا من أهل الجنة وأهل النار قد قالوا ، أي : استقروا في وقت القيلولة ، وإن كان استقرار المؤمنين في راحة ، واستقرار الكافرين في عذاب فيكون الحساب لجميع الخلق قد انقضى في هذا الوقت .

﴿ ويوم تشقق السماء بالغمام ﴾ وصف سبحانه ههنا بعض حوادث يوم القيامة ، والتشقق التفتح ،قرىء بتخفيف الشين وأصله تشقق ، وقرىء مشدداً على الإدغام ، والمعنى أنها تتشقق عن الغمام لأن الباء وعن ، تتعاقبان كما تقول رميت بالقوس . قال أبو علي الفارسي : تشقق السماء وعليها غمام كما تقول : ركب الأمير بسلاحه . أي : وعليه سلاحه ، وخرج بثيابه ، أي : وعليه ثيابه ، وروي أن السماء تتشقق عن سحاب رقيق ، أبيض ، مثل

الضبابة . ولم يكن إلا لبني إسرائيل في تيههم ، وقيل : إن السماء تتشقق بالغمام الذي بينها وبين الناس ، والمعنى : أنه يتشقق السحاب بتشقق السماء . وقيل : إنها تشقق لنزول الملائكة ، كما قال سبحانه .

﴿ ونزل الملائكة تنزيلاً ﴾ وقيل : الباء للسببية يعني بسبب طلوع الغمام منها ، كأنه الذي يتشقق به السماء ، وقيل : أي متلبسة بالغمام ، وقرىء ننزل مخففاً من الإنزال ، مضارع أنزل، وقرىء نزل مشدداً ماضياً مبنياً للمفعول ، وقرىء مبنياً للفاعل ، وفاعله الله سبحانه ، والملائكة منصوبة على المفعولية . وقرىء أنزل ، وقرىء تنزلت الملائكة ، وتأكيد هذا الفعل بقوله تنزيلاً ، يدل على أن هذا التنزيل على نوع غريب ، ونمط عجيب . قال أهل العلم : هذا تنزيل رضا ورحمة ، لا تنزيل سخط وعذاب .

وعن ابن عباس[1] قال في الآية : يجمع الله الخلق يوم القيامة ، في صعيد واحد ، الجن والإنس والبهائم والسباع والطير ، وجميع الخلق فتنشق السماء الدنيا ، فينزل أهلها ، وهم أكثر ممن في الأرض ، من الجن والإنس ، وجميع الخلق ، فيحيطون بالإنس والجن وجميع الخلق . فيقول أهل الأرض أفيكم ربنا ؟ فيقولون لا ، ثم تنشق السماء الثانية ، وذكر مثل ذلك ، ثم كذلك في كل سماء ، إلى السماء السابعة ، وفي كل سماء أكثر من السماء التي قبلها ، ثم ينزل ربنا في ظل من الغمام وحوله الكروبيون ، وهم أكثر من أهل السموات السبع والأنس والجن ، وجميع الخلق ، لهم قرون ككعوب القثاء ، وهم تحت العرش ، لهم زجل بالتسبيح والتهليل والتقديس لله تعالى ، ما بين أخمص قدم أحدهم إلى كعبه مسيرة خمسمائة عام ، ومن ركبته إلى فخذه مسيرة خمسمائة عام ، ومن فخذه إلى ترقوته مسيرة خمسمائة عام ، وما فوق ذلك مسيرة خمسمائة عام . أخرجه الحاكم وابن أبي الدنيا وابن جرير وغيرهم .

---

(١) حديث موقوف على ابن عباس ولا يعد حجة في مشاهد القيامة ، وفي الأسانيد التي رواها ابن جرير وغيره مجاهيل وكذابون « المطيعي » .

﴿ الملك يومئذ الحق للرحمن ﴾ أي الملك الثابت الذي لا يزول ولا يشركه فيه أحد ، للرحمن يومئذ ، لأن الملك الذي يزول وينقطع ، ليس بملك في الحقيقة . ولأن السلطان الظاهر والاستيلاء الكلي العام الثابت صورة ومعنى ظاهراً وباطناً بحيث لا زوال له أصلاً ، لا يكون إلا الله تعالى . فالملك مبتدأ ، والحق صفته، وللرحمن خبره ، ويومئذ متعلق بالملك، وفائدة التقييد بالظرف . أن ثبوت الملك المذكور له سبحانه خاصة في هذا اليوم ، وأما فيما عداه من أيام الدنيا فلغيره أيضاً ملك في الصورة ، وإن لم يكن حقيقياً . وقيل إن خبر المبتدأ هو الظرف ، والحق نعت للملك . والمعنى الملك الثابت للرحمن خاصة في هذا اليوم، وقيل الملك مبتدأ ، والحق خبره ، وللرحمن متعلق بالحق .

﴿ وكان يوماً على الكافرين عسيراً ﴾ أي وكان هذا اليوم مع كون الملك فيه لله وحده ، شديداً على الكفار لما يصابون به فيه وينالهم من العقاب ، بعد تحقيق الحساب . وأما على المؤمنين فهو يسير غير عسير لما ينالهم فيه من الكرامة والبشرى العظيمة . وجاء في الحديث « أنه يهون يوم القيامة على المؤمن ، حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة صلاها في الدنيا » .

﴿و﴾ اذكر ﴿يوم يعض الظالم على يديه﴾ الظاهر أن العض هنا حقيقة ولا مانع من ذلك ، ولا موجب لتأويله ، قال عطاء : يأكل الظالم يديه ، حتى يأكل مرفقيه ، ثم ينبتان ، ثم يأكلهما ، وهكذا كلما نبتت يداه أكلهما تحسّراً على ما فعل، ذكره الخازن . وقيل هو كناية عن الغيظ والحسرة والأول أولى . والمراد بالظالم كل ظالم يرد ذلك المكان وينزل ذلك المنزل، ولا ينافيه ورود الآية على سبب خاص ، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب . وعن ابن عباس قال في الآية : هو أبيّ بن خلف ، وعقبة بن أبي معيط وهما الخليلان في جهنم .

﴿ يقول يا ﴾ قوم ﴿ ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً ﴾ أي طريقاً . وهو طريق الحق ومشيت فيه ، حتى أخلص من هذه الأمور المضلة . والمراد اتباع النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيما جاء به ، يعني ليتني اتبعت محمداً صلى الله

يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي ۗ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾

عليه وآله وسلم واتخذت في الدنيا معه طريقاً. إلى الهداية ﴿ يا ويلتى ﴾ وقرىء يا ويلي ، بالياء الصريحة . وقرىء بالإمالة ، وتركها أحسن .

﴿ ليتني لم اتخذ فلاناً خليلاً ﴾ دعا على نفسه بالويل والثبور وعلى مخاللة الكافر ، الذي أضلّه في الدنيا ، وفلان كناية عن الأعلام . قال النيسابوري : زعم بعض أئمة اللغة أنه لم يثبت استعمال فلان في الفصيح إلا حكاية . لا يقال جاءني فلان ، ولكن يقال : قال زيد ُجاءني فلان ، لأنه اسم اللفظ الذي هو علم الاسم ، وكذلك جاء في كلام الله وقيل فلان كناية عن علم ذكور من يعقل ، وفلانة عن علم إناثهم ، وهو منصرف .

وقيل كناية عن نكرة من يعقل من الذكور، وفلانة عمن يعقل من الإناث ، وأما الفلان ، والفلانة بالألف واللام فكناية عن غير العقلاء . و فل يختص بالنداء إلا في ضرورة الشعر ، وليس فل مرخماً من فلان خلافاً للفراء ، وزعم أبو حيان أن ابن عصفور وابن مالك ، وهما في جعل فلان كناية علم من يعقل ، وفي لامه وجهان ؛ أحدهما : انها واو . والثاني : أنها ياء ، وحكم الآية عام في كل خليلين ومتحابين ، اجتمعا على معصية الله عز وجل .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :

« يحشر المرء على دين خليله ؛ فلينظر أحدكم من يخالل » أخرجه أبو داود والترمذي[١] ولهما عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « لا تصاحب إلا مؤمناً . ولا يأكل طعامك إلا تقي » وروى الشيخان عن أبي[٢] موسى الاشعري عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : « مثل الجليس الصالح ، وجليس السوء ، كحامل المسك ، ونافخ الكير ، فحامل المسك إما أن يحذيك ، وإما أن تبتاع منه ، وإما أن تجد منه ريحاً طيبة ، ونافخ الكير إما يحرق ثيابك ، وإما أن تجد منه ريحاً خبيثة »[٣]

﴿ لقد ﴾ أي : والله لقد ﴿ أضلني ﴾ هذا الذي اتخذته خليلاً ، تعليل لتنمية المذكور ، وتوضيح لتعلله ، وتصديره باللام القسمية للمبالغة في بيان خطئه وإظهار ندمه وحسرته . ﴿ عن الذكر ﴾ أي : القرآن أو كتاب الله ، أو ذكره أو الموعظة أو كلمة الشهادة أو مجموع ذلك .

﴿ بعد إذ جاءني ﴾ وتمكنت منه ، وقدرت عليه بأن ردني عن الإيمان به ﴿وكان الشيطان للإنسان خذولاً ﴾ بأن يتركه ، ويتبرأ منه عند البلاء ، والخذل : ترك الإغاثة ، ومنه خذلان إبليس للمشركين ، حيث يوالونه ، ثم يتركهم عند استغاثتهم به ، وهذه الجملة مقررة لمضمون ما قبلها ، ويحتمل ان تكون من كلام الله تعالى ، أو من تمام كلام الظالم ، وأنه سمى خليله شيطاناً بعد أن جعله مضلاً ، أو أراد بالشيطان إبليس ، لكونه الذي حمله على مخاللة المضلين .

﴿ وقال الرسول ﴾ أي : يقول في يوم القيامة بثاً وشكاية لله مما صنع

---

(١) الترمذي كتاب الزهد باب ٢٥ .
(٢) الإمام احمد ٣٨/٣ ـ الدارمي كتاب الأطعمة باب ٢٣ .
(٣) مسلم ٢٦٢٨ ـ البخاري ١٠٦٤ .

قومه ، أو هو حكاية لقوله صلى الله عليه وآله وسلم في الدنيا : ﴿ يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن ﴾ الذي جئت به إليهم وأمرتني بإبلاغه وأرسلتني به ﴿ مهجوراً ﴾ أي : متروكاً ، لم يؤمنوا به ، ولا قبلوه بوجه من الوجوه أو لم يعملوا به . وقيل من هجر إذا هذي ، والمعنى أنهم اتخذوه هجراً وهذياناً . وقيل : المعنى مهجوراً فيه ، وهجرهم فيه قولهم : إنه سحر ، وشعر ، وأساطير الأولين .

﴿ وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين ﴾ هذا تسلية لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، والمعنى : أن الله جعل لكل نبي من الأنبياء الداعين إلى الله عدواً يعاديه من مجرمي قومه فلا تجزع يا محمد ، فإن هذا دأب الأنبياء قبلك ، واصبر كما صبروا . قال ابن عباس في الآية : كان عدو النبي صلى الله عليه وآله وسلم أبو جهل ، وعدو موسى قارون ، وكان قارون ابن عم موسى ﴿ وكفى بربك ﴾ الباء زائدة ﴿ هادياً ﴾ يهدي عباده إلى مصالح الدين والدنيا ﴿ ونصيراً ﴾ ينصرهم على الأعداء .

﴿وقال الذين كفروا: لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة؟﴾ هذا من جملة اقتراحاتهم وتعنتاتهم، أي: هَلَّا أنزل الله عليه الكتاب دفعة واحدة غير منجم، كما أنزلت التوراة على موسى، والإنجيل على عيسى، والزبور على داود عليهم السلام. واختلف في قائل هذه المقالة، فقيل كفار قريش، وقيل اليهود قالوا: هَلَّا أتيتنا بالقرآن جملة واحدة؟ وهذا زعم باطل،ودعوى داحضة، فإن هذه الكتب نزلت مفرقة كما نزل القرآن، ولكنهم معاندون، أو جاهلون لا يدرون بكيفية نزول كتب الله سبحانه على أنبيائه،واعتراض منهم لا طائل تحته، لأن الإعجاز لا يختلف بنزوله جملة أو متفرقاً، مع أن للتفريق فوائد، منها أن نزوله بحسب الوقائع، يوجب مزيد بصيرة وغوص على المعنى ولأنه إذا نزل منجماً وهو يتحدى بكل نجم فيعجزون عن معارضته زاد ذلك في قوة

قلبه، ومنها انضمام القرائن الحالية إلى الدلالات اللفظية فإنه يعين على البلاغة ثم رد الله سبحانه عليهم فقال:

﴿كذلك﴾ إشارة الى ما يفهم من كلامهم أي مثل ذلك التنزيل المفرّق، الذي قدحوا فيه واقترحوا خلافه نزلناه ﴿لنثبت﴾ لنقوي ﴿به﴾ أي بهذا التنزيل على هذه الصفة ﴿فؤادك﴾ فإن إنزاله مفرقاً منجماً، على حسب الحوادث، أقرب إلى حفظك له وفهمك لمعانيه، وذلك من أعظم أسباب التثبيت،وقرأ ليثبت بالتحتية أي الله سبحانه.

وقيل قوله: ﴿كذلك﴾ هي من تمام كلام المشركين، والمعنى كذلك أي كالتوراة والإنجيل والزبور فيوقف على قوله:﴿كذلك﴾ ثم يبتدأ بقوله: ﴿لنثبت به فؤادك﴾ على معنى أنزلناه عليك متفرقاً لهذا الغرض. قال ابن الانباري: وهذا أجود وأحسن قال النحاس: وكان ذلك أي إنزال القرآن منجماً من اعلام النبوة لأنهم لا يسألونه عن شيء إلا أجيبواعنه،وهذا لا يكون إلا من نبي، فكان ذلك تثبيتاً لفؤاده وأفئدتهم. قال ابن عباس: أي لنشدد به فؤادك، ونربط على قلبك، والمعنى أنزلناه مفرقاً لتعيه وتحفظه. فإن الكتب المتقدمة نزلت على أنبياء يكتبون ويقرؤون، وأنزل القرآن على نبي إمي لا يكتب ولا يقرأ،ولأن من القرآن الناسخ والمنسوخ، ومنه ما هو جواب سؤال عن أمور تحدث في الأوقات المختلفة،ففرقناه ليكون أدعى لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأيسر على العامل به.

﴿ورتلناه ترتيلاً﴾ بديعاً، لا يقادر قدره ومعنى الترتيل أن تكون آية بعد آية، قاله النخعي والحسن وقتادة. وقيل إن المعنى بيناه تبييناً، وقال السدي: فصلناه تفصيلاً، وقال ابن عباس: رسلناه ترسيلاً يقول شيئاً بعد شيء وقال مجاهد: بعضه في إثر بعض قال ابن الاعرابي: ما أعلم الترتيل إلا التحقيق والتبيين، وقيل قرأناه عليك بلسان جبريل شيئاً بعد شيء في عشرين أو ثلاث وعشرين سنة على تؤدة وتمهل لتيسر فهمه وحفظه،ثم ذكر سبحانه أنهم محجوجون في كل أوان مدفوع قولهم بكل وجه وعلى كل حالة فقال:

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾﴾

﴿ولا يأتونك﴾ أي لا يأتيك يا محمد المشركون ﴿بمثل﴾ من أمثالهم التي من جملتها اقتراحاتهم المتعنتة في إبطال أمرك ﴿إلا جئناك﴾ في مقابلة مثلهم ﴿بالحق﴾ أي بالجواب الحق الثابت الذي يبطل ما جاؤوا به من المثل، ويدمغه ويدفعه. فالمراد بالمثل هنا السؤال، والاقتراح، وبالحق جوابه الذي يقطع ذريعته، ويبطل شهيته، ويحسم مادته، والاستثناء مفرغ من أعم الأحوال والجملة في محل الحال. أي لا يأتونك بمثل في حال من الأحوال إلا في حال إيتائنا إياك ذلك.

﴿ وأحسن تفسيراً ﴾ أي جئناك بأحسن تفسير بياناً وتفصيلاً . وبما هو معنى ومؤدى من مثلهم، أي من سؤالهم،وإنما حذف من مثلهم لأن في الكلام دليلاً عليه، ثم أوعد هؤلاء الجهلة وذمهم فقال ﴿الذين يحشرون﴾ كائنين ﴿على وجوههم﴾ ومعنى الحشر على الوجوه أنهم يسحبون عليها ويطؤون الأرض على رؤوسهم، مع ارتفاع اقدامهم، بقدرة الله، ويساقون ويجرون عليها.

﴿إلى جهنم، أولئك شر مكاناً﴾ أي منزلاً، ومصيراً، ومسكناً وهو جهنم ﴿وأضل سبيلاً﴾ وأخطأ طريقاً من غيرهم، وهو كفرهم، وذلك لأنهم قد صلوا في النار. وهو من الإسناد المجازي. وقد تقدم تفسير مثل هذه الآية في سوره سبحان، وقد قيل: إن هذا متصل بقوله أصحاب الجنة يومئذ خيراً مستقراً وأحسن مقيلاً.

﴿ولقد﴾ أي والله لقد ﴿آتينا موسى الكتاب﴾ أي التوراة كما آتيناك القرآن ذكر سبحانه طرفاً من قصص الأولين تسلية له ﷺ بأن تكذيب قوم أنبياء الله لهم عادة للمشركين بالله، وليس ذلك بخاص بمحمد ﷺ ﴿وجعلنا معه أخاه هرون وزيراً﴾ أي عوناً وعضداً في الدعوة، وإعلاء الكلمة قاله قتادة، وقال الزجاج: الوزير في اللغة الذي يرجع إليه، ويعمل برأيه، والوزر ما يعتصم به، ومنه: كلا ولا وزر ، وقد تقدم تفسير الوزير في طه ، والوزارة لا تنافي النبوة ، فقد كان يبعث في الزمن الواحد أنبياء ، ويؤمرون بأن يوازر بعضهم بعضاً ، وقد كان هرون في أول الأمر وزيراً لموسى عليهما السلام ، أو لاشتراكهما في النوبة لأن المتشاركين في الأمر متوازران عليه .

﴿فقلنا اذهبا الى القوم الذين كذبوا﴾ وهم فرعون وقومه، يعني القبط ﴿بآياتنا﴾ هي التسع المذكورة التي تقدم ذكرها، وإن لم يكونوا قد كذبوا بها عند أمر الله لموسى وهرون، بالذهاب فيحمل الماضي على معنى الاستقبال أي سيكذبون بها. وقيل إنما وصفوا بالتكذيب عند الحكاية لرسول الله ﷺ بياناً لعلة استحقاقهم للعذاب. وقيل يجوز أن يراد إلى القوم الذين آلـ حالهم إلى أن كذبوا، وقيل إن المراد بوصفهم بالتكذيب عند الإرسال أنهم كانوا مكذبين للآيات الإلهية ، وليس المراد آيات الرسالة. قال القشيري: وقوله تعالى في موضع آخر: ﴿اذهب الى فرعون إنه طغى﴾. لا ينافي هذا لأنهما إذا كانا مأمورين، فكل واحد مأمور، ويمكن أن يقال: إن تخصيص موسى بالخطاب في بعض المواطن لكونه الأصل في الرسالة، والجمع بينهما في الخطاب لكونهما مرسلين جميعاً.

﴿فدمرناهم تدميراً﴾ في الكلام حذف، أي فذهبا إليهم فكذبوهما فأهلكناهم إثر ذلك التكذيب إهلاكاً عظيماً،فاقتصر على حاشيتي القصة اكتفاء بما هو المقصود منها، وهو إلزام الحجة ببعثة الرسل. واستحقاق التدمير بتكذيبهم، وقيل إن المراد هنا الحكم به، لأنه لم يحصل عقب بعث موسى وهرون إليهم، بل بعده بمدة.

﴿و﴾ اذكر ﴿قوم نوح لما كذبوا الرسل﴾ أي كذبوا نوحاً وإنما جمع لطول لبثه فيهم، فكأنه رسل في المعنى، أو كذبوه. وكذبوا من قبله من رسل الله، لاشتراكهم في المجيء بالتوحيد: قال الزجاج: من كذب نبياً فقد كذب جميع الأنبياء.

﴿أغرقناهم﴾ بالطوفان، كما تقدم في هود ﴿وجعلناهم﴾ أي جعلنا إغراقهم، أو قصتهم ﴿للناس﴾ كلهم بعدهم ﴿آية﴾ أي عبرة يتعظ بها كل مشاهد لها، وسامع لخبرها ﴿واعتدنا﴾ في الآخرة ﴿للظالمين﴾ الكافرين أي قوم نوح خاصة،فيكون وضعاً للظاهر موضع الضمير تسجيلاً عليهم بوصف الظلم: ويجوز ان يكون المراد كل من سلك مسلكهم في التكذيب ﴿عذاباً أليماً﴾ هو عذاب الآخرة، سوى ما حل بهم من عاجل العذاب في الدنيا.

﴿و﴾ اذكر ﴿عاداً﴾ قوم هود ﴿وثمود﴾ قوم صالح، وقصتهما قد ذكرت فيما سبق، وثمود بالصرف على معنى الحي، وتركه على تأويله بالقبيلة قراءتان سبعيتان ﴿وأصحاب الرسّ﴾ هو في كلام العرب البئر التي تكون غير مطوية أي لم نبن بالحجارة والجمع رساس، كذا قال أبو عبيدة، وقيدها أهل اللغة، كصاحب القاموس، بأنها التي طويت، اي بنيت بالحجارة، فيؤخذ من مجموع النقلين أن الرسّ ابتداء الشيء، ومنه رسّ الحمى ورسيسها، والبئر المطوية بالحجارة انتهى قال السدي: هي بئر بأنطاكية قتلوا فيها حبيب النجار، فنسبوا إليها،وهو صاحب يٓس الذي قال ﴿يا قوم اتبعوا المرسلين﴾، وكذا قال مقاتل وعكرمة وغيرهما وقيل هم قوم بأذربيجان قتلوا أنبياءهم، فجفت أشجارهم، وزروعهم، فماتوا جوعاً وعطشاً.

وقيل كانوا يعبدون الشجر وقيل كانوا يعبدون الأصنام فأرسل الله إليهم شعيباً عليه السلام فكذبوه وآذوه، وقيل بئر بفلج اليمامة قرية عظيمة بناحية اليمن. أو موضع باليمن من مساكن عاد، وهم قوم أرسل الله إليهم نبياً فقتلوه وقيل هم أصحاب الأخدود؛ وقيل إن الرس هي البئر المعطلة التي تقدم ذكرها او

صحابها أهلها، وقال في الصحاح: الرس إسم بئر كانت لبقية ثمود، وقيل الرس ماء ونخل لبني أسد وقيل هو الثلج المتراكم في الجبال، أو الرس اسم واد قريب من البصرة قاله ابن كثير والرس ايضاً الاصلاح بين الناس، والإفساد بينهم فهو من الأضداد .

وقيل الرس نهر بالشرق وقيل هم قوم كذبوا نبيهم ورسوه أي دسوه في بئر فبينما هم حول الرس ـ وهي البئر غير المطوية ـ فانهارت فخسف بهم وبمنازلهم وديارهم،وقيل هم اصحاب حنظلة بن صفوان وهم الذين ابتلاهم الله بالطائر المعروف العنقاء قال ابن عباس: الرس قرية من ثمود وعنه بئر بأذربيجان وعنه أنه سأل كعباً عن اصحاب الرس قال: صاحب يّس،وورد عن محمد بن كعب القرظي في صاحب الرس خبر طويل مرفوع فيه نكارة وغرابة ولعل فيه إدراجاً كما قال ابن كثير في تفسيره والحديث ايضاً مرسل.

﴿وقروناً بين ذلك كثيراً﴾ القرون جمع قرن اي أهل قرون يعني واذكر أقواماً، والقرن مائة سنة،قاله قتادة وقيل مائة وعشرون سنة قاله زرارة بن اوفى وقيل اربعون سنة وقيل سبعون سنة قاله قتادة ايضاً وقد روي مرفوعاً الى النبي ﷺ أنه قال «القرن مائة سنة» وقال القرن خمسون سنة وقال القرن أربعون سنة، وما أظنه يصح شيء من ذلك وقد سمي الجماعة من الناس قرناً كما في الحديث الصحيح «خير القرون قرني»[1] وأخرج الحاكم في الكني عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ إذا انتهى الى معد بن عدنان أمسك ثم يقول: «كذب النسابون، قال الله وقروناً بين ذلك كثيراً والإشارة بقوله﴿بين ذلك﴾إلى ما تقدم ذكره من الأمم اي بين عاد وأصحاب الرس. وهم جماعات فلذلك حسن دخول ﴿بين﴾ عليه وقد يذكر الذاكر أشياء مختلفة ثم يشير إليهابذلك،ويحسب الحاسب أعداداً متكاثرة ثم يقول: فذلك كيت وكيت أي ذلك المحسوب، أو المعدود .

---

(١) الترمذي كتاب الفتن باب ٤٥ ـ البخاري كتاب الشهادات باب ٩.

﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾

﴿وكُلًّا﴾ أي كل الأمم ﴿ضربنا له الأمثال﴾ أي القصص العجيبة من قصص الأولين التي تشبه الأمثال في الغرابة وبينا لهم الحجة فلم نهلكهم إلا بعد الإنذار،ولم نضرب لهم الأمثال الباطلة كما يفعله هؤلاء الكفرة ﴿وكُلًّا تبرنا تتبيراً﴾ التتبير الإهلاك بالعذاب،قال الزجاج؛ كل شيء كسرته وفتته فقد تبرته،ومنه التبر لفتات الذهب والفضة وقال المؤرج والأخفش: معناه دمرنا تدميراً أبدلت التاء، الباء من الدال والميم.

﴿ولقد أتوا على القرية﴾ مستأنفة مبينة لمشاهدتهم لآثار هلاك بعض الأمم، وضمن أتى معنى مر لأنه يستعمل متعدياً بنفسه أو بإلى،والمعنى ولقد أتى مشركو مكة في أسفارهم الى الشام، على قرية قوم لوط، وهي سدوم، وهي أعظم قرى قومه وكانت خمساً. اهلك الله أربعاً مع اهلها، وبقيت واحدة، وهي أصغرها، وكان أهلها لا يعمل الخبائث.

﴿التي أمطرت مطر السوء﴾ وهو الحجارة، قاله ابن عباس، والأمطار معناه الرمي، أي: هلكت بالحجارة، التي أمطروا بها، ورميت رمي الحجارة، والمعنى أعطيتها وأوليتها، مطر السوء، أي أمطاراً مثل مطر السوء وقد تقدم، تفسير السوء في براءة ﴿أفلم يكونوا يرونها﴾ الاستفهام للتقريع والتوبيخ أي يرون القرية

المذكورة عند سفرهم الى الشام للتجارة. فإنهم يمرون بها مراراً أي: يرون آثارها، وآثار ما حل بأهلها، وقيل: للتقرير، أي: حمل المخاطب على الإقرار بما يعرفه، وهو ما بعد النفي، أي: ليقروا بأنهم رأوها حتى يعتبروا بها، والفاء للعطف على مقدر، اي لم يكونوا ينظرون إليها فلم يكونوا يرونها، أو كانوا ينظرون إليها فلم يكونوا يرونها في مرات مرورهم ليتعظوا بما كانوا يشاهدونه من آثار العذاب، فالمنكر في الأول: ترك النظر وعدم الرؤية معاً، والمنكر في الثاني: عدم الرؤية مع تحقق النظر، الموجب لها.

﴿بل كانوا لا يرجون﴾ أي: لا يأملون ﴿نشوراً﴾ أي بعثاً أضرب سبحانه عما سبق، من عدم رؤيتهم لتلك الآثار، الى عدم رجاء البعث منهم، المستلزم لعدم رجائهم للجزاء، أو معنى يرجون يخافون، على اللغة التهامية ﴿وإذا رأوك إن﴾ أي: ما ﴿يتخذونك إلا هزواً﴾ أي مهزواً بك، قصر معاملتهم له على اتخاذهم إياه هزواً، قيل نزلت في أبيّ جهل، كان. إذا مر مع أصحابه قال مستهزياً ﴿أهذا الذي بعث؟﴾ أي بعثه ﴿الله رسولاً﴾ أي مرسلاً في دعواه، وفي اسم الاشارة دلالة على استحقارهم له، وتهكمهم به آ ﴿إن كاد﴾ أي قالوا إنه كاد هذا الرسول ﴿ليضلنا﴾ ليصرفنا ﴿عن آلهتنا﴾ فنترك عبادتها بفرط اجتهاده والدعاء الى التوحيد، وكثرة ما يورده مما يسبق إلى الذهن أنه حجج ومعجزات.

﴿لولا أن صبرنا عليها﴾ اي حبسنا أنفسنا على عبادتها ثم إنه سبحانه أجاب عليهم بقوله: ﴿وسوف يعلمون حين يرون العذاب﴾ عياناً، أي عذاب يوم القيامة الذي يستحقونه، ويستوجبونه، لسبب كفرهم ﴿من أضل سبيلاً﴾ أي أبعد طريقاً عن الحق والهدى، أهم؟ أم المؤمنون؟ ثم بين لهم سبحانه أنه لا تمسك لهم فيما ذهبوا إليه سوى التقليد، واتباع الهوى، فقال معجباً لرسوله:

﴿ارأيت من اتخذ إلّهه هواه﴾ قدم المفعول الثاني للعناية به كما تقول علمت منطلقاً زيداً قاله الزمخشري، اي أطاع هواه طاعة. كطاعة الإلّه، أي انظر إليه يا

محمد، وتعجب منه والوجه الآخر أنه لا تقديم، ولا تأخير، لاستوائهما في التعريف، قاله السمين فادعاء القلب ليس بجيد، لأنه من ضرورات الشعر وقال أبو السعود بالوجه الأول، ثـم قال: ومن توهم أنهما على الترتيب بناء على تساويها في التعريف؛ فقد غاب عنه أن المفعول الثاني في هذا الباب هو المتلبس بالحالة الحادثة، أي أرأيت من جعل هواه إلهاً لنفسه، من غير أن يلاحظه، وبنى عليه امر دينه، معرضاً عن استماع الحجة الباهرة، والبرهان النير بالكلية عن ابن عباس قال: كان الرجل يعبد الحجر الأبيض زماناً من الدهر في الجاهلية، فإذا وجد حجراً أحسن منه، رمى به، وعبد الآخر، فأنزل الله الآية، وعنه قال: ذلك الكافر لا يهوى شيئاً إلا اتبعه، وعن الحسن مثله.

﴿أفأنت تكون عليه وكيلاً ؟﴾ أي حفيظاً، وكفيلاً، حتى ترده الى الايمان وتخرجه من الكفر وتحفظه من اتباع الهوى، وعبادة ما يهواه من دون الله، والاستفهام للإنكار والاستبعاد،فالمعنى لست تقدر على ذلك، ولا تطيقه، فليست الهداية والضلالة موكولتين الى مشيئتك، وإنما عليك البلاغ، وقد قيل إن هذه الآية منسوخة بآية القتال. قاله الكلبي، ثم انتقل سبحانه من الإنكار الأول الى إنكار آخر فقال:

﴿ أم تحسب ان أكثـرهم يسمعـون ؟ ﴾ «مـا تتلو عليهم من آيـات القرآن ، ومن المواعظ سماع تفهم ، واعتبار» ﴿ أو يعقلون ﴾ معاني ذلك ويفهمونه ، حتى تعتني بشأنهم ، وتطمع في إيمانهم ، وليسوا كذلك ، بل هم بمنزلة من لا يسمع ، ولا يعقل . وتخصيص الأكثر بالذكر ، لأنه كان منهم من آمن ، ومنهم من عقل الحق ، وكابر استكباراً وخوفاً على الرياسة ، ثم بين سبحانه حالهم ، وقطع مادة الطمع فيهم فقال:

﴿إن هم﴾ أي ما هم في الانتفاع بما يسمعونه ﴿إلا كالأنعام﴾ التي هي

مسلوبة العقل والفهم، فلا تطمع فيهم فإن فائدة السمع والعقل مفقودة، وإن كانوا يسمعون ما يقال لهم، ويعقلون ما يتلى عليهم، ولكنهم لما لم ينتفعوا بذلك، كانوا كالفاقد له. ثم أضرب سبحانه عن الحكم عليهم، بأنهم كالأنعام، إلى ما هو فوق ذلك؛ فقال:

﴿بل هم أضل﴾ من الأنعام ﴿سبيلاً﴾ اي طريقاً قال مقاتل: البهائم تعرف ربها، وتهتدي إلى مراعيها ومشاربها، وتنقاد لأربابها، وهؤلاء لا ينقادون ولا يعرفون ربهم؛ الذي خلقهم؛ ورزقهم، والمعنى أنها تنقاد لمن يتعهدها وتميز من يحسن إليها ممن يسيء اليها وتطلب ما ينفعها ، وتجتنب ما يضرها ، وهؤلاء لا ينقادون لربهم ، ولا يعرفون إحسانه من إساءة الشيطان ، ولا يطلبون الثواب الذي هو أعظم المنافع ولا يتقون العقاب الذي هو أشد المضار ولأن جهالتها لا تضر بأحد وجهالة هؤلاء تؤدي الى تهييج الفتن ، وصد الناس عن الحق، ولأنها غير متمكنة من طلب الكمال ، فلا تقصير منها ، ولا ذم عليها ، وهؤلاء مقصّرون ، ومستحقون أعظم العقاب على تقصيرهم .

وقيل إنما كانوا أضل من الأنعام لأنه لا حساب عليها ولا عقاب لها، وقيل إنما كانوا أضل لأن البهائم إذا لم تعقل صحة التوحيد والنبوة ، لم تعتقد بطلان ذلك، بخلاف هؤلاء، فإنهم اعتقدوا البطلان عناداً ومكابرة ، وتعصباً . وغمطاً للحق . وقيل إن الأنعام تسجد وتسبح ، والكفار لا يفعلون ذلك،وقيل الملائكة روح ، وعقل ، والبهائم نفس ، وهوى ، والآدمي مجمع الكل ابتلاء ، فإن غلبته النفس والهوى ، فضلته الأنعام ، وإن غلبته الروح وضلالتهم ، أتبعه بذكر طرف من دلائل التوحيد مع ما فيها من عظيم الإنعام ، وحاصل ما ذكر منها خمسة ، فأولها الاستدلال بأحوال الظل فقال :

أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾

﴿ ألم تر إلى ربك كيف ﴾ أي : على أي وجه ﴿مد الظل ؟ ﴾ هذه الرؤية إما بصرية ، والمراد بها ألم تبصر الى صنع ربك ؟ أو ألم تبصر إلى الظل ؟ كيف مده ربك ؟ وإما قلبية ، بمعنى العلم ، فإن الظل متغير وكل متغير حادث ولكل حادث موجد . قال الزجاج :﴿ألم تر﴾: ألم تعلم ؟ وهذا من رؤية القلب ، قال : وهذا الكلام على القلب، والتقدير: ألم تر إلى الظل كيف مده ربك ، يعني الظل من وقت الإسفار إلى وقت طلوع الشمس ، وهو ظل لا شمس معه ، وبه قال الحسن وقتادة . وقيل : هو من غيبوبة الشمس الى طلوعها ، قال القرطبي : والأول أصح ، والدليل على ذلك أنه ليس من ساعة أطيب من تلك الساعة ، فإن فيها يجد المريض راحة ، والمسافر ، وكل ذي علة ، وفيها ترد نفوس الأموات والأرواح منهم إلى الأجساد ، وتطيب نفوس الأحياء فيها ، وهذه الصفة مفقودة بعد المغرب ، وقال أبو العالية : نهار الجنة هكذا ، وأشار الى ساعة المصلين صلاة الفجر.

قال أبو عبيدة : الظل بالغداة ، والفيء بـالعشي ، لأنه يرجع بعد زوال الشمس ، سمي فيئاً لأنه فاء من المشرق إلى جـانب المغرب ، وقـال ابن السكيت : الظل ما نسخته الشمس ، والفيء ما نسخ الشمس ، وعن رؤبة. قال : كل ما كانت عليه الشمس فزالت عنه فهو فيء ، وظل ، وما لم تكن

عليه الشمس فهو ظل ، أنتهى . وحقيقة الظل أنه أمر متوسط بين الضوء الخـالص والظلمة الخالصة،وهذا التوسط هو أعدل من الطرفين ، وأطيب الأحوال ، لأن الظلمة الخالصة يكرهها الطبع ، وينفر عنها الحس ، والضوء الكامل لقوته يبهر الحس البصري ، ويؤذي بالتسخين ، ولذلك وصفت به الجنة في قوله :

﴿ وظل ممدود ﴾ قال أبو السعود، وأما ما قيل من أن المراد بالظل ما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس فغير سديد ، إذ لا ريب في أن المراد تنبيه الناس على عظم قدرة الله عز وجل ، وبالغ حكمته فيما يشاهدونه ، فلا بد أن يراد بالظل ما يتعارفونه من حالة مخصوصة يشاهدونها ، في موضع يحول بينه وبين الشمس جسم كثيف ، مخالفة لما في جوانبه من مواقع ضح الشمس وما ذكر ؛ وإن كان في الحقيقة ظلاً للأفق الشرقي ، لكنهم لا يعدونه ظلاً ، ولا يصفونه بأوصافه المعهودة ، انتهى .

وعن ابن عباس قال : كيف مد الظل أي : بعد الفجر ، قبل أن تطلع الشمس ، وعنه قال : ألم تر أنك إذا صليت الفجر ، كان ما بين مطلع الشمس الى مغـربهـا ظلاً؟ ثم بعث الله عليه الشمس دليلاً فقبض الظل . وعنه قال : ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس ، وبه قال الجمهور ، واعترض عليه بأنه لا يسمى ظلاً لأنه من بقايا الليل واقع في غير النهار ، ومعنى الآية كيف أنشأ ظلاً لأي مظل كان من جبل أو بناء أو شجر عند ابتداء طلوع الشمس ممتداً ، وأنه تعالى مده ، بعد أن لم يكن كذلك ، كما بعد نصف النهار إلى غروبها ، فإن ذلك مع خلوه عن التصريح يكون نفسه بإنشائه تعالى وإحداثه يأباه سياق النظم الكريم .

﴿ ولو شاء ﴾ سكونه ﴿ لجعله ساكناً ﴾ ثابتاً دائماً لا يزول ، ومستقراً لا تنسخه الشمس ، ولا يذهب عن وجه الأرض ، وقيل : المعنى ولو شاء لمنع

الشمس الطلوع ، فلا يزول ، أو جعلها مسلوبة الضوء، والأول أولى ، والتعبير بالسكون عن الإقامة والاستقرار شائع ، ومنه قولهم : سكن فلان بلد كذا إذا أقام به ، واستقر فيه ﴿ ثم جعلنا الشمس عليه ﴾ أي على الظل بنسخها إياه عند مجيئها ﴿ دليلاً ﴾ أي : حجة وبرهاناً . وعلامة يستدل بأحوالها على أحواله ، وذلك لأن الظل يتبعها ، كما يتبع الدليل في الطريق من جهة أنه يزيد بها وينقص، ويمتد ويتقلص والمعنى أنه لو لم تكن الشمس لما عرف الظل، ولولا النور لما عرفت الظلمة ، فالأشياء تعرف بأضدادها ، ولم يؤنث الدليل ، وهو صفة للشمس لأنه في معنى الاسم ، كما يقال : الشمس برهان ، والشمس حق .

﴿ ثم قبضناه ﴾ أي : ذلك الظل الممدود ، ومحوناه عند إيقاع شعاع الشمس ، موقعه بالتدريج حتى انتهت تلك الأظلال إلى العدم والاضمحلال ، ومعنى ﴿ إلينا ﴾ أن مرجعه إليه سبحانه ، كما أن حدوثه منه ، وجاء بثم استعارة تبعية لتفاضل ما بين الأمور الثلاثة ، مد الظل ، وجعل الشمس عليه دليلاً وقبضه يسيراً، فكان الثاني أعظم من الأول، والثالث أعظم من الثاني، شبه تباعد ما بينها في الفضل بتباعد ما بين الحوادث في الوقت ، أو لتفاضل مبادي أوقات ظهورها، وقيل: المراد في الآية قبضه عند قيام الساعة قبض أسبابه ، وهي الأجرام النيرة ، والأول أولى، وقيل : المعنى ان الظل يبقى في هذا الجو من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس ، فإذا طلعت الشمس صار الظل مقبوضاً جزءاً فجزءاً ، وخلفه في هذا الجو شعاع الشمس فأشرقت على الأرض وعلى الأشياء إلى وقت غروبها ، فإذا غربت فليس هناك ظل إنما ذلك بقية نور النهار .

وقال قوم : قبضه بغروب الشمس لأنها إذا لم تغرب فالظل فيه بقية ، وإنما يتم زواله لمجيء الليل ودخول الظلمة عليه وقيل : إن هذا القبض وقع بالشمس لأنها إذا طلعت أخذ الظل في الذهاب شيئاً فشيئاً قاله مالك وإبراهيم

التيمي . وقيل : المعنى ثم قبضنا ضياء الشمس بالفيء .

﴿ قبضاً يسيراً ﴾ أي : قليلاً قليلاً على تدريج بقدر ارتفاع الشمس، لتنتظم بذلك مصالح الكون ويتحصل به ما لا يحصى من منافع الخلق،وقيل : يسيراً أي سريعاً ، قاله الضحاك ، وقيل : المعنى يسيراً علينا ، ليس بعسير . وقال قتادة : أي خفيفاً ، كلما قبض جزء منه جعل مكانه جزء من الظلمة ، وليس يزول دفعة واحدة ، وهو قول مجاهد .

﴿ وهو الذي جعل لكم الليل لباساً ﴾ شبه سبحانه ما يستر من ظلام الليل باللباس الساتر . قال ابن جرير : وصف الليل باللباس تشبيها من حيث إنه يستر الأشياء ويغشاها ﴿ و ﴾ جعل ﴿ النوم سباتاً ﴾ أي : راحة لكم لأنكم تنقطعون عن الاشتغال ، وأصل السبات التمدد ، يقال سبتت المرأة شعرها ، أي : نقضته وأرسلته . ورجل مسبوت أي ممدود الخلقة ، وقيل للنوم سبات ، لأنه بالتمدد يكون ، وفي التمدد معنى الراحة ، وقيل السبت القطع ـ فالنوم انقطاع عن الاشتغال ، ومنه سبت اليهود لانقطاعهم عن الاشتغال قال الزجاج : السبات النوم الخفيف ، وهو أن ينقطع عن الحركة ، والروح في بدنه ، أو ابتداؤه في الرأس ، حتى يبلغ القلب ، أي : جعلنا نومكم راحة لكم .

وقال الخليل : السبات نوم ثقيل ، أي جعلنا نومكم ثقيلاً ليكمل الإجمام ، والراحة، وقيل السبات الموت ، والمسبوت الميت ، لأنه مقطوع الحياة ، هو كقوله تعالى : ﴿ وهو الذي يتوفاكم بالليل ﴾ ويعضده ذكر النشور في مقابلته، ذكره الزمخشري ، والنسفي ﴿وجعل النهار نشوراً﴾ أي : ذا نشور وانتشار ينتشر فيه الناس للمعاش ، أي جعله زمان بعث من ذلك السبات شبه اليقظة بالحياة، كما شبه النوم بالسبات الشبيه بالممات ، وهذه الآية مع دلالتها على قدرة الخالق فيها إظهار لنعمته على خلقه ، لأن في الاحتجاب بستر

الليل فوائد دينية دنيوية ، وفي النوم واليقظة المشبهين بالموت والحياة عبرة لمن اعتبر،قال لقمان لابنه : كما تنام فتوقظ كذلك تموت فتنشر .

﴿ وهو الذي أرسل الرياح بشراً ﴾ جمع بشور ، وقرىء نشراً بالنون ﴿ بين يدي رحمته ﴾ أي متفرقة قدام المطر لأنه ريح ثم سحاب ثم مطر ، وهذه استعارة مليحـة ،والمراد بالرياح الجنس ، وهي الصبا والجنوب والشمال، بخلاف الدبور ، فإنها ريح العذاب التي أهلكت بها عاد . والشمال تأتي من ناحية الشام والجنوب تقابلها وهي اليمانية ، والصبا تأتي من مطلع الشمس وهي القبول أيضاً ، والدبور تأتي من ناحية المغرب ، والريح مؤنثة على الأكثر فيقال هي الريح . وقد تذكر على معنى الهواء فيقال : هو الريح وهب الريح نقله أبو زيد وقال ابن الأنباري : إنها مؤنثة لا علامة فيها ، وكذلك سائر أسمائها إلا الإعصار فإنه مذكّر، قد تقـدم تفسير هـذه الآية مستوفى في الأعراف .

﴿ وأنزلنا من السماء ماء طهوراً ﴾ وصف الماء به إشعاراً بالنعمة وتتميماً للمنة بما بعده . فإن الماء الطهور أهنأ وأنفع مما خالطه ما يزيل طهوريته . وفيه تنبيه على أن ظواهرهم لما كانت مما ينبغي أن يطهروهـا ، فبواطنهم أولى بذلك، قال الأزهري : الطهور في اللغة المطهر ، قال : وفعول في كلام العرب لِمَعانٍ منها فعول لما يفعل به ، مثل الطهور لما يتطهر به ، والوضوء لما يتوضأ به قال ابن الانباري : الطَهور بفتح الطاء الاسم وكذلك الوضوء والوقود ، وبالضم المصدر،هذا هو المعروف في اللغة ، وقد ذهب الجمهور إلى أن الطهور هو الطاهر المطهر،ويؤيد ذلك كونه بناء مبالغة،ويدل له ما روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال في البحر « هو الطهور ماؤه الحل ميتته » اخرجه أبو داود والترمذي والنسائي .[1]

---

(١) ابو داوود كتاب الطهارة باب ٤١ .
الترمذي كتاب الطهارة ٥٢ .
النسائي كتاب الطهارة باب ٤٦ .

وروي عن أبي حنيفة أنه قال : الطهور هو الطاهر . واستدل لذلك بقوله تعالى ﴿ وسقاهم ربهم شراباً طهوراً ﴾ يعني طاهراً وعلى كل حال فقد ورد الشرع بأن الماء طاهر في نفسه مطهر لغيره . قال الله تعالى ﴿ وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ﴾ وقال للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ﴿ خلق الماء طهوراً ﴾ وأخرج أهل السنن وأحمد وغيرهم من حديث أبي سعيد قال : قيل يا رسول الله أنتوضأ من بئر قضاعة ، وهي بئر تلقى فيه الحيض ولحوم الكلاب والنتن ، فقال : «إن الماء طهور لا ينجسه شيء»[1] وفي إسناد هذا الحديث كلام طويل قد استوفاه الحافظ ابن حجر في التلخيص ،، وتبعه الشوكاني في شرحه على المنتقى ، ثم ذكر سبحانه علة الإنزال فقال :

﴿ لنحيي به ﴾ أي الماء المنزل من السماء ﴿ بلدة ميتاً ﴾ وصف البلدة بالميت ، وهي صفة للمذكر ، لأنها بمعنى البلد . وقال الزجاج : أراد بالبلد المكان أو يستوي فيه المذكر والمؤنث والمراد بالإحياء هنا إخراج النبات من المكان الذي لا نبات فيه ﴿ ونسقيه ﴾ بضم النون ، وقرىء بفتحها والضمير المنصوب راجع إلى الماء ﴿ مما خلقنا أنعاماً ﴾ أي بهائم أي إبلاً ، وبقراً وغنماً، وقد تقدم الكلام عليها ، وخصها بالذكر لأنها ذخيرتنا . ومدار معاش أكثر أهل المدر ، ولذلك قدم سقيها على سقيهم ، كما قدم عليها إحياء الأرض فإنها سبب لحياتها وتعيشها فقدم ما هو سبب حياتهم ومعاشهم .

﴿ وأناسي كثيراً ﴾ جمع إنسان على ما ذهب إليه سيبويه ، وهو الراجح وقال المبرد ، والفراء والزجاج : إنه جمع إنسي أي بياء النسب وفيه أن ما هي فيه لا يجمع على فعاليَّ، وللفراء قول آخر ، أنه جمع إنسان والأصل على الأول أناسين مثل سرحان وسراحين ، وبستان وبساتين ، فجعلوا الياء عوضاً من النون .

---

(١) ابو داوود كتاب الطهارة باب ٣٤ ـ الإمام احمد ٣١/٣ ـ ١٧/٤ .

وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ ۞ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾

﴿ ولقد صرفناه بينهم ليذكروا ﴾ أي كررنا أحوال الإظلال . وذكر إنشاء السحاب ، وإنزال المطر في القرآن ، وفي سائر الكتب السماوية ، ليتفكروا او يعتبروا ، وقريء صرفناه مثقلاً ومخففاً ، وكذا ليذكروا مخففة من الذكر ، ومثقلة من التذكر ، وقيل ضمير صرفناه يرجع إلى أقرب المذكورات وهو المطر أي صرفنا المطر بينهم ، في البلدان المختلفة . والأوقات المتغايرة ، وعلى الصفات المتفاوتة من وابل وطش وطل وجود ورذاذ . وديمة فنزيد منه في بعض البلدان ، وننقص في بعض آخر منها .

وقيل : الضمير راجع إلى القرآن ، وقد جرى ذكره في أول السورة حيث قال ﴿ تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ﴾ وقوله ﴿ لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني ﴾ وقوله : ﴿ اتخذوا هذا القرآن مهجوراً ﴾ والمعنى ولقد كررنا هذا القرآن بإنزال آياته بين الناس ، ليذكروا به ، ويعتبروا بما فيه ، وقيل هو راجع إلى الريح ، وعلى رجوع الضمير إلى المطر . فقد اختلف في معناه فقيل ما ذكرناه وقيل تصريفه تنويع الانتفاع به ، في الشرب والسقي . والزراعات ، والطهارات عن ابن عباس قال : ما من عام بأقل مطراً من عام ، ولكن الله يصرفه حيث يشاء ثم قرأ هذه الآية .

﴿ فأبى أكثر الناس إلا كفوراً ﴾ أي كفران النعمة وجحودها وقلة

الاكتراث لها قال عكرمة : إن المراد هو قولهم في الأفواه : مطرنا بنوء كذا ، قال النحاس : ولا نعلم بين أهل التفسير اختلافاً أن الكفر هنا قولهم مطرنا بنوء كذا ، والنوء كما في المختار سقوط نجم من المنازل في المغرب ، وطلوع رقيبة من المشرق في ساعته في كل ثلاثة عشر يوماً ، ماخلا الجبهة فإن لها أربعة عشر يوماً وكانت العرب تضيف الأمطار والرياح والحر والبرد إلى الساقط منهما وقيل إلى الطالع لأنه في سلطانه والجمع أنواء .

﴿ ولو شئنا لبعثنا ﴾ أي في زمنك ﴿ في كل قرية نذيراً ﴾ أي رسولاً ينذرهم ليكون الرسل المبعوثون معاونين لك ، فتخف عليك أعباء النبوة . كما قسمنا المطر بينهم ، ولكنا لم نفعل ذلك بل جعلنا نذيراً واحداً وهو أنت يا محمد،وقصرنا الأمر عليك إجلالاً لك، وتعظيماً لشأنك وتفضيلاً لك على سائر الرسل،وليعظم أجرك،فقابل ذلك بشكر النعمة وبالثبات والاجتهاد في الدعوة وإظهار الحق .

﴿ فلا تطع الكافرين ﴾ فيما يدعونك إليه من اتباع آلهتهم ، بل اجتهد في الدعوة واثبت فيها ولا تضجر ﴿ وجاهدهم به ﴾ أي بالقرآن واتل عليهم ما فيه من القوارع ، والنواذر والزواجر والأوامر والنواهي،وقيل الضمير يرجع إلى الله أو الاسلام أو إلى السيف . والأول أولى،وهذه السورة مكية والأمر بالقتال إنما كان بعد الهجرة،وقيل راجع إلى ترك الطاعة المفهوم من قوله فلا تطع الكافرين،وقيل الضمير يرجع إلى ما دل عليه ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيراً،من كونه نذير كافة القرى لأنه سبحانه لو بعث في كل قرية نذيراً لم يكن على كل نذير إلا مجاهدة القرية التي أرسل إليها،وحين اقتصر على نذير واحد لكل القرى وهو محمد صلى الله عليه وآله وسلم فلا جرم اجتمع عليه كل المجاهدات فكبر جهاده وعظم فكأنه قال له : وجاهدهم بسبب كونك نذير كافة القرى جهاداً جامعاً لكل مجاهدة ولا يخفى ما في هذين الوجهين من البعد .

﴿ جهاداً كبيراً ﴾ أي شديداً عظيماً موقعه عند الله لما يحتمل فيه من المشاق لأن مجاهدة السفهاء بالحجج أكبر من مجاهدة الأعداء بالسيوف وأريد بهذا تهييجه وتهييج المؤمنين وتحريكهم،ثم ذكر سبحانه دليلاً رابعاً على التوحيد فقال .

﴿ وهو الذي مرج البحرين ﴾ أي أرسلهما متجاورين أو خلاهما متلاصقين بحيث لا يتمازجان،من مرَج أي خلى وخلط وأرسل يقال مرجت الدابة وأمرجتها إذا أرسلتها في المرعى وخليتها تذهب حيث تشاء قال مجاهد : أرسلهما وأفاض أحدهما إلى الآخر،وقال ابن عرفة : خلطهما فهما يلتقيان،يقال مرجته إذا خلطته،ومرج الدين والأمر اختلط واضطرب،ومنه قوله تعالى ﴿ في أمر مريج ﴾ وقال الأزهري : مرج البحرين خلى بينهما لا يلتبس أحدهما بالآخر ، يقال : مرجت الدابة إذا خليتها ترعى ، وقال ثعلب : المرج الإجراء فالمعنى أجراهما،وقال الاخفش : وتقول قوم أمرج مثل مرج فعل وأفعل بمعنى .

﴿ هذا عذب فرات ﴾ هو البليغ العذوبة ، المائلة إلى الحلاوة . والجملة مستأنفة كأنه قيل : كيف مرجهما ؟ فقيل : هذا عذب الخ ، أو حال بتقدير مقولاً فيهما . قيل سمى الماء الحلو فراتاً ، لأنه يفرت العطش ، أي يقطعه ، ويشقه ويكسره ولا يجمع إلا نادراً على فرتان كغربان ﴿ وهذا ملح أجاج ﴾ أي بليغ الملوحة ، وقيل البليغ في الحرارة وقيل البليغ في المرارة . وقرىء ملح بفتح الميم وكسر اللام . قال ابن عباس : خلع أحدهما على الآخر ، فليس يفسد العذب المالح ، وليس يفسد المالح العذب ، وهذا من أحسن المقابلة ، حيث قال : عذب فرات ، وملح أجاج .

﴿ وجعل بينهما برزخاً ﴾ هو الحاجز والحائل ، الذي جعله الله بينهما من قدرته ، يفصل بينهما ويمنعهما التمازج ولا يحس ﴿ وحجراً محجوراً ﴾ أي ستراً مستوراً ، يمنع أحدهما من الاختلاط بالآخر فلا يبغي أحدهما على الآخر ، ولا

يفسد الملح العذب ، فالبرزخ الحاجز والحجر المانع .

وقيل معناه ما تقدم من أنها كلمة يقولها المتعوذ ، كأن كل واحد من البحرين يتعوذ من صاحبه ويقول له هذا القول،وهو استعارة تمثيلية . وقيل حداً محدوداً ؛وقيل المراد من البحر العذب،الأنهار العظام كالنيل والفرات وجيحون،ومن البحر الأجاج،البحار المشهورة،والبرزخ بينهما الحائل من الأرض . وقيل معناه حراماً محرماً أن يعذب هذا المالح بالعذب أو يملح هذا العذب المالح . ومثل هذه الآية قوله سبحانه في سورة الرحمن ﴿ مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان ﴾ وعن ابن عباس قال : حجر أحدهما عن الآخر بأمره وقضائه ، ثم ذكر سبحانه حالة من أحوال خلق الإنسان من الماء فقال :

﴿ وهو الذي خلق من الماء بشراً ﴾ أي خلق من ماء النطفة إنساناً،وقيل المراد بالماء ؛ الماء المطلق الذي يراد في قوله ﴿ وجعلنا من الماء كل شيء حي ﴾ . وقيل هو الماء الذي خمرت به طينة آدم عليه السلام وجعله جزءاً من مادة البشر ، ليجتمع ، ويتسلسل ، ويستعد لقبول الأشكال والهيئات بسهولة ، قاله أبو السعود .

﴿ فجعله نسباً وصهراً ﴾ أي جعله ذا نسب وصهر ، قيل المراد بالنسب هو الذي لا يحل نكاحه،والصهر ما يحل نكاحه قاله الفراء والزجاج . واشتقاق الصهر من صهرت الشيء إذا خلطته وسميت المناكح صهراً لاختلاط الناس بها وقيل الصهر قرابة النكاح فقرابة الزوجة هم الاختان،وقرابة الزوج هم الأحماء،والأصهار تعمهما . قاله الأصمعي .

وفي القاموس الصهر بالكسر ؛ القرابة والختن وجمعه أصهار . وفي المصباح قال الخليل : الصهر أهل بيت المرأة قال : ومن العرب من يجعل الأحماء والأختان جميعاً أصهاراً . وقال الأزهري : الصهر يشتمل على قرابات النساء ، ذوي المحارم وذوات المحارم كالأبوين ، والإخوة وأولادهم والأعمام

والأخوال والخالات فهؤلاء أصهار زوج المرأة ، ومن كان من قبل الزوج من ذوي قرابته المحارم فهم أصهار المرأة أيضاً.

وقال ابن السكيت : كل من كان من قبل الزوج من أبيه أو أخيه أو عمه ، فهم الأحماء ومن كان من قبل المرأة فهم الأختان ويجمع الصنفين الأصهار وصاهرت لهم وإليهم وفيهم صهرت لهم صهراً انتهى . وفي القرطبي : النسب والصهر معنيان يعمان كل قربى تكون بين آدميين، قال الواحدي : قال المفسرون : النسب سبعة أصناف من القرابة يجمعها قوله ﴿ حرمت عليكم أمهاتكم ﴾ إلى قوله ﴿ وأمهات نسائكم ﴾ ومن هنا إلى قوله ﴿ وأن تجمعوا بين الأختين ﴾ تحريم بالصهر وهو الخلطة التي تشبه القرابة وهو النسب المحرّم للنكاح،وقد حرم الله سبعة أصناف من النسب وسبعة من جهة الصهر أي السبب، قد اشتملت الآية المذكورة على ستة منها والسابعة قوله ﴿ ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء ﴾ وقد جعل ابن عطية والزجاج وغيرهما الرضاع من جملة النسب ويؤيده قوله صلى الله عليه وآله وسلم : « يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب »[1].

أراد سبحانه تقسيم البشر قسمين ذوي النسب أي ذكورا ينسب إليهم ، فيقال فلان بن فلان وفلانة بنت فلان وذوات صهر أي إناثاً يصاهر بهن ، كقوله تعالى فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى . وسئل عمر بن الخطاب عن نسب وصهر فقال: ما أراكم إلا وقد عرفتم النسب وأما الصهر فالأختان ، والصحابة .

﴿ وكان ربك قديراً ﴾ أي بليغ القدرة عظيمها ، ومن جملة قدرته الباهرة خلق الإنسان من النطفة الواحدة وتقسيمه إلى القسمين المذكورين . ولما ذكر سبحانه دلائل التوحيد عاد إلى ذكر قبائح الكفار وفضائح سيرتهم فقال :

﴿ ويعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ﴾ إن عبدوه ﴿ ولا يضرهم ﴾ إن

(١) مسلم ١٤٤٥ ـ البخاري ١٢٨٣ .

تركوه ﴿ وكان الكافر على ربه ظهيراً ﴾ هو المظاهر أي المعاون على ربه بالشرك والعداوة، والمظاهرة على الرب هي المظاهرة على رسوله أو على دينه قال الزجاج : لأنه يتابع الشيطان ويعاونه على معصية الله لأن عبادتهم للأصنام معاونة للشيطان . وقال أبو عبيدة : المعنى وكان الكافر على ربه هيناً مهيناً ذليلاً من قول العرب ظهرت به أي جعلته خلف ظهري لم ألتفت إليه . ومنه قوله تعالى ﴿ واتخذتموه وراءكم ظهرياً ﴾ وقيل إن المعنى وكان الكافر على ربه الذي يعبده وهو الصنم قوياً غالباً يعمل به ما يشاء لأن الجماد لا قدرة له على دفع ونفع .

ويجوز أن يكون الظهير جمعاً كقوله : ﴿ والملائكة بعد ذلك ظهير ﴾ أو المعنى أن بعض الكفرة مظاهر لبعض على رسول الله ﷺ ، أو دين الله والمراد بالكفر هنا الجنس ولا ينافيه كون سبب النزول هو كافراً معيناً ، كما قيل إنه أبو جهل . وقال ابن عباس : : يعني أبا الحكم الذي سمّاه رسول الله ﷺ أبا جهل بن هشام فالأصح أنه عام في كل كافر .

﴿ وما أرسلناك ﴾ في حال من الأحوال ﴿ إلا ﴾ حال كونك ﴿ مبشراً ﴾ للمؤمنين بالجنة ﴿ ونذيراً ﴾ للكافرين بالنار فلا تحزن على عدم إيمانهم، واقتصر على صيغة المبالغة في الانذار لتخصيصه بالكافرين إذ الكلام فيهم والإنذار الكامل لهم، ولو قيل إن المبالغة باعتبارها لكم لشموله للعصاة جاز .

﴿قل﴾ يا محمد ﴿ما أسألكم عليه﴾ أي على القرآن أو على تبليغ الرسالة المدلول عليها بالإرسال أو على ما أدعوكم إليه ﴿ من أجر ﴾ أي عرض من عرض الدنبا قاله ابن عباس، والاستثناء في قوله ﴿ إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً ﴾ منقطع أي لكن من شاء فليفعل .

وقيل هو متصل والمعنى إلا من شاء أن يتقرب إليه سبحانه بالطاعة ، وصور ذلك بصورة الأجر من حيث إنه مقصود الحصول، ولما بين سبحانه أنّ الكفار متظاهرون على رسول الله ﷺ وأمره أنْ لا يطلب منهم أجراً ٱلبتة، أمره أن يتوكل عليه في دفع المضار وجلب المنافع فقال :

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ ۚ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۚ الرَّحْمَٰنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ﴿٦١﴾﴾

﴿ وتوكل ﴾ في استكفاء شرورهم والاستغناء عن أجورهم ﴿ على الحي الذي لا يموت ﴾ فإنه الحقيق بأن يتوكل عليه، وخص صفة الحياة إشارة إلى أن الحي الدائم هو الذي يوثق به في المصالح والمنافع ودفع المضار، ولا حياة على الدوام إلا الله سبحانه ، دون الأحياء المنقطعة حياتهم فإنهم إذا ما تواضع من يتوكل عليهم . وقرأها بعض الصالحين فقال : لا يصح لذي عقل أن يثق بعدها بمخلوق، والتوكل اعتماد العبد على الله في كل الأمور ، والأسباب وسائط ، أمر بها من غير اعتماد عليها .

﴿وسبِّح﴾ أي نزهه عن صفات النقصان مقترناً ﴿ بحمده ﴾ وقيل معنى سبح صل، والصلاة تسمى تسبيحاً ﴿ وكفى به بذنوب عباده خبيراً ﴾ أي حسبك وهذه كلمة يراد بها المبالغة كقولك : كفى بالله رباً والخبير المطلع على الأمور بحيث لا يخفى عليه منها شيء فلا لوم عليك إن آمنوا وكفروا، وقيل معناه أنه لا يحتاج معه إلى غيره لأنه خبير عالم قدير على مكافأتهم،وفيه وعيد شديد ، كأنه قال : اذا قدمتم على مخالفة أمره كفاكم علمه في مجازاتكم بما تستحقون من العقوبة،ثم زاد في المبالغة فقال :

﴿ الذي خلق السموات والأرض ﴾ لعل ذكره زيادة تقرير، لكونه حقيقاً بأن يتوكل عليه، من حيث انه الخالق للكل والمتصرف فيه ﴿ وما بينهما ﴾ ولم يقل بينهن ، لأنه أراد النوعين والمعنى خلقهما ﴿ في ستة أيام ﴾ فخلق الأرض

في يومين الأحد والإثنين ، وما بينهما في يومين الثلاثاء والأربعاء، والسموات في يومين الخميس والجمعة ، وفرغ من آخر ساعة من يوم الجمعة، وقيل في مقدار هذه المدة ، لأنه لم يكن حينئذ ليل ولا نهار وإنما خلقها في ستة أيام وهو يقدر على أن يخلقها في لحظة،تعليماً لخلقه الرفق والتثبيت والتأني في الأمر والتؤدة والتدرج .

فإن قيل يلزم أن يكون خلق العرش بعد خلق السموات والأرض ، كما يفيده قوله : ﴿ ثم استوى على العرش ﴾ فيقال : إن كلمة ﴿ ثم ﴾ تدخل على خلق العرش بل على علوه على السموات والأرض،والعرش في اللغة سرير الملك ، والمراد هنا الجسم العظيم المحيط بالعالم الكائن فوق السموات السبع، والاستواء صفة لله سبحانه معناها مباينته عن الخلق وكونه على الذات وفوق العالم ، وقد تقدم الكلام عليها في سورة الأعراف وأخواتها.

قال الشوكاني رحمه الله تعالى : اعلم أن الكلام في الآيات والأحاديث الواردة في الصفات قد طالت ذيوله وتشعبت أطرافه ، وتباينت فيه المذاهب وتفاوتت فيه الطرائق ، وتخالفت النحل، وسبب هذا عدم وقوف المنتسبين إلى العلم حيث أوقفهم الله ، ودخولهم في أبواب لم يأذن الله لهم بدخولها ، ومحاولتهم لعلم شيء استأثر الله بعلمه، حتى تفرقوا فرقاً وتشعبوا شعباً وصاروا أحزاباً كانوا في البداية، ومحاولة الوصول إلى ما يتصورونه من العامة مختلفي المقاصد متبايني المطالب فطائفة ـ وهي أخف هذه الطوائف المتكلفة ، علم ما لم يكلفها الله سبحانه بعلمه اثماً ، وأقلها عقوبة وجرماً ـ وهي التي أرادت الوصول إلى الحق والوقوف على الصواب لكن سلكت في طلبه طريقة متوعرة ، وصعدت في الكشف عنه إلى عقبة كؤود ، لا يرجع من سلكها سالماً فضلاً عن أن يظفر فيها بمطلوب صحيح ، ومع هذا أصّلوا أصولاً ظنوها حقاً ، فدفعوا بها آيات قرآنية ، وأحاديث صحيحة نبوية واعتلوا في ذلك الدفع بشبهة واهية وحالات مختلفة .

وهؤلاء هم طائفتان الطائفة الأولى ، هي الطائفة التي غلت في التنزيه فوصلت إلى حد يقشعر عنده الجلد ويضطرب له القلب ، من تعطيل الصفات الثابتة ، بالكتاب والسنة ، ثبوتاً أوضح من شمس النهار وأظهر من فلق الصباح ، وظنوا هذا - من صنيعهم - موافقاً للحق . مطابقاً لما يريده الله سبحانه ، فضلوا الطريق المستقيمة ، وأضلوا من رام سلوكها . والطائفة الأخرى : هي الطائفة التي غلت في إثبات القدرة ، غلواً بلغ إلى حد أنه لا تأثير لغيرها ، ولا اعتبار بما سواها ، وأفضى ذلك إلى الجبر المحض ، والقسر الخالص ، فلم يبق لبعثة الرسل ، وإنزال الكتب ، كثير فائدة ، ولا يعود ذلك على عباده بعائدة ، وجاؤا بتأويلات للآيات البينات ، ومحاولات لحجج الله الواضحات ، فكانوا كالطائفة الأولى في الضلال والإضلال ، مع أن كلا المقصدين صحيح ، ووجه كل منهما صبيح ، لولا ما شانه من الغلو القبيح .

وطائفة توسطت ، ورامت الجمع بين الضب والنون ، وظنت أنها قد وقفت بمكان بين الإفراط والتفريط ، ثم أخذت كل طائفة من هذه الطوائف الثلاث تجادل ، وتناضل ، وتحقق ، وتدقق في زعمها ، وتجول عمل الأخرى وتصول ، بما ظفرت به ، مما يوافق ما ذهبت إليه ، وكل حزب بما لديهم فرحون ، وعند الله تلتقي الخصوم ،

ومع هذا فهم متفقون فيما بينهم على أن طريق السلف أسلم ، ولكن زعموا أن طريق الخلف أعلم ، فكان غاية ما ظفروا به ، من هذه الأعلمية - بطريق الخلف - أن تمنى محققوهم وأذكياؤهم في آخر أمرهم دين العجائز وقالوا: هنيئاً للعامة. فتدبر هذه الأعلمية التي كان حاصلها أن يهنأ من ظفر لأهل الجهل البسيط،ويتمنى انه في عدادهم وممن تدين بدينهم ويمشي على طريقتهم،فإن هذا ينادي بأعلى صوت ويدل بأوضح دلالة على أن هذه الأعلمية التي طلبوها ؛ الجهل خير منها بكثير، فما ظنك بعلم يقر صاحبه على نفسه أن الجهل خير منه ويتمنى عند البلوغ إلى غايته والوصول إلى نهايته ؛ أن يكون جاهلاً به عاطلاً عنه - ففي هذا عبرة للمعتبرين وآية بينة للناظرين ، فهلاّ

عملوا على جهل هذا المعارف التي دخلوا فيها بادىء بدء ؟ وسلموا من تبعاتها ، وأراحوا أنفسهم من تعبها ، وقالوا كما قال القائل :

أرى الأمر يفضي إلى آخر فصيّر آخره أولاً

وربحوا الخلوص من هذا التمني ، والسلامة من هذه التهنئة للعامة ؛ فإن العاقل لا يتمنى رتبة مثل رتبته أو دونها ، ولا يهنىء لمن هو مثله أو دونه ، بل لا يكون ذلك إلا لمن رتبته ، أرفع من رتبته ، ومكانه أعلى من مكانه ، فيالله العجب ، من علم يكون الجهل البسيط أعلى رتبة منه ، وأفضل مقداراً بالنسبة إليه .

وهل سمع السامعون بمثل هذه الغريبة ، ونقل الناقلون ما يماثلها أو يشابهها ، وإذا كان هذا حال هذه الطائفة التي قد عرفناك أنها أخف الطوائف تكلفاً ، وأقلها تبعة فما ظنك بما عداها من الطوائف ، التي قد ظهر فساد مقاصدها ، وتبين بطلان مواردها ومصادرها ، كالطوائف التي أرادت بالمظاهر ، التي تظاهرت به ، كيْد الإسلام وأهله ، والسعي في التشكيك فيه بإيراد الشبه ، وتقرير الامور المفضية إلى القدح في الدين ، وتنفير أهله عنه .

وعند هذا تعلم أن :

خير الأمور والسالفات على الهدى وشر الأمور المحدثات البدائع

وأن الحق الذي لا شك فيه ، ولا شبهة ، هو ما كان عليه خير القرون ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، وقد كانوا رحمهم الله تعالى وأرشدنا إلى الإقتداء بهم ، والاهتداء بهديهم ، يمرون آيات الصفات على ظاهرها ، ولا يتكلفون علم ما لا يعلمون ، ولا يحرفون ولا يؤولون ، وهذا المعلوم من أقوالهم وأفعالهم ، والمتقرر من مذهبهم ، لا يشك فيه شاك ولا ينكره منكر ولا يجادل فيه مجادل . وإن نزغ من بينهم نازغ أو نجم في عصرهم ناجم أوضحوا للناس أمره وبينوا لهم أنه على ضلالة ، وصرحوا بذلك في المجامع والمحافل : وحذروا الناس من بدعته ، كما كان منهم لما ظهر معبد الجهني

وأصحابه ، وقالوا : إن الأمر أنف ، فتبرؤوا منه وبينوا ضلالته ؛ وبطلان مقالته للناس فحذروه إلا من ختم الله على قلبه ، وجعل على بصره غشاوة .

وهكذا كان من بعدهم ، يوضح للناس بطلان أقوال أهل الضلال ، ويحذرهم منها ، كما فعل التابعون رحمهم الله بالجعد بن درهم ، ومن قال بقوله ، وانتحل نحلته الباطلة ، ثم ما زالوا هكذا لا يستطيع المبتدع في الصفات أن يتظاهر ببدعته ، بل يتكتمون بها كما يتكتم الزنادقة بكفرهم ، وهكذا سائر المبتدعين في الدين ، على اختلاف البدع ، وتفاوت المقالات الباطلة .

ولكنا نقتصر ههنا على الكلام في هذه المسألة ، التي ورد السؤال عنها ، وهي مسألة الصفات ، وما كان من المتكلمين فيها بغير الحق المتكلفين علم ما لم يأذن الله ، بأن يعلموه ، وبيان أن إمرار آيات الصفات على ظاهرها ، هو مذهب السلف الصالح ، من الصحابة ، والتابعين ، وتابعيهم ، وأن كل من أراد من نزاغ المتكلفين، وشذاذ المحرفين ، والمتأولين ، أن يظهر ما يخالف المرور على ذلك الظاهر ، قاموا عليه ، وحذروا الناس منه ، وبينوا لهم أنه على خلاف ما عليه أهل الإسلام ، فصار المبتدعون في الصفات ، القائلون بأقوال تخالف ما عليه السواد الأعظم من الصحابة والتابعين وتابعيهم ، في خبايا وزوايا لا يتصل بهم إلا مغرور .

ولا ينخدع بزخارف أقوالهم إلا مخدوع ،وهم مع ذلك على تخوف من أهل الإسلام وترقب لنزول مكروه بهم من حماة الدين من العلماء الهادين والرؤساء والسلاطين، حتى نجم ناجم المحنة وبرق بارق الشر من جهة الدولة ومن لهم في الأمر والنهي والاصدار والايراد الأعظم صولة، وذلك في الدولة المأمونية بسبب قاضيها أحمد بن أبي دؤاد.

فعند ذلك أطلع المنكمشون في تلك الزوايا رؤوسهم ، وانطلق ما كان قد خرس من ألسنتهم ، وأعلنوا مذاهبهم الزائغة ، وبدعهم المضلة ، ودعوا

الناس إليها ، وجادلوا عنها ، وناضلوا المخالفين ، حتى اختلط المعروف بالمنكر ، واشتبه على العامة الحق بالباطل ، والسنّة بالبدعة .

ولما كان الله سبحانه ، قد تكفل بإظهار دينه على الدين كله ، وحفظه عن التحريف ، والتغيير ، والتبديل ، أوجد من علماء الكتاب والسنّة في كل عصر من العصور . من يبين للناس دينهم ، وينكر على أهل البدع بدعهم ، فكان لهم ـ ولله الحمد ـ المقامات المحمودة ، والمواقف المشهورة في نصر الدين ، وهتك المبتدعين ، وبهذا الكلام القليل الذي ذكرناه ، تعرف أن مذهب السلف من الصحابة ، والتابعين ، وتابعيهم ، هو إمرار أدلة الصفات على ظاهرها ، من دون تحريف لها ، ولا تأويل متعسف ، لشيء منها ، ولا جبر ، ولا تشبيه ، ولا تعطيل ، يفضي إليه كثير من التأويل وكانوا اذا سأل سائل عن شيء من الصفات ؛ تلوا عليه الدليل ، وأمسكوا عن القال والقيل ، وقالوا : قال الله هكذا ولا ندري بما سوى ذلك .

ولا نتكلف ولا نتكلم بما لم نعلمه ولا أذن الله لنا بمجاوزته فإن أراد السائل أن يظفر منهم بزيادة على الظاهر زجروه عن الخوض فيما لا يعنيه ونهوه عن طلب ما لا يمكن الوصول إليه بالوقوع في بدعة من البدع التي هي غير ما هم عليه وما حفظوه عن رسول الله ﷺ وحفظه التابعون عن الصحابة ، وحفظه من بعد التابعين عن التابعين .

وكان في هذه القرون الفاضلة الكلمة في الصفات متحدة والطريقة لهم جميعاً متفقة ،وكان اشتغالهم بما أمرهم الله بالاشتغال به ، وكلفهم القيام بفرائضه من الإيمان بالله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والصيام ، والحج ، والجهاد ، وإنفاق الأموال ،في أنواع البر وطلب العلم النافع وإرشاد الناس إلى الخير على اختلاف أنواعه والمحافظة على موجبات الفوز بالجنة والنجاة من النار ، والقيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والأخذ على يد الظالم بحسب الاستطاعة وبما تبلغ إليه القدرة ولم يشتغلوا بغير ذلك مما لم يكلفهم الله بعلمه ولا تعبدهم بالوقوف على حقيقته .

فكان الدين إذ ذاك صافياً عن كدر البدع، خالصاً عن شوب قذر التمذهب، فعلى هذا النمط كان الصحابة والتابعون وتابعوهم وبهدي رسول الله ﷺ اهتدوا وبأفعاله وأقواله اقتدوا، فمن قال إنهم تلبسوا بشيء من هذه المذاهب الناشئة في الصفات أو غيرها فقد أعظم عليهم الفرية وليس بمقبول في ذلك، فإن تقول الأئمة المطلعين على أحوالهم العارفين بها الآخذين لها عن الثقات الأثبات ترد عليه وعليهم وتدفع في وجهه .

يعلم ذلك كل من له علم، ويعرفه كل عارف، فاشدد يديك على هذا واعلم أنه مذهب خير القرون ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ودع عنك ما حدث من تلك التمذهبات في الصفات، وأرح نفسك من تلك العبارات التي جاء بها المتكلمون واصطلحوا عليها وجعلوها أصلاً يرد إليه كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فإن وافقاها فقد وافقا الأصول المقررة في زعمهم، وإن خالفاها فقد خالفا الأصول المقررة في زعمهم، ويجعلون المرافق لها من قسم المقبول والمحكم، والمخالف لها من قسم المردود والمتشابه، ولو جئت بألف آية واضحة الدلالة ظاهرة المعنى أو ألف حديث مما ثبت في الصحيح لم يبالوا به ولا رفعوا إليه رؤوسهم ولا عدوه شيئاً .

ومن كان منكراً لهذا فعليه بكتب هذه الطوائف المصنفة في علم الكلام، فأنه سيقف على الحقيقة، ويسلم هذه الجملة، ولا يتردد فيها، ومن العجب العجيب والنبأ الغريب أن تلك العبارات الصادرة عن جماعة من أهل الكلام التي جعلها من بعدهم أصولاً لا مستند لها إلا مجرد الدعوى على العقل والفرية على الفطرة، وكل فرد من أفرادها تنازعت فيه عقولهم وتخالفت فيه إدراكاتهم، فهذا يقول حكم العقل في هذا كذا، وهذا يقول حكم العقل في هذا كذا، ثم يأتي بعدهم من يجعل ذلك الذي يعقله من يقلده ويقتدي به أصلاً يرجع إليه، ومعيار الكلام كلام الله وكلام رسوله يقبل منهما ما وافقه ويرد ما خالفه فيالله! ويا للمسلمين! ويا لعلماء الدين من هذه الفواقر الموحشة التي لم يصب الاسلام وأهله بمثلها! .

وأغرب من هذا ، واعجب ، وأشنع ، وأفظع ، أنهم بعد أن جعلوا هذه التعقلات ، التي تعقلوها ، على اختلافهم فيها ، وتناقضهم في معقولاتها ، أصولاً ترد إليها أدلة الكتاب والسنة ، جعلوها أيضاً معياراً لصفات الرب سبحانه ، فما تعقله هذا من صفات الله ، قال به جزماً ، وما تعقله خصمه منها قطع به ، فأثبتوا لله تعالى الشيء ونقيضه ، استدلالاً بما حَكَمَت به في صفات الله عقولهم ، الفاسدة ، وتناقضت في شأنه . ولم يلتفتوا إلى ما وصف الله ، نفسه ، أو وصفه به رسوله ﷺ ، بل إن وجدوا ذلك موافقاً لما تعقلوه ؛ جعلوه مؤيداً له ، ومقوياً . وقالوا قد ورد دليل السمع مطابقاً لدليل العقل ، وإن وجدوه مخالفاً لما تعقلوه جعلوه وارداً على خلاف الأصل ، ومتشابهاً ، وغير معقول المعنى ، ولا ظاهر الدلالة ، ثم قابلهم المخالف لهم بنقيض قولهم فافترى على عقله بأنه قد تعقل خلاف ما تعقله خصمه ، وجعل ذلك أصلاً يرد إليه أدلة الكتاب والسنة وجعل المتشابه عند أولئك محكماً عنده ، والمخالف لدليل العقل عندهم موافقاً له عنده، فكان حاصل كلام هؤلاء أنهم يعلمون من صفات الله ما لا يعلمه، وكفاك بهذا - وليس بعده شي - وعنده يتعثر القلم حياء من الله عز وجل وربما استبعد هذا مستبعد واستكبره مستكبر وقال : إن في كلامي هذا مبالغة وتهويلاً وتشنيعاً وتطويلاً وأن الأمر أيسر من أن يكون حاصله هذا الحاصل الذي ذكرت ، وثمرته مثل هذه الثمرة التي أشرت إليها ، فأقول : خذ جملة البلوى ودع تفصيلها واسمع ما يصك سمعك ، ولولا هذا الالحاح منك ما سمعته ، ولا جرى القلم بمثله ، هذا أبو علي وهو رأس من رؤوسهم ، وركن من أركانهم ، وأسطوانة من أساطينهم ، قد حكى عنه الكبار منهم .

وآخر من حكى ذلك عنه صاحب شرح القلائد، يقول : والله لا يعلم الله من نفسه إلا ما يعلم هو . فخذ هذا التصريح ، حيث لم يكتف بذلك التلويح ، وانظر هذه الجرأة على الله التي ليس بعدها جرأة ، فيالأم أبي على الويل ؟ أينهق بمثل هذا النهيق ؟ ويدخل نفسه في هذا المضيق ؟ وهل سمع

السامعون بيمين أفجر من هذه اليمين الملعونة ؟ أو نقل الناقلون كلمة تقارب معنى هذه الكلمة المفتونة ؟ أو بلغ مفتخر إلى ما بلغ إليه هذا المختال الفخور ؟ أو وصل من يفجر في أيمانه إلى ما يقارب هذا الفجور ؟ وكل عاقل يعلم أن أحدنا لو حلف أن ابنه أو أباه لا يعلم من نفسه إلا ما يعلمه هو لكان كاذباً في يمينه فاجراً فيها ، لأن كل فرد من أفراد الناس ينطوي على صفات وغرائز ، لا يحب أن يطلع عليها غيره ، ويكره أن يقف على شيء منها سواه ، ومن ذا الذي يدري بما يجول في خاطرغيره ؟ ويستكن في ضميره ؟ ومن ادعى علم ذلك وأنه يعلم من غيره من بني آدم ما يعلمه ذلك الغير من نفسه ، ولا يعلم ذلك الغير من نفسه إلا ما يعلمه هذا المدعي ، فهو إما مصاب العقل بهذا ، بما لا يدري ، ويتكلم بما لا يفهم ، أو كاذب شديد الكذب ، عظيم الافتراء ، فإن هذا أمر لا يعلمه غير الله سبحانه ، فهو الذي يحول بين المرء وقلبه ، ويعلم ما توسوس به نفسه ، وما يسر عباده ، وما يعلنون وما يظهرون وما يكتمون . كما أخبرنا بذلك في كتابه العزيز في غير موضع .

فقد خاب وخسر من أثبت لنفسه من العلم ما لا يعلمه إلا الله سبحانه من عباده ، فما ظنك بمن جاوز هذا وتعداه ؟ وأقسم بالله أن الله لا يعلم من نفسه إلا ما يعلمه هو ؟ ولا يصح لنا أن نحمله على اختلاف العقل ، فلو كان مجنوناً لم يكن رأساً يقتدى بقوله جماعات من أهل عصره ، ومن جاء بعده ، وينقلون كلامه في الدفاتر ، ويحكون عنه في مقامات الاختلاف .

ولعل أتباع هذا ومن يقتدي بمذهبه ، لو قال لهم قائل ، وأورد عليهم مورد ، قول الله عز وجل : ﴿ ولا يحيطون به علماً ﴾ وقوله : ﴿ ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء ﴾ وقال لهم هذا ، يرد ما قاله صاحبهم ، ويدل على أن يمينه هذه فاجرة مفتراة ، لقالوا هذا ونحوه مما يدل دلالته ويفيد مفاده من المتشابه الوارد على خلاف دليل العقل المدفوع بالأصول المقررة .

وبالجملة فإطالة ذيول الكلام في مثل هذا المقام إضاعة للاوقات ،

واشتغال بحكاية الخرافات المبكيات لا المضحكات ، وليس مقصودنا ههنا إلا إرشاد السائل إلى أن المذهب الحق في الصفات هو إمرارها على ظاهرها من دون تأويل ولا تحريف ولا تكلف ولا تعسف ولا جبر ولا تشبيه ولا تعطيل . وإن ذلك هو مذهب السلف الصالح الصحابة والتابعين وتابعيهم .

فإن قلت : وماذا تريد بالتعطيل في مثل هذه العبارات التي تكررها ؟ فإن أهل المذاهب الاسلامية يتنزهون عن ذلك ويتحاشون عنه ، ولا يصدق معناه ، ويوجد مدلوله إلا في طائفة من طوائف الكفار . وهم المنكرون للصانع .

قلت يا هذا إن كنت ممن له إلمام بعلم الكلام الذي اصطلح عليه طوائف من أهل الاسلام . فإنه لا محالة قد رأيت ما يقوله كثير منهم ، ويذكرونه في مؤلفاتهم ويحكونه عن أكابرهم ، أن الله سبحانه وتعالى وتقدس ، لا هو جسم ولا جوهر ولا عرض ولا داخل العالم ولا خارجه ، فأنشدك الله ، أي عبارة تبلغ مبلغ هذه العبارة في النفي ؟ وأي مبالغة في الدلالة على هذا النفي ، تقوم مقام هذه المبالغة ؟ فكان هؤلاء في فرارهم من شبهة التشبيه إلى هذا التعطيل كما قال القائل :

فكنت كالساعي إلى مثعب   موائلا من سبل الراعد

أو كالمستجير من الرمضاء بالنار، والهارب من لسعة الزنبور إلى لدغة الحية ،ومن قرصة النملة إلى قضمة الأسد ، وقد كان يغني هؤلاء وأمثالهم من المتكلمين المتكلفين كلمتان من كتاب الله تعالى وصف بهما نفسه وأنزلهما على رسوله ﷺ وهما : ﴿ ولا يحيطون به علماً ﴾ ، و﴿ ليس كمثله شيء ﴾ فإن هاتين الكلمتين قد اشتملتا على فصل الخطاب وتضمنتا ما يغني أولي الالباب السالكين في تلك الشعاب والهضاب الصاعدين في متوعرات هاتيك العقاب فالكلمة الأولى منها دلت دلالة بينة على أن كل ما تكلم به البشر في ذات الله وصفاته على وجه التدقيق ودعاوي التحقيق فهو مشوب بشعبة من شعب الجهل

مخلوط بخلوط هي منافية للعلم مباينة له فإن الله سبحانه قد أخبرنا أنهم لا يحيطون به علماً .

فمن زعم أن ذاته كذا أو صفتـه كذا فلا شك أن صحة ذلك متوقفة على الإحاطة وقد نفيت عن كل فرد لأن هذه القضية هي في قوة لا يحيط به فرد من الأفراد علماً فكل قول من أقوال المتكلفين صادر عن جهل إما من كل وجه أو من بعض الوجوه وما صدر عن جهل فهو مضاف إلى جهل ولا سيما إذا كان في ذات الله وصفاته فإن ذلك من المخاطرة بالدين ، ما لم يكن في غيره من المسائل . وهذا يعلمه كل ذي علم ويعرفه كل عارف .

ولم يحظ بفائدة هذه الآية ويقف عندها ويقتطف من ثمراتها إلا الممرون للصفات على ظاهرها المريحون أنفسهم عن التكلفات والتعسفات والتأويلات والتحريفات وهم السلف الصالح كما عرفت فهم الذين اعترفوا بعدم الاحاطة وأوقفوا أنفسهم حيث أوقفها الله وقالوا : الله أعلم بكيفية ذاته وماهية صفاته بل العلم كله له وقالوا كما قال من قال ممن اشتغل بطلب هذا المحال فلم يظفر بغير القيل والقال :

العلم للرحمن جـل جـلالـه ... وسـواه في جهـلاتـه يتغمغم
مـا للتـراب وللعلوم وإنمـا ... يسعى ليـعلم أنـه لا يـعلم

بل اعترف كثير من هؤلاء المتكلفين بأنه لم يستفد من تكلفه وعدم قنوعه مما قنع به السلف الصالح إلا بمجرد الحيرة التي وجد عليها غيره من المتكلفين فقال :

وقد طفت في تلك المعاهد كلها ... وسرحت طرفي بـين تلك المعالم
فلم أر إلا واضعاً كـف حائـر ... على ذقن أو قـارعـا سن نـادم

وها أنا أخبرك عن نفسي وأوضح لك ما وقعت فيه في أمسي فإني في أيام الطلب وعنفوان الشباب شغلت بهذا العلم الذي سموه تارة علم الكلام وتارة علم التوحيد وتارة علم أصول الدين وأكببت على مؤلفات الطوائف المختلفة

منهم ورمت الرجوع بفائدة والعودة بعائدة فلم أظفر من ذلك بغير الخيبة والحيرة .

وكان ذلك من الاسباب التي حببت إلي مذهب السلف على أني كنت من قبل ذلك عليه ولكن أردت أن ازداد منه بصيرة وبه شغفاً وقلت عند النظر في تلك المذاهب :

وغاية ما حصلته من مباحثي ومن نظري من بعد طول التدبر
هو الوقف ما بين الطريقين حيرة فما علم من لم يلق غير التحير
على أنني قد خضت منه غماره وما قنعت نفسي بدون التبحر

وأما الكلمة الثانية، وهي : ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ فبها يستفاد نفي المماثلة في كل شيء فيدفع بهذه الآية في وجه المجسمة ويعرف به الكلام عند وصفه سبحانه بالسميع . والبصير ، وعند ذكر السمع ، والبصر واليد والاستواء ونحو ذلك مما اشتمل عليه القرآن والسنة فيتقرر بذلك الإثبات لتلك الصفات لا على وجه المماثلة والمشابهة للمخلوقات ، فيندفع به جانبي الإفراط والتفريط وهما المبالغة في الإثبات ، المفضي إلى التجسيم ، والمبالغة في النفي ، المفضية إلى التعطيل ، فيخرج من بين الجانبين ، وغلو الطرفين ، حقية مذهب السلف الصالح ، وهو قولهم بإثبات ما أثبت لنفسه من الصفات على وجه لا يعلمه إلا هو فإنه القائل ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾ .

ومن جملة الصفات التي أمرها السلف على ظاهرها وأجروها على ما جاء به القرآن والسنة من دون تكلف ولا تأويل ، صفة الاستواء التي ذكرها السائل، فإنهم يقولون نحن نثبت ما أثبته الله لنفسه من استوائه على عرشه على هيئة لا يعلمها إلا هو ، وفي كيفية لا يدري بها سواه ، ولا نكلف أنفسنا غير هذا فليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ، ولا يحبط عباده به علماً. وهكذا يقولون في مسألة الجهة التي ذكرها السائل وأشار إلى بعض ما فيه ، دليل عليها . والأدلة في ذلك طويلة كثيرة ، في الكتاب والسنة . وقد جمع أهل

العلم منها لا سيما أهل الحديث مباحث طوّلوها بذكر آيات قرآنية ، وأحاديث صحيحة ، وقد وقفت من ذلك على مؤلف بسيط . في مجلد جمعه مؤرخ الإسلام الحافظ الذهبي ، استوفى فيه كل ما فيه دلالة على الجهة . من كتاب أو سنة أو قول صاحب .

والمسألة أوضح من أن تلتبس على عارف ، وأبين من أن يحتاج فيها إلى التطويل ، ولكنها لما وقعت فيها تلك القلاقل ، والزلازل الكائنة بين بعض الطوائف الإسلامية ، كثر الكلام فيها ، وفي مسئلة الاستواء ، وطال خصوصاً بين الحنابلة وغيرهم من أهل المذاهب ، فلهم في ذلك تلك الفتن الكبرى ، والملاحم العظمى ، وما زالوا هكذا في عصر بعد عصر ، والحق هو ما عرفناك من مذهب السلف الصالح ، فالاستواء على العرش ، والكون في تلك الجهة ، قد صرح به القرآن الكريم في مواطن يكثر حصرها ، ويطول نشرها ، وكذلك صرح به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في غير حديث ، بل هذا مما يجده كل فرد من أفراد المسلمين في نفسه ، ويحسه في فطرته ، وتجذبه إليه طبيعته كما تراه في كل من استغاث بالله سبحانه . والتجأ إليه .

ووجه أدعيته إلى جنابه الرفيع وعزه المنيع ، فإنه يشير عند ذلك بكفه أو يرمي إلى السماء بطرفه ، ويستوي في ذلك عند عروض أسباب الدعاء وحدوث بواعث الاستغاثة ووجود مقتضيات الانزعاج ، وظهور دواعي الالتجاء عالم الناس وجاهلهم والماشي على طريقة السلف والمقتدي بأهل التأويل القائلين بأن الاستواء هو الاستيلاء ، كما قاله جمهور المتأولين أو الإقبال كما قاله أحمد بن يحيى ثعلب ، والزجاج ، والفراء وغيرهم ، أو كناية عن الملك والسلطان كما قاله آخرون . فالسلامة والنجاة في إمرار ذلك على الظاهر ، والإذعان بالاستواء والكون على ما نطق به الكتاب والسنة من دون تكييف ولا تكلف ، ولا قيل ولا قال ، ولا فضول في شيء من المقال .

فمن جاوز هذا المقدار بإفراط أو تفريط فهو غير مقتد بالسلف ، ولا

واقف في طريق النجاة ، ولا معتصم عن الخطأ . ولا سالك في طريق السلامة والاستقامة . وكما تقول هكذا في الاستواء والكون في تلك الجهة ، فكذا تقول في مثل قوله سبحانه ، ﴿ وهو معكم أينما كنتم ﴾ وقوله : ﴿ ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ﴾ وفي نحو إن الله مع الصابرين ﴿ إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴾ إلى ما يشابه ذلك ، ويماثله ويقاربه ويضارعه ، فيقول في مثل هذه الآيات هكذا جاء القرآن أن الله سبحانه مع هؤلاء ولا نتكلف بتأويل ذلك كما يتكلف غيرنا بأن المراد بهذا الكون وهذه المعية ، هو كون العلم ومعيته فإن هذه شعبة من شعب التأويل ، تخالف مذاهب السلف وتباين ما كان عليه الصحابة والتابعون وتابعوهم .

وإذا انتهيت إلى السلا مة في مداك فلا تجاوز
وهذا الحق ليس به خفاء فدعني من بينات الطريق

وقد هلك المتنطعون .

ولا يهلك على الله إلا هالك وعلى نفسها براقش تجني

وفي هذه الجملة وإن كانت قليلة ما يغني من يشح بدينه ، ويحرص عليه من تطويل المقال ، وتكثير ذيوله ، وتوسيع دائرة فروعه وأصوله والمهدي من هداه الله والله أعلم انتهى .

﴿ الرحمن ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي هو الرحمن ، أو بدل من الضمير في استوى وقرىء بالجر على أنه نعت للحي ، أو للموصول ، وقيل أو مبتدأ وخبره ﴿ فاسأل به خبيراً ﴾ على رأى الأخفش . والضمير المجرور يعود إلى ما ذكر من خلق السموات والأرض ، والاستواء على العرش والمعنى فاسأل بتفاصيل ما ذكر إجمالاً من هذه الأمور علياً .

وقال الزجاج والأخفش : الباء بمعنى عن ،أي فاسأل عنه كقوله : ﴿سأل سائل بعذاب واقع﴾ والمراد بالخبير الله سبحانه لأنه لا يعلم تفاصيل تلك المخلوقات إلاهو ،وقيل جبريل عليه السلام : والأول أولى وما قيل : إن التقدير إن

شككت فيه فاسأل به خبيراً ، على أن الخطاب له صلى الله عليه وآله وسلم ، والمراد غيره فهو بمعزل من السداد ؛ وقيل فاسأل به من وجده في الكتب المتقدمة ليصدقك فيه ، وقيل إن الضمير للرحمن ؛ اي إن أنكروا إطلاقه عليه سبحانه فاسأل عنه من يخبرك من أهل الكتاب ليعرفوا مجيء ما يرادفه في كتبهم . وانتصاب خبيراً على المفعولية . أو على الحال المؤكدة واستضعف الحالية أبو البقاء .

وقال ابن جرير : المعنى فاسأله حال كونه خبيراً وعلى هذا الباء في به زائدة وقيل قوله ﴿ به ﴾ يجري مجرى القسم كقوله : ﴿ واتقوا الله الذي تساءلون به ﴾ والوجه الأول أقرب هذه الوجوه ، ثم أخبر سبحانه عنهم بأنهم جهلوا معنى الرحمن فقال :

﴿ وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن ؟ ﴾ قال المفسرون : إنهم قالوا : ما نعرف الرحمن . إلا رحمن اليمامة ، يعنون مسيلمة قال الزجاج : الرحمن اسم من اسماء الله فلما سمعوه أنكروا فقالوا : وما الرحمن ؟ ﴿ أنسجد ﴾ الاستفهام للإنكار أي : لا نسجد ﴿ لما تأمرنا ﴾ أي للرحمن الذي تأمرنا بالسجود له ، ومن قرأ بالتحتية فالمعنى أنسجد لما يأمرنا محمد ، بالسجود له . قيل هذه السجدة من عزائم السجود فيسن للقارىء والمستمع أن يسجد عند سماعها وقراءتها .

﴿ وزادهم ﴾ الأمر بالسجود ﴿ نفوراً ﴾ عن الدين وبعداً عنه . وقيل : زادهم ذكر الرحمن تباعداً من الإيمان ، كذا قال مقاتل . والأول أولى ، ثم ذكر سبحانه ما لو تفكروا فيه لعرفوا وجوب السجود للرحمن ، فقال :

﴿ تبارك الذي جعل في السماء بروجاً ﴾ المراد بها ، بروج النجوم السبعة السيارة ، أي منازلهم ، ومحالها الاثنا عشر ، التي تسير فيها . وقال الحسن ، وقتادة ، ومجاهد : هي النجوم الكبار ، سميت بروجاً لظهورها ، والأول أولى وأصل البروج : القصور العالية . لأنها للكواكب كالمنازل الرفيعة لمن يسكنها ،

واشتقاق البروج من التبرج ، وهو الظهور . وقال الزجاج : إن البرج كل مرتفع ، فلا حاجة إلى التشبيه ، أو النقل ، قال ابن عباس في الآية : هي هذه الاثنا عشر برجاً ، أولها الحمل ، ويسمى بالكبش ، ثم الثور ، ثم الجوزاء ، ثم السرطان ، ثم الأسد ، ويسمى بالليث ، ثم السنبلة ، ثم الميزان ، ثم العقرب ، ثم القوس ، ثم الجدي ، ثم الدلو ، ويسمى بالدالي ثم الحوت وقد نظمها بعضهم وفي قوله :

حمل الثور جوزة السرطان ورعى الليث سنبل الميزان
ورمى عقرب بقوس لجدي نزح الدلو بركة الحيتان

وهي منازل الكواكب السيارة السبعة ، المريخ وله الحمل ، والعقرب ، والزهرة ولها الثور ، والميزان وعطارد ، وله الجوزاء، والسنبلة والقمر ، وله السرطان . والشمس ولها الأسد ، والمشتري وله القوس ، والحوت وزحل وله الجدي والدلو قاله المحلى . وقد نظم بعضهم هذه السبعة بقوله :

زحل شرى مريخه من شمسه فتزاهرت لعطارد الأقمار

فزحل نجم في السماء السابعة ، والمشتري نجم في السماء السادسة والمريخ[1] نجم في السماء الخامسة ، والشمس في الرابعة والزهرة في الثالثة ، وعطارد في الثانية والقمر في الأولى والحاصل : أن خمسة من الكواكب السبعة أخذت عشرة بروج كل واحد أخذ اثنين وأن اثنين من السبعة وهما الشمس والقمر كل واحد منهما أخذ واحداً من البروج المذكورة .

---

(١) لقد ثبت علمياً بالحس المفيد للقطع بواسطة المجاهر والمقاييس والآلات الرياضية أن المريخ أقرب الكواكب إلى الأرض وهو بنص القرآن في سماء الدنيا وهذه الكواكب التي ذكرها المصنف كلها في سماء الدنيا كما قال الله تعالى : ﴿ ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح ﴾ ولا يعارض القرآن العلم فالعلم مؤيد للقرآن ومثبت لإعجازه والله أعلم . المطيعي .

وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾

﴿ وجعل فيها سراجاً ﴾ أي شمساً ومثله قوله ﴿ وجعل الشمس سراجاً ﴾ وقرىء سُرُجاً بالجمع أي النجوم العظام الوقادة ورجح الأولى أبو عبيدة وقال الزجاج في تأويل الثانية : أراد الشمس والكواكب ﴿ وقمراً منيراً ﴾ أي ينير الأرض إذا طلع ، وقرىء قُمْراً بضم القاف وإسكان الميم ، وهي قراءة ضعيفة شاذة وخص القمر بالذكر لنوع فضيلة عند العرب لأنها تبني السنة على الشهور القمرية .

﴿ وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة ﴾ قال أبو عبيد : الخلفة كل شيء بعد شيء الليل خلفة للنهار ، والنهار خلفة الليل ، لأن أحدهما يخلف الآخر ، ويأتي بعده ، ومنه خلفة النبات ، وهو ورق يخرج بعد الورق الأول في الصيف . قال الفراء : يقول: يذهب هذا ، ويجيء هذا ، وقال مجاهد وابن عباس : خلفة من الخلاف ، هذا أبيض وهذا أسود والأول أقوى . وقيل : يتعاقبان في الضياء والظلام ، والزيادة والنقصان . وقيل : هو من باب حذف المضاف أي : جعل الليل والنهار ذوي خلفة أي : اختلاف . قال ابن عباس وعمر والحسن : يقول من فاته شيء من الخير بالليل أن يعمله أدركه بالنهار ومن فاته بالنهار أدركه الليل .

وعن الحسن أن عمر أطال صلاة الضحى ، فقيل له : صنعت اليوم شيئاً لم تكن تصنعه ؟ فقال : إنه بقي عليّ من وردي شيء فأحببت أن أتمه أو قال أقضيه ، وتلا هذه الآية : ﴿ لمن أراد أن يذكر ﴾ مشدداً من التذكر لله وقرىء مخففاً من الذكر له .

والمعنى أن المتذكر المعتبر إذا نظر في اختلاف الليل والنهار علم أنه لا بد في انقالهما من حال إلى حال من ناقل . وقيل : المعنى يتذكر ، فيعلم أن الله لم يجعلهما كذلك عبثا فيعتبر في مصنوعات الله ويشكره سبحانه على نعمه عليه في العقل ، والفكر والفهم . قال الفراء : يذكر ويتذكر يأتيان بمعنى واحد قال الله تعالى : ﴿ واذكروا ما فيه ﴾ وفي حرف عبدالله : ويذكروا ما فيه ﴿ أو أراد شكوراً ﴾ أي : أراد أن يشكر الله على ما اودعه في الليل والنهار ، من النعم العظيمة والألطاف الكثيرة و ﴿ أو ﴾ للتقسيم والتنويع وهي مانعة خلو فتجوز الجمع .

﴿ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً ﴾ هذا كلام مستأنف مسوق لبيان أوصاف صالحي عباد الله سبحانه وأحوالهم الدنيوية والأخروية بعد بيان حال المنافقين قيل : هذه الإضافة للتخصيص والتشريف والتفضيل وإلا فالخلق كلهم عباد الله . وهوناً مصدر وهو السكينة والتواضع والوقار . وقد ذهب جماعة من المفسرين إلى أن الهون متعلق بـ ﴿ يمشون ﴾ أي مشياً هوناً ، قال ابن عطية : ويشبه أن يتأول هذأ على أن يكون أخلاق ذلك الماشي هوناً مناسبة لمشيه . وأما أن يكون المراد صفة المشي وحده فباطل لأنه رب ماش هوناً رويداً وهو ذئب أطلس .

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يتكفّأ في مشيه كأنما يمشي في صبب ، قال ابن عباس في الآية : هم المؤمنون الذين يمشون على الأرض

هوناً . أي بالطاعة والعفاف والتواضع ، وقال أيضاً : هـوناً ، أي : علماً وحلماً ، والمعنى : يمشون بالسكينة والوقار ، متواضعـين غير أشـرين ، ولا مرحين ولا متكبرين ؛ بل علماء حكماء ، أصحاب وقار وعفة ، ولذا كره بعض العلماء الركوب في الأسواق ، ولقوله : ويمشي في الأســواق.

﴿ وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً ﴾ ذكر سبحانه أنهم يتحملون ما يرد عليهم من أذى أهل الجهل والسفه ، فلا يجهلون من يجهل ، ولا يشافهون أهل السفه . قـال النحاس : ليس هـذا السلام من التسليم إنمـا هو من التسلم ، تقول العرب : سلاماً ، أي تسلماً منك ، أي : براءة منك ، يعني قالوا : سلمنا سلاماً ، وهذا على قول سيبويه ، أو مفعول به ، أي قالوا : هذا اللفظ ورجحه ابن عطية ، وقال مجاهد معنى : سلاماً سداداً ، أي يقولون للجاهل ، كلاماً يدفعه به برفق ولين ، قال سيبويه : لم يؤمر المسلمون يومئذ أن يسلموا على المشركين ، لكنه على معنى قوله : تسلماً منكم ومتاركة ، لا خير ولا شر . بيننا وبينكم ، قال المبرد : كان ينبغي أن يقال لم يؤمر المسلمون يومئذ بحربهم ، ثم أمروا بحربهم .

وقال محمد بن يزيد المبرد : أخطأ سيبويه في هذا ، وأساء العبارة . قال النحاس : ولا نعلم لسيبويه كلاماً في معنى الناسخ والمنسوخ إلا في هـذه الآية ، لأنه قال في آخر كلامه : فنسختها آية السيف : وأقول هكذا يكون كلام الرجل إذا تكلم في غير علمـه ، ومشى في غير طـريقته ، ولم يؤمـر المسلمون بالسلام على المشركين ، ولا نهوا عنه ، بل أمروا بالصفح ، والهجر الجميل ، فلا حاجة إلى دعوى النسخ ،وفي الخطيب عن أبي العالية نسختها آية القتال . ولا حاجة إلى إدعاء النسـخ بها ولا غيـرها ، لأن الإغضـاء عن السفهاء ، وترك المقابلة ، مستحسن في الأدب والمروءة والشـريعة ، وأسلم للعرض والورع .

وقال ابن العربي : لم يؤمر المسلمون يومئذ أن يسلموا على المشركين ، ولانهوا عن ذلك بل أمروا بالصفح والهجر الجميل . وقد كان عليه الصلاة والسلام يقف على أنديتهم ويحييهم ، ويدانيهم ولا يداهنهم . قال النضر بن شميل : حدثني الخليل قال : أتيت أبا ربيعة الأعرابي ، وكان من أعلم من رأيت فإذا هو على سطح ، فسلمنا ، فرد علينا السلام ، وقال لنا ! استووا فبقينا متحيرين ، ولم ندر ما قال : فقال لنا أعرابي إلى جنبه أمركم ان ترتفعوا . فقال الخليل : هو من قول الله ثم استوى إلى السماء فصعدنا إليه فقال : هل لكم في خبز فطير ، ولبن هجير؟ فقلنا : الساعة فارقناه ، فقال : سلاماً فلم ندر ما قال فقال الأعرابي : إنه سالمكم متاركة لا خير فيها ، ولا شر . قال الخليل : هو من قول الله عز وجل ﴿ وإذا خاطبهم الجاهلون ، قالوا سلاماً ﴾ . قال الحسن : هذا وصف نهارهم ، ثم وصف ليلهم بقوله :

﴿ والذين يبيتون لربهم سجداً ﴾ على وجوههم ﴿ وقياماً ﴾ على أقدامهم بيان لحالهم في معاملة الخالق بعد بيان حالهم في معاملة الخلق ، وتخصيص البيتوتة لأن العبادة بالليل أحمض ، وأبعد عن الرياء ، وتأخير القيام للفاصلة والبيتوتة ، هي ان يدركك الليل ، نمت أم لم تنم قال الزجاج : من أدركه الليل فقد بات ، نام أو لم ينم ، كما يقال بات فلان قلقاً ، قال النسفي : والظاهر أنه وصفهم بإحياء الليل أو أكثره .

﴿ والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم ، إن عذابها كان غراماً ﴾ أي لزوماً كلياً في حق الكفار . ولزوماً بعده إطلاق إلى الجنة في الجنة في حق عصاة المؤمنين ، أي هم مع طاعتهم ، وحسن معاملتهم لخالقهم ، وخلقه ، لا يؤمنون مكر الله ، بل هم مشفقون ، وجلون ، خائفون من عذابه ، والغرام الشر اللازم الدائم قاله ابن زيد كما ورد مرفوعاً إليه صلى الله عليه وآله وسلم ، ومنه سمي الغريم لملازمته ، ويقال فلان مغرم بكذا ، أي

ملازم له ، مولع به هذا معناه في كلام العرب ، كما ذكره ابن الأعرابي ، وابن عرفة ، وغيرهما . وقال الزجاج : الغرام أشد العذاب ، وقال أبو عبيدة : هو الهلاك الدائم .

﴿ إنها ساءت ﴾ تعليل لما قبلها ، أي بئست جهنم ، أو أحزنت أصحابها وداخلها ﴿ مستقراً ومقاماً ﴾ المراد بهما جهنم ، فلذلك جاز تأنيث فعله قيل هما مترادفان وإنما عطف أحدهما على الآخر لاختلاف لفظهما . وقيل بل هما مختلفان معنى ، فالمستقر للعصاة ؛ فإنهم يخرجون ، والمقام للكفار فإنهم يخلدون ، والمخصوص بالذم محذوف ، أي هي ، ويجوز أن يكون هذا من كلام الله سبحانه ، ويجوز أن يكون حكاية لكلامهم ، ثم وصفهم سبحانه بالتوسط في الانفاق فقال :

﴿ والذين إذا أنفقوا ﴾ على عيالهم ﴿ لم يسرفوا ، ولم يقتروا ﴾ بفتح التحتية وضم الفوقية من قتر يقتر كقعد يقعد وقرىء بفتح التحتية وكسر التاء ، وهي لغة معروفة حسنة ، وقرىء بضم التحتية وكسر الفوقية ، قال أبو عبيدة : يقال قتر الرجل على عياله ، يقتر ويقتر قتراً ، وأقتر يقتر إقتاراً . ومعنى الجميع التضييف في الانفاق . قال النحاس : من أحسن ما قيل في معنى الآية إن من أنفق في غير طاعة الله فهو الإسراف ، ومن أمسك عن طاعة الله فهو الاقتار ، ومن أنفق في طاعة الله فهو القوام ، وقال إبراهيم النخعي : هو الذي لا يجيع ، ولا يعرى ، ولا ينفق نفقة ـ تقول الناس قد أسرف .

وقال يزيد بن حبيب : أولئك أصحاب محمد ، كانوا لا يأكلون طعاماً للتنعم واللذة ، ولا يلبسون ثوباً للجمال ، ولكن كانوا يريدون من الطعام ما يسد عنهم الجوع ، ويقويهم على عبادة الله ، ومن اللباس ما يستر عوراتهم ويقيهم الحر والبرد . وقال أبو عبيدة : لم يزيدوا على المعروف، ولم يبخلوا ،

كقوله ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط ﴾ . قال ابن عباس : هم المؤمنون لا يسرفون فينفقوا في معصيه الله ولا يقترون فيمنعوا حقوق الله قال عمر بن الخطاب : كفى سرفاً أن لا يشتهي شيئاً إلا اشتراه وأكله . وقيل الإسراف مجاوزة الحد في الانفاق حتى يدخل في حد التبذير، والإقتار التقصير عما لا بد منه .

﴿ وكان بين ذلك قواماً ﴾ بفتح القاف وقرىء بكسرها فقيل هما بمعنى ، وقيل القوام بالكسر ما يدوم عليه الشيء ، ويستقر بالفتح العدل والاستقامة ، قاله ثعلب ، قيل بالفتح بين الشيئين ، وبالكسر ما يقال به الشيء لا يفضل عنه ولا ينقص . وقيل : بالكسر السداد ، والمبلغ واسم كان مقدر فيها ، وخبرها قواماً قاله الفراء ، أي كان انفاقهم قصداً وسطاً بين الإسراف والإقتار ، وحسنة بين السيئتين ، وروي عن الفراء قول آخر ، وهو أن اسم كان ﴿ بين ذلك ﴾ وتبنى ﴿ بين ﴾ على الفتح لأنها من الظروف المفتوحة وقال النحاس : ما أدرى ما وجه هذا لأن ﴿ بين ﴾ إذا كانت في موضع رفع رفعت .

وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾

﴿ والذين لا يدعون مع الله إلّها آخر ﴾ لما فرغ من ذكر إتيانهم بالطاعات شرع في بيان اجتنابهم للمعاصي ، والمعنى : لا يدعون معه رباً من الأرباب ، ولا يشركون به شيئاً بل يوحدونه ، ويخلصون له العبادة والدعوة .

وقد أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن مسعود قال : سئل رسول صلى الله عليه وآله وسلم أي : الذنب أكبر ؟ قال : « أن تجعل لله نداً وهو خلقك » قلت : ثم أي قال : « أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك » قلت : ثم أي قال : « أن تزاني بحليلة جارك » فأنزل الله تصديق ذلك والذين لا يدعون مع الله الآية[1] .

وأخرج الشيخان وغيرهما أيضاً عن ابن عباس ، أن ناساً من أهل الشرك قد قتلوا فأكثروا ، وزنوا فاكثروا ، ثم أتوا محمداً ﷺ ، فقالوا : إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن ، لو تخبرنا أن لما عملناه كفارة ، فنزلت : ﴿ والذين لا يدعون ﴾ الآية ونزلت : ﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم ﴾ الآية[2] .

---

(١) مسلم ٨٦ ـ البخاري ١٩٦٢ .

(٢) مسلم ١٢٢ ـ البخاري ٢٠٣٧ .

﴿ ولا يقتلون النفس التي حرم الله ﴾ قتلها بسبب من الأسباب ﴿ إلا بالحق ﴾ أي بسبب الحق المزيل لحرمتها وعصمتها ، أي بما يحق أن تقتل به النفوس ، من كفر بعد إيمان أو زنا بعد إحصان ، أو قتل نفس بغير نفس ﴿ ولا يزنون ﴾ أي لا يستحلون الفروج المحرمة بغير نكاح ولا ملك يمين .

﴿ ومن يفعل ذلك ﴾ أي شيئاً مما ذكر ﴿ يلق أثاماً ﴾ هو في كلام العرب العقاب ، قال الفراء : آثمه الله يوثمه آثاماً وأثاماً ، أي جازاه جزاء الإثم فهو مأثوم ، أي مجزى جزاء الإثم . وقال عبدالله بن عمر وعكرمة ومجاهد : إن أثاماً واد في جهنم جعله الله عقاباً للكفرة وقال السدي : جبل فيها . وقرىء يلق بضم الياء وتشديد القاف ، قال أبو مسلم : الأثام والإثم واحد . والمراد هنا جزاء الأثام . فأطلق اسم الشيء على جزائه ، وقرأ الحسن أياماً جمع يوم يعني شدائد ، والعرب تعبر عن ذلك بالأيام ، وما أظن هذه القراءة تصح عنه .

﴿ يضاعف ﴾ وقرىء يضـعّف بالتشديد ، وكل من القراءتين يجيء مع جزم الفعل ، ورفعه فالقراآت أربع وكلهـا سبعية ، وقـرىء نُضَعّف بضم النون ، وكسر العين المشددة والجزم .

﴿ له العذاب يوم القيامـة ﴾ سبب المضاعفـة أن المشرك إذا ارتكب المعاصي مع الشرك ، يضاعف له العذاب على شركه ومعصيته ﴿ ويخلد ﴾ وقرىء بالفوقية ، خطاباً للكافر ، وقرىء يُخَلَّد بضم الياء وفتح اللام ، قال أبو علي الفارسي : وهي غلط من جهة الرواية وضمير ﴿ فيه ﴾ راجع إلى العذاب المضاعف ، وقرىء فيهـا بالإشباع مبالغة في الوعيد ، والعرب تمد للمبالغة ، مع أن الأصل في هاء الكناية الإشباع ،﴿ مهاناً ﴾ ذليلاً حقيراً جامعاً للعذاب الجسماني والروحاني . قال ابن عباس : قرأناها على عهد رسول الله ﷺ سنين ثم نزلت .

﴿ إلامن تاب وآمن ، وعمل عملاً صالحاً ﴾ فما رأيت رسول الله ﷺ

فرح بشيء قط فرحه بها ، وفرحه بـ ﴿ إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ﴾ . قيل والاستثناء متصل من الضمير المستتر في يلق ، أي إلا من تاب ، فلا يلق أثاماً بل يزاد له في الإكرام بتبديل سيئآته حسنات . وقيل منقطع . قال أبو حيان : لا يظهر الاتصال لأن المستثنى منه محكوم عليه بأنه يضاعف له العذاب ، فيصير التقدير إلا من تاب وآمن وعمل صالحاً . فلا يضاعف له العذاب . ولا يلزم من انتفاء التضعيف انتفاء العذاب غير المضعف ، قال : والأولى عندي أن يكون منقطعاً ، أي لكن من تاب . قال القرطبي : لا خلاف بين العلماء أن الاستثناء عام في الكافر ، والزاني . واختلفوا في القاتل من المسلمين وقد تقدم بيانه في المائدة .

والإشارة بقوله ﴿ فأولئك يبدّل الله سيئآتهم حسنات ﴾ إلى المذكورين سابقاً ، ومعنى تبديلها حسنات أنه يمحو عنهم سوابق المعاصي بالتوبة ، ويثبت لهم مكانها لأحق الطاعات. قال النحاس : من أحسن ما قيل في ذلك أنه يكتب موضع كافر مؤمن وموضع عاص مطيع . قال الحسن : قوم يقولون هذا التبديل في الآخرة وليس كذلك إنما التبديل في الدنيا ، يبدل الله لهم إيماناً مكان الشرك ، وإخلاصاً مكان الشك ، وإحصاناً مكان الفجور ، وقتل المشرك مكان المؤمن . قال الزجاج : ليس يجعل مكان السيئة الحسنة ، ولكن يجعل مكان السيئة التوبة ، والحسنة مع التوبة ، وقيل إن السيئآت تبدل الحسنات ، وبه قال جماعة من الصحابة ، ومن بعدهم .

وقيل تبدل ملكة المعصية ودواعيها في النفس ، بملكة الطاعة بأن يزيل الأولى ويأتي بالثانية مكانها . وقيل التبديل عبارة عن الغفران ، إي يغفر الله لهم تلك السيئآت ، لا أنه يبدلها حسنات . قلت ولا يبعد في كرم الله تعالى إذا صحت توبة العبد ، أن يضع مكان كل سيئة حسنة ، وقد قال ﷺ لمعاذ : « وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن »[1] وقال ابن

(١) الترمذي كتاب البر باب ٥٥ ـ الإمام أحمد ١٥٣/٥ ـ ١٥٨/٥ .

عباس : ابدلهم الله بالكفر الإسلام ، وبالمعصية الطاعة ، وبالإنكار المعرفة ، وبالجهالة العلم . وعنه قال : هم المؤمنون كانوا من قبل إيمانهم على السيئآت فرغب الله بهم عن ذلك فحولهم إلى الحسنات فأبدلهم مكان السيئآت الحسنات .

وأخرج أحمد وهناد والترمذي وابن جرير والبيهقي عن أبي ذر قال : قال رسول الله ﷺ « يؤتى بالرجل يوم القيامة فيقال : اعرضوا عليه صغار ذنوبه ، فيعرض عليه صغارها ، وينحى عنه كبارها ، فيقال : عملت كذا وكذا وهو يقر ليس ينكر ، وهو مشفق من الكبائر أن تجيء فيقال اعطوه بكل سيئة عملها حسنة»[1] والأحاديث في تكفير السيئآت وتبديلها بالحسنات كثيرة . ﴿ وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ مقررة لما قبلها من التبديل ، وتكفير السيئآت بالحسنات ، أي لم يزل متصفاً بذلك .

﴿ ومن تاب ﴾ عن المعاصي بتركها ، والندم عليها ﴿ وعمل صالحاً ﴾ يلافي به ما فرط ﴿ فإنه يتوب ﴾ يرجع ﴿ إلى الله متاباً ﴾ رجوعاً صحيحاً ، مرضياً ، قوياً عند الله ، ماحياً للعقاب ، محصلا للثواب ، أو متابا إلى الله الذي يحب التائبين ، ويحسن إليهم أو فإنه يرجع إلى الله . وإلى ثوابه مرجعاً حسناً ، وهذا تعميم بعد تخصيص . قال القفال : يحتمل أن تكون الآية الأولى فيمن تاب من المشركين ، ولهذا قال ﴿ الا من تاب وآمن ﴾ ثم عطف عليه ، ومن تاب من المسلمين وأتبع توبته عملاً صالحاً فله حكم التائبين أيضاً .

وقيل أي من تاب بلسانه ولم يحقق التوبة بفعله ، فليست تلك التوبة نافعة بل من تاب وعمل صالحاً فحقق توبته بالأعمال الصالحة فهو الذي تاب إلى الله متاباً ، أي تاب حق التوبة ، وهي النصوح ، ولذلك أكد بالمصدر ومعنى الآية من أراد التوبة وعزم عليها فليتب إلى الله فالخبر في معنى الأمركذا، قيل : لئلا يتحد الشرط والجزاء ، فإنه لا يقال من تاب فإنه يتوب ، وقيل : المعنى من تاب من الشرك وأدى الفرائض ، ممن لم يقتل ولم يزن فإنه يعود إلى

---

[1] الإمام أحمد ٥/١٥٧ ـ مسلم ١٩٠ بلفظ آخر .

الله بعد الموت حسناً ، يفضل على غيره ، ممن قتل وزنا ، فالتوبة الأولى رجوع عن الشرك ، والثانية رجوع إلى الله ، للجزاء والمكافأة . والأول أولى .

ثم وصف سبحانه هؤلاء التائبين العاملين للصالحات فقال :

﴿ والذين لا يشهدون الزور ﴾ أي لا يقيمون الشهادة الكاذبة أو لا يحضرون الزور ، وهو الكذب والباطل ، ولا يشاهدونه،وإلى الثاني ذهب جمهور المفسرين قال الزجاج : الزور في اللغة الكذب ، ولا كذب فوق الشرك بالله، قال الواحدي : أكثر المفسرين على أن الزور ههنا بمعنى الشرك والحاصل أن ﴿ يشهدون ﴾ إن كان من الشهادة ففي الكلام مضاف محذوف ، أي لا يشهدون شهادة الزور وإن كان من الشهود والحضور ـ كما ذهب إليه الجمهور ـ فقد اختلفوا في معناه ، فقال قتادة : لا يساعدون أهل الباطل على باطلهم وقال محمد بن الحنفية : لا يحضرون اللهو والغناء .

وقال ابن جريح : الكذب ، وعن مجاهد أيضاً . وقيل ينفرون عن محاضر الكذابين ، ومجالس الخطائين ، فلا يقربونها تنزهاً عن مخالطة الشر ، وأهله ، وقيل أعياد المشركين ، وقيل النوح،والأولى عدم التخصيص بنوع دون نوع من أنواع الزور بل المراد الذين لا يحضرون ما يصدق عليه اسم الزور كائناً ما كان ، وعن ابن عباس قال : إن الزور كان صنماً بالمدينة يلعبون حوله كل سبعة أيام .

﴿ وإذا مروا باللغو ﴾ على سبيل الاتفاق من غير قصد ﴿ مروا كراماً ﴾ أي معرضين عنه ، غير ملتفتين إليه ، مكرمين أنفسهم عن الوقوف عليه ، والخوض فيه . ومن ذلك الإغضاء عن الفواحش ، والصفح عن الذنوب، والكناية عما يستهجن التصريح به قال ابن عباس : كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه آله وسلم إذا مروا به ، يعني الصنم المذكور ، مروا كراماً ، لا ينظرون إليه ، كقوله ﴿ وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه ﴾ .

وقال الباقر : إذا ذكروا الفروج كنوا عنها . وقيل الشتم ، والأذى

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًۢا ﴿٧٧﴾﴾

واللغو، كل ساقط، من قول أو فعل. قال الحسن: اللغو المعاصي كلها، وقيل المراد مروا بذوي اللغو، يقال فلان يكرم عما يشينه، أي بتنزه، ويكرم نفسه، عن الدخول في اللغو، والاختلاط بأهله.

﴿والذين إذا ذكّروا بآيات ربهم﴾ أي بالقرآن أو بما فيه من موعظة وعبرة ﴿لم يخروا﴾ أي لم يسقطوا، ولم يقعوا ﴿عليها﴾ حال كونهم ﴿صماً وعمياناً﴾ ولكنهم أكبوا عليها سامعين، مبصرين، بآذان واعية، وعيون راعية، وانتفعوا بها. قال ابن قتيبة: المعنى لم يتغافلوا عنها، كأنهم صم لم يسمعوها، وعمي لم يبصروها قال ابن جرير: ليس ثَمَّ خرور، بل كما يقال قعد يبكي، وإن كان غير قاعد. قال ابن عطية: كأن المستمع للذكر قائم، فإذا أعرض عنه كان ذلك خروراً، وهو السقوط على غير نظام: قيل المعنى إذا تليت عليهم آيات الله، وجلت قلوبهم، فخرّوا سجداً وبكياً، ولم يخروا عليها صماً وعمياناً. قال الفراء بأي لم يقعدوا على حالهم الأول، كأن لم يسمعوا قال في الكشاف: ليس بنفي للخرور. وإنما هو إثبات له ونفي للصمم والعمى، وأراد أن النفي متوجه إلى القيد لا إلى المقيد.

﴿والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا﴾ من ابتدائية، أو بيانية، قاله الزمخشري ﴿وذرياتنا﴾ قرىء بالجمع، وبالإفراد، وهما سبعيتان،

والذرية تقع على الجمع ، كما في قوله ﴿ ذرية ضعافاً ﴾ وتقع على الفرد كما في قوله ذرية طيبة .

﴿ قرة أعين ﴾ يقال : قرت عينه قرة . قال الزجاج : يقال أقر الله عينك أي صادف فؤادك ما تحبه وقال المفضل : في قرة العين ثلاثةأقوال، أحدها برد دمعها لأنه دليل السرور والضحك،كما أن حره دليل الحزن والغم ، والثاني نومها ، لأنه يكون مع فراغ الخاطر وذهاب الحزن ، والثالث حصول الرضا قال ابن عباس : يعنون من يعمل بالطاعة فتقر به أعيننا في الدنيا والآخرة فإنه ليس شيء أقر لعين المؤمن من أن يرى زوجته وأولاده مطيعين لله عز وجل ، فيطمع أن يحلّوا معه في الجنة ، فيتم سروره ، وتقر عينه بذلك .

﴿ واجعلنا للمتقين إماماً ﴾ أي قدوة يقتدي بنا في الخير وإقامة مراسم الدين بإفاضة العلم والتوفيق للعمل الصالح . وإنما قال إماماً ولم يقل أئمة لأنه أريد الجنس ، كقوله ﴿ ثم يخرجكم طفلاً ﴾ قال الفراء : قال إماماً ، ولم يقل أئمة كما للاثنين ﴿ إنا رسول رب العالمين ﴾ يعني أنه من الواحد الذي أريد به الجمع وقال الأخفش : الإمام جمع أم من أم يؤم جمع على فعال نحو صاحب وصحاب وقائم وقيام،وقيل إن إماماً مصدر ، يقال أم فلان فلاناً إماماً مثل الصيام والقيام، وقيل أرادوا اجعل كل واحد منا إماماً، وقيل أرادوا اجعلنا إماماً واحداً ، لاتحاد كلمتنا واتفاق طريقتنا وقيل : إنه من الكلام المقلوب وان المعنى واجعل المتقين لنا إماماً . وبه قال مجاهد .

وقيل : إن هذا الدعاء صادر عنهم بطريق الانفراد وإن عبارة كل واحد منهم عند الدعاء واجعلني للمتقين إماماً ولكنها حكيت عبارات القوم بصيغة المتكلم ، مع الغير لقصد الإيجاز ، كقوله : ﴿ يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً ﴾ ، وفي هذا إبقاء إماماً على حاله قال القفال : وعندي أن الإمام إذا ذهب به مذهب الاسم وحد كأنه قيل اجعلنا حجة للمتقين . ومثله البينة ، يقال هؤلاء بينة فلان ، قال الحفناوي : ولفظ إمام يستوي فيه الجمع وغيره ، فالمطابقة حاصلة .

قال النيسابوري : قيل في الآية دلالة على أن الرياسة الدينية مما يجب أن تطلب ويرغب فيها والأقرب أنهم سألوا الله أن يبلغهم في الطاعة المبلغ الذي يشار إليهم ويقتدي بهم وقال ابن عباس في الآية : أئمة هدى يهتدي بنا ولا تجعلنا أئمة ضلالة لأنه قال لأهل السعادة ﴿ وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا ﴾ ولأهل الشقاوة ﴿ وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ﴾ .

﴿ أولئك ﴾ إشارة الى المتّصفين بتلك الصفات المفصلة في حيز الموصولات الثمانية من حيث اتصافهم بها وفيه دليل على أنهم متميزون بذلك أكمل تميز ومنتظمون في سلك الأمور المشاهدة وهو مبتدأ وخبره ما بعده والجملة مستأنفة وقيل ذلك ﴿ يجزون الغرفة ﴾ أي الدرجة الرفيعة وهي أعلى منازل الجنة وأفضلها كما أن الغرفة أعلى مساكن الدنيا،وهي في الأصل كل بناء مرتفع والجمع غرف ؛ وقال الضحاك : الغرفة الجنة أي يجزون الجنة ، ووحد الغرفة لدلالتها على الجنس دليله قوله ﴿ وهم في الغرفات آمنون ﴾ .

وعن سهل بن سعد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « الغرفة من ياقوته حمراء وزبرجدة خضراء ودرة بيضاء ليس فيها فصم ولا وصم[1] » أخرجه الحكيم الترمذي ﴿ بما صبروا ﴾ أي بسبب صبرهم على مشاق التكليفات والطاعات ورفض الأهواء والشهوات وتحمل المجاهدات .

﴿ويُلَقَّوْن، فيها تحية وسلاماً﴾ بضم الياء مشدداً ، واختاره أبو عبيد ، أي : يعطون ، لقوله : ﴿ ولقاهم نضرة وسروراً ﴾ وقرىء يَلقَوْن بفتح الياء مخففاً ، واختاره الفراء ، ومعناه يجدون ، ويصادفون ، قال : لأن العرب تقول فلان يلقى بالسلام والتحية ، والخير ، وقلما يقولون يلقي ، والمعنى أنه يحيي بعضهم بعضاً ، ويرسل إليهم الرب سبحانه بالسلام وقيل التحية البقاء الدائم ، والملك العظيم وقيل هي بمعنى السلام ، وقيل إن الملائكة تحييهم ،

---

(١) ضعيف الجامع الصغير ٣٩٢٩.

وتسلم عليهم،والظاهر أن هذه التحية والسلام هي من الله سبحانه لهم ومن ذلك قوله سبحانه تحيتهم يوم يلقونه سلام . وقيل معنى التحية الدعاء لهم بطول الحياة والتعمير ومعنى السلام الدعاء لهم بالسلامة من الآفات وقيل المراد بالتحية إكرام الله تعالى لهم بالهدايا والتحف ، وبالسلام سلامه عليهم بالقول.

﴿ خالدين ﴾ أي مقيمين ﴿ فيها ﴾ من غير موت ولا خروج ﴿ حسنت ﴾ الغرفة ﴿ مستقراً ﴾ أي موضع قرار يستقرون فيه ﴿ ومقاماً ﴾ يقيمون فيه ، وهذا في مقابل ما تقدم من قوله ساءت مستقراً ومقاماً ﴿ قل ما يعبؤ بكم ربي ﴾ بين سبحانه أنه غني عن طاعة الكل ، وإنما كلفهم لينتفعوا بالتكليف ، يقال ما عبأت بفلان ، أي ما باليت به ولا له عندي قدر وأصل يعبأ من العبء ، وهو الثقل . قال الخليل : ما أعبأ بفلان أي ما أصنع به كأنه يستقله ويستحقره ، ويدعي أن وجوده وعدمه سواء ، وكذا قال أبو عبيدة .

قال الزجاج : ما يعبأ بكم ربي، يريد أي وزن يكون لكم عنده ، أو ما يصنع بكم ، أو بعذابكم والعبء الثقل و﴿ ما ﴾ استفهامية أو نافية،وصرح الفراء بإنها استفهامية قال ابن الشجري : وحقيقة القول عندي أن موضع ﴿ ما ﴾ نصب ، والتقدير : أي عبء يعبأ بكم ؟ أي أيُّ مبالاة يبالي بكم ؟ وأيُّ اعتداد يعتد بكم ؟ .

﴿ لولا دعاؤكم ﴾ أي لولا دعاؤه إياكم لتعبدوه،وعلى هذا فالمصدر الذي هو الدعاء مضاف إلى مفعوله، وهو اختيار الفراء، وفاعله محذوف، وجواب لولا محذوف تقديره لولا دعاؤكم لم يعبأ بكم ويؤيد هذا قوله ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ والخطاب لجميع الناس وعن ابن عباس في الآية قال : يقول لولا إيمانكم فأخبر الله سبحانه أنه لا حاجة له بهم إذ لم يخلقهم مؤمنين، ولو كانت له بهم حاجة لحبب إليهم الإيمان كما حببه إلى المؤمنين وقيل إن المصدر مضاف إلى الفاعل أي لولا استغاثتكم إليه في الشدائد .

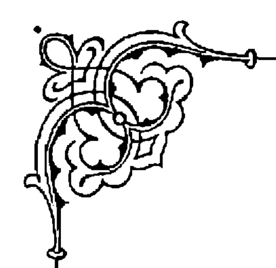
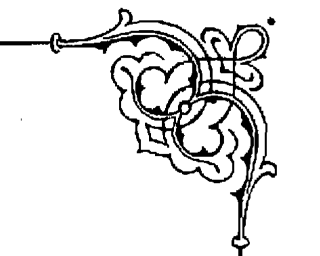
وقيل المعنى ما يعبأ بكم أي بمغفرة ذنوبكم لولا دعاؤكم الآلهة معه،وممن قال إن الدعاء مضاف إلى الفاعل القتيبي والفارسي، قالا والأصل لولا دعاؤكم آلهة من دونه،وجواب لولا محذوف أي لولا دعاؤكم لم يعذبكم،قال أبو السعود : أمر رسوله بأن يبين للناس أن الفائزين بتلك النعماء الجليلة التي يتنافس فيها المتنافسون إنما نالوها بما عدد من محاسنهم،ولولاها لم يعتد بهم أصلاً،يعني إنما اكترث بأولئك وعبأ بهم وأعلى ذكرهم لأجل عبادتهم وحدها لا لمعنى آخر،ولولا عبادتهم لم يكترث بهم البتة ولم يعتد بهم ولم يكونوا عنده شيئاً يبالي به قاله الزمخشري .

ثم خصّ الكفار منهم فقال ﴿ فقد كـذّبتم﴾ وقرأ ابن الزبير فقد كذب الكافرون وبه قرأ ابن عباس وابن مسعود كما حكاه ابن جني وفي هذه القراءة دليل بين على أن الخطاب لجميع الناس ويكون معنى فقد كذبتم على الأول فقد كذبتم ما دعيتم إليه وعلى الوجه الثاني فقد كذبتم بالتوحيد،ثم قال سبحانه ﴿ فسوف يكون لزاماً ﴾ أي يكون جزاء التكليف لازماً لكم،وجمهور المفسرين على أن المراد باللزام هنا ما لزم المشركين يوم بدر،وبه قال ابن مسعود وقالت طائفة هو عذاب الآخرة،قال أبو عبيد : لزاماً فيصلاً بينكم وبين المؤمنين،وقال الزجاج : يكون تكذيبكم لزاماً يلزمكم فلا تعطون التوبة،وجمهور القراء على كسرة اللام من لزاماً قال ابن جرير : لزاماً عذاباً دائماً وهلاكاً مفنياً يلحق بعضكم بعضاً،وقرأ أبو السماك لزاماً بفتح اللام قال أبو جعفر : يكون مصدر لزم والكسر أولى قال ابن عباس : لزاماً موتاً وقيل وبالاً .

وفي الصحيحين عنه قال : « قد مضين » أي خمس علامات دالات[1] على قيام الساعة الدخان والقمر والروم والبطشة واللزام .

---

(١) مسلم ٢٧٩٨ ـ البخاري ٥٧٠ .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الشعراء

﴿ مائتان وسبع وعشرون آية ومكيّة عند الجمهور ﴾

وبه قال ابن الزبير، وقال ابن عباس: سوى خمس آيات من آخرها نزلت بالمدينة وهي: والشعراء يتبعهم الغاوون الى آخرها.

وأخرج القرطبي في تفسيره عن البراء أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «أن الله أعطاني السبع الطوال مكان التوراة، وأعطاني المئين مكان الانجيل، وأعطاني الطواسين مكان الزبور، وفضلني بالحواميم والمفصل. ما قرأهن نبي قبلي».

وأخرج أيضا عن ابن عباس: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أعطيت المفصل نافلة» قال ابن كثير: ووقع في تفسير مالك تسميتها بسورة الجمعة.



وهو عرق في القفا ، وقد مضى تحقيق هذا في سورة الكهف وقرىء باخع نفسك بالإضافة ، والمعنى لعلك قاتل نفسك .

﴿أن لا يكونوا﴾ أي أهل مكة ﴿مؤمنين﴾ أي : لعدم إيمانهم بما جئت به ، وفي هذا تسلية لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأنه كان حريصاً على إيمان قومه شديد الأسف لما يراه من إعراضهم .

﴿إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما سبق من التسلية ، والمعنى ننزل آية تلجئهم الى الإيمان ولكن قد سبق القضاء بأنا لا ننزل ذلك ، وتقديم الظرفين على المفعول الصريح للاهتمام بالمقدم والتشويق الى المؤخر .

﴿فظلت أعناقهم لها خاضعين﴾ أي أنهم صاروا منقادين لها أي فتظل اعناقهم ، قيل : وأصله فظلوا لها خاضعين ، فأقحمت (الاعناق) للتقرير والتصوير ، لأن الأعناق موضع الخضوع . وقيل : إنها لما وصفت الاعناق بصفات العقلاء أجريت مجراهم ، ووصفت بما يوصفون به .

قال عيسى بن عمر : وخاضعين وخاضعة سواء واختاره المبرد ، والمعنى أنها إذا ذلت رقابهم ذلوا، فالإخبار عن الرقاب إخبار عن أصحابها ، ويسوغ في كلام العرب أن يترك الخبر عن الأول ويخبر عن الثاني .

وقال أبو عبيد والكسائي : إنّ المعنى خاضعيها هم وضعفه النحاس . وقال مجاهد : أعناقهم كبراؤهم . قال النحاس : وهذا معروف في اللغة ، يقال جاءني عنق من الناس ، أي : رؤساء منهم وقال أبو زيد ، والأخفش : أعناقهم جماعاتهم ، يقال : جاءني عنق منهم أي : جماعة، وقال ابن عباس : خاضعين ذليلين .

﴿وما يأتيهم من﴾ مزيدة لتأكيد المعنى ﴿ذكر من الرحمن﴾ لابتداء الغاية ﴿محدث﴾ إنزاله ، وكلما نزل شيء من القرآن بعد شيء فهو أحدث من الأول .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾

﴿طسٓمٓ﴾ محله الرفع على الابتداء إن كان اسماً للسورة كما ذهب اليه الأكثر ، أو على أنه خبر،ويجوز أن يكون في محل نصب ، والتقدير : اذكر أو اقرأ ، وأما إذا كان مسروداً على نمط التعديد كما تقدم مراراً فلا محل له من الإعراب ، وقد قيل : إنه اسم من أسماء الله سبحانه ، وقيل : إنه اسم من أسماء القرآن ، وقيل : اسم السورة ، وقيل : أقسم بطوله وسنائه وملكه .

وقال ابن عباس : طسٓمٓ عجزت العلماء عن علم تفسيرها وهو الحق في المقام ، ولذا قال المحلي : الله أعلم بمراده بذلك .

﴿تلك﴾ أي : السورة أو آيات هذه السورة ﴿آيات الكتاب﴾ أي : القرآن .

﴿المبين﴾ أي : المبين المظهر للحق من الباطل ، أو المبين الظاهر إعجازه إن كان من أبان اللازم بمعنى بان وهذا المعنى أليق بالمقام : وأوفق للمرام ، ولذا اقتصر عليه صاحب الكشاف .

﴿لعلك باخع﴾ أي : قاتل ومهلك ﴿نفسك﴾ لعل هنا للاشفاق أي : أشفق عليها بتخفيف هذا الغم ، والبخع في الأصل أن يبلغ بالذبح البخاع ،

﴿إلّا كانوا عنه معرضين﴾ أي إنه لا يجدد لهم موعظة وتذكيراً إلا جددوا ما هو نقيض المقصود ، وهو الإعراض والتكذيب والاستهزاء والجملة حالية ، والاستثناء مفرغ من أعم العام . وقد تقدم تفسير مثل هذه الآية في سورة الأنبياء .

﴿فقد كذبوا﴾ بالذكر الذي يأتيهم تكذيباً صريحاً ، ولم يكتفوا بمجرد الإعراض . وقيل : إن الإعراض بمعنى التكذيب لأن من أعرض عن شيء ولم يقبله فقد كذبه ، وعلى هذا فيكون ذكر التكذيب للدلالة على صدور ذلك منهم على وجه التصريح ، والأول أولى . فالإعراض عن الشيء عدم الالتفات إليه .

ثم انتقلوا عن هذا الى ما هو أشد منه وهو التصريح بالتكذيب ، ثم انتقلوا عن التكذيب الى ما هو أشد منه وهو الاستهزاء كما يدل عليه قوله : ﴿فسيأتيهم أنباء﴾ وهي ما يستحقونه من العقوبة آجلا وعاجلاً ، وسميت أنباء لكونها مما أنبأ عنه القرآن وقال :

﴿ماكانوا بهيستهزؤون﴾ ولم يقل : ما كانوا عنه معرضين ، أو : ما كانوا به يكذبون ، لأن الاستهزاء أشد منهما ، ومستلزم لهما ، وفي هذا وعيد شديد ، وقد مرّ تفسير مثل هذا في سورة الأنعام . ثم ذكر سبحانه ما يدل على كمال قدرته من الأمور الحسية ، التي يحصل بها للمتأمل فيها ، والناظر اليها ، والمستدل بها أعظم دليل ، وأوضح برهان ، وبيّن انه أظهر لهم أدلة تحدث في الأرض وقتاً بعد وقت تدل على توحيده ، ومع ذلك استمر أكثرهم على الكفر فقال :

﴿أولم يروا﴾ الهمزة للتوبيخ ، والواو للعطف على مقدر ، كما في نظائره ﴿إلى الارض﴾ أي : الى عجائبها وبيّن بعضها بقوله ﴿كم أنبتنا فيها﴾ أي : كثيراً ﴿من كل زوج كريم﴾ فنبه سبحانه على عظمته وقدرته ، وأن هؤلاء

المكذبين المستهزئين لو نظروا حق النظر لعلموا أنه سبحانه الذي يستحق أن يعبد ، والمراد بالزوج هنا الصنف والنوع ، وقال الفراء : هو اللون . وقال الزجاج : زوج نوع ، وكريم محمود . والمعنى من كل زوج نافع ، لا يقدر على إنباته إلا رب العالمين ، اذ ما من نبت إلا وله النفع . والكريم في الأصل الحسن الشريف ، يقال : نخلة كريمة ، أي : كثيرة الثمرة ، ورجل كريم ، شريف فاضل ، وكتاب كريم ؛ إذا كان مرضياً في معانيه ، والنبات الكريم هو المرضي في منافعه .

قال الشعبي : الناس مثل نبات الأرض فمن صار منهم إلى الجنة فهو كريم ، ومن صار منهم الى النار فهو لئيم . وفائدة الجمع بين كلمتي الكثرة والإحاطة أن كلمة كل تدل على الإحاطة بأزواج النبات على سبيل التفصيل ، و (كم) تدل على أن هذا المحيط متكاثر مفرط الكثرة ، وبه نبه على كمال قدرته . قاله الزمخشري ، واليه أشار في التقرير .

﴿إن في ذلك لآية﴾ أي : فيما ذكر من الإنبات ، أو في كل واحد من تلك الأزواج لدلالة بينة وعلامة واضحة على كمال قدرة الله سبحانه ، وبديع صنعته ، واللام زائدة في اسم إن المؤخر . وقد ذكرت هذه الآية في هذه السورة ثمان مرات ، ثم أخبر سبحانه بأن أكثر هؤلاء مستمر على ضلالته ، مصمم على جحوده وتكذيبه واستهزائه فقال :

﴿وما كان أكثرهم مؤمنين﴾ أي : سبق علمي فيهم أنهم سيكـونون هكذا ، فلذلك لا تنفعهم أمثال هذه الآيات العظام . قال سيبويـه : إن (كان) هنا صلة أي : زائدة .

﴿وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾ أي : الغالب القاهر لهؤلاء بالانتقام منهم ، مع كونه كثير الرحمة ، ولذلك أمهلهم ولم يعاجلهم بالعقوبة، أو المعنى أنه منتقم من اعدائه رحيم بأوليائه .

وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾

﴿وإذ نادى ربك موسى﴾ مستأنفة مسوقة لتقرير ما قبلها من الإعراض والتكذيب والاستهزاء وشروع في قصص سبع :

أولها : قصة موسى .
والثانية : قصة ابراهيم .
والثالثة : قصة نوح .
والرابعة : قصة هود .
والخامسة : قصة صالح .
والسادسة : قصة لوط .

والسابعة : قصة شعيب ، والتقدير : واتل إذ نادى أو اذكر يا محمد والنداء الدعاء أي : نادى حين رأى الشجرة والنار وكان النداء بكلام سمعه من كل الجهات من غير واسطة .

﴿أن﴾ مفسرة أو مصدرية ، أي : بأن ﴿ائت القوم الظالمين﴾ . وليس هذا مطلع ما ورد في حيز النداء ، وأنما هو ما فصل في سورة طـه من قوله : إني أنا ربك ـ الى قوله لنريك من آياتنا الكبرى ، ووصفهم بالظلم لأنهم جمعوا بين الكفر

الذي ظلموا به أنفسهم ، وبين المعاصي التي ظلموا بها غيرهم ، كاستعباد بني اسرائيل وذبح أبنائهم، وكانوا في ذلك الوقت ستمائة الف وثلاثين ألفا .

﴿قوم فرعون﴾ يعني القبط ، عطف بيان . كأن معنى القوم الظالمين وترجمته قوم فرعون ، وكأنهما عبارتان تعتقبان على مؤدى واحد .

﴿ألا يتقون﴾ أي : ألا يخافون عقاب الله سبحانه ، فيصرفون عن أنفسهم عقوبته بطاعته . وقيل : المعنى قل لهم : ألا تتقون . وجاء بالتحتية لأنهم غيب وقت الخطاب . وقرىء بالفوقية أي قل لهم ذلك ومثله قل للذين كفروا ستغلبون بالتحتية والفوقية أو ائتهم زاجراً فقد آن لهم ان يتقوا ، وهي كلمة حث واغراء . وقيل : يظلمون غير متقين الله وعقابه ، وعلى هذا حال من الضمير في الظالمين .

﴿قال﴾ موسى ، واعتذر بثلاثة أعذار كل منها مرتب على ما قبله ، وليس مراده الامتناع من الرسالة ، بل اظهار العجز عن هذا الأمر الثقيل ، وطلب المعونة عليه من الله .

﴿رب إني أخاف أن يكذبون﴾ في الرسالة ، والخوف غم يلحق الانسان لأمر سيقع .

﴿ويضيق صدري﴾ بتكذيبهم إياي .

﴿ولا ينطلق لساني﴾ أي بتأدية الرسالة لعقدة كانت على لسانه ، قرىء يضيق وينطلق ، بالرفع على العطف ، أو على الاستئناف وبنصبهما . قال الفراء : كلتا القراءتين لها وجه . قال النحاس : الوجه الرفع ، لأن النصف عطف على ﴿يكذبون﴾ وهذا بعيد .

﴿فأرسل﴾ جبريل بالوحي ﴿الى﴾ أخي ﴿هرون﴾ ليكون معي رسولاً موازراً مظاهراً معاوناً ، ولم يذكر الموازرة هنا لأنها معلومة من غير هذا الموضع ، كقوله في طه :﴿واجعل لي وزيراً من أهلي﴾.وفي القصص :﴿أرسله معي ردءاً يصدقني﴾.وكان هرون بمصر حين بعث موسى نبياً بالشام ، وهذا من موسى عليه السلام من باب طلب المعاونة له ، والتماس العون في تبليغ الرسالة بإرسال

أخيه ، لا من باب الاستعفاء من الرسالة ، ولا من التوقف عن المسارعة بالامتثال ، وكفى بطلب العون دليـلاً على التقبل لا على التقلل .

﴿ولهم عليَّ ذنب﴾ هو قتله للقبطي ، قال قتادة : وسماه ذنباً بحسب زعمهم ، أو كما سمى جزاء السيئة سيئة .

﴿فأخاف أن يقتلون﴾ به قصاصاً فيفوت المقصود من الرسالة : فهذا هو الخائف عليه ، وليس هذا تعللاً ايضا ، بل استدفاع للبلية المتوقعة ، وفيه دليل على أن الخوف قد يحصل مع الأنبياء فضلاً عن الفضلاء ، ثم أجابه سبحانه بما يشتمل على نوع من الردع . وطرف من الزجر .

﴿قال كلا﴾ أي لا يقتلونك كأنه قيل . ارتدع عما تظن ﴿فاذهبا﴾ أي أنت وأخوك ﴿بآياتنا﴾ وفي ضمن هذا الجواب إجابة موسى الى ما طلبه من ضم أخيه إليه كما يدل عليه توجيه الخطاب إليهما ، وفيه تغليب الحاضر على الغائب ، لأنه اذ ذاك كان بمصر . والإرسال والخطاب كان في الطور .

﴿إنّا معكم﴾ وفي هذا تعليل للردع عن الخوف ، وهو كقوله سبحانه : انني معكما أسمع وأرى ، وأراد بذلك سبحانه تقوية قلوبهما ، وانه متول لحفظهما وكلاءتهما ، وأجراهما مجرى الجمع فقال : (معكم) لكون الاثنين أقل الجمع على ما يذهب اليه بعض الأئمة أو لكونه أراد موسى وهرون ومن ارسلا اليه . ويجوز أن يكون المراد هما مع بني اسرائيل ، أو تعظيماً لهما ، ولا يخفى ما في المعية من المجاز لأن المصاحبة من صفات الأجسام ، فالمراد معية النصرة والمعونة .

﴿مستمعون﴾ أي : سامعون ما تقولون وما يقال لكم ، والاستماع في غير هذا الاصغاء للسماع يقال : استمع فلان حديثه أي : أصغي اليه ، ولا يجوز حمله ههنا على ذلك ، فحمل على السماع ، قاله النسفي .

﴿فأتيا فرعون فقولا ؛ إنا رسول رب العالمين﴾ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها . قال القرطبي : فانطلقا الى فرعون فلم يأذن لهما سنة في الدخول عليه ،

ووحّد الرسول هنا ، ولم يثنه كما في قوله إنا رسولا ربك ، لأنه مصدر بمعنى رسالة والمصدر يوحد ، وأما إذا كان بمعنى المرسل فإنه يثنى مع المثنى ويجمع مع الجمع ، قال أبو عبيدة رسول بمعنى رسالة ، والتقدير على هذا إنا ذوو رسالة . وقال أبو عبيدة ايضاً يجوز أن يكون الرسول بمعنى الاثنين والجمع ، تقول العرب هذا رسولي ووكيلي ، وهذان رسولي ووكيلي ، وهؤلاء رسولي ووكيلي ، ومنه قوله تعالى : فإنهم عدو لي . وقيل : إن معناه أن كل واحد منا رسول .

وقيل : إنهما لما كانا متعاضدين متساعدين في الرسالة كانا بمنزلة رسول واحد ، وان في قوله ﴿أن أرسل معنا بني اسرائيل﴾ مفسرة لتضمن الإرسال المفهوم من الرسول معنى القول ، أي : خلهم ، واطلقهم معنا الى أرض فلسطين ، ولا تستعبدهم ، وكان قد استعبدهم أربعمائة سنة .

﴿قال﴾ فرعون لموسى بعد أن أتياه وقالا له ما أمرهما الله به : ﴿ألم نر بك فينا﴾ أي في حجرنا ومنازلنا أراد بذلك المنّ عليه والاحتقار له أي : ربيناك لدينا ﴿وليداً﴾ أي : صغيراً قريباً من الولادة بعد فطامك ، ولم نقتلك فيمن قتلنا من الأطفال .

﴿ولبثت فينا من عمرك سنين﴾ فمتى كان هذا الذي تدعيه ؟ قيل : لبث فيهم ثماني عشرة سنة ، وقيل : ثلاثين سنة ، وقيل : أربعين سنة ، ثم وبخه بقتل القبطي فقال :

﴿ وفعلت فعلتك التي فعلت ﴾ الفعلة بفتح الفاء المرة من الفعل ، كما قيل[1] الفعلة للمرة ، والفعلة للحالة ، وقرأ الشعبي بكسر الفاء . والفتح أولى ، لأنها للمرة الواحدة لا للنوع ، والمعنى إنه عدد عليه النعم ، وذكر له ذنوبه ، وأراد بالفعلة قتل القبطي ثم قال : ﴿وأنت من الكافرين﴾ للنعمة حيث قتلت رجلاً من أصحابي ، وقيل : من الكافرين بأن فرعون إلَـه ، وقيل من الكافرين بالله في زعمه لأنه كان معهم على دينهم .

---

(١) لعله أراد . كما قيل عن الفعلة للمرة الخ « المطيعي » .

قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾

﴿قال﴾ موسى مجيباً لفرعون ﴿فعلتها إذاً﴾ أي فعلت هذه الفعلة التي ذكرت وهي قتل القبطي ﴿وأنا﴾ إذ ذاك ﴿من الضالين﴾ أي : الجاهلين قاله ابن عباس فنفى عليه الصلاة والسلام عن نفسه الكفر ، وأخبر أنه فعل ذلك على الجهل قبل أن يأتيه العلم الذي علمه الله ، وقيل : المعنى من الجاهلين أن تلك الوكزة تبلغ القتل ، وقال أبو عبيدة : من الناسين ، وقيل : من المخطئين . قال ابن جرير : العرب تضع الضلال موضع الجهل والجهل موضع الضلال .

﴿ففررت منكم﴾ أي خرجت من بينكم الى مدين كما في سورة القصص ﴿لمّا خفتكم﴾ أن تقتلوني وذلك حين قال له مؤمن من آل فرعون : إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج ، الآية .

﴿فوهب لي ربي حكماً﴾ أي نبوة او علماً وفهماً ، وقال الزجاج : المراد بالحكم تعليمه التوراة التي فيها حكم الله .

﴿وجعلني من المرسلين﴾ أي من جملة رسله رد بذلك ما وبخه به فرعون قدحاً في نبوته وهو القتل بغير حق ووجه الرد أن موهبة الحكم والنبوة كانت بعد تلك الحادثة .

﴿وتلك نعمة تمنها عليَّ﴾ قيل هذا الكلام من موسى على جهة الإقرار بالنعمة، كأنه قال نعم تلك التربية نعمة تمن بها عليَّ ، ولكن لا يدفع ذلك رسالتي ، وبهذا

قال الفراء وابن جرير .

وقيل : هو من موسى على جهة الإنكار أي أتمنّ عليَّ بأن ربيتني وليداً ،وأنت قد استعبدت بني اسرائيل وقتلتهم ، وهم قومي قال الزجاج : المفسرون أخرجوا هذا على جهة الإنكار لأن يكون ما ذكر فرعون نعمة على موسى ، واللفظ لفظ خبر ، وفيه تبكيت للمخاطب على معنى أنك لو كنت لا تقتل أبناء بني اسرائيل لكانت أمي مستغنية عن قذفي في البحر ، فكأنك تمنّ على ما كان بلاؤك سبباً له ، وذكر نحوه الأزهري بأبسط منه .

وقال المبرد : يقول . التربية كانت بالسبب الذي ذكرت من التعبّد ،أي : تربيتك إياي كانت لأجل التملك والقهر لقومي . وقيل : إن في الكلام تقدير الاستفهام ، أي : أو تلك نعمة؟ قاله الأخفش وأنكره النحاس قال الفراء : ومن قال : إن الكلام إنكار قال :أو تلك نعمة؟أي ليست هذه نعمة حتى تمنّ بها عليّ .

ومعنى ﴿أن عبدت بني اسرائيل﴾ أن اتخذتهم عبيداً ، يقال عبّدته وأعبدته بمعنى كذا قال الفراء ، ومحله الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أو بدل من نعمة ، والجر بإضمار الباء ، والنصب بحذفها ، وعن مجاهد قال : عبدّت بني اسرائيل وقهرتهم واستعملتهم . وفيه أوجه سبعة ذكرها السمين .

﴿قال فرعون وما رب العالمين﴾ أي لما سمع قول موسى وهرون ﴿إنّا رسول رب العالمين﴾قال مستفسراً لهما عن ذلك ، عازماً على الاعتراض لما قالاه ، أي : أي شيء هو؟ وجاء في الاستفهام بـ (ما) التي يستفهم بها عن المجهول ، ويطلب بها تعيين الجنس . وقيل : معناه وما صفته ؟ تقول ما زيد ؟ أي طويل أم قصير ؟ فقيه أم طبيب؟ نص عليه صاحب الكشاف وغيره .

فلما قال فرعون ذلك ﴿قال﴾ موسى : ﴿رب السموات والأرض وما بينهما﴾ أي بيّن الجنسين فعيّن له ما أراد بالعالمين ، وترك جواب ما سأل عنه فرعون لأنه سأل عن جنس رب العالمين ، ولا جنس له ، فأجابه موسى بما يدل على عظيم القدرة الآلهية التي تتضح لكل سامع أنه سبحانه الربّ ولا ربّ غيره ، وفيه إبطال

لدعواه أنه إلٰـه .

﴿إن كنتم موقنين﴾ بشيء من الأشياء فهذا أولى بالإيقان، لظهوره ، وإنارة دليله ، وهو العلم الذي يستفاد بالاستدلال ، ولذا لا يقال الله موقن .

﴿قال﴾ فرعون ﴿لمن حوله﴾ من أشراف قومه و هم خمسمائة رجل عليهم الأساور وكانت للملوك خاصة ﴿ألا تستمعون﴾ ؟ ما قاله ، يعني موسى معجباً لهم من ضعف المقالة ، كأنه قال : أتسمعون وتعجبون ؟ يعني سألته عن حقيقته وهو يذكر أفعاله ، أو يزعم أنه ربّ السموات ، وهي واجبة متحركة لذاتها كما هو مذهب الدهرية ، أو غير معلوم افتقارها الى مؤثر . والعدول عن الجواب المطابق متعين لاستحالته . فالسؤال عن الحقيقة سفه وعبث وحمق ، وهذا من اللعين مغالطة لما لم يجد جواباً عن الحجة التي أوردها عليه موسى ، فلما سمع موسى ما قاله فرعون أورد عليه حجة أخرى ، هي مندرجة تحت الحجة الأولى ، ولكنها أقرب الى فهم السامعين .

﴿قال ربكم ورب آبائكم الأولين﴾ وخص من العام المتقدم أنفسهم وآباءهم لأن أقرب المنظور فيه من العاقل نفسه ومن ولد منه . وهي أظهر دلالة على القادر فأوضح لهم أن فرعون مربوب لا رب كما يدعيه .

والمعنى أن هذا الرب الذي أدعوكم إليه هو الذي خلق آباءكم الأولين وخلقكم ،فكيف تعبدون من هو واحد منكم؟ مخلوق كخلقكم ،وله آباء قد فنوا كآبائكم ،فلم يجبه فرعون عند ذلك بشيء يعتدّ به ، بل جاء بما يشكك قومه ويخيل اليهم أن هذا الذي قاله موسى مما لا يقوله العقلاء .

﴿قال إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون﴾ قاصداً بذلك المغالطة وإيقاعهم في الحيرة ، مظهراً أنه مستخفّ بما قاله موسى مستهزىء به ،لأني اسأله عن شيء ويجيبني عن آخر ، وأضافه الى مخاطبيه ترفعاً عن أن يكون مـرسلاً إلى نفسه فأجابه موسى عند ذلك بما هو تكميل لجوابه الأول .

قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾

﴿قال رب المشرق والمغرب وما بينهما﴾ خصهما لأنهما أوضح دلالة وأظهر ، وذلك أنه أراد بالمشرق طلوع الشمس وطلوع النهار ، وأراد بالمغرب غروب الشمس وزوال النهار ،ومعلوم أن طلوع الشمس من أحد الخافقين ،وغروبها في الآخر على تقدير مستقيم ، لا يكون إلا بتقدير قادر حكيم ،والمعنى ليس ملكه كملكك لأنك إنما تملك بلداً واحداً لا يجري أمرك في غيره ، ويموت فيه من لا تحب أن يموت .

والذي أرسلني ،يملك المشرق والمغرب ومابينهما ،أي فتشاهدون في كل يوم أنه يأتي بالشمس من المشرق ،ويحركها على مدار غير مدار اليوم الذي قبله ، حتى يبلغها إلى المغرب على وجه نافع تنتظم به أمور الكائنات ،ولم يشتغل موسى بدفع ما نسبه إليه من الجنون ،بل بيّن لفرعون شمول ربوبية الله للمشرق والمغرب وما بينهما ، وإن كان ذلك داخلاً تحت ربوبيته سبحانه للسموات والأرض وما بينهما لماتقدم ،ولأن فيه تصريحاً باسناد حركات السموات وما فيها وتغيير أحوالها واوضاعها ، تارة بالنور ، وتارة بالظلمة الى الله ،وقيل علم موسى أن قصده في السؤال معرفة من سأل عنه

فأجاب بما هو الطريق إلى معرفة الرب .

﴿إن كنتم تعقلون﴾ شيئاً من الأشياء، أو إن كنتم من أهل العقول أي إن كنت يافرعون ومن معك من العقلاء ، عرفت وعرفوا أنه لا جواب لسؤالك إلا ما ذكرت لك ، لاينهم أولاً ، وعاملهم بالرفق ، حيث قال لهم ﴿إن كنتم موقنين﴾ ثم لما رأى شدة شكيمتهم ،خاشنهم واغلظ عليهم في الرد ، وعارضهم بمثل مقالتهم بقوله : ﴿إن كنتم تعقلون﴾ لأنه أبلغ وأوفق بما قبله من رد نسبة الجنون اليه ، ثم إن اللعين لما انقطع عن الحجة رجع الى الاستعلاء والتغلب والتهديد ، وهكذا ديدن المعاند المحجوج .

﴿قال لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنّك من المسجونين﴾ أي : من أهل السجن ، واللام للعهد ، أي ممن عرفت حالهم في سجوني . وكان سجن فرعون أشد من القتل ، لانه اذا سجن أحداً لم يخرجه حتى يموت ، وكان يطرحه في هوة عميقة في مكان تحت الأرض وحده . ولذلك (أجعل) أبلغ من (لأسجننك) فتوعد موسى بالسجن ، ولم يقل ما دليلك على أن هذا الإلّه أرسلك،لأن فيه الاعتراف بأن ثمة إلهاً غيره ، وفي توعده بالسجن ضعف ،لما يروى أنه كان يفزع من موسى فزعاً شديداً ، حتى كان اللعين لا يمسك بوله فلما سمع موسى عليه الصلاة والسلام ذلك لاطفه طمعاً في إجابته، وإرخاء لعنان المناظرة معه ، مريداً لقهره بالحجة المعتبرة في باب النبوة ، وهي إظهار المعجزة ، فعرض له على وجه يلجئه إلى طلب المعجزة .

﴿قال أو لو جئتك بشيء مبين﴾ أي : اتجعلني من المسجونين ؟ وتفعل ذلك ؟ ولو جئتك بشيء يتبين به صدقي ، وتظهر عنده صحة دعواي ؟ يعني المعجزة فإنها الجامعة بين الدلالة على وجود الصانع وحكمته ، وبين الدلالة على صدق دعوى من ظهرت على يده . والهمزة هنا للاستفهام، والواو للعطف على مقدر كما مر مراراً، فلما سمع فرعون ذلك طلب ما عرضه عليه موسى .

﴿قال فأت به إن كنت من الصادقين﴾ في دعواك وإنما أمره بذلك لظنه أنه

يقدر على معارضته وهذا الشرط جوابه محذوف ، لأنه قد تقدم ما يدل عليه ، فعند ذلك أبرز موسى المعجزة .

﴿فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين﴾ أي : ظاهر ثعبانيته ليس بتمويه وتخييل كما يفعل السحرة .

قيل : إنها لما صارت حية ارتفعت في السماء قدر ميل . ثم انحطت مقبلة إلى فرعون ، فقال بالذي أرسلك إلّا أخذتها، فأخذها موسى فعادت عصا كما كانت ، وقد تقدم تفسير هذا وما بعده في سورة الأعراف واشتقاق الثعبان من ثعبت الماء في الأرض فانثعب ، أي : فجرته فانفجر،وقد عبر سبحانه في موضع آخر مكان الثعبان بالحية بقوله : ﴿فإذا هي حية تسعى﴾ وفي موضع بالجانّ، فقال : ﴿كأنها جانّ﴾ والجانّ هو المائل الى الصغر ، والثعبان هو المائل الى الكبر ، والحية جنس يشمل الكبير والصغير .

﴿ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين﴾خلاف ما كانت عليه من الأدمة[1] فيه دليل على أن بياضها كان شيئاً يجتمع النظارة على النظر اليه لخروجه عن العادة ، وكان بياضها نورياً ، قال ابن عباس يقول : وأخرج موسى يده من جيبه ، فاذا هي بيضاء تلمع للناظرين لمن ينظر اليها ويراها من غير برص ، لها شعاع كشعاع الشمس يكاد يغشي الأبصار ، ويسد الأفق .

﴿قال للملأ﴾ مستقرّين ﴿حوله . ان هذا لساحر عظيم﴾ فائق في علم السحر ، وكان زمان السحر فلهذا روج فرعون هذا القول على قوله ، ثم قال على سبيل التنفير : ﴿يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره﴾ لئلا يقبلوا قول موسى عليه الصلاة والسلام .

﴿فماذا تأمرون﴾ أي ما رأيكم فيه ؟ وما مشورتكم في مثله ؟ فأظهر لهم الميل الى ما يقولونه تألّفاً لهم ، واستجلاباً لمودتهم ، لأنه قد أشرف ما كان فيه من دعوى الربوبية على الزوال ، وقارب ما كان يعزز به عليهم الاضمحلال ، وإلاّ

(١) السمرة

فهو أكبر تيهاً، واعظم كبراً من أن يخاطبهم مثل هذه المخاطبة ، المشعرة بأنه فرد من أفرادهم ، وواحد منهم ، مع كونه قبل هذا الوقت يدعي انه إلههم، ويذعنون له بذلك ويصدقونه في دعواه .

قال أبو السعود : بهره سلطان المعجزة ، وحيره حتى حطه عن ذروة ادعاء الربوبية الى حضيض الخضوع لعبيده في زعمه ، والامتثال بأمرهم ، أو الى مقام مؤامرتهم ومشاورتهم ، بعدما كان مستقلاً بالرأي والتدبير ، واظهر استشعار الخوف من استيلائه على ملكه ، ونسبة الإخراج والأرض اليهم لتنفيرهم عن موسى عليه السلام .

﴿قالوا : أرجه وأخاه﴾ أخرّ أمرهما ، من أرجيته إذا أخرته . وقيل المعنى احبسهما ﴿وابعث في المدائن حاشرين﴾ للسحرة ، وهم الشَرِط الذين يحشرون الناس ، أي يجمعونهم ﴿ يأتوك بكل سحار عليم ﴾ هذا ما أشاروا به عليه ، وجاءوا بكلمة الإحاطة وصيغة المبالغة ليسكنوا بعض قلقه . والمراد بالسحار العليم الفائق في معرفة السحر وصنعته ، أي : يفضل موسى ويفوق ويزيد عليه في علم السحر .

﴿فجمع السحرة لميقات يوم معلوم﴾ هو يوم الزينة كما في قوله : قال موعدكم يوم الزينة . وكان يوم عيد لهم أو يوم سوق ، وميقاته وقت الضحى لأنه الوقت الذي وقّته لهم موسى من يوم الزينة حيث قال :﴿وأن يحشر الناس ضحى﴾ والميقات ما وقت ، أي حد من زمان ، أو مكان . ومنه مواقيت الإحرام والصلاة .

﴿وقيل للناس هل أنتم مجتمعون ؟﴾ حثّاً لهم على الاجتماع ليشاهدوا ما يكون من موسى والسحرة ، ولمن تكون الغلبة ، وكان ذلك ثقة من فرعون بالظهور ؛ وطلباً أن يكون بمجمع من الناس حتى لا يؤمن بموسى أحد منهم ، فوقع ذلك من موسى الموقع الذي يريده، لأنه يعلم أنّ حجة الله هي الغالبة وحجة الكافرين هي الداحضة ، وفي ظهور حجة الله بمجمع من الناس زيادة في الاستظهار للمحقين ، والانقهار للمبطلين.

لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾

﴿لعلنا نتبع السحرة﴾ في دينهم ﴿إن كانوا هم الغالبين﴾ لا موسى عليه السلام ؛ وليس مرادهم بذلك أن يتبعوا دينهم حقيقة ؛ وإنما هو أن لا يتبعوا موسى عليه السلام ، لكنهم ساقوا كلامهم مساق الكناية حملاً لهم على الاهتمام والجد في المبالغة . قاله ابو السعود . وقيل أراد بالسحرة موسى وهرون على طريقة الاستهزاء .

﴿فلما جاء السحرة﴾ أي فعند ذلك طلب السحرة من فرعون الجزاء على ما سيفعلونه ﴿وقالوا لفرعون أئن لنا لأجراً ؟﴾ أي : لجزاء تجزينا به من مال أو جاه وقيل : أرادوا أن لنا ثواباً عظيماً،ثم قيدوا ذلك بظهور غلبتهم لموسى فقالوا ﴿إن كنا نحن الغالبين﴾ فوافقهم فرعون على ذلك .

و ﴿قال نعم وإنكم إذاً لمن المقربين﴾ أي نعم ، لكم ذلك الأجر والجعل عندي ، على عملكم السحر مع زيادة عليه ، وهي كونكم من المقربين لـديّ .

﴿قال لهم موسى : ألقوا ما أنتم ملقون﴾ من السحر ، فسوف ترون عاقبته . وفي آية اخرى﴿قالوا إما أن تلقي وإما أن نكون نحن الملقين﴾، فيحمل ما ههنا على أنه قال لهم ألقوا بعد أن قالوا هذا القول ، ولم يكن ذلك من موسى عليه السلام أمراً لهم بفعل السحر والتمويه ، بل أراد أن يقهرهم

بالحجة ، توسلاً الى اظهار الحق ، ويظهر لهم أن الذي جاء به ليس هو من الجنس الذي أرادوا معارضته به .

﴿فألقوا حبالهم وعصيهم﴾ سبعين ألف حبل وسبعين ألف عصا وقيل كانت الحبال اثنين وسبعين ألفاً وكذا العصي ، فيخيلون أنها حيات تسعى ﴿وقالوا﴾ عند الإلقاء ﴿بعزة فرعون﴾ أقسموا بعزته وقوته . وهو من أيمان الجاهلية . وقولهم هذا يحتمل وجهين ؛ الأول : أنه قسم ،وجوابه ما بعده والثاني : أن يتعلق بمحذوف والباء للسببية والمراد بالعزة العظمة ﴿إنا لنحن الغالبون﴾ أي : نغلب بسبب عزته لفرط اعتقادهم في انفسهم بالغلبة ؛ واتيانهم بأقصى ما يمكن أن يؤتى به من السحر .

﴿فألقى موسى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون﴾ قد تقدم تفسير هذا مستوفى ؛ والمعنى انها تبتلع وتلقف ما صدر منهم من الإفك ؛ بإخراج الشيء عن صورته الحقيقية . قيل إن عصا موسى صارت حية وابتلعت كل ما رموه من حبالهم وعصيهم ثم اخذها موسى فاذا هي كما كانت أول مرة .

﴿فألقي السحرة﴾ أي فخروا وسقطوا ﴿ساجدين﴾ أي لما شاهدوا ذلك علموا أنه صنيع صانع حكيم . ليس من صنيع البشر ؛ ولا من تمويه السحرة فآمنوا بالله وسجدوا له . وأجابوا دعوة موسى وقبلوا نبوّته. وعبّر عن الخرور بالإلقاء بطريق المشاكلة لأنه ذكر مع الالقاآت ؛ ولأنهم لسرعة ما سجدوا صاروا كأنهم ألقوا وأخذوا فطرحوا على وجوههم،وأنه تعالى القاهم بما خولهم من التوفيق . وقد تقدم بيان معنى ألقى ومن فاعله ، لوقوع التصريح به .

قال الشهاب ففي (فألقى) استعارة تبعية حسنها المشاكلة ، وليس مجازاً مرسلاً وان احتمله النظم ، ووجه الشبه عدم التمالك .

﴿قالوا﴾ عند سجودهم ، بدل اشتمال من ﴿ألقى﴾ أو حال بإضمار قد : ﴿آمنا برب العالمين﴾ قال عكرمة أمسوا سحرة واصبحوا شهداء .

﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾

﴿رب موسى وهرون﴾ بدل للتوضيح والاشعار بأن سبب إيمانهم ما أجراه الله تعالى على يدهما ، لعلمهم بأن ما شاهدوه من العصا لا يتأتى بالسحر ، وأضافوه سبحانه إليهما لأنهما القائمان بالدعوة في تلك الحالة . وفيه تبكيت لفرعون ، فإنه ليس برب وإن الرب في الحقيقة هو هذا . فلما سمع فرعون ذلك منهم ورأى سجودهم لله .

﴿قال آمنتم له قبل أن آذن لكم ؟﴾ أي بغير اذن مني، قال ذلك لما خاف على قومه أن يتبعوا السحرة، ثم قال مغالطاً للسحرة الذين آمنوا وموهماً للناس أن فعل موسى سحر من جنس ذلك السحر .

﴿إنه لكبيركم الذي علمكم السحر﴾ وإنما اعترف له بكونه كبيرهم ، مع كونه لا يحب الاعتراف بشيء يرتفع به شأن موسى ، لأنه قد علم كل من حضر أن ما جاء به موسى أبهر مما جاء به السحرة ، فأراد أن يشكك على الناس بأن هذا الذي شاهدتم ، وإن كان قد فاق على ما فعله هؤلاء السحرة فهو فعل كبيرهم ، وهو من استاذهم الذي أخذوا عنه هذه الصناعة ، فلا

تظنوا أنه فعل لا يقدر عليه البشر ، وانه من فعل الرب الذي يدعو اليه موسى ، ولا تعتقدوا أنّ السحرة آمنوا على بصيرة ، وظهور حق ، يعني أن غلبته عليكم لم تكن بالعجز الإلهي ، بل بما لم يعلمكم من السحر ، وأنتم لضعف عقولكم حسبتم أنه غلبكم بغير جنس السحر ، فآمنتم .

ثم توعد أولئك السحرة الذين آمنوا بالله لما قهرتهم حجة الله فقال : ﴿فلسوف تعلمون﴾ وبال ما فعلتم وما ينالكم مني . أجمل التهديد أولا للتهويل ، ثم فصله فقال :

﴿لأقطعنّ أيديكم وأرجلكم من خلاف﴾ أي من أجل خلافٍ ظهر منكم . وقيل : أي يد كل واحد اليمنى ورجله اليسرى ﴿ولأصلبنّكم أجمعين﴾ كأنه أراد به ترهيب العامة لئلا يتبعونهم في الإيمان. قيل : إنه فعل بهم ما توعدهم به من التقطيع والتصليب وقيل : لم يفعله بهم ولم يرد في القرآن ما يدل على أنه فعل بهم ذلك ، فلما سمعوا ذلك من قوله ﴿قالوا : لا ضير﴾ أي لا ضرر علينا فيما يلحقنا من عقاب الدنيا ، فإن ذلك يزول ، ولا بد من الانقلاب بعده الى ربنا ، فيعطينا من النعيم الدائم ما لا يُحَدُّ ولا يوصف . قال الهروي : لا ضير ولا ضرر ولا ضر ، بمعنى واحد ، قال الجوهري : ضاره يضوره ويضيره ضيراً وضوراً أي ضره، قال الكسائي سمعت بعضهم يقول لا ينفعني ذلك ولا يضورني، قال أبو زيد: لا يضيرنا الذي تقول وإن صنعت بنا وصلبتنا .

﴿إنا الى ربنا منقلبون﴾ أي راجعون ، وهو مجازينا لصبرنا على عقوبتك إيانا ، وثباتنا على توحيده ، والبراءة من الكفر قاله أبو زيد ، تعليل لعدم الضير أي لا ضير في ذلك ، بل لنا فيه نفع عظيم ، لما يحصل لنا في الصبر عليه لوجه الله تعالى من تكفير الخطايا والثواب العظيم ، أو لا ضير علينا فيما

تتوعدنا به من القتل ؛ إذ لا بد لنا من الانقلاب الى ربنا بسبب من أسباب الموت ، والقتل أهونها وأرجاها.

﴿إنّا نطمع﴾ أي نرجو ﴿أن يغفر لنا ربنا خطايانا﴾ أي الكفر والسحر ، ثم علّلوا هذا بقولهم : ﴿أن كنا﴾ أي بسبب أن كنا ﴿أول المؤمنين﴾ أي : أنهم أول من آمن من قوم فرعون بعد ظهور الآية أو من أهل المشهد .

وقال الفـرّاء أول مؤمنـي زمانهم ، وأنكره الزجاج ، وقال : قد روي أنه أمن معهم ستمائة الف وسبعون ألفا ، وهم الذين عناهم فرعون بقوله : إن هؤلاء لشرذمة قليلون قال أبو زيد : كانوا كذلك يومئذ أول من آمن بآياته حين رأوها .

﴿وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي﴾ أمر الله سبحانه موسى أن يخرج ببني اسرائيل ليلاً الى البحر ، أي لا الى جهة الشام بالبر ، وهذا بعد سنين من ايمان السحرة ، وسمّاهم عباده لأنهم آمنوا بموسى وبما جاء به . وقد تقدم تفسير مثل هذا في سورة الأعراف .

﴿إنكم مُتَّبَعون﴾ تعليل للأمر المتقدم ، أي : يتبعكم فرعون وقومه ليردوكم أي : أسر بهم حتى إذا اتبعوكم مصبحين ، كان لكم تقدم عليهم بحيث لا يدركونكم قبل وصولكم إلى البحر ، بل يكونون على أثركم حيث تلجون البحر ، فيدخلون مداخلكم فأطبقه عليهم واغرقهم .

﴿فأرسل فرعون في المدائن حاشرين﴾ وذلك حين بلغه خروجهم ، والمراد بالحاشرين الجامعون للجيش من الأمكنة التي فيها أتباع فرعون ، ثم قال فرعون لقومه بعد اجتماعهم لديه :

﴿إن هؤلاء لشرذمة قليلون﴾ يريد بني اسرائيل والشرذمة الجمع الحقير

القليل والجمع شراذم . قال الجوهري : الشرذمة الطائفة القليلة من الناس والقطعة من الشيء وثوب شراذم أي قطع ،قال الفراء يقال عصبة قليلة وقليلون وكثيرة وكثيرون . قال المبرد: الشرذمة القطعة من الناس غير الكثير ، وجمعها الشراذم .

قال الواحدي : قال المفسرون وكان الشرذمة الذين قللهم فرعون ستمائة ألف ، وبه قال ابن عباس ولا يحصى عدد أصحاب فرعون وقال ابن مسعود ستمائة الف وسبعون ألفاً،ومقدمة جيشه سبعمائة ألف ، فقللهم بالنظر الى كثرة جيشه ، وجملة جيشه ألف ألف وستمائة ألف .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن المنذر عنه قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان أصحاب موسى الذين جازوا البحر اثني عشر سبطاً فكان في كل طريق اثنا عشر ألفاً كلهم ولد يعقوب .

وأخرج ابن مردويه عنه ايضاً بسند،قال السيوطي واه ـ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان فرعون عدو الله حيث أغرقه الله سبحانه هو واصحابه في سبعين قائداً ، مع كل قائد سبعون ألفاً ، وكان موسى مع سبعين ألفاً حيث عبروا البحر .

وعنه قال : كان طلائع قوم فرعون الذين بعثهم في أثرهم ستمائة ألف ليس فيها أحد إلا على بهيم . واقول هذه الأقوال والروايات المضطربة قد روي عن كثير من السلف ما يماثلها في الاضطراب والاختلاف ، ولا يصح منها شيء عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

﴿وإنّهم لنا لغائظون﴾ يقال غاظني كذا ، والغيظ الغضب ، ومنه التغيظ والاغتياظ ، أي غاظونا بخروجهم من غير إذن مني .

﴿وإنا لجميع حاذرون﴾ أي خائفون من شرّهم،وقرىء (حذرون) قال الفراء الحاذر الذي يحذرك الآن ، والحذر المخلوق كذلك،أي مجبولاً على الحذر لا تلقاه إلا حذراً وقال الزجاج الحاذر المستعد، والحذر المتيقظ، وبه قال الكسائي ، والمبرد،وذهب أبو عبيدة الى أن معنى (حاذرون) و (حذرون) واحد . وهو قول سيبويه أي وإنا لجمع من عادتنا الحذر ، واستعمال الحزم في الأمور . أشار أولاً الى عدم ما يمنع اتباعهم من شوكتهم ، ثم الى تحقق ما يدعو إليه من فرط عدوانهم ووجوب التيقظ في شأنهم ، حثّاً عليه . او اعتذر بذلك إلى أهل المدائن كيلا يظن به ما يكسر سلطانه قاله البيضاوي .

﴿فأخرجناهم﴾ أي فرعون وقومه أي خلقنا فيهم داعية الخروج فخرجوا ﴿من جنات وعيون وكنوز﴾ أخرجهم الله من أرض مصر ليلحقوا موسى وقومه . وفيها الجنات والبساتين على جانبي النيل من أسوان الى رشيد وهي جمع جَنة، وعين، وكنز،والمراد بالكنوز الخزائن، وقيل الدفائن وقيل الأنهار، وفيه نظر ؛ لأن العيون المراد بها عند جمهور المفسرين عيون الماء ، فتدخل تحتها الأنهار .

والمراد بالكنوز الأموال الظاهرة من الذهب والفضة ، وسميت كنوزاً لأنه لم يعط حق الله منها ، وفي الشهاب المراد بها إما الأموال التي تحت الأرض ، وخصها لأن ما فوقها انطمس ، أو مطلق المال الذي لم يؤد منه حق الله لأنه يقال له كنز،والاول أوفق باللغة ، والثاني مروي عن السلف فلا وجه للتحكم هنا .

﴿ومقام كريم﴾ أي بهي بهيج واختلف فيه ، فقيل المنازل الحسان،وقيل المنابر،قاله ابن عباس،وقيل مجالس الرؤساء والامراء والوزراء،حكاه ابن عيسى وقيل مرابط الخيل ، الأول أظهر،وقال سعيد بن جبير سمعت أن المقام الكريم الفيوم .

كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾

﴿كذلك﴾ أي أخرجناهم مثل ذلك الإخراج الذي وصفنا او مقام كريم مثل ذلك المقام الذي كان لهم أو الأمر كذلك ﴿وأورثناها بني اسرائيل﴾ أي جعلناها ملكاً لهم بعد إغراق فرعون وقومه .

قال الحسن : لما عبروا النهر رجعوا وأخذوا ديارهم وجناتهم وأموالهم وعيونهم وقيل أراد بالوراثة هنا ما استعاروا من حلي آل فرعون بأمر الله تعالى وقيل مساكنهم الحسنة والكنوز (قلت) وكلا الأمرين جعل لهم والحمد لله .

﴿فاتبعوهم﴾ بقطع الهمزة وقرىء بوصلها وتشديد التاء أي فلحقوهم حال كونهم ﴿مشرقين﴾ أي داخلين في وقت الشروق ، يقال شرقت الشمس شروقاً أذا طلعت كأصبح وأمسى ، أي : دخل في هذين الوقتين وقيل داخلين نحو المشرق كأنجد ، واتّهم . وقيل : مضيئين قال الزجاج : يقال شرقت الشمس إذا طلعت ، وأشرقت إذا أضاءت .

﴿فلما تراءى الجمعان﴾ أي : تقابلا بحيث يرى كل فريق صاحبه ، وهو تفاعل من الرؤية . وقرىء (تراءت الفئتان) والمراد بنو اسرائيل والقبط .

﴿قال أصحاب موسى إنا لمدكرون﴾ أي سيدركنا جمع فرعون . ولا طاقة لنا بهم،وهذه قراءة الجمهور . يعني اسم مفعول من أدرك ، ومنه ﴿حتى إذا أدركه الغرق﴾ وقرىء بفتح الدال المشددة وكسر الراء، قال الفراء هما بمعنى واحد . قال النحاس ليس كذلك يقول النحويون الحذاق إنما يقولون مدركون بالتخفيف ملحقون وبالتشديد مجتهدون في لحاقهم . قال : وهذا معنى قول سيبويه .

وقال الزمخشري : إن معنى هذه القراءة إنا لمتتابعون في الهلاك على أيديهم حتى لا يبقى منا أحد . قال موسى زجراً لهم وردعاً ﴿كلا﴾ يعني أنهم لا يدركونكم ، وذكرهم وعد الله بالهداية والخلاص ، والظفر بقوله :

﴿إنّ معي ربي﴾ بالنصر ﴿سيهدين﴾ أي سيدلّني على طريق النجاة. عن أبي موسى ، عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال إنّ موسى لما أراد أن يسير ببني اسرائيل أضلّ الطريق فقال لبني اسرائيل ما هذا؟ فقال له علماء بني اسرائيل : إن يوسف لما حضره الموت أخذ علينا موثقاً أن لا نخرج من مصر حتى ننقل تابوته معنا ، فقال لهم موسى أيكم يدري أين قبره ؟ فقالوا ما يعلم أحد مكان قبره إلا عجوز لبني اسرائيل ، فأرسل اليها موسى فقال : دلينا على قبر يوسف ، فقالت لا والله ، حتى تعطيني حكمي ، قال : وماحكمك ؟ قالت : أن أكون معك في الجنة فكأنه ثقل عليه ذلك فقيل له : أعطها حكمها فأعطاها حكمها ، فانطلقت بهم الى بحيرة مستنقعة ماء فقالت لهم ؛ انضبوا عنها الماء ففعلوا قالت : احفروا ، فحفروا فاستخرجوا قبر يوسف فلما احتملوه اذا الطريق مثل ضوء النهار ، فلما عظم البلاء على بني اسرائيل ورأوا من الجيوش ما لا طاقة لهم به ، أمر الله سبحانه موسى أن يضرب البحر بعصاه وذلك قوله :

﴿فأوحينا الى موسى أن اضرب بعصاك البحر﴾ وذلك أن الله عز وجل أراد أن تكون الآية متصلة بموسى ، ومتعلقة بفعل يفعله ، والا فضرب العصا ليس بفارق البحر ، ولا معيناً على ذلك بذاته إلا بما اقترن به من قدرة الله

تعالى واختراعه، وبه نجا موسى وبنو اسرائيل وهلك عدوهم ﴿فانفلق﴾ الفاء فصيحة ، أي : فضرب فصار وانشق اثني عشر فلقاً ، بعدد الأسباط ، وقام الماء عن يمين الطريق وعن يساره كالجبل العظيم ، وهو معنى قوله :

﴿فكان كل فرق﴾ هو القطعة من البحر ، وقرىء (فلق) باللام بدل الراء ﴿كالطود﴾ كالجبل او عظيمه والجمع أطواد ، يقال طاد يطود إذا ثبت ﴿العظيم﴾ أي الضخم بينها مسالك سلكوها ، لم يبتل منها سرج الراكب ولا لبده قاله ابن عباس ، وابن مسعود .

﴿وأزلفنا ثَمَّ الآخرين﴾ أي قربناهم الى البحر قاله ابن عباس ، قال أبو عبيدة أزلفنا جمعنا ، ومنه قيل لليلة المزدلفة ليلة جمع ، وثَمَّ ظرف مكان للبعيد ، وقيل : قربنا من النجاة وقرىء (زلفنا) ثلاثياً ، وقرىء ﴿أزلقنا﴾ أي أزللنا وأهلكنا ، من قولهم ، أزلقت الفرس إذا ألقت ولدها ، ويعني بالآخرين فرعون وقومه وقيل ، المراد بهم موسى وأصحابه والأول أولى .

قيل ؛ كان جبريل بين بني اسرائيل وبين قوم فرعون . يقول لبني اسرائيل ليلحق آخركم أولكم ، ويقول للقبط رويداً ليلحق آخركم أولكم فكان بنو اسرائيل يقولون ما رأينا أحسن سياسة من هذا الرجل ، وكان القبط يقولون ما رأينا أحسن داع من هذا! .

﴿وأنجينا موسى ومن معه أجمعين﴾ بمرورهم في البحر بعد أن جعله الله طرقاً يمشون فيها ﴿ثم أغرقنا الآخرين﴾ يعني فرعون وقومه ، أغرقهم الله بإطباق البحر عليهم ، بعد أن دخلوا فيه متبعين موسى وقومه ، وخرج بنو اسرائيل منه، وفيه إبطال القول بتأثير الكواكب في الآجال وغيرها من الحوادث ، فإنهم اجتمعوا في الهلاك مع اختلاف طوالعهم .

﴿إن في ذلك﴾ أي فيما صدر بين موسى وفرعون إلى هذه الغاية ﴿لآية﴾ عبرة عظيمة وقدرة باهرة من أدل العلامات على قدرة الله سبحانه وعظيم سلطانه لمن بعدهم .

﴿وما كان أكثرهم﴾ أي أكثر هؤلاء الذين مع فرعون ﴿مؤمنين﴾ بالله فإنه لم يؤمن منهم فيما بعد إلا القليل كحزقيل وابنته ، وآسية امرأة فرعون ، والعجوز التي دلت على قبر يوسف وليس المراد أكثر من كان مع فرعون عند لحاقه بموسى، فإنهم هلكوا جميعاً في البحر ، بل المراد من كان معه من الأصل ، ومن كان متابعاً له ، ومنتسباً اليه ، هذا غاية ما يمكن أن يقال . وقال سيبويه وغيره : إنّ (كان) زائدة ، وأنّ المراد الإخبار عن المشركين بعد ما سمعوا الموعظة .

﴿وإنّ ربك لهو العزيز﴾ أي المنتقم من أعدائه بإغراقهم ﴿الرحيم﴾ بأوليائه بإنجائهم .

﴿واتل﴾ أي : أقصص يامحمد ﴿عليهم﴾ أي على كفار مكة ﴿نبأ﴾ خبر ﴿إبراهيم﴾ وحديثه ﴿إذ قال﴾ أي وقت قوله ﴿لأبيه وقومه ما﴾ أي أيُّ شيء ﴿تعبدون﴾ وهو يعلم أنهم يعبدون الأصنام ، ولكنه أراد إلزام الحجة وليريهم أنّ ما يعبدونه ليس بمستحق للعبادة ، بل بمعزل عنها بالكلية .

﴿قالوا نعبد أصناماً﴾ افتخاراً ومباهاة بعبادتها ﴿فنظل لها عاكفين﴾ أي فنقيم وندوم على عبادتها ، مستمرين طوال النهار ، لا في وقت معين . يقال ظل يفعل كذا إذا فعله نهاراً ، وبات يفعل كذا إذا فعله ليلاً ، فظاهره أنهم يستمرون على عبادتهم نهاراً لا ليلاً والمراد من العكوف لها الإقامة على عبادتها وإنما قال ﴿لها﴾ لإفادة أن ذلك العكوف لأجلها .

فلما قالوا هذه المقالة ﴿قال﴾ إبراهيم منبهاً على فساد مذهبهم ﴿هل يسمعونكم اذ تدعون ؟﴾ قال الأخفش المعنى هل يسمعون منكم ؟ أو هل يسمعون دعاءكم ؟ وقرأ قتادة هل يُسمعونكم؟ بضم الياء أي هل يسمعونكم أصواتهم وقت دعائكم لهم ؟ قال الزمخشري إنه على حكاية الحال الماضية ، ومعناه استحضروا الأحوال التي كنتم تدعونها فيها ، هل سمعوكم اذا دعوتم ؟ وهو أبلغ في التبكيت .

أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾

﴿أو ينفعونكم ؟﴾ بوجه من وجوه النفع إن عبدتموها ﴿أو يضرون﴾ أي يضرونكم اذا تركتم عبادتها ؟ وهذا الاستفهام للتقرير ، فإنها اذا كانت لا تسمع ولا تنفع ولا تضر ، فلا وجه لعبادتها ، فاذا قالوا نعم هي كذلك أقروا بأن عبادتهم لها من باب اللعب والعبث والسفه ، وعند ذلك تقوم الحجة عليهم ، فلما أورد عليهم الخليل هذه الحجة الباهرة ، لم يجدوا لها جواباً إلا رجوعهم الى التقليد البحت وهو أنهم .

﴿قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون﴾ هذه العبادة لهذه الأصنام ، فقلدناهم مع كونها بهذه الصفة التي هي سلب السمع والنفع والضر عنها ، وفي أبي السعود هذا الجواب منهم اعتراف بإنها بمعزل عما ذكر من السمع والمنفعة والمضرة بالمرة ، واضطروا الى إظهار أن لا مستند لهم سوى التقليد أي ما علمنا ولا رأينا منهم ما ذكر من الأمور ، بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون ، فاقتدينا بهم . انتهى .

قال الخازن :وفي الآية دليل على إبطال التقليد في الدين وذمّهِ ، ومدح الأخذ بالاستدلال انتهى . وهذا الجواب هو العصا التي يتوكأ عليها كل عاجز ويمشي بها كل اعرج ، ويغتر بها كل مغرور ، وينخدع لها كل مخدوع ؛ فإنك لو سألت الآن هذه المقلدة للرجال التي طبقت الأرض ، بطولها والعرض ؛ وقلت لهم : ما الحجة لكم على تقليد فرد من أفراد العلماء ؟ والأخذ بكل ما يقوله في الدين ويبتدعه من الرأي المخالف للدليل ؟ لم يجدوا غير هذا الجواب ولا فاهوا بسواه ، واخذوا يعدون عليك من سبقهم الى تقليد هذا من سلفهم ، واقتدى بقوله وفعله ، وهم قد ملأوا صدورهم هيبة ، وضاقت آذانهم عن تصورهم وظنوا أنهم خير أهل الأرض ، وأعلمهم وأورعهم فلم

يسمعوا لناصح نصحاً ولا لداع الى الحق دعاء ، ولو فطنوا لرأوا انفسهم في غرور عظيم ،وجهل شنيع وأنهم كالبهيمة[١] العمياء وأولئك الأسلاف كالعمي الذين يقودون البهائم العمي كما قال الشاعر :

كبهيمة عمياء قاد زمامها أعمى على عوج الطريق الحائر

فعليك ايها العامل بالكتاب والسنة المبرأ من التعصب والتعسف ؛ ان تورد عليهم حجج الله ، وتقيم عليهم براهينه ، فإنه ربما انقاد لك منهم من لم يستحكم داء التقليد في قلبه ، وأما من قد استحكم في قلبه هذا الداء العضال فلو أوردت عليه كل حجة ، وأقمت عليه كل برهان ، لما أعارك إلا أذناً صماء وعيناً عمياء ، ولكنك قد قمت بواجب البيان الذي أوجبه عليك القرآن ، والهداية بيد الخلاق العليم ، انك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء .

ولما قال هؤلاء المقلدة هذه المقالة ﴿قال﴾ الخليل عليه السلام : ﴿أفرأيتم ما كنت تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون﴾ أي فهل أبصرتم ؟ او تفكرتم وتأملتم فعلمتم ما كنتم تعبدون من هذه الأصنام التي لا تسمع ولا تنفع ولا تضر حتى تعلموا أنكم على ضلالة وجهالة والرؤية هنا مستعملة في معناها الأصلي ، واليه نحا أبو السعود ، وصنيع الكازروني يقتضي أنها بمعنى اخبروني ، أي اخبروني عن حال ما كنتم تعبدون ، هل هو حقيق بالعبادة أولاً ؟ وهذا استهزاء بعبدة الأصنام،والفاء فاء السببية تفيد أن ما بعدها وهو العداوة سبب لطلب الإخبار عن حالهم ؛ فهي بمعنى اللام ، أي : أخبروني عن حالها لأنها عدو لي كما صرح به الرضى في قوله أخرج منها فإنك رجيم ثم أخبرهم بالبراءة من هذه الأصنام التي يعبدونها فقال :

﴿فإنهم عدو لي﴾ ومعنى كونهم عدواً له مع كونهم جماداً أنه إن عبدهم كانوا له عدواً يوم القيامة ، قال الفراء : هذا من المقلوب ، أي فإني عدو لهم ، لأن من عاديته عاداك . وأسند العداوة الى نفسه تعريضاً بهم ، وهو أنفع في النصيحة من التصريح بأن يقول فإنهم عدو لكم .

(١) هذا كلام لا يليق.

والعدو كالصديق يطلق على الواحد ، والمثنى ، والجماعة ، والمذكر والمؤنث كذا قال الفراء قال علي بن سليمان من قال عدوة الله فأثبت الهاء قال هى بمعنى المعادية . ومن قال عدو للمؤنث ، والجمع ، جعله بمعنى النسب وقيل المراد بقوله ﴿فإنهم عدو لي﴾ آباؤهم الاقدمون لأجل عبادتهم للأصنام . ورد بأن الكلام مسوق فيما عبدوه في العابدين .

﴿ إلا ﴾ أي لكن ﴿ رب العالمين ﴾ ليس كذلك ، بل هو وليِّي في الدنيا والآخرة ، لا يزال متفضلاً عليّ فيهما قال الزجاج قال النحويون هو استثناء ليس من الأول،وأجاز الزجاج أيضاً أن يكون من الأول على أنهم كانوا يعبدون الله عز وجل ويعبدون معه الأصنام فأعلمهم أنه تبرأ مما يعبدون إلا الله ، فإني أعبده .

قال الجرجاني تقديره أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون ؟ إلا رب العالمين ، فإنهم عدو لي . فجعله من باب التقديم والتأخير ، وجعل ﴿إلا﴾ بمعنى دون وسوى ، كقوله ﴿لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الاولى﴾ أي دون الموتة الأولى ، وقال الحسن بن الفضل : إن المعنى إلا من عبد رب العالمين ، ثم وصف رب العالمين بقوله :

﴿الذي خلقني فهو يهدين﴾ أي يرشدني الى مصالح الدين والدنيا ، وطريق النجاة ، وقد وصف الخليل ربه بما يستحق العبادة لأجله ، فإن الخلق والهداية والرزق الذي يدل عليه قوله :

﴿والذي هو يطعمني ويسقين وإذا مرضت فهو يشفين﴾ ودفع المرض وجلب نفع الشفاء ، والإماتة والإحياء والمغفرة للذنب ، كلها نعم يجب على المنعم عليه ببعضها فضلاً عن كلها ، أن يشكر المنعم بجميع أنواع الشكر التي أعلاها وأولاها العبادة،ودخول هذه الضمائر في صدور هذه الجمل للدلالة على أنه الفاعل لذلك دون غيره،واسند المرض الى نفسه دون غيره من هذه الأفعال المذكورة رعاية واستعمالاً للأدب مع الرب كما قال الخضر .﴿فأردت أن أعيبها﴾ .وقال :﴿فأراد ربك أن يبلغا أشدهما﴾ وإلا فالمرض والشفاء من الله سبحانه .

وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحۡيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبۡ لِى حُكۡمًا وَأَلۡحِقۡنِى بِٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجۡعَل لِّى لِسَانَ صِدۡقٍ فِى ٱلۡأَخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجۡعَلۡنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغۡفِرۡ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخۡزِنِى يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِلۡغَاوِينَ ﴿٩١﴾

﴿والذي يميتني ثم يحيين﴾ المراد بالإحياء البعث، ولهذا عطف هنا بثم خلاف ما قبله لاتساع الأمر بين الإماتة والإحياء، لأن المراد به الإحياء في الآخرة . وحذف الياء من هذه الأفعال لكونها رؤوس الآي. وقرىء كلها بإثبات الياء ، وإنما قال عليه السلام .

﴿والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي﴾ هضماً لنفسه ، وتعليماً للأمة أن يجتنبوا المعاصي ويكونوا على حذر . وطلب أن يغفر لهم ما يفرط منهم ، وتكرير الموصول فى المواضع الثلاثة المعطوفة للإيذان بأن كل واحد من تلك الصلات نعت جليل مستقل في إيجاب الحكم . قيل : إن الطمع هنا بمعنى اليقين في حقه ، وبمعنى الرجاء في حق سواه .

وقرىء ﴿خطاياي﴾ لأنها ليست خطيئة واحدة . قال النحاس خطيئة بمعنى خطايا في كلام العرب ، قال مجاهد يعني بخطيئته قوله :﴿بل فعله كبيرهم هذا﴾،وقوله :﴿إني سقيم﴾، وقوله إن سارة أخته زاد الحسن وقوله للكوكب : هذا ربي . وحكى الواحدي عن المفسرين أنهم فسروا الخطايا بما فسر بها مجاهد .

قال الزجاج : الأنبياء بشر ويجوز أن تقع عليهم الخطيئة إلا انهم لا

تكون منهم الكبيرة لأنهم معصومون ﴿يوم الدين﴾ أي يـوم الجزاء للعبـاد بأعمالهم،ولا يخفى أن تفسير الخطايا بما ذكره مجاهد ومن معه ضعيف ، فإن تلك معاريض ، وهي ايضاً إنما صدرت عنه بعد هذه المقاولة الجارية بينه وبين قومه .

وعن عائشة قالت : قلت يارسول الله ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم ويطعم المساكين أكان ذلك نافعاً له ؟ قال لا ينفعه ، إنه لم يقل يوماً رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين . وهذا كله احتجاج من إبـراهيم على قوله إنه لا يصلح للإلٓهية إلا من يفعل هذه الأفعـال ثم لما فرغ الخليل من الثناء على ربه ، والاعتراف بنعمه ، وفنون ألطافه ، الفائضة عليه من حضرة الحق ، من مبدأ خلقه الى يوم بعثه ، حمله ذلك على مناجاته تعالى ؛ فعقبه بالدعاء ليقتدي به غيره في ذلك فقال :

﴿رب هب لي حكماً﴾ المراد بالحكم الكمال في العلم والفهم والعمل يستعد به لخلافة الحق ورياسة الخلق . وقيل النبوة والرسالة . وقيل المعرفة بحدود الله وأحكامه.

﴿وألحقني بالصالحين﴾ يعني بالنبيين قبلي في العمل الصالح . وقيل بأهل الجنة ، أي في درجاتهم . قاله ابن عباس : والأول أولى . ولقد أجابه تعالى حيث قال : وإنه في الآخرة لمن الصالحين .

﴿واجعل لي لسان صدق في الآخرين﴾ أي اجعل لي ثناء حسناً وذكراً جميلاً وجاهاً وصيتاً وقبولاً عاماً في الأمم الآخرين ، الذين يأتون بعدي في الدنيا يبقى أثره الى يوم القيامة . قال القتيبي : وضع اللسان موضع القول على الاستعارة ، لأن القول يكون بها ، وقد تكنى العرب بها عن الكلمة ، وقد أعطى الله سبحانه ابراهيم ذلك بقوله : وتركنا عليه في الآخرين ، وأجاب دعاءه ، فإن كل أمة تتمسك به وتعظمه .

وكل أهل الأديان يتولونه ويثنون عليه ، خصوصاً هذه الأمة وخصوصاً

في كل تشهد من تشهدات الصلوات . وقال مكي : قيل معنى سؤاله أن يكون من ذريته في آخر الزمان من يقوم بالحق فأجيبت دعوته في محمد ﷺ ، فتكون الآية على تقدير مضاف ، أي صاحب لسان صدق ، أو هو مجاز من اطلاق الجزء على الكل ، لأن الدعوة باللسان ولا وجه لهذا التخصيص والتكلف .

وقال القشيري : أراد الدعاء الحسن الى قيام الساعة ولا وجه لهذا أيضاً . فإنّ لسان الصدق أعم من ذلك . وعن ابن عباس في الآية قال اجتماع أهل الملل على ابراهيم فما من أمة إلا وهي تحبه وتثني عليه .

﴿واجعلني﴾ وارثاً ﴿من ورثة جنة النعيم﴾ أي مندرجاً فيهم ومن جملتهم ؛ أي ممن يعطاها بلا تعب ومشقة كالإرث الحاصل للانسان من غير تعب،واضافة الجنة الى النعيم من اضافة المحل للحال فيه .

ولما طلب عليه السلام بالدعوة الأولى سعادة الدنيا ؛ طلب بهذه الدعوة سعادة الآخرة وهي جنة النعيم ، قيل : وجعلها مما يورث تشبيهاً لغنيمة الآخرة بغنيمة الدنيا . وقد تقدم تفسير معنى الوراثة في سورة مريم .

﴿واغفر لأبي﴾ كان أبوه قد وعده أنه يؤمن به فاستغفر له فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ، وقد تقدم تفسير هذا مستوفى في سورة التوبة. وسورة مريم ، وعن ابن عباس قال : أمنن عليه بتوبة يستحق بها مغفرتك ﴿إنه كان من الضالين﴾ أي : من المشركين الضالين عن طريق الهداية وكان زائدة على مذهب سيبويه كما تقدم في غير موضع .

﴿ولا تخزني يوم يبعثون﴾ أي لا تفضحني على رؤوس الاشهاد بمعاتبتي او بمعاقبتي على ما فرطت ، أو لا تعذبني يوم القيامة ، وقال ذلك لخفاء العاقبة وجواز التعذيب عقلاً . أو المعنى . لا تخزني بتعذيب أبي او ببعثه في جملة الضالين او بنقص رتبتي عن رتبة بعض الوراث . والاخزاء يطلق على الخزي وهو الهوان وعلى الخزاية وهي الحياء ، أي الاستحياء .

أخرج البخاري وغيره من حديث أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قترة وغبرة فيقول له إبراهيم : ألم أقل لك لا تعصني ؟ فيقول أبوه : فاليوم لا أعصيك. فيقول إبراهيم : رب إنك وعدتني ان لا تخزيني يوم يبعثون ، فأي خزي أخزى من أبي (الأبعد) فيقول الله إني حرمت الجنة على الكافرين . ثم يقول : ما تحت رجليك يا إبراهيم فاذا بذيخ متلطخ فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار،والذيخ هو الذكر من الضباع فكأنه حوّل آزر إلى صورة ذيخ وقد اخرجه النسائي بأطول من هذا .

﴿يوم لا ينفع﴾ فيه ﴿مال ولا بنون﴾ أحداً من الناس . والابن هو اخص القرابة وأولاهم بالحماية ، والدفع والنفع ، فإذا لم ينفع فغيره من القرابة والأعوان بالأولى . وقال ابن عطية ان هذا وما بعده من كلام الله ، وهو ضعيف،والأظهر انه من كلام ابراهيم ﴿إلاَّ من أتى الله بقلب سليم﴾ قيل هو استثناء منقطع أي لكن من أتى الله . قال في الكشاف : إلا مال من أتى الله فقدر مضافاً محذوفاً قال ابو حيان: ولا ضرورة تدعو الى ذلك . وقيل : إن هذا الاستثناء بدل من المفعول المحذوف ، أو مستثنى منه إذ التقدير لا ينفع مال ولا بنون أحداً من الناس إلا من كانت هذه صفته . ويحتمل أن يكون بدلاً من فاعل ينفع ، فيكون مرفوعاً . قال أبو البقاء :فيكون التقدير إلا مال من ، أو بنو من ، فإنه ينفع وهذا الماضي بمعنى المضارع ، وكذا يقال في قوله : وأزلفت وبرزت ، وقيل وكبكبوا وقالوا .

واختلف في معنى القلب السليم فقيل ؛ السليم من الشرك ، فأما الذنوب فليس يسلم منها أحد ، قاله اكثر المفسرين . وقال سعيد بن المسيب : السليم الصحيح ؛ وهو قلب المؤمن ؛ لأن قلب الكافر والمنافق مريض ، قال تعالى في قلوبهم مرض . وقيل هو القلب الخالي عن البدعة المطمئن الى السنة

وقيل سالم من آفة المال والبنين . وقال الضحاك السليم الخالص . وقال الجنيد رحمه الله السليم في اللغة اللديغ ، فمعناه انه قلب كاللديغ من خوف الله تعالى . وهذا تحريف وتعكيس لمعنى القرآن .

قال الرازي أصح الأقوال أن المراد منه سلامة النفس عن الجهل والأخلاق الرذيلة . وقال ابن عباس بشهادة أن لا إله إلا الله . وقد صوب الجليل استثناء الخليل إكراماً له ؛ ثم جعله صفة له في قوله :﴿وإنّ من شيعته لإبراهيم ؛ اذ جاء ربه بقلب سليم﴾.

قال النسفي : وما أحسن ما رتب عليه السلام من كلامه مع المشركين حيث سألهم أولا عما يعبدون ، سؤال مقرر لا مستفهم ، ثم أقبل على آلهتهم فأبطل أمرها بأنها لا تضر ولا تنفع ولا تسمع ،وعلى تقليدهم آباءهم الأقدمين فاخرجه من أن يكون شبهة،فضلاً عن أن يكون حجة ؛ ثم صور المسألة في نفسه دونهم حتى تخلص منها الى ذكر الله تعالى فعظم شأنه . وعدد نعمه من حين انشائه الى وقت وفاته مع ما يرجى في الآخرة من رحمته،ثم أتبع ذلك أن دعا بدعوات المخلصين ، وابتهل اليه ابتهال الأدب،ثم وصله بذكر يوم القيامة وثواب الله وعقابه وما يدفع إليه المشركون يومئذ من الندم والحسرة على ما كانوا فيه من الضلال،وتمنى الكرة الى الدنيا ليؤمنوا ويطيعوا انتهى .

﴿وأزلفت الجنة للمتقين﴾ أي قربت وأدنيت لهم ليدخلوها أو بحيث يشاهدونها من الموقف ويقفون على ما فيها من فنون المحاسن فيبتهجون بأنهم المحشورون إليها. وقال الزجاج : قرب دخولهم إياها ونظرهم اليها .

﴿وبرزت الجحيم للغاوين﴾ أي جعلت بارزة لهم والمراد بهم الكافرون الضالون عن طريق الحق الذي هو الإيمان والتقوى . والمعنى أنها أظهرت بحيث يرونها مع ما فيها من أنواع الأحوال الهائلة ويوقنون بأنهم مواقعوها ولا يجدون عنها مصرفاً. وقيل : أظهرت قبل أن يدخلوها ليشتد حزن الكافرين ويكثر سرور المؤمنين وقرىء ﴿برزت﴾ على البناءين .

وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾

﴿وقيل لهم﴾ على سبيل التوبيخ ﴿أينما﴾ أيْ في أيِّ مكان ﴿كنتم تعبدون من دون الله﴾ من الأصنام والأنداد وهذا سؤال تبكيت لا يتوقع له جواب .

﴿هل ينصرونكم ؟﴾ فيدفعون عنكم العذاب ﴿أو ينتصرون ؟﴾ بدفعه عن أنفسهم ، وهذا كله توبيخ وتقريع لهم .

﴿فكبكبوا فيها﴾ أي ألقوا في جهنم على رؤوسهم. وقيل قلبوا على رؤوسهم. قيل ألقى بعضهم على بعض . وقيل جمعوا . قاله ابن عباس مأخوذ من الكبكبة وهي الجماعة قاله الهروي ، وقال النحاس هو مشتق من كوكب الشيء ، وهو معظمه ، والجماعة من الخيل كوكب وكبكبة ، وقيل دهدهوا .

وهذه المعاني متقاربة والكبكبة تكرير الكب ، وهو الإلقاء على الوجه ، جعل التكرير في اللفظ دليلاً على التكرير في المعنى ، كأنه إذا ألقي في جهنم ينكب مرة إثر مرة ، حتى يستقر في قعرها . نعوذ بالله منها وأصله كببوا بباءين الأولى مشددة من حرفين فابدل من الباء الوسطى الكاف،وقد رجح الزجاج ان المعنى طرح بعضهم على بعض ، ورجح ابن قتيبة أن المعنى القوا على رؤوسهم . وقيل انكسوا وقيل الضمير في كبكبوا لقريش.

﴿هم﴾ أي الآلهة المعبودون والأصنام ﴿والغاوون﴾ أي العابدون لهم .

وقيل الجن والكافرون . وقال ابن عباس مشركو العرب والآلهة ﴿وجنود إبليس﴾ أي شياطينه الذين يغوون العباد من الإنس والجن . وقيل ذريته وأتباعه. وقيل كل من يدعو إلى عبادة الأصنام ﴿أجمعون﴾ تأكيد للضمير في كبكبوا وما عطف عليه .

﴿قالوا﴾ أي الغاوون ﴿وهم﴾ أي حال كونهم ﴿فيها يختصمون﴾ مع معبوديهم مستأنفة،كأنه قيل ماذا قالوا حين فعل بهم ما فعل ؟ ومقول القول:

﴿تالله إن كنا﴾ أي إن الشأن كوننا ﴿لفي ضلال مبين﴾ واضح ظاهر ، والمراد بالضلال هنا الخسار والتبار ، والحيرة عن الحق ويجوز أن ينطق الله الأصنام حتى يصح التقاول والتخاصم أو يجري ذلك بين العصاة والشياطين .

﴿إذ نسوّيكم﴾ العامل في الظرف هو كونهم في الضلال . وقيل العامل هو الضلال وفيه ضعف. وقيل ظرف لِـ ﴿مبين﴾ وقيل: ما يدل عليه الكلام كأنه قيل : ضللنا وقت تسويتنا لكم في العبادة ﴿برب العالمين﴾ الذي أنتم أدنى مخلوقاته ، واذلهم واعجزهم . وقال الكوفيون أن ﴿إن﴾ في ﴿إن كنا﴾ نافية واللام بمعنى إلا أي ما كنا إلا في ضلال مبين ، والأول أولى ، وهو مذهب البصريين ، وصيغة المضارع لاستحضار الصورة الماضية .

﴿وما أضلنا﴾عن الهدى ﴿إلا المجرمون﴾ يعني من دعاهم إلى عبادة الأصنام من الجن والإنس والشياطين ، وقيل رؤساؤهم الذين أضلوهم. وقيل إبليس وجنوده . وابن آدم الأول وهو قابيل ، وهو أول من سن القتل وأنواع المعاصي . وقيل من سن الشرك وقيل الأولون الذين اقتدينا بهم .

﴿فما لنا من شافعين﴾ يشفعون لنا من العذاب ، كما للمؤمنين من الملائكة والنبيين والمؤمنين ﴿ولا صديق حميم﴾ أي ذي قرابة ، والحميم القريب الذي تودّه ويودّك ، وجمع الشفعاء،ووحّد الصديق ، لما تقدم غير مرة ، أنه يطلق على الواحد ، والاثنين ، والجماعة والمذكر ، والمؤنث أو لكثرة الشفعاء في العادة وقلة الصديق ، لأن الصديق الصادق في ودادك الذي يهمه

ما أهمك قليل . وسئل حكيم عن الصديق فقال : اسم لا معنى له . وقيل اسم بلا مسمى . والنفي ههنا يحتمل نفي الصديق من أصله ، أو نفي صفته فقط ، أو لأن الصديق الواحد يسعى أكثر مما يسعى الشفعاء ، والحميم مأخوذ من حامّة الرجل أي خاصته واقربائه . ويقال حم الشيء وأحم إذا قرب ومنه الحمى ، لأنه يقرب من الأجل .

وقال علي بن عيسى : إنما سمي القريب حميماً لأنه يحمى لغضب صاحبه فجعله مأخوذاً من الحمية وقيل من الاحتمام بمعنى الاهتمام الذي يهمه ما يهمك قاله الزمخشري .

﴿فلو أن لنا كرة﴾ هذا منهم على طريق التمني الدال على كمال التحسر، كأنهم قالوا فليت لنا كرة أي رجعة الى الدنيا وجواب التمني ﴿فنكون من المؤمنين﴾ أي نصير من جملتهم ، حتى تحل لنا الشفاعة كما حلت لهؤلاء .

﴿إن في ذلك﴾ أي ما تقدم ذكره من نبأ ابراهيم وقصة قومه ﴿لآية﴾ أي عبرة وعلامة وحجة وعظة لمن أراد ان يستبصر بها ويعتبر ؛ فإنها جاءت على أنظم ترتيب ؛ وأحسن تقرير ، يتفطن المتأمل فيها لغزارة علمه ، لما فيها من الإشارة الى أصول العلوم الدينية والتنبيه على دلالتها ، وحسن دعوته للقوم ، وحسن مخالفته معهم ، وكمال إشفاقه عليهم ، وتصوير الأمر في نفسه ، وإطلاق الوعد والوعيد على سبيل الحكاية تعريضاً بهم ، وإيقاظاً لهم ؛ ليكون أدعى الى الاستماع والقبول ، والتنوين في ﴿آية﴾ يدل على التعظيم والتفخيم .

﴿وما كان أكثرهم مؤمنين﴾ أي أكثر هؤلاء الذين يتلو عليهم رسول الله ﷺ نبأ ابراهيم وهم قريش . ومن دان بدينهم . وقيل : وما كان أكثر قوم ابراهيم بمؤمنين . وهو ضعيف لأنهم كلهم غير مؤمنين ﴿وإنّ ربك لهو العزيز﴾ القاهر لاعدائه ﴿الرحيم﴾ بأوليائه أو الرحيم للاعداء بتأخير عقوبتهم وترك معاجلتهم .

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (١٠٥) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٠٦) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٠٧) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٠٨) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١١٠) ۞ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ (١١١) قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٢) إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ (١١٣) وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٤) إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (١١٥) قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ (١١٦) قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ (١١٧)﴾

﴿كذّبت قوم نوح المرسلين﴾ أنث الفعل لكونه مسنداً إلى ﴿قوم﴾ وهو في معنى الجماعة او الأمة أو القبيلة ، وفي المصباح : القوم يذكر ويؤنث وكذا كل اسم جمع ، لا واحد له من لفظه ؛ نحو : رهط ، ونفر ، وأوقع التكذيب على المرسلين ، وهم لم يكذبوا إلا الرسول المرسل اليهم ، لأن من كذب رسولاً فقد كذب الرسل . لأن كل رسول يأمر بتصديق غيره من الرسل ، وقيل : كذبوا نوحاً في الرسالة وكذبوه فيما أخبرهم به من نبأ المرسلين بعده ؛ أو لأنه لطول لبثه فيهم كأنه رسل .

﴿إذ قال لهم اخوهم نوح﴾ أي أخوهم من أبيهم ، لا أخوهم في الدين . وقيل : المراد إخوة المجالسة ، وقيل ؛ هو من قول العرب يا أخا بني تميم ؛ يريدون واحداً منهم ؛ ﴿ألا تتقون﴾ الله بترك عبادة الأصنام ؟ وتجيبون رسوله الذي ارسله اليكم ؟ ﴿اني لكم رسول أمين﴾ فيما أبلغكم عن الله وقيل : أمين فيما بينكم ، فإنهم كانوا قد عرفوا أمانته وصدقه .

﴿فاتقوا الله﴾ أي اجعلوا طاعة الله وقاية لكم من عذابه ﴿واطيعون﴾ فيما آمركم به عن الله من الإيمان به ، وترك الشرك ، والقيام بفرائض الدين تصدير القصص الخمس بالحث على التقوى ، يدل على أن البعثة مقصورة على

الدعاء الى معرفة الحق ، والطاعة فيها يقرب المدعو الى ثوابه ، ويبعده عن عقابه وكان الأنبياء متفقين على ذلك وان اختلفوا في بعض التفاريع ، مبرئين عن المطامع الدنية والأغراض الدنيوية .

﴿وما أسألكم عليه من أجر﴾ أي ما اطلب منكم أجراً على تبليغ الرسالة ولا أطمع في ذلك منكم و (من) زائدة في المفعول ﴿إن أجري﴾ أي : ما ثوابي الذي أطلبه وأريده ﴿إلا على رب العالمين﴾ لا على غيره وكرر قوله : ﴿فاتقوا الله واطيعون﴾ للتأكيد ، والتقرير في النفوس ، مع كونه علق كل واحد منها بسبب ؛ وهو الامانة في الأول وقطع الطمع في الثاني . ونظيره قولك ألا تتقي الله في عقوقي وقد ربيتك صغيراً ؟ ألا تتقي الله في عقوقي وقد علمتك كبيراً ؟ وقدّم الأمر بتقوى الله على الأمر بطاعته لأن تقوى الله علة لطاعته .

﴿قالوا أنؤمن لك﴾ الاستفهام للإنكار، أي كيف نتبعك ونصدق لك ونؤمن بك ؟ ﴿و﴾ الحال أن قد ﴿اتبعك الأرذلون﴾ جمع أرذل وجمع التكسير أرذال ، والأنثى رذلاء وهم الأقلّون جاهاً ومالاً ، والرذالة الخسة والذلة ، استرذلوهم لقلة أموالهم وجاههم ، أو لا تّضاع أنسابهم.

قال مجاهد : الأرذلون الحواكون . وقال قتادة سفلة الناس وأراذلهم وقال ابن عباس : يعني القافة ، وقيل هم الحاكة والاساكفة ؛ وقيل : كانوا من أهل الصناعات الدنية ، والصناعة لا تزرى بالديانة فالغنى غنى الدين ؛ والنسب نسب التقوى .

ولا يجوز أن يسمى المؤمن رذلا . وإن كان أفقر الناس ؛ وأوضعهم نسباً وما زالت اتباع الأنبياء كذلك . وإنما بادروا للاتباع قبل الاغنياء لاستيلاء الرياسة على الاغنياء ، وصعوبة الانفكاك منها ، والأنفة عن الانقياد للغير . والفقير خلي من تلك الموانع فهو سريع الإجابة والانقياد ، وهذا غالب أحوال أهل الدنيا ، وهذا من سخافة عقولهم ، وقصر رأيهم على حطام الدنيا حتى جعلوا اتباع المقلّين من الدنيا مانعاً من اتباعهم ، وجعلوا ايمانهم بما يدعوهم اليه دليلاً على بطلانه .

وقرىء ﴿أتباعك الأرذلون﴾ قال النحاس : وهي قراءة حسنة لأن هذه الواو تتبعها الأسماء كثيراً وأتباع جمع تابع .

﴿قال : وما علمي بما كانوا يعملون ؟﴾ كان زائدة والمعنى : وما علمي بعملهم ؟ أي : لم أكلف العلم بأعمالهم ، إنما كلفت أن ادعوهم الى الايمان والاعتبار به لا بالحرف والصنائع ، والفقر والغنى ، وكأنهم اشاروا بقولهم ﴿واتبعك الارذلون﴾ الى أن إيمانهم لم يكن عن نظر صحيح ، وإنما لتوقع مال ورفعة ، فأجابهم بهذا أي أني لم أقف على باطن أمرهم ، وانما وقفت على ظواهرهم . وقيل المعنى إني لم أعلم أن الله سيهديهم ويضلكم ويوفقهم ويخذلكم ويرشدهم ويغويكم .

﴿إن حسابهم إلا على ربي لو تشعرون﴾ أي ما حسابهم والتفتيش عن ضمائرهم واعمالهم إلا على الله ، لو كنتم من أهل الشعور والفهم ما عيرتموهم بصنائعهم . وقرىء ﴿يشعرون﴾ بالتحتية كأنه ترك الخطاب للكفار والتفت الى الأخبار عنهم . قال الزجاج والصناعات لا تضر في باب الديانات ، وما أحسن ما قال :

﴿وما أنا بطارد المؤمنين﴾ هذا جواب من نوح على ما ظهر من كلامهم من طلب الطرد لهم ﴿إن أنا إلا نذير مبين﴾ أي ما أنا إلا نذير موضح لما أمرني الله سبحانه بإبلاغه إليكم وهذه الجملة كالعلة لما قبلها .

﴿قالوا : لئن لم تنته يانوح﴾ أي إن لم تترك عيب ديننا وسب آلهتنا ﴿لتكونن من المرجومين﴾ بالحجارة ، وقيل من المشتومين . وقيل من المقتولين ، فعدلوا بعد تلك المحاورة بينهم وبين نوح إلى التجبر والتوعد .

فلما سمع نوح قولهم هذا ﴿قال رب إنّ قومي كذبون﴾ أي أصروا وصمموا على تكذيبي بعدما دعوتهم هذه الأزمنة المتطاولة ولم يسمعوا قولي ولا أجابوا دعائي وإنما قال هذا إظهاراً لما يدعو عليهم لأجله وهو تكذيب الحق ، لا تخويفهم له واستخفافهم به .

فَٱفۡتَحۡ بَيۡنِي وَبَيۡنَهُمۡ فَتۡحٗا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا بَعۡدُ ٱلۡبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾ كَذَّبَتۡ عَادٌ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبۡنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةٗ تَعۡبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمۡ تَخۡلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشۡتُم بَطَشۡتُمۡ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾

﴿فافتح بيني وبينهم فتحاً﴾ الفتح الحكم أي احكم بيننا حكماً يستحقه كل واحد منا . أي أنزل العقوبة والهلاك ، وهذه حكاية اجمالية لدعائه المفصل في سورة نوح .

﴿ونجنّي ومن معي من المؤمنين﴾ وكانوا ثمانين، أربعون من الرجال وأربعون من النساء .

﴿فأنجيناه ومن معه في الفلك المشحون﴾ أي السفينة المملوءة من الناس ، والحيوان ، والطير. والشحن ملء السفينة بالناس والدواب والمتاع . قال ابن عباس : المشحون الممتلىء ، وعنه قال أتدرون ما المشحون ؟ قلنا لا . قال : هو الموقر . وعنه ايضا قال : هو المثقل .

﴿ثم أغرقنا بعد﴾ أي بعد انجائهم ﴿الباقين﴾ من قومه .

﴿إن في ذلك لآية﴾ أي علامة وعبرة عظيمة .

﴿وما كان أكثرهم مؤمنين﴾ أفهم أنه لو كان نصفهم مؤمنين لما أخذوا

﴿وإنّ ربك لهو العزيز﴾ أي القاهر لأعدائه والمنتقم بإهابة من جحد وأصر ﴿الرحيم﴾ بأوليائه والمنعم بإعـانة من وحّـد وأقرّ.

﴿كذبت عاد المرسلين﴾ أنث الفعل باعتبار اسناده الى القبيلة ، لأن عاداً اسم ابيهم الأعلى ، وكان من نسل سام بن نوح ، ومعنى تكذيبهم المرسلين مع كونهم لم يكذبوا إلا رسولاً واحداً قد تقدم وجهه في قصة نوح قريباً .

﴿إذ قال لهم أخوهم﴾ نسباً ﴿هود﴾ وكان تاجراً جميل الصورة يشبه آدم ، وعاش من العمر اربعمائة وأربعاً وستين سنة ﴿ألا تتقون ؟﴾ والكلام فيه كالكلام في قول نوح المتقدم قريباً وكذا في قوله :

﴿إني لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما اسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين . أتبنون بكل ريع آية ؟﴾ الريع المكان المرتفع من الأرض جمع ريعة . يقال : كم ريع أرضك ؟ أي كم ارتفاعها ؟ قال أبو عبيدة : الريع الارتفاع جمع ريعة . وقال قتادة والضحاك والكلبي الريع : الطريق ، وبه قال مقاتل والسدي وابن عباس ، واطلاق الريع على ما ارتفع من الأرض معروف عند أهل اللغة . وقيل : الريع الجبل ، واحده ريعة ، والجمع أريـاع، وقال مجاهد هو الفج بين الجبلين . وروي عنه أنه الثنيـة الصغيرة ، وروي عنه ايضاً أنه المنظرة وقيل بروج الحمام . وقال ابن الأعرابي الريع الصومعة ، والريع البرج يكون في الصحراء ، والريع التل العالي وفي الريع لغتان كسر الراء وفتحها،والاستفهام للتقريع والتوبيخ ومعنى الآية انكم أتبنون بكل مكان مرتفع بناء .

﴿تعبثون﴾ ببنائه وتلعبون بالمارة وتسخرون منهم لأنكم تشرفون من ذلك البناء المرتفع على الطريق فتؤذون من يمر بكم وتسخرون منهم ، وقال الكلبي إنه عبث العشارين بأموال من يمر بهم ، حكاه الماوردي .

﴿وتتخذون مصانع﴾ هي الأبنية التي يتخذها الناس منازل ، قال أبـو عبيدة كل بناء مصنعه وبه قال الكلبي وغيره. وقيل هي الحصون المشيدة قاله

مجاهد وغيره ، وقال الزجاج انها مصانع الماء التي تجعل تحت الأرض واحدتها مصنعة ، ومصنع أي حياضاً وبركاً تجمعون فيها الماء فهي من قبيل الصهاريج . قال الجوهري المصنعة بضم النون الحوض يجمع فيه ماء المطر والمصانع الحصون ، وقال عبدالرزاق المصانع عندنا بلغة اليمن القصور العالية .

﴿لعلكم تخلدون﴾ أي راجين أن تخلدوا في الدنيا لإنكاركم البعث، والتوبيخ حينئذ ظاهر ، أو عاملين عمل من يرجو ذلك، فلذلك تحكمون بنيانها . وقيل إن (لعل) هنا للاستفهام التوبيخي ، قاله زيد بن علي ، وبه قال الكوفيون ، أي هل تخلدون ؟ كقولهم لعلك تشتمني ؟ أي هل تشتمني وقال الفراء : كي تخلدون ، وبه قرأ عبدالله ، أي لا تتفكرون في الموت . وقيل المعنى كأنكم باقون مخلدون . فـ ﴿لعل﴾ معناها التشبيه ، ولم أر من نص على أنها تكون للتشبيه . وقرىء ﴿تخلدون﴾ مخففاً ومشدداً وحكى النحاس أن في بعض القراآت ﴿كأنكم مخلدون﴾ وبه قال ابن عباس .

﴿وإذا بطشتم﴾ بضرب أو قتل ﴿بطشتم جبارين﴾ من غير رأفة ، والبطش السطوة والأخذ بالعنف ، قال مجاهد وغيره إذا أردتم البطش لئلا يتحد الشرط والجزاء . قال الزجاج إنما أنكر عليهم ذلك لأنه ظلم ، وأما في الحق فالبطش بالسوط والسيف جائز .

قال الكرخي : إعلم أن اتخاذ الأبنية العالية تدل على حب الدنيا ، واتخاذ المصانع يدل على حب البقاء ، والجبارية تدل على حب التفرد بالعلو ، وهذه صفات الإلهية وهي ممتنعة الحصول للعبد انتهى . ثم لما وصفهم بهذه الأوصاف القبيحة الدالة على الظلم ، والعتو ، والتمرد ، والتجبر ، أمرهم بالتقوى فقال :

﴿فاتقوا الله﴾ في ذلك ﴿واطيعون﴾ فيما أمرتكم به أجمل التقوى ، ثم فصله بقوله :

وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾

﴿واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون﴾ من أنواع النعم والخير الحاصلةلكم، ثم فصل هذا الإجمال بقوله :﴿أمـدّكـم بأنعام وبنين﴾ الخ بإعادة الفعل لزيادة التقرير والتأكيد ، لأن التفصيل بعد الإجمال . والتفسير بعد الإبهام أدخل في ذلك ﴿وجنّات وعُيون﴾ أي بساتين وانهار وآبار ، ثم وعظهم وحذرهم فقال :

﴿إني أخاف عليكم﴾ إن كفرتم وأصررتم على ما أنتم فيه ، ولم تشكروا هذه النعم ﴿عذاب يوم عظيم﴾ أي العذاب الدنيوي والأخروي ، فان كفران النعمة مستتبع للعقاب ، كما أن شكرها مستتبع لزيادتها .

﴿قـالوا : سـواء علينا﴾ أي مستـو عندنـا ﴿أوعظت أم لم تكن من الواعظيـن﴾ أصـلاً أي وعظك وعدمه سواء عندنا ، لا نبالي بشيء منه ، ولا نلتفت الى ما تقوله ، ولا نرعوي له والحاصل انهم أظهروا قلة اكتراثهم بكلامه

واستخفافهم بما أورده من المواعظ ، والوعظ كلام يلين القلب بذكر الوعد والوعيد ولم يقل أم لم تعظ لـرؤوس الآي وتواخي القـوافي .

وأبدى له الزمخشري معنى فقال : هو أبلغ في قلة اعتدادهم بوعظه من قولك أم لم تعظ . وعن الكسائي : أوعظت بإدغام الظاء في التاء وهو بعيد ، لأن حرف الظاء حرف إطباق إنما يدغم فيها قرب منه جـداً وقرأ الباقون بإظهار الظاء .

﴿إن هذا﴾ تعليل لما قبله أي ما هذا الذي جئتنا به ودعوتنا اليه من الدين وقيل : المعنى ما هذا الذي نحن عليه ﴿إلا خلق الأولين﴾ أي طبيعتهم وعادتهم التي كانوا عليها ، وهذا بناء على ما قال الفراء وغيره : إن معنى الخلق العادة . قال النحاس : الخلق عند الفراء العادة .

وعن محمد بن يزيد : خلقهم مذهبهم وما جرى عليه أمرهم . والقولان متقاربان،وقال مقاتل : قالوا : ما هذا الذي تدعونا اليه إلا كذب الأولين . قال الواحدي : هو قول ابن مسعود ومجاهد ، قال والخلق والاختلاق الكذب ، ومنه قوله ويخلقون إفكـاً . وقرىء خلق بفتح الخاء وسكون اللام وبضمها . قال الهروي : معناه على الأولى اختلاقهم وكذبهم ، وعلى الثانية عادتهم ، وهذا التفصيل لا بدّ منه . قال ابن الأعرابي : الخلق الدين والطبع والمروءة وقرأ أبو قلابة بضم الخاء وسكون اللام ، وهي تخفيف لقراءة الضم لها . والظاهر أن المراد بالآية هو قول من قال ما هذا الـذي نحن عليه إلا عادة الأولين وفعلهم ، ويؤيده قولهم :

﴿وما نحن بمعذبين﴾ على ما نفعل من البطش ونحـوه. مما نحن عليه الآن في الدنيا من الأعمال ولا بعث ولا حساب ﴿فكذبوه﴾ أي هوداً أي أصرّوا على تكذيبه ﴿فأهلكناهم﴾ في الدنيابالريـح ،كما صرح به القرآن في غير هذا الموضع ، وهي ريح باردة شديدة الصوت لا ماء فيها ، وسلطت عليهم سبع ليال وثمانية ايام ، أولها من صبح يوم الاربعاء لثمان بقين من شوال

وكانت في عجز الشتاء .

﴿إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين . وإنّ ربّك لهو العـزيز الرحيم﴾ تقدم تفسير هذا قريباً في هذه السورة ، ثم لما فرغ سبحانه من ذكر قصة هود وقومه ، ذكر قصة صالح وقومه وكانوا يسكنون الحِجر فقال :

﴿كذبت ثمود المرسلين﴾ المراد بهم صالح ففي التعبير عنه بالجمع ما تقدم ، وثمود اسم قبيلة سميت باسم أبيها ، وهو ثمود جد صالح ، ولذا قال :

﴿إذ قال لهم أخوهم﴾ نسباً ﴿صالح﴾ لاجتماعه معهم في الأب الأعلى وعاش صالح من العمر مائتين وثمانين سنة، وبينه وبين هود مائة سنة : ﴿ألا تتقون ؟ إني لكم رسول أمين ، فاتقوا الله واطيعون ، وما اسألكم عليه من أجر ، إن أجري إلا على رب العالمين﴾ قد تقدم تفسيره في قصة هود المذكورة قبل هذه القصة .

﴿أتتركون فيما ههنا آمنين﴾ الاستفهام للإنكار التوبيخي ، أي لا تظنوا ولا ينبغي لكم ان تعتقدوا أنكم تتركون في الدنيا متقلبين في هذه النعم ، التي أعطاكم الله ، آمنين من الموت أو العذاب ، باقين في الدنيا . ولما أبهم النعم في هذا فسرها بقوله :

﴿في جنات وعيون ، وزروع ونخل﴾ ذكر النخـل مع دخـوله تحت الجنات لفضله على سائر الأشجار ، أو لأن المراد بها غيره من الأشجار ، وكثيراً ما يذكرون الشيء الواحد بلفظ يعمه وغيره كما يذكرون النعم ولا يقصدون إلا الإبل ، وهكذا يذكرون الجنة ولا يريدون إلا النخل . وهو اسم جمع ، الواحدة نخلة ، وكل اسم جمع كذلك يؤنث ويذكر ، وأما النخيل بالياء فمؤنثه اتفاقاً .

﴿طلعها هضيم﴾ أول ما يطلع من الثمر ، وبعده يسمى خلالاً ، ثم

بلحاً ، ثم بسرا ثم رطباً ثم تمراً ، وفي البيضاوي : هو ما يطلع منها كنصل السيف ، في جوفه شماريخ القنو . انتهى .

وهذا التشبيه من حيث الهيئة والشكل والهضيم هو النضيج ، الرخص اللين اللطيف ، أو متدل متكسر من كثرة الحمل وقيل ما لم يخرج من كفراه لدخول بعضه في بعض . وحكى الماوردي في معنى هضيم اثني عشر قولاً أحسنها وأوفقها باللغة ما ذكرناه ، وعن ابن عباس قال هضيم معشب ، وعنه قال أينع وبلغ ، وعنه قال أرطب واسترخى .

﴿وتنحتون في الجبال بيوتاً فارهين﴾ النحت النجر والبري ؛ نحته ينحِته بالكسر ، براه والنحاته البراية ، والمنحت ما ينحت به ؛ وكانوا ينحتون بيوتهم من الجبال ، لما طالت أعمارهم وتهدم بناؤهم من المدر ، فإن السقوف والأبنية كانت تبلى قبل فناء أعمارهم ، وفي الخطيب ، وكان الواحد منهم يعيش ثلثمائة سنة الى ألف سنة ، وكذا كان قوم هود .

وقرىء ﴿فرهين﴾ قال أبو عبيد وغيره وهما بمعنى واحد ، والفره النشاط وشدة الفرح ، وفرق بينهما أبو عبيد وغيره فقالوا فارهين حاذقين بنحتها ، قاله ابن عباس ، وقيل : متجبرين ، وفرهين بطرين اشرين ؛ وبه قال مجاهد وابن عباس ، وغيره وقيل : شرهين . وقال الضحاك : كيسين . وقال قتادة معجبين ناعمين آمنين وبه قال الحسن . وقيل : فرحين قاله الأخفش . وقال ابن زيد أقوياء .

﴿فاتقوا الله واطيعون﴾ فيما أمرتكم به ﴿ولا تطيعوا أمر المسرفين﴾ أي المشركين ، وقيل : التسعة الذين عقروا الناقة جعل الأمر مطاعاً على المجاز الحكمي في النسبة الايقاعية ؛ والمراد الآمر .

ثم وصف هؤلاء المسرفين بقوله ﴿الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون﴾ أي ذلك دأبهم يفعلون الفساد في الأرض ولا يصدر منهم الصلاح بطاعة الله البتة .

﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾﴾

﴿قالوا : إنما أنت من المسحّرين﴾ أي : الذين أصيبوا بالسحر قاله مجاهد وقتادة ، وقيل : المسحر هو المعلل بالطعام والشراب ، قاله الكلبي وغيره ، فيكون المسحر الذي له سحر وهو الرئة ، فكأنهم قالوا : إنما أنت بشر مثلنا تأكل وتشرب . قال الفراء أي أنك تأكل الطعام والشراب ، وتسحر به . قال المؤرج المسحر المخلوق بلغة ربيعة ، قال ابن عباس مسحرين مخلوقين .

﴿ما أنت إلا بشر مثلنا﴾ تدعي أنك رسول الينا ؟ ﴿فأت بآية إن كنت من الصادقين﴾ في قولك ودعواك .

﴿قال﴾ صالح : ﴿هذه ناقة﴾ أشار اليها بعدما أخرجها الله من الصخرة بدعائه كما اقترحوها قال أبو موسى الأشعري : رأيت مبركها فإذا هو ستون ذراعاً في ستين ذراعاً ثم وصاهم صالح بأمرين :

الأول : ﴿ لها شرب ولكم شرب يوم معلوم ﴾ أي لها نصيب من الماء ، ولكم نصيب منه معلوم. ليس لكم أن تشربوا في اليوم الذي هو نصيبها ، ولا هي تشرب في اليوم الذي هو نصيبكم ، وهذا دليل على جواز المهايأة ، قال الفراء الشرب الحظ من الماء قال النحاس فأما المصدر فيقال فيه شرب شرباً وشرباً ، وأكثرها المضموم ؛ والشرب بفتح الشين جمع شارب ، والمراد هنا

الشرب بالكسر ، وبه قرأ الجمهور فيهما ، وقرىء بالضم فيهما .

والأمر الثاني : ﴿ ولا تمسوها بسوء ﴾ أي بعقر أو ضرب أو شيء مما يسوءها وجواب النهي ﴿ فيأخذكم عذاب يوم عظيم ﴾ لحلول العذاب فيه ، ووصف اليوم به أبلغ من وصف العذاب ، لأن الوقت إذا عظم بسببه كان موقعه من العظم أشد .

﴿فعقروها﴾ يوم الثلاثاء أي عقرها قدار ، وضرب بالسيف في ساقيها وكان ابن زنا قصيراً دمياً ولكنهم راضون به فأضيف اليهم .

﴿فأصبحوا نادمين﴾ على عقرها لما عرفوا أن العذاب نازل وذلك أنه أنظرهم ثلاثاً فظهرت عليهم العلامة في كل يوم ، وندموا حيث لا ينفع الندم ، لأن ذلك لا يجدي عند معاينة العذاب ، وظهور آثاره ، ولأن مجرد الندم ليس توبة .

﴿فأخذهم العذاب﴾ الذي وعدهم به يوم السبت وهو أنهم في اليوم الأول أي الأربعاء قد اصفرت وجوههم ، ثم احمرت في الخميس ، ثم اسودت في الجمعة وفي قول مقاتل أنه خرج في أبدانهم خراج مثل الحمص ؛ فكان في اليوم الأول أحمر ثم صار من الغد أصفر ، ثم صار في الثالث أسود ، وكان عقر الناقة يوم الأربعاء وهلاكهم يوم الأحد ، انفقعت فيه تلك الخراجات وصاح عليهم جبريل صيحة فماتوا بالأمرين وكان ذلك ضحوة . وقد تقدم تفسير قوله :

﴿إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين﴾ وفيه إيماء بأنه لو آمن أكثرهم أو شطرهم لما أخذوا بالعذاب ، وأن قريشاً إنما عصموا من مثله ببركة من آمن منهم ﴿وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾ تقدم تفسيرها ايضاً في هذه السورة .

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٧٢﴾﴾

﴿كذبت قوم لوط المرسلين﴾ ذكر سبحانه القصة السادسة من قصص الأنبياء مع قومهم وهي قصة لوط ، وقد تقدم تفسير قوله ﴿إذ قال لهم أخوهم لوط﴾ أي في البلد والسكنى والتجاور في القرية ، لا في الدين ، ولا في النسب ، لأنه ابن أخي إبراهيم، وهما من بلاد المشرق من أرض بابل .

﴿ألا تتقون ؟ إني لكم رسول أمين ، فاتقوا الله واطيعون ، وما اسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين﴾ .

﴿أتأتون﴾ أي أتنكحون ﴿الذكران﴾ جمع الذكر ضد الأنثى وهم بنو آدم أو كل حيوان ﴿من العالمين﴾ أي من الناس وقد كانوا يفعلون ذلك بالغرباء على ما تقدم في الأعراف .

﴿وتذرون﴾ تتركون ﴿ما خلق﴾ أي أصلح وأحل وأباح ﴿لكم ربكم﴾ لأجل استمتاعكم به ﴿من أزواجكم﴾ المراد بهن جنس الإناث وقال مجاهد تركتم أقبال النساء الى أدبار الرجال ، وأدبار النساء وعن عكرمة نحوه ، وفيه دليل على تحريم أدبار الزوجات والمملوكات . قال النسفي ومن اجازه فقد

اخطأ خطأً عظيماً ﴿بل أنتم قوم عادون﴾ أي مجاوزون للحد في جميع المعاصي ومن جملتها هذه المعصية التي ترتكبونها من الذكران .

﴿قالوا لئن لم تنته يالوط﴾ عن الإنكار علينا وتقبيح أمرنا ﴿لتكونن من المخرجين﴾ من بلدنا المنفيين عنها ، ولعلهم كانوا يخرجون من أخرجوه على أسوأ حال .

﴿قال : إني لعملكم﴾ وهو ما أنتم فيه من إتيان الذكران ﴿من القالين﴾ أي من المبغضين له ، والقلي : البغض الشديد ، كأنه يقلي الفؤاد ، يقال : قليته قلي وقلاء ، وفيه دليل على عظم المعصية لأن قلاه من حيث الدين ، ثم رغب عليه السلام عن مجاورتهم وطلب من الله عز وجل أن ينجيه فقال :

﴿رب نجني وأهلي مما يعملون﴾ أي من عملهم الخبيث ، أو من عقوبته التي ستصيبهم ، فأجاب الله سبحانه دعاءه فقال ﴿فنجيناه وأهله﴾ أي أهل بيته ومن تابعه على دينه ﴿أجمعين﴾ .

﴿إلا عجوزاً﴾ هي امرأة لوط ، وكانت راضية بذلك ؛ والراضي بالمعصية في حكم العاصي ، واستثناء الكافرة من الأهل وهم مؤمنون للإشتراك في هذا الاسم ، وان لم تشاركهم في الإيمان ﴿في الغابرين﴾ أي من الباقين في العذاب ، وقال أبو عبيدة من الباقين في الهرم ، أي بقيت حتى هرمت . قال النحاس يقال للذاهب عابر وللباقي غابر ، والأغبار بقية الألبان : وتقول العرب ما مضى وما غبر ، أي ما بقي . قال قتادة هي امرأة لوط غبرت في عذاب الله .

﴿ثم دمرنا الآخرين﴾ أي أهلكناهم بالخسف والحصب وبقلب قراهم عليهم ، وجعل عاليها سافلها .

وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾ كَذَّبَ أَصْحَابُ لْئَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ۞ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾

﴿وأمطرنا عليهم﴾ أي على من كان منهم ذلك الوقت خارج القرى لسفر أو غيره ﴿مطراً﴾ يعني الحجارة، وقيل الكبريت والنار.

﴿فساء مطر المنذَرين﴾ المخصوص بالذم محذوف والتقدير مطرهم، ولم يرد بهم قوماً بأعيانهم، بل جنس الكافرين، وقد تقدم تفسير قوله ﴿إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين؛ وان ربك لهو العزيز الرحيم﴾ في هذه السورة.

﴿كذب أصحاب الأيكة المرسلين﴾ الأيكة الشجر الملتف، وهي الغيضة وقرىء (ليكة) بلام واحدة وفتح التاء، وجعلوه اسماً غير معرف بأل مضافاً اليه (أصحاب﴾ و (ليكة) اسم القرية وأنكره الزمخشري، وهو غير جيد.

وقيل هما بمعنى واحد اسم للغيضة: قال القرطبي فأما ما حكاه أبو عبيدة من أن ليكة اسم القرية التي كانوا فيها، وأن الأيكة اسم البلد كله، فشيء لم يثبت ولم يعرف من قاله ولو عرف لكان فيه نظر، لأن أهل العلم جميعاً على خلافه.

قال أبو علي الفارسي الأيكة تعريف أيكة ، فإذا حذفت تخفيفاً القيت حركتها على اللام . قال الخليل الأيكة الغيضة تنبت السدر والأراك ونحوهما من ناعم الشجر . قال مجاهد ليكة هي الأيكة ، وقد وقع لفظ الأيكة في القرآن أربع مرات ، في الحجر ، وفي ق ، وما هنا ، وفي ص ، والأولان بأل والجر والآخران يقرآن بأل وبالجر وبحذف الهمزة ، والقاء حركتها على اللام وفتح الهاء مع أن الكل مجرورات بإضافة لفظ أصحاب اليها وقال ابن عباس كانوا أصحاب غيضة من ساحل البحر الى مدين .

﴿إذ قال لهم شعيب ألا تتقون ؟﴾ ولم يقل أخوهم كما قال في الأنبياء قبله ، لأنه لم يكن من أصحاب الأيكة في النسب ؛ فلما ذكر مدين قال أخاهم شعيباً لأنه كان منهم ، وقد مضى تحقيق نسبه في الاعراف ، وبعث الله شعيباً الى أمتين ، أصحاب الأيكة وأهل مدين ، فأهلك الله أصحاب الأيكة بالظلة ؛ وأما أهل مدين فصاح بهم جبريل صيحة فهلكوا أجمعين .

﴿إني لكم رسول أمين فاتقوا الله واطيعون ، وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين﴾ وإنما كانت دعوة هؤلاء الأنبياء فيما حكى الله عنهم على صيغة واحدة لاتفاقهم على تقوى الله وطاعته والاخلاص في العبادة والامتناع من أخذ الأجر على تبليغ الرسالة .

﴿أوفوا الكيل﴾ أي أتمّوه لمن أراده وعامل به ﴿ولا تكونوا من المخسرين﴾ أي الناقصين للكيل والوزن يقال أخسرت الكيل والوزن أي نقصته ، ومنه قوله تعالى ﴿وإذ كالوهم او وزنوهم يخسرون﴾ قال النسفي الكيل واف وهو مأمور به ، وطفيف وهو منهي عنه ، وزائد وهو مسكوت عنه ، فتركه دليل على أنه إن فعله فقد أحسن ، وإن لم يفعل فلا شيء عليه ثم زاد سبحانه في البيان فقال :

﴿وزنوا بالقسطاس المستقيم﴾ أي أعطوا الحق بالميزان السوي وقد مر بيان تفسير هذا في سورة سبحان ، وقرىء (القسطاس) مضموم القاف ومكسورها ، وهي الميزان أو القبان ، فإن كان من القسط وهو العدل ، وجعلت العين مكررة ، فوزنه فعلان وإلا فهو رباعي .

﴿ولا تبخسوا الناس أشياءهم﴾ البخس النقص يقال : بخسه حقه إذا نقصه ، أي : لا تنقصوا حقوقهم التي لهم وهذا تعميم بعد التخصيص . وقيل : دراهمهم ودنانيرهم بقطع أطرافها . وقد تقدم تفسيره في سورة هود .

وتقدم أيضاً تفسير : ﴿ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾ فيها وفي غيرها أي لا تبالغوا فيها بالفساد نحو قطع الطريق ، والغارة واهلاك الزرع ، وكانوا يفعلون ذلك فنهوا عنه ، يقال : عثا في الأرض إذا أفسد ، وبابه سما ، وعثى بالكسر ، وعثى بفتحتين بوزن فتى قال الأزهري : القراء كلهم متفقون على فتح الثاء وقد دل على أن القرآن نزل باللغة الثانية ، وفي القاموس : عثى كسعى ورمى ورضى .

﴿واتقوا﴾ الله ﴿الذي خلقكم﴾ أي من نطفة، وإعدامكم أهون شيء عليه ، واشار الى ضعفهم وقوة من كان قبلهم بقوله ﴿والجبلّة الأولين﴾ الذين اهلكوا بالمعاصي ، كقوم لوط كانوا على خلقة وطبيعة عظيمة قرىء الجبلة بكسر الجيم والباء وتشديد اللام وقرىء بضمهما وتشديد اللام ، وقرىء بفتح الجيم مع سكون الباء والجبلة الخليقة قاله مجاهد وغيره ، يعني الأمم المتقدمة يقال : جبل فلان على كذا أي خلق .

قال النحاس : الخلق يقال له جبلة بكسر الحرفين الأولين وبضمهما مع تشديد اللام فيهما ، وبضم الجيم وسكون الباء وضمه وفتحها قال الهروي الجبلة والجبلة والجبل والجبل لغات وهو الجمع والعدد الكثير من الناس . ومنه قوله تعالى ﴿جِبلاًّ كثيراً﴾ أي خلقاً كثيراً.

قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ
﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا
تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ
فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾ وَإِنَّهُۥ
لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾
بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾

﴿قالوا إنما أنت من المسحرين﴾ أي من المخلوقين ﴿وما أنت إلا بشر مثلنا﴾ إدخال الواو هنا يفيد معنيين كلاهما مناف للرسالة عندهم ، التسحير والبشرية ، يعني ان كُلًّا منهما كاف فكيف إذا اجتمعا ، وترك الواو في قصة ثمود ليفيد معنى واحداً ، وهو كونه مسحراً ، وقد تقدم تفسيره في هذه السورة .

﴿وإن نظنك لمن الكاذبين﴾ فيما تدعيه علينا من الرسالة وقيل ما نظنك إلا من الكاذبين ، والأول أولى .

﴿فأسقط علينا كسفاً﴾ كان شعيب عليه السلام يتوعدهم بالعذاب إن لم يؤمنوا فقالوا له هذا القول تعنتاً واستبعاداً وتعجيزاً ، قال أبو عبيد الكسف جمع كسفة مثل سدر وسدرة ، قال الجوهري الكسفة القطعة من الشيء يقال اعطني كسفة من ثوبك . والجمع كسف وكسف ، وقد مضى تحقيق هذا في سورة سبحان ﴿من السماء﴾ أي السحاب او الظلة ﴿إن كنت من الصادقين﴾ في دعواك .

﴿قال ربي أعلم بما تفعلون﴾ من الشرك والمعاصي فهو مجازيكم على ذلك ان شاء ، وفي هذا تهديد شديد ﴿فكذبوه﴾ فاستمروا على تكذيبه وأصروا على ذلك .

﴿فأخذهم عذاب يوم الظلة﴾ هي السحاب أقامها الله فوق رؤوسهم، فأمطرت عليهم ناراً فهلكوا ، وقد أصابهم الله بما اقترحوه لأنهم إن أرادوا بالكسف القطعة من السحاب فظاهر ، وان أرادوا بها القطعة من السماء فقد نزل عليهم العذاب من جهتها . قال ابن عباس أرسل الله اليهم سموماً من جهنم فأطاف بهم سبعة أيام حتى انضجهم الحر فحميت بيوتهم ، وغلت مياههم في الآبار والعيون ، فخرجوا من منازلهم ومحلتهم هاربين ، والسموم معهم ، فسلط الله عليهم الشمس من فوق رؤوسهم فغشيتهم حتى تقلقلت فيها جماجمهم ، وسلط الله عليهم الرمضاء من تحت أرجلهم حتى تساقطت لحوم أرجلهم ، ثم نشأت لهم ظلة كالسحابة السوداء فلما رأوها ابتدروها يشتغيثون بظلها حتى إذا كانوا جميعاً أطبقت عليهم فهلكوا ، ونجى الله شعيباً والذين آمنوا معه .

وعنه ايضاً أنه سئل عن قوله فأخذهم عذاب الى آخره فقال فخرجوا من البيوت هرباً الى البرية ، فبعث الله عليهم سحابة فأظلتهم من الشمس ، فوجدوا لها برداً ولذة فنادى بعضهم بعضاً حتى إذا اجتمعوا تحتها أسقط الله عليهم ناراً ، فذلك عذاب يوم الظلة ، وعنه قال : من حدثك من العلماء عذاب يوم الظلة فكذبه ، (أقول) فما نقول له رضي الله عنه فيما حدثنا به من ذلك مما نقلناه عنه ههنا . وقد رواه عنه عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر و ابن أبي حاتم وغيرهم . ويمكن أن يقال : انه لما كان هو البحر الذي علمه الله تأويل كتابه بدعوة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم : كان مختصاً بمعرفة هذا الحديث دون غيره من أهل العلم ، فمن حدث بحديث عذاب يوم الظلة على وجه غير هذا الوجه الذي حدثنا به فقد وصانا بتكذيبه ، لأنه قد علمه ولم يعلمه غيره ، والله أعلم . وأضاف العذاب الى يوم الظلة ، لا الى الظلة تنبيهاً على أن لهم في ذلك اليوم عذاباً غير عذاب يوم الظلة[1] كذا قيل ، ثم وصف

---

(١) قوله غير عذاب يوم الظلة كذا بالأصل الذي بأيدينا وانظره أ هـ مصححه .

سبحانه هذا العذاب الذي أصابهم بقوله :

﴿إنه كان عذاب يوم عظيم﴾ لما فيه من الشدة عليهم التي لا يقادر قدرها وقد تقدم تفسير قوله : ﴿إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ، وان ربك لهو العزيز الرحيم﴾ في هذه السورة مستوفى فلا نعيده ، وقد تقدم الكلام على هذه القصص في سورتي الأعراف وهود ، فأغنى عن الاعادة هنا ، وفي هذا التكرير لهذه الكلمات في آخر هذه القصص السبع من التهـديد والزجر ، والتقرير والتأكيد ، ما لا يخفى على من يفهم مواقع الكلام ، ويعرف أساليبه.

وقال النسفي : قد كرر في هذه السورة في أول كل قصة وآخرها ما كرر تقريراً لمعانيها في الصدور ، وليكون أبلغ في الوعظ والزجر ، ولأن كل قصة منها كتنزيل برأسه ، وفيها من الاعتبار مثل ما في غيرها فكانت جديرة بأن تفتح بما افتتحت به صاحبتها ، وان تختم بما اختتمت به .

﴿وإنّه﴾ الضمير يرجع الى ما نزله عليه من الأخبار ، أي وإن هذه الأخبار أو وإن القرآن وإن لم يجر له ذكر للعلم به ، وبه قال قتادة ﴿لتنزيل رب العالمين﴾ أي: فليس بشعر ولا سحر، ولا أساطير، ولا غير ذلك مما قالوه فيه.

﴿نزل﴾ قرىء مخففاً ومشدداً ﴿به الروح الأمين﴾ هو جبريل ، كما في قوله قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك وبه قال قتادة وابن عباس ؛ وعنه مرفوعاً قال : الروح الأمين جبريل ، رأيت له ستمائة جناح من لؤلؤ قد نشرها فيها مثل ريش الطواويس !! أخرجه أبو الشيخ ، وسماه روحاً لأنه خلق من الروح ، وسماه أميناً لأنه مؤتمن على وحيه لأنبيائه .

﴿على قلبك﴾ أي : أنه تلاه على قلبك حتى تعيه وتفهمه ولا تنساه ، ووجه تخصيص القلب أنه أول مدرك من الحواس الباطنة ، قال الكرخي خصه

بالذكر ليؤكد أن ذلك المنزل محفوظ ، والرسول متمكن من قلبه لا يجوز عليه التغير ، ولأن القلب هو المخاطب في الحقيقة ، لأنه موضع التمييز والعقل والاختبار ، وسائر الأعضاء مسخرة له .

ويدل عليه القرآن والحديث والمعقول أما القرآن فقوله تعالى :﴿إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب﴾ والحديث قوله ﷺ ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب أخرجاه في الصحيحين . وأما المعقول فإن القلب إذا غشي عليه ، وقطع سائر الأعضاء لم يحصل له شعور ، وأذا أفاق القلب شعر بجميع ما ينزل بالأعضاء من الآفات ، وعبارة الخازن، ومن المعقول أن موضع الفرح والسرور ، والغم والحزن ، هو القلب ، فإذا فرح القلب أو حزن يتغير حال سائر الاعضاء ، فكان القلب كالرئيس لها ، ومنه : إن موضع العقل هو القلب على الصحيح من القولين ، فاذا ثبت ذلك كان القلب هو الأمير المطلق ، وهو المكلف لأن التكليف مشروط بالعقل والفهم انتهى .

﴿لتكون من المنذرين﴾ علة للإنزال أي : أنزله عليك لتنذرهم بما تضمنه من التحذيرات والانذارات والعقوبات ﴿بلسان عربي مبين﴾ أي : لتكون من المنذرين الذين انذروا بهذا اللسان ، وهم هود وشعيب وصالح واسماعيل عليهم الصلاة والسلام ، أو متعلق بـ (نزل) أي أنزله بلسان عربي لتنذر به .

وقال أبو البقاء : بلسان عربي ، أي برسالة أو لغة . وقال أبو السعود باللغة العربية ، وإنما جعل الله سبحانه القرآن عربياً بلسان الرسول العربي ، لئلا يقول مشركو العرب : لو نزل بالأعجمي لسنا نفهم ما تقوله بغير لساننا فقطع بذلك حجتهم ، وازاح علتهم ودفع معذرتهم . قال ابن عباس : أي بلسان قريش ، ولو كان غير عربي ما فهموه ، وعن بريدة قال بلسان جُرْهُم .

وَإِنَّهُۥ لَفِي زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾

﴿وإنه﴾ أي : إن هذا القرآن باعتبار أحكامه التي أجمعت عليها الشرائع ، أو ذكره ، وقيل : الضمير لرسول الله ﷺ ﴿لفي زبر الأولين﴾ من الأنبياء كالتوراة والانجيل ، والزبر الكتب ، الواحد زبور ، وقد تقدم الكلام على تفسير مثل هذا ، وقيل المراد بكون القرآن فيها أنه مذكور فيها هو نفسه لا ما اشتمل عليه من الأحكام ، وفيه دليل على أن القرآن قرآن إذا ترجم بغير العربية كالفارسية وغيرها ، والأول أولى ، وقد قيل إن الصحيح من مذهب أبي حنيفة أن القرآن هو النظم والمعنى معاً قاله الشهاب .

﴿أولم يكن لهم آية ؟﴾ الهمزة للإنكار . والواو للعطف على مقدر ، كما تقدم مراراً ، والآية العلامة والدلالة أي . ألم تكن لهؤلاء أي لكفار مكة علامة دالة على أن القرآن حق ، وانه تنزيل رب العالمين وأنه في زبر الأولين ﴿أن يعلمه علماء بني اسرائيل﴾ على العموم ، أو من آمن منهم كعبدالله بن سلام ، وأسد ، وأسيد ، وثعلبة ، وابن يامين فهؤلاء الخمسة من علماء اليهود وقد حسن إسلامهم فإنهم يخبرون بذلك ، وإنما صارت شهادة أهل الكتاب حجة على المشركين لأنهم كانوا يرجعون اليهم ويصدقونهم . قال الزجاج المعنى أو لم يكن لهم علم علماء بني اسرائيل أن محمداً ﷺ نبي حق ، علامة ودلالة على نبوته ، لأن العلماء الذين آمنوا من بني اسرائيل كانوا يخبرون بوجود ذكره في كتبهم .

وكذا قال الفراء عن ابن عباس قال كان عبدالله بن سلام من علماء بني اسرائيل ، وكان من خيارهم ، فآمن بكتاب محمد فقال لهم الله أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني اسرائيل .

﴿ولو نزلناه﴾ أي هذا القرآن على الصفة التي هو عليها ﴿على بعض﴾ رجل من ﴿الاعجمين﴾ جمع أعجمي ، قاله صاحب التحرير ، أو جمع أعجم قاله ابن عطية ، يقال رجل أعجم وأعجمي إذا كان غير فصيح اللسان ، وان كان عربياً ، ورجل عجمي إذا كان أصله من العجم، وإن كان فصيحاً ، إلا أنّ الفراء أجاز أن يقال رجل عجمي ، بمعنى أعجمي وقرىء (على بعض الأعجميين) على الأصل ، وقال الزمخشري الأعجم الذي لا يفصح ، وفي لسانه عجمة او استعجام ، والأعجمي مثله إلا أن فيه زيادة ياء النسب توكيداً .

﴿فقرأه عليهم﴾ قراءة صحيحة ﴿ما كانوا به مؤمنين﴾ أنفة من اتباعه، مع انضمام اعجاز القراءة من الرجل الأعجمي للكلام العربي ، أي القرآن او المعنى أن الأعجمي لا يتهم باكتسابه اصلاً ، ولا باختراعه ، لفقد الفصاحة فيه ، ولكونه ليس لغته . وقيل المعنى ولو نزلناه على بعض الأعجمين بلغة العجم ، فقرأه عليهم بلغته لم يؤمنوا به ، وقالوا ما نفقه هذا ولا نفهمه ، ومثل هذا قوله تعالى﴿ولو جعلناه قرآنا أعجمياً لقالوا لولا فصّلت آياته﴾ وهذه الشرطية لا تستلزم الوقوع .

﴿كذلك﴾ أي مثل ذلك السلك ﴿سلكناه﴾ أي أدخلنا القرآن ﴿في قلوب المجرمين﴾ أي كفار مكة بقراءة النبي ﷺ حتى فهموا معانيه وعرفوا فصاحته ، وانه معجز . وقال الحسن وغيره سلكنا الشرك والتكذيب في قلوب المجرمين ، وقال عكرمة سلكنا القسوة ، والأول أولى ، لأن السياق في القرآن ، وفيه حجة على المعتزلة ، في خلق أفعال العباد خيرها وشرها .

﴿لا يؤمنون به﴾ أي بالقرآن ﴿حتى يروا العذاب الأليم﴾ أي الى هذه

الغاية ، وهي مشاهدتهم للعذاب الأليم والمراد معاينة الموت عند الموت ، ويكون ذلك ايمان يأس فلا ينفعهم ، والجملة مستأنفة او حالية .

﴿فيأتيهم﴾ أي العذاب ﴿بغتة﴾ أي فجأة والفاء للترتيب الرتبي دون الزماني كما في الكشاف والمعنى حتى يروا العذاب فما هو أشد من رؤيته ، وهو لحوقه بهم مفاجأة ، فما هو أشد منه وهو سؤالهم الإنظار مع القطع بامتناعه كما يأتي ﴿وهم﴾ أي والحال أنهم ﴿لا يشعرون﴾ بإتيانه وقرأ الحسن فتأتيهم بالفوقية أي الساعة ، وان لم يتقدم لها ذكر لكنه قد دل العذاب عليها فيرونه .

﴿فيقولوا هل نحن منظرون ؟﴾ أي مؤخرون وممهلون عن الهلاك ولو طرفة عين لنؤمن ، قالوا هذا تحسر على ما فات من الإيمان، وطمعاً في المحال وهو إمهالهم بعد مجيء العذاب ، وتمنياً للرجعة الى الدنيا لاستدراك ما فرط منهم ، فيقال لهم لا تأخير ولا إمهال ، وقيل المراد بقولهم هذا الاستعجال للعذاب على طريقة الاستهزاء لقوله :

﴿أفبعذابنا يستعجلون ؟﴾ ولا يخفى ما في هذا من البعد والمخالفة للمعنى الظاهر فإن معنى ﴿هل نحن منظرون﴾ طلب النظرة والامهال ، وأما قوله (أفبعذابنا الخ) فالمراد به الرد عليهم ، والانكار لما وقع منهم من قولهم ﴿أمطر علينا حجارة من السماء، أو ائتنا بعذاب أليم﴾ وقولهم : ﴿فائتنا بما تعدنا﴾ حيث استعجلوا ما فيه ضررهم ، وحتف أنفسهم ، والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام ، أي أيكون حالهم كما ذكر عند نزول العذاب ؟ فيستعجلون به وبينهما من التنافي ما لا يخفى على أحد ، أو أيغفلون عن ذلك مع تحققه وتقرره فيستعجلون ، وتقديم الظرف لرعاية الفواصل .

﴿أفرأيت﴾ الاستفهام للانكار ، والفاء للعطف على مقدر يناسب المقام ومعنى رأيت أخبرني والخطاب لكل من يصلح له ﴿إن متعناهم سنين﴾ في الدنيا متطاولة ، وطولنا لهم الأعمار ﴿ثم جاءهم ما كانوا يوعدون﴾ من العذاب والهلاك .

مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾

﴿ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون﴾ أي أيُّ شيء أو أيُّ إغناء أغنى عنهم كونهم ممتعين ذلك التمتع الطويل المديد ، والاستفهام للانكار التقريري و (ما) في (ماكانوا) مصدرية او موصولة ، وقيل (ما) الأولى نافية والثانية مصدرية أي لم يغن عنهم تمتعهم المتطاول في دفع العذاب، وتخفيفه وقرىء يمتعون من أمتع الله زيداً بكذا .

وعن ميمون بن مهران انه لقي الحسن في الطواف وكان يتمنى لقاءه فقال لـه عظني فلم يزده على تلاوة هذه الآية ، فقال ميمون قـد وعظت فأبلغت وعن عمر بن عبدالعزيز انه كان يقرأها عند جلوسه للحكم .

﴿وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون﴾ من مزيدة للتأكيد ، أي وما اهلكنا قرية من القرى إلا بعد الانذار والاعذار بإرسال الرسل اليهم وإنزال الكتب ﴿ذكرى﴾ بمعنى تذكرة أي يذكرون ذكرى ، قال النحاس وهذا قول صحيح لأن معنى إلا لها منذرون إلا لها مذكرون ، او التقدير إنذارنا ذكرى ، أو ذلك ذكرى قال ابن الأنباري هي ذكـرى ، أو نذكـرهم ذكرى وقيـل ينذرونهم ذوي تذكرة أو لأجل التذكرة ، وبه صرح أبو البقاء أي تنذرهم لأجل تذكيرهم بالعواقب ، وقد رجح الأخفش أنها خبر مبتدأ محذوف والجملة اعتراضية .

﴿وما كنا ظالمين﴾ في تعذيبهم وليس من شأننا الظلم وقد قدمنا الحجة اليهم وانذرناهم واعذرنا اليهم .

﴿وما تنزلت به﴾ أي بالقرآن ﴿الشياطين﴾ وقرىء بالواو والنون اجراء له مجرى جمع السلامة . قال النحاس : وهذا غلط عند جميع النحويين ، قال المبرد وهذا غلط من العلماء ، وبه قال الفراء ، وقال المؤرج : ان كان الشيطان من شاط يشيط كان لهذه القراءة وجه ، وقال يونس بن حبيب سمعت اعرابياً يقول : دخلنا بساتين من ورائها بساتون ، وهذا رد لما زعمه الكفرة في القرآن انه من قبيل ما تلقيه الشياطين على الكهنة بعد تحقيق الحق ببيان انه نزل به الروح الأمين ، فلا يكون سحراً أو كهانة أو شعراً أو اضغاث أحلام كما يقولون .

﴿وما ينبغي لهم﴾ ذلك وما يصح منهم ولا يصلح أن ينزلوا به ﴿وما يستطيعون﴾ ما نسبه الكفار اليهم أصلاً ولا يمكنهم ﴿إنهم عن السمع﴾ للقرآن أو لكلام الملائكة ﴿لمعزولون﴾ أي لمحجوبون مرجومون بالشهب ، ثم لما قرر الله سبحانه حقية القرآن ، وانه منزل من عنده أمر نبيه ﷺ بدعاء الله وحده فقال :

﴿فلا تدع مع الله إلهاً آخر فتكون من المعذبين﴾ إن فعلت ذلك الذي دعوك إليه، وخطاب النبي ﷺ بهذا مع كونه منزهاً عنه معصوماً منه ، لحث العباد على التوحيد ، ونهيهم عن شوائب الشرك ، وكأنه قال : أنت أكرم الخلق عليّ وأعزهم عندي ، ولو اتخذت معي إلهاً لعذبتك،فكيف بغيرك من العباد ؟ قال في حاشية الجمل : الخطاب له والمقصود غيره .

﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ خصهم لأن الاهتمام بشأنهم أولى وهدايتهم الى الحق أقدم ، قيل هم قريش ، وقيل : بنو عبد مناف ، وقيل : بنو هاشم وقد ثبت في البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة قال : لما نزلت هذه الآية

دعا رسول الله ﷺ قريشاً وعم وخص ، فقال : يا معشر قريش أنقذوا أنفسكم من النار ، فإني لا أملك لكم ضراً ولا نفعاً ، يا معشر بني كعب بن لؤي أنقذوا أنفسكم من النار فإني لا أملك لكم ضراً ولا نفعاً، يا معشر بني قصي انقذوا أنفسكم من النار فإني لا أملك لكم ضراً ولا نفعاً ، يا معشر بني عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار فإني لا أملكم لكم ضراً ولا نفعاً ، يا معشر بني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار فاني لا أملك لكم ضراً ولا نفعاً ، يا فاطمة بنت محمد أنقذي نفسك من النار فاني لا أملك لك ضراً ولا نفعاً،ألا إن لكم رحماً وسأبلها ببلالها ، وفي الباب أحاديث من طريق جماعة من الصحابة فذلك منه ﷺ بيان لعشيرة الأقربين وانذاره لهم جهاراً .

﴿واخفض جناحك﴾ أي جانبك ، يقال : خفض جناحه إذا ألانه ، وفيه استعارة حسنة ، والمعنى ألن جناحك وتواضع ﴿لمن اتبعك من المؤمنين﴾ الموحدين من عشيرتك وغيرهم ، واظهر لهم المحبة والكرامة ، وتجاوز عنهم .

﴿فإن عصوك﴾ أي خالفوا أمرك ولم يتبعوك ﴿فقل :﴾ لهم ﴿إني بريء مما تعملون﴾ أي من عملكم أو من الذي تعملونه من عبادة غير الله،وهذا يدل على أنّ المراد بالمؤمنين المشارفون للإيمان المصدقون باللسان،لأن المؤمنين الخلص لا يعصونه ولا يخالفونه ، ثم بين له ما يعتمد عليه عند عصيانهم له فقال .

﴿وتوكل على العزيز الرحيم﴾ أي فوِّض جميع أمورك اليه فإنه القادر على قهر الأعداء وهو الرحيم للأولياء، قرىء فتوكل بالفاء والواو وهما قراءتان سبعيتان فعلى الأولى يكون ما بعدها كالجزاء مما قبلها مترتباً عليه ، وعلى الثانية يكون ما بعد الواو معطوفاً على ما قبلها عطف جملة على جملة من غير ترتيب ﴿الذي يراك حين تقوم﴾ الى الصلاة وحدك منفرداً في قول أكثر المفسرين وقال مجاهد حين تقوم حيثما كنت .

﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا ۗ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾

﴿وتقلبك في الساجدين﴾ المصلين، أي ويراك إن صليت في الجماعة راكعاً وقائماً وساجداً ، كذا قال أكثر المفسرين وعن مقاتل أنه سأل أبا حنيفة رحمهما الله هل تجد الصلاة بالجماعة في القرآن قال لا يحضرني فتلا له هذه الآية ، وقيل : يراك في أصلاب الرجال الموحدين من نبي الى نبي من لدن آدم وحواء الى عبد الله وآمنة ، حتى أخرجك في هذه الأمة ؛ فجميع أصوله رجالاً ونساء مؤمنون .

وأورد على هذا آزر أبو ابراهيم فإنه كافر بمقتضى الآيات واجاب بعضهم بأنه كان عم ابراهيم لا أباه ، وفيه ضعف بين . وأجاب بعضهم أن قولهم أصول محمد ﷺ لم يدخلهم الشرك ، محله ما دام النور المحمدي في الذكر وفي الأنثى ، فإذا انتقل منه لمن بعده أمكن أن يعبد غير الله ، وآزر ما عبد الأصنام إلا بعد انتقال النور منه لابراهيم ، وأما قبل انتقاله فلم يعبد غير الله ، قاله الحفناوي .

وقيل ، المراد بـ(تقوم) قيامه الى التهجد ، وبالتقلب تردده في تفحص أحوال المجتهدين في العبادة وتقلب بصره فيهم ؛ كذا قال مجاهد .

قال ابن عباس : تقلبك أي قيامك وركوعك وسجودك ، وعنه قال يراك وأنت مع الساجدين تقوم وتقعد معهم ، وعنه قال : كان النبي ﷺ اذا قام

الى الصلاة يرى من خلفه كما يرى من بين يديه ، ومنه الحديث في الصحيحين وغيرهما عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : هل ترون قبلتي ههنا فوالله ما يخفى على خشوعكم ولا ركوعكم ، واني لأراكم من وراء ظهري .

﴿إنه هو السميع﴾ لما تقوله ﴿العليم﴾ به ، ثم أكد سبحانه معنى قوله ﴿وما تنزلت به الشياطين﴾ وبينه فقال : ﴿هل أنبئكم﴾ ياكفار مكة ﴿على من تنزل الشياطين ؟﴾ أي تتنزل فحذف احدى التاءين ، وفيه بيان استحالة تنزل الشياطين على رسول الله ﷺ ﴿تنزل على كل أفاك أثيم﴾ الأفاك الكثير الإفك ، والأثيم كثير الإثم ، والمراد به كل من كان كاهناً ، فإن الشياطين كانت تسترق السمع ، ثم يأتون اليهم فيلقونه اليهم مثل مسيلمة من المتنبئة ، وكسطيح من الكهنة ، وهو معنى قوله :

﴿يلقون السمع﴾ أي : ما يسمعونه مما يسترقونه ، فالمعنى حال كون الشياطين ملقين السمع ، أي : ما يسمعونه من الملأ الأعلى الى الكهان ، ويجوز أن يكون المعنى أن الشياطين يلقون السمع ، أي : يصغون الى الملأ الأعلى ليسترقوا منهم شيئاً ويكون المراد بالسمع على الوجه الأول المسموع ، وعلى الوجه الثاني نفس حاسة السمع .

ويجوز أن تكون جملة يلقون السمع راجعة الى كل أفاك أثيم ، على أنها صفة او مستأنفة ، ومعنى الالقاء أنهم يسمعون ما تلقيه اليهم الشياطين من الكلمات التي تصدق الواحدة منها ، وتكذب المائة الكلمة ، ويلقونها الى عوام الخلق .

أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن عائشة قالت : سأل أناس النبي ﷺ عن الكهان فقال : إنهم ليسوا بشيء ،قالوا يارسول الله إنهم يحدثون احياناً بشيء يكون حقاً قال : تلك الكلمة من الحق يخطفها الجني فيقذفها في أذن وليه ، فيخلطون فيها أكثر من مائة كذبة . وفي لفظ البخاري فيزيدون معها

مائة كـــذبـة .

﴿و﴾ جملة ﴿أكثرهم كاذبون﴾ راجعة الى كل أفاك أثيم ، أي وأكثر هؤلاء الكهنة كاذبون فيما يتلقونه من الشياطين ، لأنهم يضمون الى ما يسمعونه كثيراً من أكاذيبهم المختلقة أو أكثرهم كاذبون فيما يلقونـه من السمع اي المسموع من الشياطين،إلى الناس ، أو هذه الجملة راجعة الى الشياطين أي أكثر الشياطين كاذبون فيما يلقونه الى الكهنة مما يسمعونه ، فإنهم يضمون الى ذلك من عند أنفسهم كثيراً من الكذب ، وكان هذا قبل أن حجبت الشياطين عن السماء .

وقد قيل : كيف يصح على الوجه الأول وصف الأفاكين بأن أكثرهم كاذبون ، بعدما وصفوا جميعاً بـالإفك ؟ واجيب بأن المراد بالأفاك الذي يكثر الكذب ، لا الذي لا ينطق إلا بالكذب ، فالمراد بقوله : ﴿وأكثرهم كاذبون﴾ أنه قل من يصدق منهم فيما يحكى عن الشياطين،والغرض الذي سيق لأجله هذا الكلام رد ما كان يزعمه المشركون من كون النبي ﷺ من جملة من يلقي إليه الشيطان السمع من الكهنة ؛ ببيان أن الأغلب على الكهنة الكذب ، ولم يظهر من أحوال محمد ﷺ إلا الصدق . فكيف يكون كما زعموا ؟ ثم ان هؤلاء الكهنة يعظمون الشياطين ، وهذا النبي المرسل من عند الله برسالته الى الناس يذمهم ويلعنهم ، ويأمر بالتعوذ منهم .

ثم لما كان قد قال قائل من المشركين : إن النبي ﷺ شاعر ، بـيَّنَ سبحانه حال الشعراء ومنافاة ما هم عليه لما عليه النبي ﷺ فقال :

﴿والشعـراء يتبعهم﴾ مشدداً ومخففـاً أي : يجاريهم ويسلك مسلكهم ويكون من جملتهم ﴿الغاوون﴾ أي الضالون عن الحق ، والشعراء جمع شاعر والغاوون جمع غاو ، وهـم ضلال الجن والانس ، قاله ابن عباس . وقيل الزائلون عن الحق ، وقيل : المشركون ، وقيـل :الشياطـين ، وقيل : الـذين يروون الشعر المشتمل على الهجاء وما لا يجوز .

وقيل : المراد شعراء الكفار خاصة منهم عبد الله بن الزبعرى السهمي ، وهبيرة بن ابي وهب المخزومي ، ومسافع بن عبد مناف ، وأبو عزة الجمحي ، وأمية بن أبي الصلت الثقفي ، تكلموا بالكذب والباطل ، وقالوا نحن نقول مثل ما يقول محمد ، وقالوا الشعر واجتمع إليهم غواة قومهم يسمعون أشعارهم حين يهجون النبي ﷺ وأصحابه ويروون عنهم قولهم . فذلك قوله تعالى هذا .

قال الزجاج : إذا مدح أو هجا شاعر بما لا يكون ، وأحب ذلك قوم وتابعوه فهم الغاوون، والمعنى لا يتبعهم على كذبهم وباطلهم وتمزيق الأعراض والقدح في الأنساب والطعن في الأحساب ، ومدح من لا يستحق المدح وذم من لا يستحق الذم . ولا يستحسن ذلك منهم إلا الغاوون . عن ابن عباس قال : تهاجى رجلان على عهد رسول الله ﷺ أحدهما من الأنصار ، والآخر من قوم أخرين ، وكان مع كل واحد منهما غواة من قومه وهم السفهاء ، فأنزل الله هذه الآية ثم بيّن سبحانه قبائح شعراء الباطل فقال :

﴿ألم تـر أنهم في كل واد يهيمـون؟﴾ تقريـر لما قبله والخطاب لكـل من تتأتى منه الرؤية ، يقال : هام يهيم هيماً وهيماناً . إذا ذهب على وجهه ، والهيام أن يذهب على وجهه من عشق وغيره ، وهو تمثيل كما في الكشاف، والمعنى ألم تر أنهم في كل فن من فنون الكذب يخوضون ؛ وفي كل شعب من شعاب الزور يتكلمون ، فتارة يمزقون الأعراض بالهجاء ، وتارة يأتون من المجون بكل ما يمجه السمع ويستقبحه العقل ، وتارة يخوضون في بحر السفاهة والوقاحة ، ويذمون الحق ويمدحون الباطل ، ويرغبون في فعل المحرمات ويدعون الناس الى فعل المنكرات ، كما تسمعه في أشعارهم من مدح الخمر والزنا واللواط ونحو هذه الرذائل الملعونة .

كيف وأكثر مقدماتهم خيالات لا حقيقة لها ، وأغلب كلماتهم في التشبيب بالحرام والغزل والابتهار، والقدح في الأنساب والطعن في الأحساب والوعد الكاذب ، والإفتخار الباطل ، ومدح من لا يستحقه ؛ والإطراء فيه ،

قاله البيضاوي ، وغيره ، وهذا من باب الاستعارة البليغة والتمثيل الرائع شبه جولانهم في أفانين القول بطريق المدح والذم والتشبيب وأنواع الشعر بهيام الهائم في كل وجه وطريق ، والهائم هو الذي يخبط في طريقه ولا يقصد موضعاً معيناً .

والهائم العاشق ، والهيمان العطشان ؛ والهيام داء يأخذ الإبل من العطش ، وجمل أهيم ، وناقة هيماء والجمع فيهما هيم قال تعالى فشاربون شرب الهيم .

قال ابن عباس في الآية : في كل لغو يخوضون ، وقيل : يمدحون بالباطل ويهجون بالباطل ، وقيل : إنهم يمدحون الشيء ثم يذمونه لا يطلبون الحق والصدق ؛ فالوادي مثل لفنون الكلام وطرقه ، والغوص في المعاني والقوافي ثم قال سبحانه :

﴿وانهم يقولون ما لا يفعلون﴾ أي يقولون فعلنا وفعلنا ، وهم كذبة في ذلك ألجأهم اليه الفن الذي سلكوه ، فقد يحثون بكلامهم على الكرم والخير ، ولا يفعلونه وقد ينسبون إلى أنفسهم من أفعال الشر ما لا يقدرون على فعله ، كما تجده في كثير من أشعارهم من الدعاوى الكاذبة ، والزور الخالص المتضمن لقذف المحصنات ، وانهم فعلوا بهن كذا وكذا وذلك كذب محض وافتراء بحت ثم استثنى سبحانه الشعراء المؤمنين الصالحين الذين أغلب أحوالهم تحرّي الحق والصدق ، وكانوا يجيبون شعراء الكفار ويهجون وينافحون عن النبي ﷺ واصحابه فقال :

﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي دخلوا في حزب المؤمنين ، وعملوا بأعمالهم الصالحات ﴿وذكروا الله كثيراً﴾ في اشعارهم ولم يشغلهم الشعر عن ذكر الله كابن رواحة ، وحسان بن ثابت ، وكعب بن مالك وكعب ابن زهير رضي الله تعالى عنهم . وعن عروة ، قال : لما نزلت والشعراء الى قوله ما لا يفعلون ، قال عبد الله بن رواحة يارسول الله قد علم الله أني منهم

فانزل الله إلا الذين آمنوا الى قوله ينقلبون وروي نحو هذا من طرق .

﴿وانتصروا من بعدما ظلموا﴾ كمن يهجو منهم من هجاه أو ينتصر لعالم او فاضل ، كما كان يقع من شعراء النبي ﷺ فإنهم كانوا يهجون من يهجوه ، ويحمون عنه ويذبون عن عرضه ، ويكافحون شعراء المشركين وينافحونهم .

ويدخل في هذا من انتصر بشعره لأهل السنة ، وكافح أهل البدعة وزيف ما يقول شعراؤهم من مدح بدعتهم ، وهجو السنة المطهرة كما يقع ذلك كثيراً من شعراء الرافضة ونحوهم ، فإن الانتصار للحق بالشعر وتزييف الباطل به من أعظم المجاهدة ، وفاعله من المجاهدين في سبيل الله المنتصرين لدين الله القائمين بما أمر الله بالقيام به .

وأعلم أن الشعر في نفسه ينقسم الى اقسام فقد يبلغ ما لا خير فيه منه الى قسم الحرام . وقد يبلغ ما فيه خير منه الى قسم الواجب ، وقد وردت أحاديث في ذمه وذم الاستكثار منه ، ووردت أحاديث أخر في إباحته وتجويزه ، والكلام في تحقيق ذلك يطول .

وأخرج أحمد والبخاري في تاريخه ، وأبو يعلى وابن مردويه عن كعب بن مالك انه قال للنبي ﷺ : إن الله قد أنزل في الشعراء ما أنزل فكيف ترى فيه ؟ فقال : إن المؤمن يجاهد نفسه بسيفه ولسانه ، والذي نفسي بيده لكأن ما ترموهم به نضح النبل .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد عن ابي سعيد قال : بينما نحن نسير مع رسول الله ﷺ اذ عرض شاعر ينشد فقال النبي ﷺ : لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحاً خير له من ان يمتلىء شعراً .

وأخرج الديلمي مرفوعاً عن ابن مسعود : الشعراء الذين يموتون في الاسلام يأمرهم الله أن يقولوا شعراً يتغنى به الحور العين لأزواجهن في الجنة ، والذين ماتوا في الشرك يدعون بالويل والثبور في النار .

وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : إن من الشعر لحكمة .

قال : وأتاه قريظة بن كعب وعبد الله بن رواحة وحسان بن ثابت ، فقالوا : إنا نقول الشعر وقد نزلت هذه الآية فقال رسول الله ﷺ : إقرأوا فقرأوا والشعراء الى قوله : ﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ فقال : أنتم هم وذكروا الله كثيراً ، فقال أنتم هم ، وانتصروا من بعدما ظلموا فقال : أنتم هم .

وأخرج ابن سعد ، وابن أبي شيبة عن البراء بن عازب قال : قال رسول الله ﷺ لحسان بن ثابت : أهج المشركين فإن جبريل معك .

وأخرج احمد وابن سعد عن ابي هريرة قال : مر عمر بحسان وهو ينشد في المسجد فلحظ اليه فنظر اليه فقال قد كنت أنشد فيه وفيه من هو خير منك فسكت ثم التفت حسان الى أبي هريرة فقال : أنشدك بالله هل سمعت رسول الله ﷺ يقول أجب عني اللهم أيده بروح القدس؟ قال : نعم .

وأخرج ابن أبي شيبة عن بريدة قال : قال رسول الله ﷺ : ان من الشعر حكماً .

وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن مسعود عن النبي ﷺ : لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحاً يريه خير من أن يمتلىء شعراً .

وأخرج مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحاً يريه خير من أن يمتلىء شعراً .

وفي الحديث الصحيح عن ابي سعيد الخدري مرفوعاً : لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحاً خير له من أن يمتلىء شعراً .

قال في الصحاح ورى القيح جوفه يريه ورياً اذا اكله .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « حسن الشعر كحسن الكلام وقبيح الشعر كقبيح الكلام » . قال القرطبي : رواه اسماعيل عن

عبد الله بن عوف الشامي ؛ وحديثه عن أهل الشام صحيح فيما قال يحيى بن معين وغيره .

وأخرج مسلم من حديث عمرو بن الشريد عن أبيه قال : ردفت رسول الله ﷺ فقال : هل معك من شعر أمية بن أبي الصلت ؟ قلت نعم ، قال : هيه ، فأنشدته بيتاً فقال : هيه . ثم انشدته بيتاً ، فقال :هيه ، حتى انشدته مائة بيت .

وقال الشعبي : كان أبو بكر يقول الشعر ، وكان عمر يقول الشعر ، وكان عثمان يقول الشعر ، وكان عليّ أشعر من الثلاثة . وعن ابن عباس انه كان ينشد الشعر ويستنشده في المسجد فروى انه دعا عمر بن أبي ربيعة المخزومي فاستنشده قصيدة فأنشده إياها ؛ وهي قريب من تسعين بيتاً ، ثم إن ابن عباس أعاد القصيدة جميعها وكان حفظها من مرة واحدة .

وروى البخاري عن أُبي بن كعب أن رسول الله ﷺ قال : إن من الشعر حكمة وقالت عائشة : الشعر كلام فمنه حسن ومنه قبيح ، فخذ الحسن ودع القبيح ولآزاد البلجرامي رحمه الله في بيان حكم الشعر كلام لطيف في كتابه تسلية الفؤاد ، إن شئت فارجع اليه ، ثم ختم سبحانه هذه السورة بآية جامعة للوعيد كله فقال :

﴿وسيعلم﴾ وفيه تهديد شديد ؛ وتهويل عظيم ؛ وكذا في اطلاق ﴿الذين ظلموا﴾ وابهام ﴿أي منقلب ينقلبون ؟﴾ بعد الموت ، وخص بعضهم هذه الآية بالشعراء ؛ ولا وجه لذلك ، فان الاعتبار بعموم اللفظ ، وقد تلاها أبو بكر لعمر حين عهد اليه ، وكان السلف يتواعظون بها . قال ابن عطاء سيعلم المعرض عنا ما الذي فاته منا . والمعنى ينقلبون منقلباً أي منقلب ، والمراد جهنم . وقدم (اي) لتضمنه معنى الاستفهام .

قال أبو البقاء : ولا يعمل فيه (سيعلم) لأن الاستفهام لا يعمل فيه ما قبله ،بل هو معلق عن العمل فيه وهذا الذي قاله مردود بأن أيا الواقعة صفة لا

تكون استفهامية ، وكذلك الاستفهامية لا تكون صفة ، بل هما قسمان كل منهما قسم برأسه و (أي) تنقسم الى أقسام كثيرة . قال النحاس وحقيقة القول في ذلك الاستفهام معنى ، وما قبله معنى آخر ، فلو عمل فيه ما قبلها لدخل بعض المعاني في بعض ، والله أعلم .

وقال القرطبي : معناه أي مصير يصيرون ؟ وأي مرجع يرجعون ؟ لأن مصيرهم الى النار وهو أقبح مصير ، ومرجعهم الى العذاب ، وهو شر مرجع . والفرق بين المنقلب والمرجع أن المنقلب الانتقال الى ضد ما هو فيه ؛ والمرجع العود من حال هو فيها الى حال كان عليها ، فصار كل مرجع منقلباً ، وليس كل منقلب مرجعاً ذكره الماوردي .

والمعنى عند الحسن وابن عباس أنّ الظالمين يطمعون في الانقلاب من عذاب الله ؛ والانفكاك منه ، ولا يقدرون على ذلك . وعن فضالة بن عبيد في الآية قال هؤلاء الذين يخربون البيت . والْحَمدُ لله رَب العَالَمِينَ





تم بعون الله الجزء التاسع من فتح البيان في مقاصد القرآن ويليه الجزء العاشر وأوله تفسير سورة النمل.



فهرس الجزء التاسع